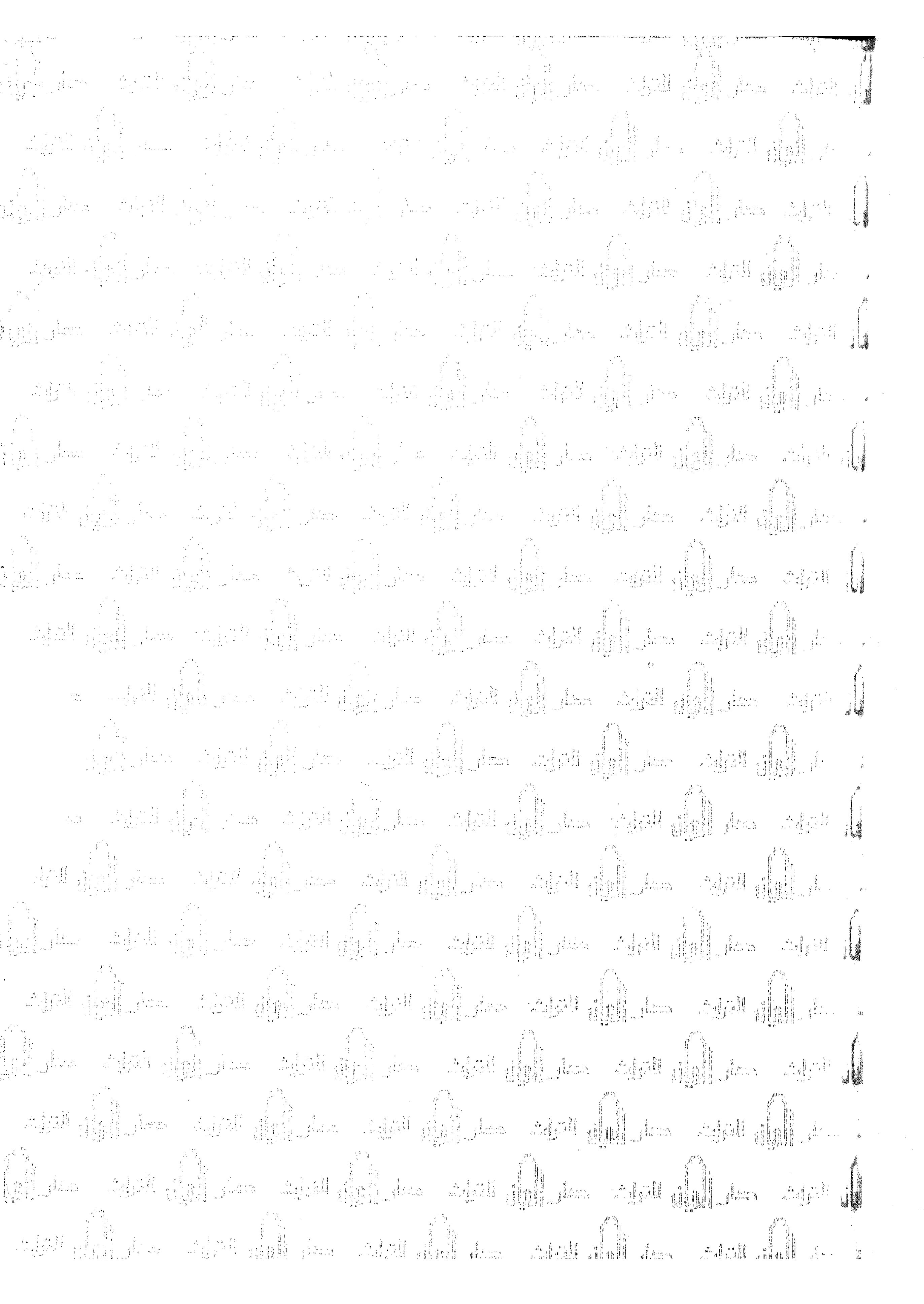


تراجم سيدات بيت النبوة رضي الله عنهن

الدكتورة عائشة عبد الرحمن
بنت الشاطئ

دار الريان للتراث



سيِّدات بيت النُّبُوَّة
رَضِيَ آللّه عنهن

سَـــيّدات بيت النُّبـــوَّة

رَضِيَ آللهُ عَنْــهن

الدكتورة عائشة عبد الرحمٰن

بنت الشــاطئ

أستاذ التفسير والدِّراسَات العليَا

كلية الشــريعة بجَامعــة القَرويّــين ــ المغرب

طبعة جديدة محــررة

مع إضافات علمية للتوثيق والتمحيص



الطبعـة الأولـى
١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م

يطلب من

دار الريان للتراث

الادارة : ٣٥٠ شارع الأهرام ـ الجيزة تليفون / ٨٥٤٦٨٧ ـ ٨٥٢٠١١

القاهـــــرة : ١٧٧ شارع الأهرام ـ تليفون ـ ٥٣٦٥٩٩
معرض ٨ بجراج الأوبرا
٤٣ أ شارع رمسيس
١ شارع البورصة من شارع قصر النيل تليفون / ٧٧٧٥٩١
١ شارع أحمد سعيد ـ بالعباسية .
ميدان أحمد عرابى ـ سفنكس ـ المهندسين .

مصر الجديدة : ٢٢ شارع الأندلس ـ خلف المريلاند ـ تليفون / ٢٥٨٢٠١٤

الاسكندريـــة : سيدى بشر ـ طريق الكورنيش ـ برج رامادا (الدور الأول)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ
أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾

صَدَقَ اللّٰه العَظِيم

بسم الله ، والحمدُ لله ، والصلاة والسلام على
المصطفى خاتم النبيين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .
اللـــــهمَّ يَسِّـــــرْ وأعِـــــنْ

هــذه الطبعــة ،

ليست من قبيل الإعادة لطبعات سابقة من تراجمى لسيدات بيت النبوة رضى الله عنهن ، بل تجديد لها وتمحيص وتنقيح وتهذيب إذ توالت طبعاتها فى بيروت ، فى سفر جامع لأجزائه الخمسة المتفرقة فى طبعات أولى لدار الهلال ثم دار المعارف بالقاهرة ، وقد عزَّ علىَّ ، والكتاب يطبع فى بيروت ، أن تَوقَّفَ عن النمو والتمحيص . و لم يُتح لى أن أراجع تجاربه المطبعية ، رغم إلحاحى على ضرورة هذه المراجعة ، لأستدرك فواتا وأضيف إلى مادته جديدا مما وقفت عليه فيما أتابع من دراسات إسلامية .

فكان أن عكفت على إعداد هذه الطبعة الجديدة ، بما استدركت على سابقاتها من أخطاء وأوهام وفوات ، وما وثَّقتُ من مرويات وأخبار جاءت مرسَلة ، وما أضفتُ إلى مصادرى من أصولٍ لم تكن مُيَسَّرة لى من قبل .

* * *

والسيدات المترجم لهن فى هذه الطبعة ، هن اللواتى سبق أن ترجمت لهن فى خمسة أجزاء مستقلة :

الأول : كتاب « أم النبى » عليه الصلاة والسلام . وهو كتاب غير مسبوق بآخر فى موضوعه ، فى المكتبة العربية والإسلامية . وقد صحبتها فى : بيئتها وميراثها ، ونشأتها بمكة فى جوار البيت العتيق ، وزواجها من « عبد الله بن

عبد المطلب » زين الشباب الهاشمى ، وحملها ، وترملها ، ووفاتها ، وأمومتها الخالدة لسيد البشر الذى نراه فى هذه الدراسة لأمه : ابنًا بارًا ، يضع الجنة تحت أقدام الأمهات .

الثانى : كتاب « نساء النبى » ﷺ ، ترجمتُ فيه لأمهات المؤمنين رضى الله عنهن ، بما يجلو ملامح شخصياتهن ، وحياتهن فى البيت الكريم ، سكن المصطفى ﷺ ، وملاذه ومأواه .

بقدر ما اجتليت فيه شخصيته عليه الصلاة والسلام ، زوجًا قدوة وبشرا رسولا .

الكتاب الثالث : « بنات النبى » ﷺ : فى بيتهن الأول ، ثم فى الحياة الزوجية لكل منهن ، ومن خلال هذا العرض الدقيق لسيرتهن وشخصياتهن ، تجلت شخصية المصطفى عليه الصلاة والسلام ، مثلا أعلى فى أبوته لبنات أربع ، وُلِدْنَ جميعا قبل المبعث ، فى بيئة فُتِنتْ بالبنين .

وبهذه الكتب الثلاثة ، كان لى حظ التدبر والدرس لهذا الجانب من سيرته ﷺ : ابنًا بارا وزوجا قدوة وأبًا رسولا .

ثم تابعتُ ميراثه الطيب فى :

الكتاب الرابع : « السيدة زينب عقيلة بنى هاشم » بنت الإمام على كرم الله وجهه ، من أمِّ أبيها الزهراء رضى الله عنها . فصحبتُها فى حياتها الحافلة ، من مهدها فى البيت النبوى ، وزواجها من « عبد الله بن جعفر الطيار » رضى الله عنهما ، ومع أبيها الإمام على كرم الله وجهه ، فى مشاهده وبلائه بالفتنة الكبرى . ثم مع أخيها الإمام الحسين رضى الله عنه ، فى رحلة الموت إلى كربلاء ، ومشهدها مصرعه ومصارع آلها ، آل النبى ﷺ ، على الساحة المشئومة ، ثم فى موكب الأسرى والسبايا من بنات النبى ، وموقفها المشهود الذى أرَّق ضمير أمته إلى اليوم .

والكتاب الخامس : « السيدة سكينة بنت الإمام الحسين » ، رضى الله عنهما صحبتها فيه ، من طفولتها فى بيت أبيها الإمام ، وفى دوامة الأحداث الشرسة التى

بلغت ذروتها الفاجعة يوم الطف . ثم فى حياتها الزوجية والاجتماعية ، أديبة ناقدة . وهى الحياة التى راجت فيها مقولات خاطئة ضالة ، لم تصح فى منطق ولا فى تاريخ .

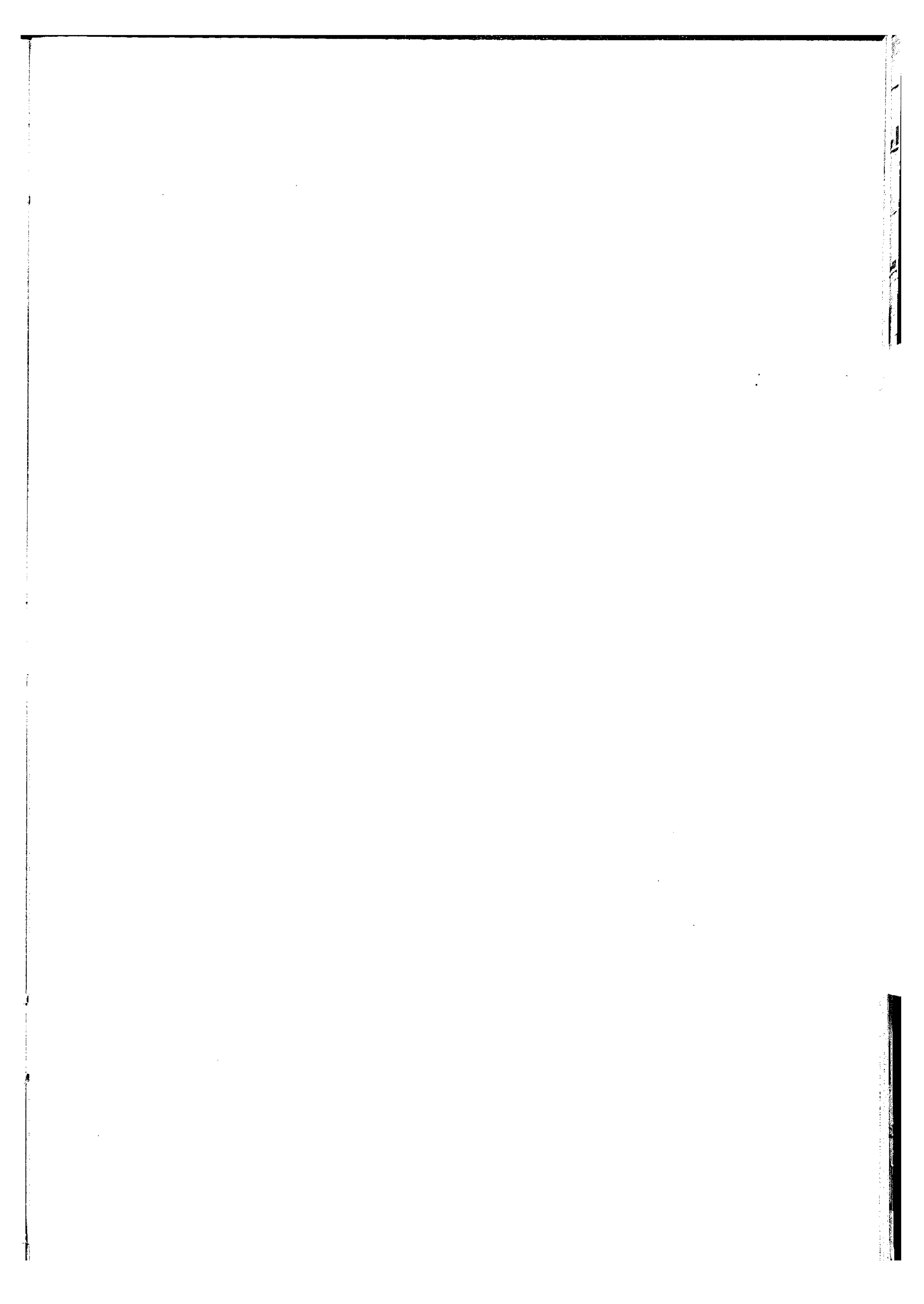
* * *

عسى أن تكون هذه الطبعة الجديدة لتراجم سيدات بيت النبوة ، رضى الله عنهن ، أقرب إلى ما أرجو من تمحيص وإتقان .

والله سبحانه من وراء القصد ﴿ **وهو يَهدى السبيل** ﴾ .

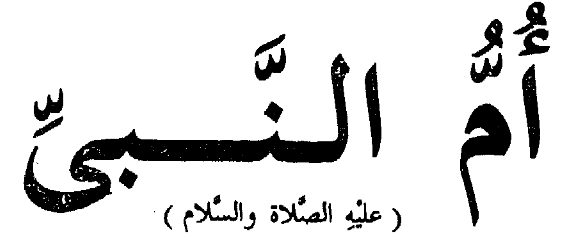
صدق الله العظيم

مصر الجديدة ١٤٠٧ هـ
١٩٨٧ م



فى هذا المجلّد الجامع

الكتـــابُ الأول

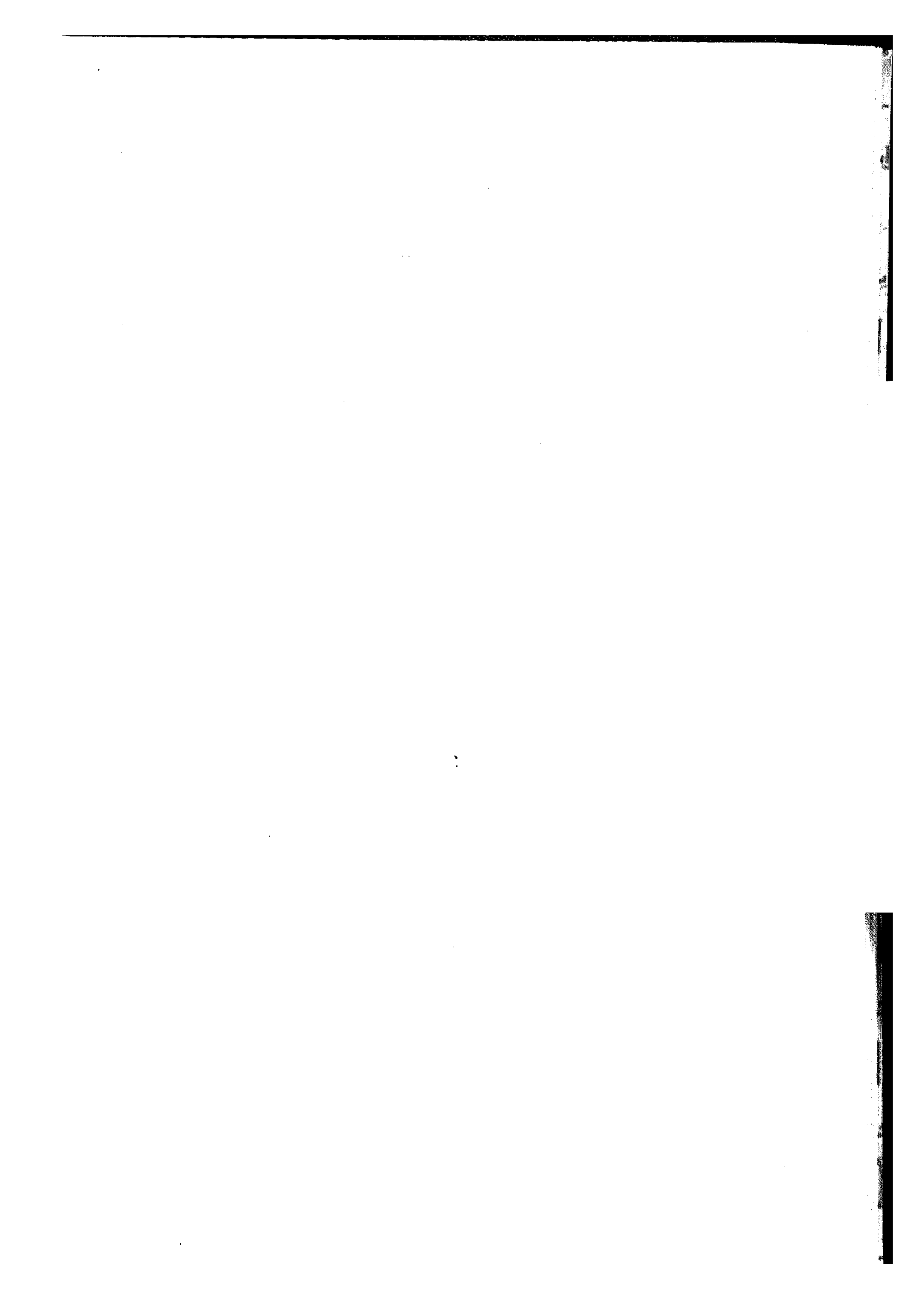


(عليْهِ الصَّلاة والسَّلام)

« إنما أنا ابن امرأة من قُرَيْشٍ تأكل القديد »

محمد ، رسول الله

صلى الله عليه وسلم



منـــــاجاة

أماه « آمنة » . . .

ما تلوتُ من وحى السماء إلى وحيدك الحبيب ، آية بشريَّته :

﴿ إنما أنا بشرٌ مثلكم . . . ﴾ ،

﴿ قُلْ سبحان ربى ، هل كنتُ إلا بشرًا رسولا ﴾ ،

إلا ذكرتُ أن نبينا ، المصطفى ، ﷺ ، هو الإنسان الذى حملتِه جنينًا فى رَحِمِك ، ووضعتِهِ كما تضع كل أنثى من البشر . . .

ولا تدبرت معنى قوله تعالى لابنك الخالد :

﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً ﴾ ،

إلا تنبهت إلى أن هؤلاء القادة الرسل أمهاتٍ ، وأن المرأة التى أنجبت البطل فى كل صورة ، وفى كل حين ، هى التى وضعت الرسل عليهم السلام ، من « نوح » إلى « عيسى بن مريم » و « محمد » المصطفى الهاشمى ، خاتم النبيين عليهم السلام .

وهذا صوت وحيدك يملأ سمع الزمان على مر الآباد :

« إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد » فيحقر كبرياء الأباطرة والملوك ، ويسمو بأمومتك إلى أفق لا يتطاول إليه ترف الغنى ولا شموخ الجاه ، إذ يجعل منك أيتها الأنثى الوديعة المتواضعة ، والأم الطيبة الرءوم ، مبعث أنسه ، وروح إنسانيته ، وآية محبته ، وموضع إجلاله واعتزازه .

* * *

أماه « آمنة » . . .

هو أبدًا عِزُّ الأمومة الذى خلَّد واهباتِ الحياة على الدهر ، وصانعات التاريخ

منذ الأزل وإلى الأبد ، وقد أكد وحيدُك العزيز الأمومة فيك ، حين قال :

« الجنَّة تحت أقدام الأمهات » .

وهو أبدًا فخر الأنوثة التى حَمَت سرَّ الوجود فى هذا الكون ، وحفظت حياة الإنسانية فى هذه الدنيا ، وحملت أجنَّة البشرية وهنًا على وهن ، فأى شعور غامر كان يملأ قلب ولدك ، حين قال لمن سأله عن أحق الناس بإكرامه : « أمك . . . ثم أمك . . . ثم أمك ، ثم . . . أبوك » ؟ ! وحين جاءه أحد أصحابه يبتغى أن يخرج مجاهدًا معه ابتغاء وجه الله واليوم الآخر ، فلما عرف ولدك ﷺ أن أمه حية ، قال له : ويحك ! الزم رِجْلَها فَثَمَّ الجنة ! . .

* * *

أماه « آمنة » . . .

عن مجد الأمومة فيك وعزة الأنوثة ، أتحدث اليوم عن سيدة الأمهات التى مَنَّ الله عليها بوليد وحيد ، حملت الملايين رايته فى أرجاء الأرض على مرِّ الزمن . . . .

يتيم ، اعتز به الآباء الصيد والأصولُ الأمجاد . . .

فقير ، حَييتْ باسمه الدُّنَى وفاضت الخيرات .

وماذا كنت تبلغين من ذلك يا أماه ، لو أنكِ كنت ملكة متوجة ، أو فارسة بطلة ، أو عالمة حجة ، أو زعيمة قائدة ، ولم تلدى « محمداً : رسول الله » ﷺ ؟

وأى عمل لك يا أماه أجل وأمجد ، من أنكِ كنت المنجبة لهذا القائد المصطفى ؟ وهأنذى أقف خاشعة أمام سيرتك ، وقد حفَّت بها من أمومتك أضواء باهرة السنا ، فيكاد جلالك يثنينى عن إطالة النظر إليك ، والحديث عنك ، لولا أن أعود فأذكر أنك أم « محمد » الذى أَعَزَّ البشرية بآيته العظمى : ﴿ **قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرًا رسولا** ﴾ ؟

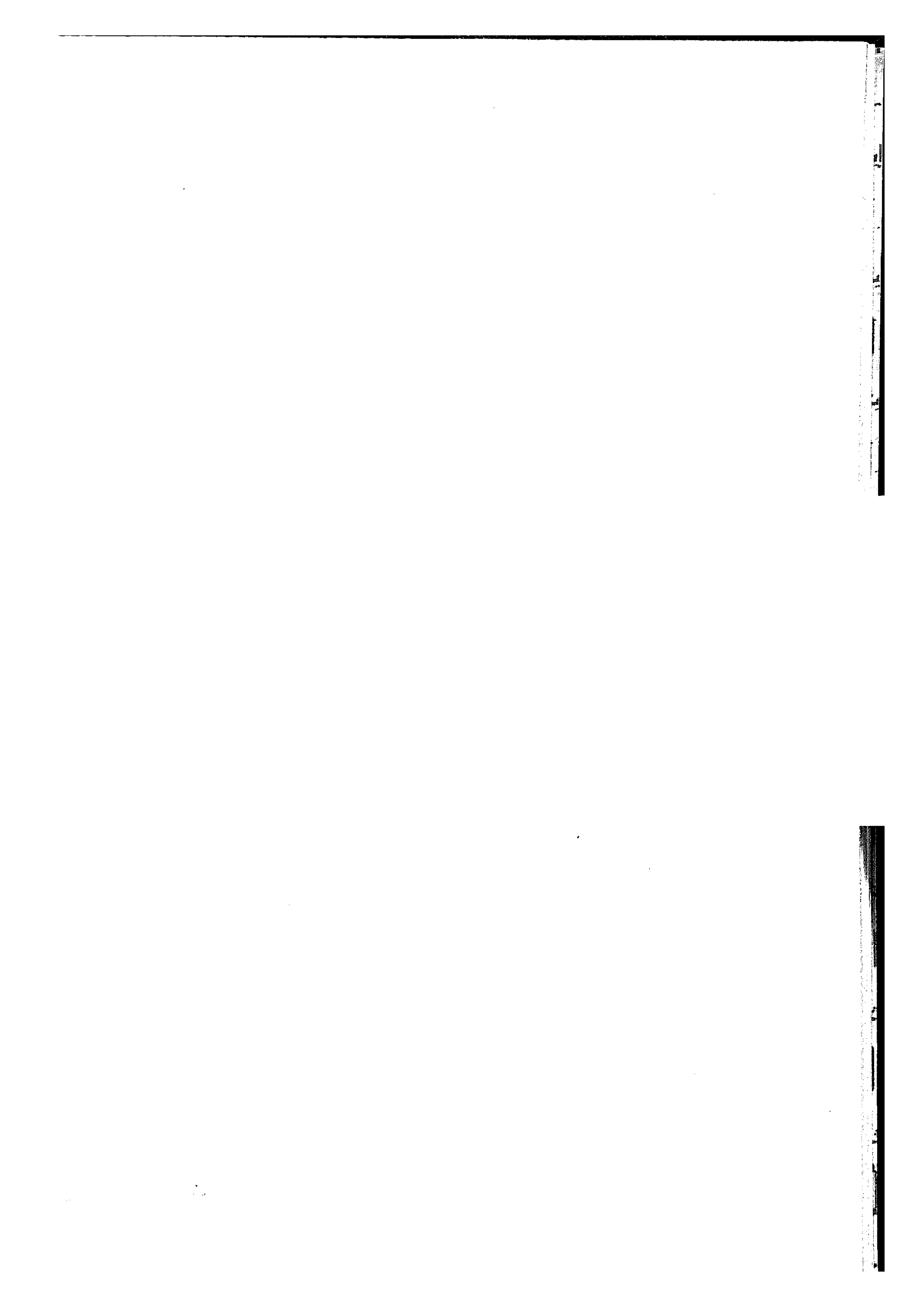
المبحث الأول

سَــيّدة الأمّــهات

ـ هَذهِ السّيرة ومصَادِرُها .

ـ أنوثَــة وأمومَــة .

ـ أمــهَات الأنــبيَــاء .
عَلَيهم الســلام



هذه السّيرة ومصادرها

بدأت هذه المحاولة فى درس سيرة السيدة « آمنة » وأنا أعى أتم الوعى ، نقصَ المصادر والمرويات عن تلك الأم المنجبة ، لكنى قدَّرتُ أنى إنما أُحدث عن والدة الرسول العظيم ، وأم المصطفى الذى هو فى حساب الحياة صفوة جنسه وخلاصة نوعه ، ومن ثَم مضيت ألتمس ملامحها ، فى صورة ابنها العظيم الذى حملته رَحِمُها ، وغذاه دمها ، واتصلت حياته بحياتها ، فلقد كان « محمد » هو الأثر الجليل الذى خلفته « آمنة » ، فليس بعجيب أن أراها فى ضوء هذا الأثر ، وأن يكون فهمى لها يجلوه تدبرى سيرةَ ولدها العظيم .

فهذا الحديث عن « آمنة بنت وهب » يتخذ من شخصية ابنها مصدرًا هامًا نستعين به على فهم شخصيتها ، وذلك بما تركتْ فيه من أثر واضح ، وما نقلت إليه من دماء قومها الكرام الذين تنقل فى أصلابهم جيلاً بعد جيل ، وما حملته إليه من خصائص الأُرومات الأولى التى اعتز بالانتساب إليها فى مثل قوله عليه الصلاة والسلام ، إن الله اختاره من كنانة ، واختار كنانة من قريش ، واختار قريشًا من العرب ، فهو خيار من خيار من خيار .

أو قوله :

« أنا ابن العواتك من سُلَيم »[1]

* * *

ثم كان إلى جانب هذا المصدر ، ما وعى التاريخ من أخبار آباء « آمنة » وأجدادها نساء ورجالاً ، وما حفظ لنا من طابع البيئة التى نشأت فيها ،

---

(١) المحبَّر لابن حبيب : العواتك اللواتى ولدن رسول الله صلى الله عليه وسلم / ص ٤٧ .

وما عرفت الحياة من صورة الأنوثة والأمومة عند قومها ، وما اطمأن إليه العلم من ترابط الأسباب وتناسق الأصول ومجرى الوراثة ، وفى هذا كله ما يجلو شخصية « آمنة » كما عرفتها دنياها ، وصنعتها بيئتها ووراثتها وظروفها . . .

ذلك أن « آمنة » عطاء بيئة ووراثة ، قد جرت فى عروقها دماء الأصول الأولى ، ونمتْها العوامل التى تركت طابعها الخاص فى كل ما أحاط بها من ظروف الزمان والمكان .

من ثمَّ ، يستطيع الدارس المحقق أن يلتمس جذورها الأصيلة الممتدة فى أعماق منبتها وأعراق آلها ، وأن يستبين ملامحها وسجاياها فى الهواء الذى تنفسته والجو الذى عاشت فيه ، فإذا لديه تفسير مقبول لأكثر ما حسبه بعض الناس خوارق مباغتة تلوّن شخصيتها بما يجعل ولدها كائنًا عجيبًا لم ينْمِه عرق ، ولا غذّته وراثة ، ولا نهضت به بيئة . . .

* * *

على أنى حين مضيت فى تتبع الأصول البعيدة لآمنة ، ولمح المعالم الواضحة لدنياها ، ألفيتُ إلى جانب ما يطمئن إليه العلم من مجرى الوراثة وفعل البيئة ، حشدًا من آثار أخرى ليست من ذاك الصنف الأول ولا هى من واديه . . . آثار يحرص كثير من الدارسين على تجاهلها ، إذ يرون فيها طابع الخيال وظلّ الوضع . وفاتهم أن ينتبهوا إلى دلالتها الاجتماعية التى لا تكذب ، والتى تمد الدارس بأضواء تكشف عما وراء التاريخ المادى من عالم نفسى ، وتُكمل ما تتركه الأخبار من ثغرات فى فهم طبيعة المجتمع .

تلك الآثار ، هى ما خلفه لنا قوم رأوا فى السيدة « آمنة » صورة الكمال المطلق لأم نبىٍّ ، فتحدثوا عنها بوحى من قلوبهم الصافية ، ودافع من وجدانهم المؤمن ، ما كذبوا فى ذلك ، ولا خدعوا ولا زيفوا ...

ولغيرهم من أهل التحقيق أن يقولوا ما يأذن به الدرس المنهجى الصارم ، وراء دنيا الوجدان ، وبعيدًا عن عالم القلوب ، ودون أفق الحب والإيمان .

ولا بأس على هؤلاء ولا أولئك ، مما يقال هنا بإملاء المادة والواقع ، أو يقال هناك بلسان العاطفة والإيمان . . .

وكذلك يلتقى العلم والفن ، لا يَعْدُوَانِ على حقيقة ولا يجوران على صواب ولا يُتَّهمان بكذب ، فإذا قال الدارس عن « آمنة » ما قال ، مستنبئًا الوراثة ، مستلهمًا البيئة ، متتبعًا المؤثرات والآثار فى الأصول والفروع ، فهو مُحِقٌّ صادق غير مُتهَم . . .

وإذا قال فيها المحب الوامق والمؤمن الواثق ما قال ، بلسان الوجدان ، مفسرًا بذلك ما يشعر به من عظمتها ، معبرًا عن صورتها عنده ، وحقيقتها فى وزنه ، وموضعها فى قلبه ، فهو صادق محق كذلك ، لا يسىء إلى الواقع التاريخى فى شىء ، لأنه ليس من أهل هذا الواقع ، بل هو يُحَدِّث عن عالم قلبه ويعبر عن دنيا وجدانه ، ويترجم عن تفسيره لما بهره من عظمة ، وما عشق من بطولة ، وما أحس من الانفعال بجمالٍ تراه بصيرته ، وجلال يهز مشاعره ، وتلك دنياه لا يشركه فيها غيرُهُ ممن ليسوا من معدنه ، ولا هم بمُيَسَّرين للعروج إلى آفاق عالمه الوجدانى المشرق ، مهما تتسع وتمتد ، أو تبعد وتترامَ . . . .

* * *

وأحسبنى بهذا القول ، قد مهدت لما أريد أن أقرره هنا ، من عنايتى البالغة بكل ما قيل عن السيدة « آمنة » : لم أقتصر فى ذلك على الخبر التاريخى الثابت ، بل لم يكن اهتمامى به أكثر من اهتمامى بمرويات أخرى قد يغض منها الدارس المحدَث أو المؤرخ العصرى ، وينسيه عالمه الواقعى ما وراءه من عوالم أخرى لأناس آخرين ، قد تمثلوا شخصية « أم المصطفى الحبيب » كما شاءت قلوبهم المحبة ، وكما صورتها لهم رؤاهم الملهَمَة فى تأملاتهم الروحية . فقدموا لنا بذلك كله ، صورة « آمنة » فى نفوسهم ، وأعطونا تفسيرا وجدانيا صادقا للحياة كما فهموها ، وعانوها . . .

وما أحسب المؤرخ الذى وهب حياته كلها للدرس المحقق ، يستطيع أن يجرد شخصية « آمنة » من كل هذا ، أو يزعم لنفسه أو للناس أنه قادر على أن يفهمها حق الفهم ، من غير أن يعرف كيف نظر أهل عصرها إليها ، وكيف تَمثَّلها أبناء جيلها ، ثم كيف تنقلت صورتها عبر القرون والعصور والأجيال . . .

فأنباء « آمنة » فى زوجيتها ، وحملها ، ووضعها ، وأمومتها — تلك الأنباء التى يحسبها بعض المحدَثين من أفانين الخيال — تصور للمؤرخ حياة هذه الأم فى نفوس جيلها ومخيلة الذين جاءوا بعدها ، وبهذا التصوير ، يجد تفسيرهم لعناصر حياتها ، وتحليلهم النفسى لشخصيتها . . . وأنَّى لمؤرخ أن يستغنى عن ذلك فيما ينشد من تاريخ محقق ؟

* * *

وأرانى الآن قادرة على أن أبسط منهجى فى فهم سيرة « آمنة بنت وهب » بعد أن هيأتُ القارىء لفهم هذا المنهج : لقد بدأت أول ما بدأت بدرس بيئتها وبيتها ، وتتبع الأصول البعيدة والملامح العامة للحياة العربية ، وحياة المرأة حينذاك ، لأجد من ذلك ما يطمئن إليه الحق التاريخى فى حياة « آمنة بنت وهب » .

وثانى الأمرين مما عمدت إليه فى هذه السيرة ، هو ما يحلو لكثير من الدارسين — المتفرنجة — أن يسموه أساطير وأقاصيص ، ذلك أنى وجدت فى تلك المرويات ، صورة أحداث التاريخ فى نفوس الذين عاشوا فى بيئة أم النبى ﷺ ، أو اتصلوا بها وتمثلوها . وكان هذا الفهم النفسى للأحداث معينًا لى على تبين شخصية « آمنة » وتقديرها تقديرًا يكشف عن ملامحها ويفسر آثارها . . . كما كان الذى رووه من أحلام « آمنة » ورؤاها ، أو تصوروه من أمانيها وآمالها ، صورًا نفسية بشرية ، تمثلها المتمثلون لأمومتها وحيويتها . وهى

مادة للتاريخ الحق ، وإن أخذت أحيانا طابع الخيال المجنح ، والسرد القصصى الذى لا أراه يجور على الحقيقة بحال .

بل هى فى نظر العلم ، محكومة بالمنهج الإشراقى الذى لا يستغنى عنه التفسير التاريخى ، إلا أن نجرد الحياة الإنسانية من وجدانها ، ونمسخها مادة جامدة ، عمياء البصيرة ، صماء القلب ، معطلة العواطف والضمير . . .

* * *

أنوثة وأمومة

« أنا ابن العواتك من سُليم »
(حديث شريف)

لا نرى أن نمضى فى الحديث عن كُبرى صانعات التاريخ قبل أن نلم بمكانة الأم فى الجزيرة إلى عهد « آمنة » .

ذلك أنه قد شاع فينا أن المرأة فى الجاهلية قد كانت — فى خير حالاتها — متاعًا للرجل ، وأنها عانت من صنوف الاستعباد والاستبداد ما أنقذها منه الإسلام . وعلى الرغم مما نُقل إلينا من أخبار تدل على ما كان للمرأة العربية فى الجاهلية من مكانة مرموقة ومآثر لم تضع مع السنين والقرون ، إلا أن تلك الأخبار لم تذع فينا كما ذاعت الأخبار الأخرى التى تتحدث عن وأد البنات وانتقال الزوجات بالميراث من الآباء إلى الأبناء ، وما إلى ذلك من مظاهر الضعة والهوان .

* * *

ولا نقول إننا سنحاول هنا أن ننصف المرأة العربية فى تلك العصور القديمة ، فالحق أن المؤرخين الأئمة والرواة القدامى لم يضنوا عليها بتدوين ما تناقلته الأخبار من مآثرها . . . وكل عملنا هنا ، أن نختار من ذاك الذى دوّنوه ، بعض ما يصحّح فكرتنا الشائعة عن الأنوثة والأمومة العربية قبل الإسلام ، وأن نضع إلى جانب المرويات المشهورة عما لحق بها من ظلم

وعسف وهوان ، بعض ما تحدثوا به عن منزلتها الرفيعة ، وعزتها التى صينت بالدماء وافتُدِيت بالمهج والأرواح . . .

ويعنينا هنا بوجه خاص ، ما اختص بالأمومة أو كان منها بسبب ، لنلتمس منه ضوءًا يكشف عما لـ « آمنة » من فضل فى إنجاب خاتم الرسل النبيين عليهم السلام ، وما كان لها من أثر فى تكوين ولدها الخالد الذى قال معتزًا بأمهاته فى الجاهلية : « أنا ابن العواتك من سليم »[1]

* * *

يَلفت الذى يتصل عن قرب بما كتب الأقدمون عن الجزيرة ، حرصُ العرب فى جاهليتهم البعيدة على كرم النسب وطهارة الأرحام ونقاء الأصول . قال حكيمهم « أكثم بن صيفى » :

« لا يفتننكم جمالُ النساء عن صراحة النسب ، فإن المناكح الكريمة مَدرَجة الشرف » .

وقال شاعرهم[2] :

وأولُ خُبثِ الماء خَبثُ ترابه   وأولُ خبثِ القوم خبثُ المناكح

ونقل « أبو عمرو بن العلاء » ـــ الراوية الصدوق الحجة ، وأحد السبعة القراء الأئمة ـــ عن أحدهم ، قال :

« لا أتزوج امرأة حتى أنظر إلى ولدى منها » . قيل له : « كيف ذاك ؟ » قال : « أنظر إلى أبيها وأمها فإنها تجرُّ بأحدهما » .

وقال قائلهم لبنيه :

« قد أحسنت إليكم صغارًا وكبارًا وقبل أن تولدوا » . قالوا : « وكيف أحسنت إلينا قبل أن نولد ؟ » . فقال : « اخترت لكم من الأمهات من لا تُسَبُّون بها »[3]

---

(١) ابن حبيب : (المحبر) ٤٧ .

(٢ ـــ ٣) ابن قتيبة : عيون الأخبار : ٤ / ٣ .

ومثله ما أنشده الرياشى لبنيه :

وأول إحسانى إليكم تخيُّرى لماجدةِ الأعراقِ بادٍ عفافُها

ولعل هذا الحرص منهم على كرم النسب ، مما يفسر لنا كراهتهم للسباء :

فربما تزوج الرجل بسبيته وأنزلها من نفسه وقومه أكرم منزلة ، فلم ينف ذلك عنها مهانة الأسر ومعرَّته . من ذلك ما رووه من أن رجلاً من العرب استبى امرأة فولدت له سبعة بنين ، ثم قالت له يومًا : « أزِرْنى أهلى ليذهب عنى ذل السباء » .

ففعل . . . فأبت أن تغادرهم مع فرط تعلقها بزوجها وثنائها عليه .

مثل ما فعلت « سَلمى الغِفارية » زوج « عروة بن الورد العبسى » من شعراء الجاهلية الصعاليك الفرسان . أصاب « سلمى » فى إحدى وقائعه ، وكانت ذات جمال ، فأعتقها « عروة » وتزوجها وأقامت عنده بضع عشرة سنة ، ولدت له فيها أولادًا ، وحلّت من نفسه وقلبه أعز مكان ، إذ كان شديد الحب لها والحرص على إكرامها ، لكن ذلك لم يُنسها مذلة السباء ، فقالت له يومًا :

« ألا ترى ولدك يُعيَّرون بأمهم ويُسمون بنى الأخيذة ؟ » قال : « فماذا ترين ؟ » قالت : « أرى أن تردنى إلى قومى حتى يكونوا هم الذين يسلموننى إليك ؟ » .

فاستجاب لها ، وهو لا يشك فى أنها سعيدة راضية ، صادقة الرغبة فى العيش معه .

وخرج بها فحجَّ ــ وكان قد أسلم ، لكنْ دون صحبة ــ ثم عرّج على أهلها زائرًا ، فتحايلوا عليه بالخمر حتى رضى أن يخيروها بين الإقامة فيهم والعودة معه ، فاختارت « سلمى » أهلها وهى تقول :

« يا عروة ، أما إنى لأقول فيك ــ وإن فارقتُك ــ الحقَّ : والله ما أعلم امرأة من العرب ألقت سِتْرَها على بعلٍ خيرٍ منك وأغضَّ طرفًا وأقلَّ فحشًا

وأجودَ يدًا وأحمى لحقيقة . لكن ، ما مرّ عليَّ يوم منذ كنت عندك إلا والموت فيه أحب إلىّ من الحياة بين قومك ، لأنى لم أشأ أن أسمع امرأة من قومك تقول : قالت أَمةُ عروة كذا وكذا . والله لا أنظر إلى غطفانية أبدًا ، فارجع راشدًا إلى ولدك وأحسن إليهم » .

فانصرف عنها حزينًا حسيرًا ، وهو يقول قصيدته التى مطلعها البيت المشهور :

سقونى الخمر ثم تكنفونى   عداةُ الله من كذب وزور[1]

* * *

ولا أكاد أعرف — فيما قرأت — أُمة قديمة بلغت كرامة الأمومة عندها ما بلغته عند العرب ، وقد روى « المبرِّد » فى « الكامل »[2] أبياتًا للسليك ابن السلكة ، تعبر عما كان يرهقه ويضنيه من وجود إماء قد أذلهن الرق وأزرى بهن التبذل ، مع قصور يده عن افتدائهن جميعًا ، كرامة لأمِّه — وكانت جارية حبشية — فذلك قوله :

أشاب الرأسَ أنى كلَّ يوم   أرى لىَ خالة بين الرحال

يشق علىَّ أن يلقين ضيما   ويعجز عن تخلصهن مالى

* * *

ولأبناء العقائل الكريمات حديث — أشبه بالقصص — عن حرصهم على عزة الأمومة وصيانتها بالمهج والأرواح ، ولعله يكفينا هنا أن ننقل مثلاً ، ما رواه صاحب (الأغانى) من أن « عمرو بن هند : ملك الحيرة » قال يومًا لجلسائه :

---

(١) الأغانى ج ٣ ، ص ٣٨ ، طبعة دار الكتب : مع ابن اسحاق فى السيرة الهشامية : ٣ / ٢٠١ والقصة مبسوطة فى (الروض الأنف) وفيه : « كان يقال : من قال إن حاتمًا أسمح العرب ، فقد ظلم عروة بن الورد » .

(٢) بغية الآمل من كتاب الكامل : ١ / ٢٥١ .

« هل تعلمون أحدًا من العرب تأنف أُمُّهُ من خدمة أُمِّى ؟ » .

فقالوا : « نعم . . . أم عمرو بن كلثوم » قال : « ولم ؟ » . قالوا : « لأن أباها مهلهل بن ربيعة ، وعمها كليب وائل أعز العرب ، وبعلها كلثوم بن مالك أفرس العرب ، وابنها عمرو بن كلثوم ، سيد قومه وليث كتيبتهم » .

فأرسل « عمرو بن هند » إلى « عمرو بن كلثوم » يستزيره ، ويسأله أن تزور أُمُّه أُمَّه ، فأقبل « ابن كلثوم » من الجزيرة فى جماعة من بنى تغلب ، وأقبلت « ليلى » فى ظعن منهم .

وأمر « عمرو بن هند » برواقه فضرب فيما بين الحيرة والفرات ، وأرسل إلى وجوه أهل مملكته فحضروا ، ودخل « ابن كلثوم » رواق الملك ، وأُدخلت « ليلى » إلى « هند » فى قبة إلى جانب الرواق ، وكان بين الاثنتين صلة نسب .

قالوا : وقد كان عمرو بن هند أوصى أُمَّه أن تُنحى الخدَم إذا دعا بالطُرف ، وتستخدم « ليلى » ، فلما فعل قالت « هند » لزائرتها بعد أن اطمأن بها المجلس :

ـــ ناولينى يا ليلى ذلك الطبق .

فقالت « ليلى » فى نفور وأنفة : لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها . . .

فأعادت « هند » عليها وألحت ، وإذ ذاك صاحت ليلى :

ـــ وا ذلاه . . . يا لَتغلب !

فسمعها ابنها ، فثار الدم فى عروقه ، وانتفض قائلاً : « لا ذلَّ لتغلب بعد اليوم ! » .

ثم نظر حوله فإذا سيف معلق بالرواق ليس هناك سيف غيره ، فوثب إليه وأطاح به رأس « ابن هند » .

والروايات تقول إنه أنشد يومئذ معلقته المشهورة مرتجلاً ، وفيها :

أبا هندٍ فلا تعجلْ علينا ... وأنظِرْنا ، نخبِّرْكَ اليقينا

بأنا نورد الرايات بيضا ونُصدِرُهن حُمرًا قد رَوِينا

ألا لا يجهلَنْ أحدٌ علينا فنجهلَ فوق جهل الجاهلينا

بأى مشيئة عَمرو بن هند تطيع بنا الوشاة وتزدرينا ؟

تهددنا ، وأوعدنا ، رويدا! متى كنا لأمِّك مقتوينا ؟

على آثارنا بيض حسان نحاذر أن تقسَّم أو تهونا

إذا لم نحمهن فلا بقينا لشىء بعدهن ولا حيينا

وظلت « تغلب » تعظم قصيدة « عمرو » ويرويها صغارهم وكبارهم على تتابع الأجيال .

إلى مثل ذلك ، بلغت غيرتهم على الأمومة . وما تمنع أن تكون حادثة « ليلى أم عمرو » من أقاصيص السمار وإضافات الرواة ، لكنها لا تفقد — فى أى وضع رضيناه لها — دلالتها الاجتماعية على ما كان من عزة الأمومة فى الجاهلية .

* * *

وقد شهد الرواة — إلى جانب هذا — للأم العربية بالطموح ، ولم يجحدوا ما كان لها من نصيب فى عظمة بنيها[1] .

ويروون فى ذلك ديوان أشعارهن فى ترقيص أطفالهن — ممن دخلوا التاريخ بعد أن شبُّوا وبلغوا أشدهم — معبراتٍ فى هذه الأشعار ، عن طموحهن البعيد ، إلى ما يرجون لأبنائهن من مجد وعز ، وشرف ونباهة .

ويعترفون بأن « حاتمًا الطائى » إنما ورث الجود عن أمّه ، ويروى صاحب « الأغانى »[2] أنها كانت لا تُبقى على شىء ، فلما رأى اخوتها إتلافها أمسكوا عنها مالها . حتى إذا ظنوا أنها وجدتْ أَلم ذلك ، أعطوها قطعة من إبلها ، فجاءتها امرأة من « هوازن » تسألها ، على ما تعودت أن تفعل كل

(١) أمالى القالى : ٢ / ١١٨ ط بولاق .

(٢) ١٦ — ٩٣ ط الساسى — وانظر كذلك « عيون الأخبار » لابن قتيبة : ١ — ٣٣٦ ط دار الكتب .

سنة ، فقالت لها : دونك هذه الإبل فخذيها ، فوالله لقد عضّنى الجوعُ فلن أضيع سائلاً . وأنشدت :

لعمرك قِدْمًا عضَّنى الجوعُ عضة   فآليتُ ألا أمنع الدهر جائعـا
فقولا لهذا اللائمى : اليومَ أعْفِنى   وإن أنت لم تفعل ، فعُضَّ الأصابعا
فماذا عساكم أن تقولوا لأختكم   سوى عذلِكم أو عذلِ من كان مانعا؟
وماذا ترون اليـومَ إلا طبيعـةً   فكيف بتركى يا ابنَ أمِّ الطبائعا !؟

* * *

كذلك أنصفها الذين كتبوا عن حياة العرب فى الجزيرة ، فنوّهوا بذكر « المنجبات » من عقائل العرب :

وقد عقد أبو جعفر بن حبيب فى كتابه (المحبر) بابا للمنجبات ، وقال : « ولم تكن العرب تُعد منجبةً لها أقل من ثلاثة بنين أشراف »[1] منهن :

* « فاطمة بنت الخرشب الأنمارية » : أنجبت لزياد بن سفيان العبسى ، أبناءه « الكَمَلة » : ربيع الكامل ، وقيس الحفاظ ، وعمارة الوهاب ، وأنس الفوارس .

قيل إنها سئلت يومًا : « أى بنيك أفضل ؟ . . »

فبان عليها التردد ، وهى تقول فى حيرة : الربيع ، لا . . . بل قيس . . . ثم قالت : ثَكِلْتُهم إن كنت أدرى أَيهم أفضل ! هم كالحلقة المفرَغة لا يُدرَى أين طرفاها . .

* « أم البنين بنت عامر بن عمرو » : أنجبت لزوجها مالك بن جعفر بن كلاب : مُلاعبَ الأسنة أبا براء بن مالك ؛ وطفيلَ الخيل ، والد عامر بن

---

(١) المحبر : ٤٥٨ ــ ٤٦٣ ، مع ابن حزم : جمهرة الأنساب ــ ٢٣٩ ط أولى ذخائر والأغانى : ١٦ / ٢٠ .

الطفيل ؛ ومُعَوِّدَ الحكماء معاوية بن مالك ؛ ونَزَّال المَضِيق سُلمِى بن مالك ؛ وربيعَ المُقترين ربيعة بن مالك ، والد لبيد[1] .

* « عاتكة بنت مرة بن هلال السلمية » : أنجبت لزوجها عبد مناف بن قصى بن كلاب : هاشما ، جد عبد الله والد المصطفى ﷺ ، وعبدَ شمس ، ومن ولده بنو أمية ؛ والمطلبَ بن عبد مناف ، ومن ولدِه الإمام الشافعى محمد ابن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد ابن هاشم بن المطلب بن عبد مناف . وهى إحدى العواتك السلميات ، أمهات النبى ﷺ[2] .

* « أم قِرفة بنت ربيعة بن بدر » أم السادة النجباء بنى مالك بن حذيفة ابن بدر « كانت أعز العرب . كانت إذا كان بين غطفان تشاجر بعثت خمارها فعُلِّق بينهم فاصطلحوا . . » [3] .

* « أم الفضل ، لبابة الكبرى بنت الحارث بن حزَن الهلالية » : أنجبت للعباس بن عبد المطلب بن هاشم : الفضلَ بن العباس ، وبه كان يكنى — ردف رسول الله ﷺ ؛ وعبدَ الله بن عباس ، وفى ولده أسرة بنى العباس ؛ وعبيدَ الله ، وقُثَم ، ومعبدا ، وعبدَ الرحمن ، وأم حبيب بنت العباس ، تزوجت فى بنى مخزوم[4] . قال الشاعر :

ما ولدتْ نجيبة من فحلِ كسبعةٍ من بطن أم الفضل

* وأم لبابة الكبرى هى « هند بنت عوف بن زهير » : أم الأخوات المؤمنات ، رضى الله عنهن :

---

(١) ابن حزم : جمهرة الأنساب ٢٦٨ / أولى ، والمحبر : ٤٥٨ .

(٢) الجمهرة : ١٢ — وانظر معها : عاتكة بنت هلال السلمية ، وهى عمة عاتكة بنت مرة بن هلال ، وأم بنى هاشم بن عبد مناف . وعاتكة بنت الأوقص بن مرة بن هلال ، أم وهب بن عبد مناف ابن زهرة ، جد المصطفى لأمه (المحبر لابن حبيب ، والروض الأنف ج ١) .

(٣) المحبر : ٤٦١

(٤) جمهرة الأنساب : ١٥ — ٣٢ مقابلة على : نسب قريش لأبى عبد الله المصعب الزبيرى : ٢٥ — ٣٤ ط أولى ذخائر .

أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث بن حزن ، شقيقة أم الفضل . ولبابة الصغرى بنت الحارث بن حزن ، أم خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومى . وأم المؤمنين زينب بنت خزيمة العامرية ، أم المساكين . وأسماء بنت عُمَيس الخثعمية : تزوجت جعفر الطيار بن أبى طالب فولدت له عبد الله وعونا ومحمدا . ثم خلف عليها بعده أبو بكر الصديق فولدت له محمدا ، ثم خلف عليها الإمام على بن أبى طالب فهى أم ولده يحيى بن على[1] .

« ريطة بنت سعيد بن سهم ، الفهرية السهمية »[2] : أنجبت للمغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، بنيه الأكابر : هاشم بن المغيرة ، جد الفاروق عمر لأمِّه . وهشام بن المغيرة ، أرخت قريش بوفاته قبل الإسلام . وأبا ربيعة ذا الرمحين ، جد الشاعر عمر ، بن عبد الله ، بن ربيعة . وأبا أمية بن المغيرة ، زاد الركب ، والد أم المؤمنين أم سلمة . وخداشا وزهيرا وتميما ، والفاكه — زوج هند بنت عتبة ، قبل أبى سفيان صخر بن حرب — وفى بنى المغيرة — وأمهم ريطة ، قال « عبد الله بن الزبعرى » ميميته المشهورة التى مطلعها :

ألاَ لله قَـــــوْمٌ وَلـــدت أختُ بنى ســـهم

* * *

وليس ببعيد من مجد الأمومة عند العرب ، أن عددا غير قليل من مشهور قبائلهم وبطونهم ؛ نزعوا إلى أمهاتهم وانتسبوا إليها . منهم على سبيل المثال لا الحصر : بنو خِندف ، ليلى بنت حلوان بن عمران القضاعية .

انتسب إليها بنو زوجها إلياس بن مضر بن معد بن عدنان : مدركة ، وطابخة ، وقمعة[3] .

---

(١) نسب قريش : ٨٠ — ٨٣ . وانظر الأخوات المؤمنات فى نساء الاستيعاب ، والإصابة .

(٢) نسب قريش : ٣٠٠ . وانظر معه فى أبيات ابن الزبعرى : نوادر القالى ٣٠٠ ، والصاهل والشاحج لأبى العلاء : ٧٠٤ — ٧٠٥ ط أولى ذخائر .

(٣) جمهرة الأنساب : ٩ — ٢٣١ ونسب قريش : ٧ — ٤٤٨ والسيرة النبوية لابن هشام ١ / ٧٨ .

أُمّ خندف : « ضرية بنت ربيعة بن نزار » التى ينسب إليها : حِمَى ضرية .

بنو مزينة ، بنت كلب بن وبرة ، إليها ينتسب ولد عثمان وأوس ، ابنى عمرو بن أد[1] .

بنو جُدَيلة ، بنت مر بن أد ـــ وقيل بنت مدركة بن إلياس ، أم بنى فهم وعدوان ، ولدى عمرو بن قيس عيلان بن مضر[2] .

بنو الطفاوة ، بنت جَرم بن زبان . إليها ينتسب بنو باهلة وغَنِىّ ، ولدى أعصر بن سعد بن قيس عيلان[3] .

بنو باهلة ، بنت صَعْب بن سعد العشيرة المذحجية :

أحضنت كل أولاد زوجها مالك بن أعصر ، منها ومن غيرها ، فكلهم إليها ينتسب[4] .

بنو قَيْلة ، بنت الأرقم بن عمرو بن جفنة الغسانى :

أم الأوس والخزرج ، ولَدى حارثة بن ثعلبة بن عمرو الأزْدى . فإليها تنتسب كل بطون الأنصار[5] .

بنو بجيلة ، بنت صعب بن سعد العشيرة :

إليها ينتسب كل ولد زوجها عمرو بن الغوث ، أخى الأزْد . ومنهم قبائل : أنمار ، وخثعم ، ووداعة ، وعبقر ، والغوث ، وأشهل ، وطريف . . .[6] .

بنو عاملة ، القضاعية ، ولد الحارث بن عدى بن مرة بن أدد[7] .

ومن الطريف أن « مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم ، ولد أحد عشر رجلا تفرعت منهم قَبائل تميم وبطونها . وانتسب منهم إلى أمهاتهم :

(١ ـــ ٣) جمهرة الأنساب : ١٩٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ . على التوالى . مع المحبر : ٤٥٦ ـــ ٤٦٣ .

(٤ ـــ ٥) جمهرة الأنساب : ٢٣٣ ، ٣١٢ ـــ ٣٤٧ على التوالى .

(٦ ـــ ٧) جمهرة الأنساب : ٣٦٤ ـــ ٣٦٩ ، ٣٩٤ .

بنو الصحارية : دارم وربيعة وكعب ، أبناء مالك بن حنظلة .

بنو العدوية : أم زيد والصُدَى ويربوع ، أبناء مالك بن حنظلة .

بنو طهية ، بنت عبشمس بن سعد بن زيد مناة . أم الطهويين ، ولد أبى سود وعون ابنى مالك بن حنظلة .

بنو حُطَّى ، أم جُشَيش بن مالك بن حنظلة .

بنو بَشَّة ، أم بنى سدوس بن دارم .

بنو عفراء بنت عبيد بن ثعلبة الأنصارية النجاوية ، الصحابة البدريون السبعة : معاذ ومعوذ وعوف بنو الحارث بن رفاعة ، وخالد وإياس وعاقل وعامر ، بنو البكير بن عبد ياليل[1] .

وبنو مُنْيَة ، أم يعلى بن منية ، أبوه أمية بن أبى عبيدة بن همام ، من ولد زيد بن مالك بن حنظلة[2] .

ومن الملوك العرب ، من انتسبوا إلى أمهاتهم : كعمرو بن هند ، أبوه المنذر بن ماء السماء ، ملك الحيرة . وماء السماء أم الملوك المناذرة ، هى ماوية بنت عوف بن جشم .

وكثيراً ما كان الشعراء يمدحون كبار الرجال بأمهاتهم : قال « حذيفة بن غانم » أخو بنى عدى بن كعب بن لؤى ، يبكى « عبد المطلب بن هاشم » ويذكر فضل « قصى » على قريش :[3]

ولا تنس ما أسدى ابن « لُبنى » فإنه
قد آسدى يدًا محقوقة منك بالشكر

(١) المحبر : ٤٥٩ ، مع تراجمهم فى الأصابة ، ومشاهدهم رضى الله عنهم فى السيرة النبوية وحروب الردة .

(٢) جمهرة الأنساب : ٢١٦ ـــ ٢١٧ .

(٣) السيرة ١ / ١٣٩ .

وأمُّك سِــرٌّ مــن خزاعــة جوهــر
إذا خصَّل الأنسابَ يومًا ذوو الخبر

إلى سبأ الأبطال تنمى وتنتمــى
فأكرِمْ بها منسوبةً فى ذُرا الزُّهــر

وقال « بشر بن أبى خازم » يمدح « أوس بن حارثة بن لام الطائى » :

إلى أوس بــن حارثــة بــن لام
ليــقضىَ حاجتــى ، ولقــد قضاهـــا

فما وطىء الحصا مثلُ ابن « سعدى »
ولا لـــبس النعـــال ولا احتذاهـــا

ولأبيات بشر فى أوس ، قصة صادقة الدلالة على اعتراف القوم بما للأم من أثر فى صنع أبنائها وتوجيههم . حدثوا أن قومًا أغروا بشر بن أبى خازم بهجاء « أوس » ، فأخذ يتلقفه بلسانه حتى ضاق به فبعث من يأتيه به بالغًا ما بلغ ثمنه ، فلما جىء به خيَّره أوس بين قطع لسانه وحبسِه حتى يموت ، أو قطع يديه ورجليه وتخلية سبيله .

ثم دخل « أوس » على أمِّه « سعدى » فكرهت رأيه ، وأمرته أن يحسن عطاءه ففعل ، فملأ « بشر » عراض الآفاق بمدائحه فى ابن « سعدى » وأقسم لا يمدح أحدًا غير « ابن سعدى » ما عاش[1] .

ولم ينسوا أن يذكروا للمرأة مشاركتها فى جليل الأحداث ، من ذلك ما رواه « ابن إسحاق » فى « السيرة »[2] عن دور المرأة فى حلف المطيّبين الذين كان بين بنى عبد مناف ومن انضموا إليهم فى خلافهم مع بنى عبد الدار بعد وفاة « قصى بن كلاب » ، فلقد أخرجت نساء بنى عبد مناف

(١) انظر القصة بالتفصيل فى كتاب الكامل للمبرد « بغية الآمل : ٣ / ٥٤ » — وتاريخ ابن الأثير : ١ / ٢٢٩ — وديوان بشر ، ط دمشق ١٩٦٠ .
(٢) السيرة النبوية ، رواية ابن هشام : ١ / ١٣٩ ، والروض الأنف للسهيلى : ١ / ١٥٣ ط القاهرة ١٩٣١ هـ — ١٩٧١ م .

جفنة مملوءة طيبًا ، فوضعها بنو عبد مناف لأحلافهم فى المسجد عند الكعبة فغمس القوم أيديهم فيها ثم مسحوا الكعبة توكيدًا على أنفسهم ألا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضًا .

ونقل « السهيلى » أن الزبير ـــ هو ابن بكار ـــ ذكر فى موضعين من كتابه ، أنساب قريش ، أن التى أخرجت لهم الجفنة ، هى « أم حكيم البيضاء : بنت عبد المطلب » عمة رسول الله ﷺ وتوأمة أبيه ، عبد الله بن عبد المطلب .

* * *

وأكثرنا يعرف للعرب حرصهم المفرط على الأنساب وولعهم بذكرها من قديم ، فكان النسب عندهم علمًا يعنى به الحُفاظ وتؤلف فيه الكتب ، ويشتهر به نفر من الذين وعوا أنساب العرب ، كجبير بن مطعم بن عدى ، قيل : إنه « من أنسب قريش لقريش وللعرب قاطبة » ومثل « أبى بكر الصديق » ، رضى الله عنه : « كان أنسب العرب » .

نعرف هذا . لكنا حين يُذكر النسب ، يتجه تفكيرنا غالبًا ، إلى الآباء والأجداد دون الأمهات والجدات ، مع أن نسابى العرب لم يغفلوا ذكرهن ، وتكفى إلمامة يسيرة عاجلة بأحد كتب الأنساب ، لكى ندرك مدى حرص النسابين على ذكر الأمهات .

وهذه العناية غير مستغربة من قوم كان لهم مثل ذاك الحرص على النسب ، والاعتزاز بالأصالة ، والمباهاة بالخئولة .

ظل ذلك فيهم إلى ما بعد الإسلام بقرون ، حتى لتسمع « جرير بن عطية » يمدح « هشام بن عبد الملك بن مروان » قائلاً :

فما الأم التى ولدت قريشًا بمقرفة النجار ولا عقيم
وما قرم بأنجب من أبيكم وما خال بأكرم من تميم

قال ابن هشام : « يعنى بالأم ، برة بنت مر ، أخت تميم بن مر ، أم

النضر ـــ والنضر هو جدُّ قريش : حفيده فهر بن مالك بن النضر هو قريش[1] » . .

وما من قارىء يتتبع مساق (النسب الزكى) فى السيرة النبوية ، إلا عَجِب لعنايتهم البالغة بذكر الأمهات مهما ترتفع الأصول وتبعد .

وانظر كتاب « نسب قريش للمصعب الزبيرى » وكتاب « جمهرة أنساب العرب لابن حزم الأندلسى »[2] لترى إلى أى حد عُنى النسابون بالأمهات .

وما هكذا يكون الأمر مع ناس أهدروا المرأة فيهم وأنزلوها منزلة الهوان ، ولا هكذا يكون سلوك قوم ألفوا أن يئدوا بناتهم على نطاق واسع ، وأن يرث الابن الأكبر زوجة أبيه دون أن يكون لها من أمرها شيء .

* * *

على أنا لا نريد أن ننفى كل هذا الذى قيل عما لحق بالمرأة العربية ـــ فى بعض الحالات ـــ من ظلم أو استبداد ، لأننا إن فعلنا نكن كهؤلاء الذين أنكروا ما ظفرت به العقائل الكريمات من عزة ، وما وصلن إليه من مكانة .

ثم فى ﴿ القرآن الكريم ﴾ قَسَمٌ بالموءودة إذا سئلت ﴿ **بأى ذنب قتلت** ﴾[3] . وكتب التاريخ العربى حافلة بما كان من ذاك ، لكنا نعرف أن ذلك لم يكن عامًا بين العرب ، ونكره أن ننظر إلى المرأة العربية من جانب واحد ، بل لعلنا إذا قسنا ما بلغنا من أخبار تكريمهن وتقديرهن والاعتراف بمآثرهن ، إلى ما روى عن مظاهر هوانهن ، لرجحت الأولى رجحانًا ظاهرًا ، وبخاصة إذا قدّرنا ظروف البيئة العربية فى تلك الجاهلية القديمة ، قبل أن تسمع الدنيا عن نهضة المرأة وحقوق النساء بقرون وعصور . . .

---

(١) السيرة ١ / ٩٦ ط الحلبى . ونسب قريش : ٨ .

(٢) نشرتهما دار المعارف فى سلسلة ذخائر العرب .

وفى مقدمة ابن حزم لكتابه الجمهرة ، تنويه بعلم النسب والمأثور فى فضله وقيمته .

وانظر كتب الأنساب ، فى (فهرسة ابن النديم ، وكشف الظنون لحاجى خليفة ، وفهرسة ابن خير) .

(٣) بمزيد بيان وتفصيل ، فى كتابنا « بنات النبى » عليه الصلاة والسلام .

أمهات الأنبيـــاء

عَلَيــهم السَّــلام

بقى هناك أجَلُّ ما يُذكر عن الأنوثة والأمومة ، فى كتاب « آمنة » أم النبى العربى ﷺ .

ذلك أن نرجع إلى الرسالات السماوية الكبرى لنرى الأمهات فى حيوات الأنبياء الأربعة :

اسماعيل ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ، عليهم جميعًا أزكى الصلاة والسلام .

لقد يبدو من عجيب الاتفاق أنهم ــ عليهم السلام ــ قد عُهد بهم فى طفولتهم إلى الأمهات وحدهن دون مشاركة الآباء ، فلم تقم الأم بدورها الطبيعى فقط ، بل عوضت إلى جانبه فقد الأب أو غيابه . . . .

غير أنا نرى الأمر طبيعيًا ، لا غرابة فيه ولا مصادفة ولا اتفاق . . . إذ الأمومة فى عاطفتها السخية وإيثارها الباذل ، أقرب إلى أن ترعى أصحاب الرسالات الدينية المصطَفَون لهداية البشرية .

وما كانت الرسالات التى حملها أبناء صنعتهم أمهاتهم ، بالتى تؤخر مكان الأم أو تضعها فى غير موضعها الأصيل :

﴿ فِطرةَ الله التى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله ﴾ .

أمّ اسماعيل

﴿ رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾ (سورة إبراهيم)

فى صحيح البخارى من قصة « هاجر أم اسماعيل » ما أجمله (القرآن الكريم) فى آيات متفرقة ، على المعهود من بيانه المعجز ، فى التركيز على جوهر الموقف ومناط العظة والاعتبار ، دون تعلق بالتفصيلات الجزئية . لقد آثر الله تعالى هذه الأم برعاية « اسماعيل » الوليد وإنقاذه من الهلاك ، إذ تركهما أبوه « ابراهيم » بوادٍ قفر غير ذى زرع ، فكانت لهفتها على الصغير ، والألم الذى ذاقته حين رأته يكابد حرقة الظمأ ، ومسعاها المثير فى سبيل نجاته ، حديث التاريخ وعبرة الدهر ، وصورة تخلد فيها الأمومة وتتقدس آلامها إلى حيث تغدو عبادة ومنسكا .

ومَنْ « هاجر » ؟

أَمَة ضعيفة لا حول لها ولا طول ، جاءت بها « السيدة سارة : زوجة ابراهيم » من مصر إلى أرض كنعان .

وكانت السيدة « سارة » عجوزا عقيما ، يئست من أن تعطى زوجها ولدًا ، فبدا لها أن تَهَبَه تلك الجارية المصرية ، لعله يسكن إلى إحدى الراحتين !

وحملت « هاجر » فهاج ذلك فى سيدتها ما فى فطرة حواء من غيرة ، وخيِّل إليها أن أَمَتها صارت تنظر إليها فى مباهاة ، فاشتكت إلى زوجها ما وجدت من ذلك ، فشفع فى الجارية عندها ، فتجلدت للموقف . حتى إذا وضعت

« هاجر » مولودها . نفد صبر السيدة وغُلِب احتمالُها ، فأقسمت ألا يؤويها وجاريتَها سقف .

ثم مازالت بزوجها حتى انطلق ذات يوم ميممًا شطر الجنوب ، تتبعه « هاجر » وبين ذراعيها وليدها « اسماعيل » . وقد اتخذت نطاقا شدَّت به وسطها وأرسلت طرفه تجره من ورائها « فكان أول ما اتخذ النساء المنطق أم اسماعيل ، اتخذت منطقا لتعُفى أثرها على سارة »[1] . وقد خطر لإبراهيم أن يلتمس لولده ملاذاً فى حمى بقايا البيت العتيق ، أول بيت عُبِدَ فيه الله ، فى الأرض .

وانتهى بهم المسير عند « مكة » وهى حينذاك مقفرة خلاء ، لا يكاد يلم بها سوى نفر من البدو الرُّحّل ، وقوم من العماليق كانوا يعيشون خارجها ويتنقلون من حين إلى حين ، التماسًا لماء أو انتجاعًا لمرعى .

وعند ربوة هناك حيث أطلال البيت العتيق ، ترك ابراهيم « هاجر » وولدها ، وترك لها جراب تمر وسقاء فيه ماء ، وأمرها أن تتخذ لها عريشًا ، ثم همَّ بالرجوع من حيث جاء . . . فارتاعت « هاجر » من وحشة البرية ، وتضرعت إلى سيدها « ابراهيم » ألا يدعها وولدهما فى ذاك القفر المرهوب ، لكنه أشاح بوجهه عنها لا يلتفت ولا يجيب ، كأنما كان يخشى أن تخونه عاطفته أمام الأم الواهلة الحيرى ، رحمة بابنه الوحيد ، المنبوذ مع أمّه بالعراء .

وأعادت « هاجر » سؤالها :

« أين تذهب وتتركنا فى هذا الوادى الذى ليس فيه أنيس ولا شىء ؟ » وهو منصرف عنها ماضٍ فى سبيله لا يلوى على شىء ، حتى إذا بلغ منعَرَجَ الوادى ، سمع صوتها الضارع يسأل فى لهفة :

---

(١) من حديث ابن عباس ، رضى الله عنهما فى كتاب أحاديث الأنبياء من صحيح البخارى . وفى (فتح البارى ٦ / ٢٥٠) تخريجه من مختلف طرقه .

وما يأتى فى هذا العرض تنصيصا بين أقواس ، فمن صحيح البخارى . وانظر معه (الروض الأنف) الجزء الأول .

ــــ آلله أمرك بهذا ؟

« قال وهو لا يلتفت إليها : نعم » .

فقالت « هاجر » فى استسلام خاشع :

إذن فالله لا يضيعنا »[1] .

وأطرقت صامتة ، فلم تر « ابراهيم » وقد رفع يديه إلى السماء حين غيّبته ثَنِيّة الوادى ، واستقبل بوجهه البيت . ثم دعا بهؤلاء الدعوات :

﴿ رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾[2] .

ثم استأنف مسيره عائدًا إلى زوجه « السيدة سارة » فى أرض كنعان .

* * *

وجعلت « هاجر » ترضع ولدها وتشرب من ذلك الماء القليل وهى تستمد من ولدها الأنس والعزاء ، وكادت تنسى به محنة الرق ومأساة الهجر ، وقد شغلت بالنظر إلى وجهه اللطيف الحبيب ، فلم تشعر أول الأمر بوحدتها الرهيبة فى البرية القفر ، ولم تدرك حق الإدراك قسوة موقفها بالوادى الأجرد ، بين الصخور الكالحة ، والجبال الصم الصلاب . . .

« حتى إذا نفد ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها . فجعلت تنظر إليه يتلوى ، فانطلقت كراهة أن تنظر إليه » وبدا لها أن تصعد إلى علٍ ، فنظرت أى الجبال أدنى من الأرض ، فإذا « الصفا » قريب منها ، فقامت عليه ثم استقبلت الوادى تنظر : هل ترى أحدًا ؟ وتسمّعتْ : هل تؤنس صوتًا ؟ فلما

---

(١) الروض الأنف : ١ / ١٣٥ . مع (فتح البارى ٦ / ٢٥١) .

(٢) سورة ابراهيم ، آيتا ٣٧ ، ٣٨ .

لم تجد إلا الوحشة والصمت هبطت من الصفا حتى أتت « المروة » مهرولة تسعى سعىَ المجهد ، وصعَّدت علّها ترى أثرًا من حياة ، ولا أثر !

وأجهدها السعى بين « الصفا » و « المروة » شوطا بعد شوط ، « فعلت ذلك سبع مرات » حتى نال منها التعب والإعياء . قال ابن عباس : قال النبى ﷺ : « فذلك سعىُ الناس بينهما » يعنى فى الحج والعمرة .

لكنها لم تلبث فى مكانها طويلاً ، فلقد كان لُهاث ولدها الظامىء يمزق قلبها ويفرى كبدها ، وكان مرآه والحياة تتسرب منه وتنطفىء رويدًا رويدًا ، أقسى من أن تحتمله أمومتها ، فجمعت كل ما بقى لها من قوة ، وزحفت بعيدًا عن ولدها المحتضر .

* * *

وأمسك الكون أنفاسه ، ولم يبق من صوت سوى لهاث المحتضر وأنين أمِّه ، يتردد صداهما فى البلقع القفر ، مختلطًا بعواء وحوش الفلاة ، وسُعار السباع الجائعة المحومة على المكان . . . كأنها ترقب الخفقة الأخيرة فى فريستها المنتظرة . . . .

ثم كانت النجاة . . . .

« سمعت صوتا — حسبته صوتها — فقالت تريد نفسها : « إن كان عندك غواث » فإذا بملَك — كأنه طائر — قد حوم على المكان ثم حط على بقعة هناك ، فظل يبحث بجناحه حتى انبثق ماء « زمزم » فهرعت « هاجر » نحوها وهى تحس موجة دافقة من القوة والحيوية ، فحوّضت الماء تغرف منه ، وأقبلت ترتوى ، وترضع ولدها . . . قال ابن عباس : قال النبى ﷺ : رحم الله أم اسماعيل ، لو تركت الماء — أو قال : لو لم تغرف من زمزم — لكانت زمزم عينا معينا » .

ودبت الحياة فى الوادى الأجرد . . .

قال ابن عباس : « ومرت رفقة من جُرهُم مقبلةً من طريق كداء ، فنزلوا فى أسفل مكة فرأوا طائرًا فقالوا : إن هذا الطير لحائمٌ على ماء ! لَعَهْدُنا بهذا الوادى وما فيه ماء . وأرسلوا دليلهم ، فعاد ومضى بهم إلى حيث كانت هاجر وولدها عند النبع المبارك . فقالوا لها : إن شئتِ كنا معك فآنسناكِ والماء ماؤك . فأذنت لهم ، فنزلوا معها ، وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم ، وتعلم العربية منهم ، وأعجبهم حين شب ، فلما أدرك زوجوه منهم »[1] .

* * *

« فى جوار البيت العتيق شبَّ إسماعيل ، فلما بلغ مبلغ السعى جاءه أبوه فقص عليه رؤياه :

« قال يا بُنَىَّ إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ، قال يا أبتِ افعلْ ما تُؤمَر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين » .

ثم كانت آية الفداء ، بعد ذلك البلاء المبين : همَّ أبوه بذبحه ، لولا أن لاح له كبش عظيم ، وألهمه الله تعالى أن يذبحه فدية لولده الصابر (الصافات ١٠٢ — ١٠٧) . وتلقى ابراهيم واسماعيل عليهما السلام أمر الله تعالى ، فرفعا القواعد من البيت العتيق وطهراه للطائفين والعاكفين والركع السجود ، وكانت دعوتهما ، عليهما السلام :

﴿ ربَّنا تقبلْ منَّا إنكَ أنتَ السميعُ العليم * ربَّنا واجْعلنا مُسلمَيْنِ لكَ ومن ذُرِّيتنا أُمَّةً مُسلِمَةً لكَ ، وأرِنا مَناسِكَنا وتُبْ علينا ، إنك أنتَ التوابُ الرحيم * ربَّنا وابعثْ فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتِك ويُعلمهمُ الكتابَ والحكمةَ ويُزَكِّيهم ، إنكَ أنتَ العزيزُ الحكيم ﴾ (البقرة ١٢٥ — ١٢٩)

وبأمره تعالى ، أذَّن ابراهيم فى الناس بالحج . واستجاب الله تعالى للدعاء ،

---

(١) صحيح البخارى ، مع (فتح البارى ٦ / ٢٥١ ، والروض الأنف ١ / ١٣٥) .

فبعث فى ذريتهما رسوله المصطفى ، عليه الصلاة والسلام صفوةَ الصفوة من صريح ولد « اسماعيل بن ابراهيم » من « السيدة هاجر أم العرب العدنانية » التى دخلت التاريخ الدينى بهموم أمومتها ، وصار مسعاها بين الصفا والمروة شعيرة من شعائر الحج والعُمرة فى ديننا الحنيف ، وعيدًا للأمومة ، بموسم الحج من كل عام .

* * *

أمّ موسى
عليه السلام

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة القصص)

لا يذكر لنا « القرآن الكريم » شيئا عن والد « موسى » ، وإنما يخص بالذكر أمّه ، وَيكِلُ إليها أمر حمايته وليدًا ورضيعًا ، حين ضاق فرعون ببنى اسرائيل وأنكر خبث أفاعيلهم وضراوة شرهم ، فأذلهم واستعبدهم وراح يسومهم سوء العذاب . . .

وتقول الرواية إنه رأى فى منامه رؤيا أفزعته « فدعا الكهنة والسحرة والمعبرين والمنجمين ، فسألهم تأويل رؤياه فقالوا : يولد فى بنى اسرائيل غلام يسلبك الملك ويغلبك على سلطانك ، ويخرجك وقومك على أرضك ، ويبدل دينك . وقد أظلّك زمانه الذى يولد فيه »[1] .

فجُنّ غضبه وقلقه . . . وأمر بقتل كل غلام يولد لبنى اسرائيل ، وجند لذلك القوابل من النساء فى أنحاء المملكة . . .

وولد « موسى » حينذاك خفية ، بعد أن ذبح فرعون فى طلبه سبعين ألف ولد — على ما يقولون[2] — فارتجفت أمه رعبًا وخوفًا ، وأشفقت عليها

(١ — ٢) راجع قصص الأنبياء للثعلبى « العرائس » ، ص ١٧٣ ، ١٧٤ ط السعيدية / مع أبواب الآيات فى موسى عليه السلام فى صحيح البخارى (ك أحاديث الأنبياء) وفتح البارى : ٦ / ٢٦٧ وما بعدها .

(٢) عرائس الثعلبى : ١٧٥ .

القابلة فوعدتها أن تكتم الأمر . ويضيف بعض الرواة أن القابلة لم تكد تنظر إلى الوليد حتى اهتز قلبها رحمة له وتعلقًا به ، وأبى عليها أن تسلمه إلى الذبح . . .

غير أنها ما كادت تنصرف من عند أم موسى حتى أبصرتها عيون فرعون التى بثها فى كل مكان ، فاندفعوا يقتحمون الدار وكادوا يظفرون بالوليد لولا أن لمحتهم أخته « مريم » فهمست جازعة :

ـــ أماه ، هذا الحرس بالباب !

وفى ذهول المفاجأة ، ألهم الله أم موسى فلفّت ولدها فى خرقة وألقته فى جوف التنور ، دون أن تشعر بما تفعل ، فلم تكد تودعه هناك حتى دخل الحراس ، فلم يجدوا سوى الأم بادية السكينة والاطمئنان ، وإلى جانبا ابنتُها تعنى بشؤون الدار فى جد وهدوء . . .

وسألها الحراس فى فظاظة :

ـــ ما أدخل عليك هذه القابلة ؟

أجابت من غير أن تزايلها سكينتها :

هى مُصَافِية لى ، دخلت علىّ زائرة . . .

فانصرفوا ، ودارت عينا الأم تبحثان عن ولدها ، فإذا صوته ينبعث من التنور ، فهرعت إليه وأخرجته لم يمسسه أذى بفضل الله تعالى .

* * *

وبدا جليًا أن إخفاء الوليد غير مستطاع إلا إلى حين ، وأطرقت الأم مهمومة تفكر ، فأوحى الله إليها : ﴿ **أنِ اقْذِفيه فى التابوتِ فاقذفيه فى اليَمّ فَلْيُلْقِه اليَمُّ بالساحلِ يأخذْهُ عدوٌّ لى وعدوٌّ له** ﴾[1] .

واستجابت الأم لوحى الله تعالى ، فاتخذت تابوتًا وجعلت فيه قطنًا ثم

(١) من آية ٣٩ سورة طه .

أرضعت وليدها وأرقدته فى التابوت وأحكمت عليه الغطاء ، وألقت به فى النيل . . .

كيف كان شعورها إذ ذاك وهى تسلم فلذة كبدها بيدها إلى النهر ؟

أغفل أكثر الذين تعرضوا للقصة ، تصوير موقفها ذاك على ضفة اليمِّ ، وقد تعلقت عيناها بالتابوت الذى يضم الصغير الحبيب ، تتقاذفه الأمواج وتمضى به بعيدًا . . .

على أن منهم من أدرك الموقف المؤثر ، حين غاب التابوت عن بصرها ، وروعها الفراغ من حولها . . . فتنبهت فجأة إلى أنها ألقت ولدها بيديها فى اليم ، وكأن اشتغالها بالفرار به من عذاب فرعون ، قد صرفها عن التفكير فى أى شيء عدا النجاة ، حتى أدركت بعد فوات الأوان ، أنها خلّصت وليدها من سكين فرعون ، لتلقى به إلى أفواه الحيتان !

قال « الثعلبى » :

« فلما ألقته فى النيل وتوارى عنها ، أتاها الشيطان فوسوس إليها ، فقالت فى نفسها : ماذا صنعتُ بابنى ؟ لو ذُبِحَ لواريته وكفّنته ، وكان أحب إلى من أن ألقيه بيدى فى البحر وأدخله إلى دواب البحر »[1] .

وتلك إضافة أحسبها من « الإسرائيليات » التى روجها فى المسلمين من أسلموا من اليهود . والقرآن الكريم لا يشير إلى هذه الوسوسة الشيطانية من قريب أو بعيد ، بل لعله أقرب إلى أن يرفضها وينفيها ، بالنص الصريح على أن قذف الأم لولدها فى اليم ، كان بوحيٍ من الله تعالى .

ولنا مع ذلك أن نتمثلها وقد لبثت فى مكانها على الشاطىء لا تكاد تقوى على مغادرته ، وقلبها يعدو فى أثر ذاك الذى مضى . . . حتى افتقدتها ابنتها فجاءت تلتمسها هناك ، وقادتها فى رفق عائدة بها إلى الدار . . .

---

(١) من قصص الأنبياء : ١٧٤ .

وأنزل الله سكينته عليها ، قال عز وجلّ : ﴿ **وأصبحَ فؤادُ أمِّ موسَىٰ فارِغًا إنْ كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِها لِتكونَ مِنَ المؤمِنِينَ** ﴾ .
(القصص : ١٠)

* * *

حملت الأمواج « موسى » حتى انتهت به ــ فيما يروى الأخباريون ــ إلى روضة عند قصر « فرعون » كانت مستقى لجواريه ، فما لمحن التابوت حتى التقطنه وانطلقن به إلى سيدتهن « آسية : امرأة فرعون » وفى حسابهن أن به كنزًا من مال وجواهر . . .

ثم فتح الصندوق ، فإذا الصغير الجميل يرفع إلى « آسية » وجهًا مشرقًا بابتسامة حلوة !

وانثنت تملأ عينيها منه وقد تفتح له قلبها ، كأنما هو قطعة منها .

ولم يكن لها ولد ، فما أروعها هديةً تقدمها السماء إلى أمومتها المحرومة !

فى هذا كانت تفكر ، حين أقبل الذباحون على جناحها ، يطلبون الصبى .

قالت آمرة :

ــ انصرفوا ، فإن هذا لا يزيد فى بنى اسرائيل . . .

ثم لما رأت ترددهم ، خففت من صرامتها وقالت :

ــ دعوا أمره لى ، فأنا آتى فرعون وأستوهبه إياه . فإن فعل كنتم قد أحسنتم ، وإن أمركم بذبحه فلن ألومكم . . .

وجاءت « فرعون » فتوسلت إليه قائلة :

« قُرةُ عينٍ لى ولكَ ، لا تقتلوه عسَىٰ أن ينفعَنا أَوْ نَتَّخِذَه ولدًا »[1] .

فكان جوابه :

---

(١) من آية ٩ سورة القصص .

— قرة عين لك ، أما أنا فلا حاجة لى فيه . . .

ثم استدرك بعد لحظة :

— لا بل فليذبح ، فإنى أخاف أن يكون هذا من بنى اسرائيل ، وأن يكون هو الذى هلاكُنا وزوال ملكنا على يده . . .

فلم تزل امرأته تكلمه وترجوه ، حتى وهبه لها ، وعادت به إلى جناحها ، والدنيا لا تسعها من فرط فرحتها . . .

* * *

وهنالك فى حى اليهود ، كانت « أم موسى » تضع يدها على قلبها الذى ما فتىء يخفق مُلحًّا فى طلب النائى الغالى . . .

﴿ وقالتْ لِأُختِه قُصِّيهِ ، فَبَصُرتْ بهِ عَن جُنُبٍ وهُم لا يَشعُرُونَ ﴾[1] .

خرجت تلتمس أثر أخيها . وسارت بحذاء النهر حتى حملتها قدماها إلى قريب من قصر فرعون ، لتسمع هناك أن ربة القصر تبنت غلامًا رضيعًا ، يأبى المراضع !

وحدثها قلبها أنه هو ، فظلت تحوم حول القصر فى حذر ولهفة وترقب ، حتى رأت جوارى امرأة فرعون يخرجن فى التماس المراضع ، لعله يقبل ثدى إحداهن . . .

هنالك لاذت أخت موسى بكل ما فى طاقتها من شجاعة كى تدارى عواطفها وتكتم لهفتها ، وتقدمت إلى القصر فى حذر ، ثم قالت لبعض من هناك ، فى صوت حاولت ألا ينم عن شىء مما كان يخالجها :

﴿ هَلْ أدُلُّكم علىٰ أهلِ بيتٍ يكفلونه لَكُمْ وهمْ لهُ ناصِحون ﴾[2] ؟ .

فراب القومَ ما سمعوا ، وأحاطوا بها يسألونها :

---

(١) من آية ١١ سورة القصص .

(٢) من آية ١٢ سورة القصص .

ـــ ما نراك إلا تخفين أمرًا !

فأجابت في ثبات : بل أردتُ أن أنصح لكم . . .

قالوا : لعلك تعرفين أهله ، وإلا فما يدريك أنهم له ناصحون ؟ . . .

فهزت رأسها قائلة :

ـــ الأمر أقرب مما تظنون ! ذلك انى أعرف فيهم الرحمة وطيب القلب ، وما أشك فى أنهم يرحبون بحضانة الصغير شفقة عليه ، وتقربًا إلى الملك ، والتماسًا لبره !

وتبعوها إلى حيث كانت « أم موسى » فى وحدتها ، خالية الذهن من أسعد مفاجأة تخطر على قلب أم !

ولمحته ، فأمسكت صيحة فرح كادت تنطلق من أعماق قلبها المشوق فتنم عليها ، وأقبلت على الرضيع متجلدة متماسكة ، فضمته إلى صدرها فى رفق ، وألقمته ثديها . . .

فما كان أشد عجب القوم الذين عرفوا إباء « موسى » للمراضع جميعًا ، أنْ رأوه يلقف الثدى فى لهفة الظامىء يجد ريًّا !

ورضع حتى ارتوى ، وعاد رسل « آسية » ، امرأة فرعون ، إليها يصحبون « موسى » وأمه ، ويقصون عليها ما رأوا من أمرهما . . .

قالت فى غبطة :

ـــ هلا مكثتِ عندى يا ظِئرُ لترضعى ابنى هذا الحبيب ؟

فأجابت الأم :

ـــ بل إن شئت يا سيدتى صحبتُه معى إلى بيتى أرضعه وأرعاه ، فإنى أخشى إن أنا هجرت بيتى وولدى ، ضاعوا . . . ولست بتاركتهم أبدًا . . .

وقد يبدو عجيبًا من « أم موسى » أن تقف هذا الموقف ، فتأبى أن تقيم فى القصر ظئرًا لولدها . . . لكن لا عجب ، فلقد أدركت الأم أنها سيدة الموقف مادام الوليد قد أبى أن يرضع إلا من ثديها ، وأنها لتعرف تعلق « امرأة

فرعون » بالصغير ، فلماذا لا تصر على ان تعود به إلى دارها كى تروى به أشواق أمومتها فى اطمئنان ، بعيدًا عن جو القصر وعيونه وأرصاده ؟

لماذا لا تنجو به من رقباء قد يريبهم حنوها الغامر على الصغير ؟

لو أنها أقامت بالقصر ، فهى بين أمرين أحلاهما مر :

إما أن تكبت عاطفتها وأشواق أمومتها ، كى لا يستريب القوم فى أمرها ، وذلك ما لا طاقة لها به بعد الذى كان من وجدها عليه . . .

وإما أن تترك نفسها على سجيتها ، فتدفع ولدها بيدها إلى المذبحة !

ثم إنها قد رأت من رحمة ربها بها وبولدها ، ما يغريها بأن تختار له ولنفسها المكان المطمئن فى دارها ، وفى ذلك يقول « الثعلبى » :

« وتذكرت أم موسى ما كان الله وعدها ، فتعاسرت على امرأة فرعون ، وأيقنت ان الله سبحانه وتعالى منجز وعده » . . . .

و لم تجد « امرأة فرعون » مفرًا من إجابة الظئر إلى طلبها ، حرصًا على حياة الرضيع ، فأذنت لها فرجعت به إلى بيتها . . .

فذلك قوله تعالى فى سورة القصص :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ

عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

(٧ — ١٤)

وقوله تعالى فى سورة طه :

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ . . . ﴾ صدق الله العظيم

(٣٧ — ٤٠)

* * *

أمّ المسيح
عليهما السلامُ

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَٰئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ (سورة آل عمران)

إنه « عيسى بن مريم » كما دعاه كتاب الإسلام . . .

ومن حق الأمهات أن يفخرن بنسبة نبى المسيحية إلى أمّه ، الأم التى طهَّرها الله واصطفاها على نساء العالمين . . .

وقصة أمومة « مريم » فيما نتلوها من القرآن الكريم ، مؤثرة غاية التأثير ، فلقد تعرضت ــ عليها السلام ــ لأقسى ما تتعرض له أنثى : نشأت فى بيت دين وتقى ، لأبٍ عالم شيخ من كبار بنى اسرائيل ، فلما حملت بها أمها نذرت لله أن تهب ما فى بطنها لخدمة الهيكل ، قال تعالى :

﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَٰنِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ

يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾[1] .

ذلك أن أباها « عمران » مات وهى صغيرة ، فاختلف القوم فيمن يكفلها من آلِها ، وألقَوا على ذلك قرعة فكفلها « زكريا » زوج خالتها . . .

﴿ ذَلكَ من أنباءِ الغيْبِ نوحيه إليكَ ، وما كنتَ لَديْهم إذْ يُلقُونَ أقلامَهم أيُّهم يَكفُلُ مريمَ ، وما كنتَ لدَيهم إذْ يختصمون ﴾[2] .

وأمضت مريم صباها فى المحراب عابدة خادمة ، وفاءً بنذر أمها ، حتى إذا اصطفاها الله من النساء جميعاً ليودعها سره الأكبر ، بعث إليها فى خلوتها من بشَّرها **﴿ بكلمةٍ منه اسمُه المسيحُ عيسى بنُ مريم ، وجِيهًا فى الدنيا والآخرةِ ومن المقرَّبينَ ﴾**[3] .

فما كادت تسمع البشرى حتى أخذ الروع منها كلَّ مأخذ ، ثم رفعت وجهها إلى السماء ضارعة :

﴿ قالتْ أنَّى يكونُ لى غلامٌ ولم يَمسَسْنى بشرٌ ولم أكُ بَغياًّ * قال كذلِكِ قالَ ربُّكِ هُوَ علَىَّ هيِّنٌ ، ولِنجعلَه آيةً لِلناسِ ورحمةً مِنَّا وكان أمرًا مقضيًّا ﴾[4] .

واستسلمت لأمرِ الله المقضى وقدره المحتوم ، حتى أحست الجنين يتقلب فى رحِمِها ، ويا له من إحساس تعانيه عذراء طاهرة نقية السمعة ! هنالك أشفقت من الفضيحة والعار ، فانتبذت بحملها مكانًا قصيًا ، وأقامت فى وادٍ للرعاة هجره رعاته بمواشيهم التماسًا للكلأ ، فلما أجاءها المخاض إلى جذع نخلة هناك ، ووضعت وليدها فى مِذودٍ للماشية .

---

(١) سورة آل عمران ـــ آيات ٣٥ : ٣٧ .

(٢) سورة آل عمران آية ٤٤ .

(٣) سورة آل عمران : من آية ٤٥ .

(٤) سورة مريم : (٢٠ ، ٢١) ومعها آية ٤٧ من آل عمران .

﴿ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ ﴾[1] .

ولم يشفع لها ما عرف القوم من عفتها وطهرها ، ولا أنقذها من إفكهم ما بدا من وليدها من آياتٍ بيِّنات ، بل رمَوها بالإثم وقالوا عليها « بهتانًا عظيمًا » ، فتلقت اللعنة صابرة ، متجلدة لقضاء الله فيها وقدره ، راضية بما هو أقسى من الموت فى سبيل ولدها الموعود بالمجد العظيم . . .

وفى الخبر أنها فرتْ بابنها إلى مصر لكى تنجو به من الكيد والأذى ، « فأقامت مريم بمصر اثنتى عشرة سنة ، تغزل الكتان ، وتلتقط السنبل فى أثر الحصادين ، وكانت تفعل ذلك والمهدُ فى منكبها ، والوعاء الذى فيه السنبل فى منكبها الآخر »[2] .

« وجاءت به إلى الكُتَّاب وأقعدتْه بين يدى المؤدِّب حتى أذن الربُّ لها ، فعادت به إلى أورشليم ليسجد هناك حسب شريعة الرب المكتوبة فى كتاب موسى »[3] .

وسكنا فى قرية « الناصرة » حيث عاشت له إلى أن بلغ مبلغ الرجال ، وكانت هى التى لاذ بها عندما تجلّت له الرؤيا ، وتزود منها بالتأييد والتشجيع . . .

---

(١) سورة مريم : آية ٢٣ : ٢٨ .

(٢ ـــ ٣) العرائس للثعلبى : ٢ ، ٤ .

فى الثلاثين من عمره تجلت له الرؤيا وعلم أنه نبى مرسل إلى بنى اسرائيل فكاشف أمَّه مريمَ بكل ذلك قائلاً لها : إنه يترتب عليه احتمال اضطهاد عظيم لمجد ا لله ، وانه لا يقدر فيما بعد أن يقيم معها ويؤدى ما عليه من دين لها بخدمتها . . . قالوا :

« فلما سمعت مريم هذا أجابت : يابنى ، إنى نُبِّئتُ بكلِّ ذلك قبل أن تولد ، فليتمجد اسمُ الله القدوس . ومن ذلك اليوم انصرف يسوع عن أمه ليمارس وظيفته الدينية » .

وخلدا معًا على الأيام ، آية من آيات الله . . . .

قال تعالى :

﴿ **وجعلنا ابنَ مريمَ وأمَّه آيةً** ﴾

﴿ **وجعلناها وابنَها آيةً للعالَمين** ﴾

* * *

وتأتى « آمنة بنت وهب » فى ختام هذا الموكب التاريخى المهيب لأمهات الأنبياء ، لتكون أم اليتيم المصطفى ، خاتم الرسل عليهم السلام ، المبعوثِ بآخر رسالات الله تعالى . . .

المبحث الثانى

بيئة . . ووِراثة

— البيتُ العتيق

— بنو زُهْرة

البيت العتيق

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ
مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ
وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ
يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾
لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ
عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا
الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ
وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ﴾

صدق الله العظيم (سورة الحج ٢٦ — ٢٩)

لبيك اللهم لبيك ! . . . .

هو الدعاء الخالد ، رددت صداه الآفاقُ منذ ما لا يحصى من السنين ، فإذا الملايين تنثال إلى « البيت العتيق » من كل فج ، ملبية أذانَ « الخليل » فى الناس بالحج ، ومستجيبة من بعده لدعاء النبى العربى اليتيم ، الذى وضعته « آمنة بنت وهب » فى دار « عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم » ، من قبل ألفٍ ومئاتِ سنين . . .

يا أُذُنَ الزمان الواعية . . .

ويا عينَ الدهر الباصرة . . .

أى ألْسِنَةٍ للعابدين سمعتِ ؟

وأى وجوهٍ هنالك رأيتِ ؟

وأى ألوانٍ من البشر شهدتِ ؟

وأى ألوية خفقتْ بين يديك ؟

وأى هامات انحنت لديك فى هذه البقعة من الأرض وسط الوادى الأجرد تحف به الصخور السودُ والجبال الشُّم ، منذ جُعِل « البيتُ » هنالك مثابةً للناس وأمنًا ، وحَرمًا وملاذًا ، يطمئِن فيه الخائف ، ويأمن لديه المروَّع ، ويُحقن عنده الدمُ المهدَر ، وتُحمَى فى حماه حياةٌ كانت إذ ذاك مستباحة فى شِرعة الصحراء وبضراوة البيداء ؟ !

﴿ إن أوَّلَ بيتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذى بِبَكَّةَ مُبَاركًا وهُدًى لِلعالَمِينَ ﴾(1) .

* * *

يا ذاكرة الزمان الحافظة !

عرفتِ بيوت العبادة فى الدنيا بيتًا بيتًا . . .

ورأيتِ رسومًا وطقوسًا ، فى مشرق الأرض ومغربها ، وقديمها والحديث . . .

وشهدت حجاجًا وزوارًا ، وطائفين وعُبَّادا . . .

وهذا البيت العتيق بينها كان ، ولا يزال ، عَلَمًا شامخًا ومنارًا عاليًا ، ترامت أضواؤه إلى أبعد مما ترامى إليه تأثير أى بيتٍ من تلك البيوتات ، ومزارٍ من هاتيك المزارات !

ومن يدرى يا دهر ، كم من آلاف السنين مضت من تقويم الزمن ، منذ كانت تلك البقعة الضيقة المحصورة من أرض الحجاز ، مأوى يسيرَ الشأن ، ومحطًّا يريح فيه البدوُ الرحَّل قوافلهم ، فى طريقهم بين الشمال والجنوب ذهابًا وجيئةً ، قبل أن يستأنفوا مسيرهم فى قلب الفلاة ؟ !

(1) سورة آل عمران : ٩٦ .

من يدرى يا ذاكرة التاريخ ، كم من أجيالِ البشر مرتْ بك ، قبل أن يجد أولئك الضاربون فى الصحراء عبر الوادى القفر المرهوب والفيافى المهجورة الموحشة ، موئلاً فى جوار « مكة » يتريثون عنده التماسًا للحماية والعون ، وتزودًا بشىء من الطمأنينة يعينهم على مسعاهم المضنى ومسراهم المخوف ، عبر الفيافى والقفار ؟

منذ كم من الدهور والأحقاب ، كانت تلك البقعة من الصحراء المترامية الأطراف ، مثابة عبادة ، يرى الناس بينها وبين السماء صلة مباشرة ، فهم ينثالون إليها حجاجًا ضارعين ، ويلوذون بها داعين مبتهلين ، قد هانت لديهم الأرض إلا موضعًا ، وعزَّ الأمان إلا فى مكان ؟ !

كيف نَمَتْ « مكةُ » معكَ يا زمن ، من محطة صغيرة للرُّحَّلِ ، إلى موسم جامع للقبائل ، تتلاقى فيه القوافلُ من شمال وجنوب ، وتتواصل الروافد من أطراف العالم القديم ، حين كانت الإبل وحدها عدَّةَ السير ووسيلةَ الاتصال ؟

وكيف شاركت هذه البقعة فى ذلك التواصل ، عندما ضجت الدنيا حولها بالحركة وزخرت بالحياة ، فجاءت من الشرق بما فى فارس ، والهند ، والصين ، ومن الجنوب بما عند اليمن والأحباش ، ومن المغرب بما عند مصر وما وراءها غربا إلى الأطلس . . . ودفعت ذلك كله إلى هناك ، عن طريق البحرين : الأحمر والأبيض ؟ !

* * *

فى طوايا الزمن الغابر تفصيلُ ما لا علم لنا به من الظروف التى جعلت المعنى الدينى لهذه البقعة من قلب الفلاة ، يتضخم ويتركز ويتجسم ، حتى صار مثابة العرب ومطاف أحلامهم وتطلعهم إلى الاستقرار الاجتماعى والعدالة المرجوة فى حياة آمن وأسعد وأهنأ من تلك التى فرضتها عليهم البادية القاسية . . .

على أن تاريخ العرب المكتوب ، يقدم لنا من ذلك حديثًا عجبًا يملأ مجلدات وأسفارًا ، أنزلها القوم منزلة عالية من الثقة فيها والاطمئنان إليها ، ومهما يكن رأى التحقيق العلمى فيها ، فما تزال تلك الكتب والأسفار والآثار مراجعنا لمعرفة ماضى الجزيرة قبل الإسلام ، مما تواترت به الرواية النقلية .

وفى المرويات ما له شواهد موثّقة من القرآن الكريم ، ومما صح من الحديث والآثار على أدق ضوابط الرواية والنقل .

وعلى هذه الشواهد والآثار ، معتَمدُنا فى معرفة الملامح العامة للتطورات التى شهدتْها البيئة فى المجتمع المكى ، وأعطت ميراثها ومؤثراتها فى شخصية الأم التى ولَدتْ خير البشر .

* * *

منذ متى بدأ التاريخ الدينى لمكة ؟ . .

يمضى به بعض كتاب السيرة ومؤرخى « مكة » إلى عهد « شيث بن آدم » . على أن تلك المرحلة الأولى من تاريخها البعيد غابت عنا ، فلا نكاد نعرف إلا أنها كانت محطة متواضعة للقوافل ، وسوقًا متوسطة للتبادل التجارى بين الشمال والجنوب من غرب الجزيرة ، كما نقرأ أنها كانت فى ذلك العهد السحيق موئلاً للعبادة ، قبل أن يفد عليها « ابراهيم » عليه السلام بولده ، بزمن بعيد تطورت فيه العبادة إلى وثنية مشوبة برواسب من وثنية قوم نوح عليه السلام قبل الطوفان ، فدنَّست طهر البيت العتيق .

قدرٌ من هذه المرويات ، توثقه شواهد من القرآن الكريم ، ومن صحيح الآثار عن الجاهلية المعروفة لنا .

فى القرآن الكريم :

﴿ إنّ أوَّلَ بيتٍ وُضعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُباركًا وهُدًى لِلعالَمِين ﴾ .

وفيه الخبر عن قوم نوح وأصنامهم :

﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾
(سورة نوح)

وهذه الأصنام التي عبدوها قبل الطوفان ، قد بقيت رواسبها فى أسماء أصنام خمسة ، للعرب فى جاهليتهم المعروفة لنا[1] .

* * *

ثم جاء ابراهيم بولده ، فبدأ تاريخ جديد لمكة وبيتها العتيق ، والعرب . .

وفى القرآن الكريم بيان لموقف « ابراهيم » فى تلك البرية المقفرة ، يدعو الله أن يجعل أفئدة من الناس تهوى إلى ذريته التى أسكنها بواد غير ذى زرع عند البيت المحرم ، وفيه كذلك بيان لآية الفداء « الصافات ١٠٢ — ١٠٧) وما عهد الله به إلى ابراهيم واسماعيل ، عليهما السلام ، من رفع القواعد من البيت وتطهيره للعابدين (البقرة ١٢٤ — ١٢٩) ثم أذان ابراهيم فى الناس بالحج (الحج ٢٦ — ٣٢) .

* * *

من ذلك العهد الموغل فى القدم ، يرتفع الدعاء الخالد :

« لبيكَ اللهم لبيك »

فتتجاوب به أودية مكة وبطاحُها ، وتخشع له الجبال الصخرية المحيطة بها ، وتعنو له هامات البدو الصلاب ، أبناء البادية وأمراء الصحراء . . .

ومن ثم يمضى مؤرخونا القدامى ورواتنا الأُوَل ، فيملأون المجلدات والأسفار بالحديث عن حرمة ذلك « البيت العتيق » كيف عظُمت وجلَّت ، وعن « مكة » من عهد ابراهيم واسماعيل ، كيف تسامت إلى المنزلة الرفيعة التى بقيت لها على مر الحقب وتتابع الأجيال . . .

---

(١) ابن الكلبى : الأصنام ٦ ، ١٣ ط الأميرية بالقاهرة سنة ١٣٣٢ هـ — ١٩١٤ م .

حدثوا أن « جرهما » ــ وهم خئولة ولد اسماعيل ــ تولوا أمر البيت وملأوا فجاج مكة ، حتى ضاقت على أصحابها الأولين من « بنى اسماعيل » فتركوها دون أن ينازعوا « جرهما » فى ولايتهم ، رعاية لقرابتهم ، وإعظامًا لحرمة « مكة » أن يكون بها بغى أو قتال ، فلما خلا الجو لجرهم ، بغوا وظلموا وأكلوا مال الكعبة الذى يُهدَى إليها . قال ابن إسحاق : « وكانت مكة لا تقر فيها ظلمًا ولا بغيًا ، ولا يبغى فيها أحد على أحد إلا أخرجته ، ولا يريدها مِلِكٌ يستحل حرمتها إلا هلك مكانه ، فيقال إنها ما سُميت بَكة إلا لأنها كانت تبك ــ أى تكسر ــ أعناق الجبابرة إذا أحدثوا فيها شيئا »[1] .

وهكذا أُخرِجُ جبابرةُ « جرهم » من مكة أذلَّةً صاغرين ، يرثيهم شاعرهم ببكائيته :[2]

وقــائلــةٍ والدمــعُ سَــكْبٌ مُــبــادرُ
وقد شَرِقتْ بالدمــعِ منــهـا المحاجرُ
كأن لم يكن بينَ « الحَجونِ » إلى « الصَّفَا »
أنيــسٌ ، ولم يَسْمُرْ بمكــة ســامــر
فقــلتُ لها والقــلبُ منــى كأنمــا
يلجلجــه بين الجنــاحَــيْنِ طــائــرُ
بلَى نحن كنــا أهلَهــا فــأزالَنــا
صُــرُوفُ الليــالى والجـدود العـواثـر
وكنا ولاةَ « البيت » من بعد « نــابتٍ »
نطــوفُ بذاك « البيتِ » والخــيرُ ظــاهر

(١) السيرة : رواية ابن هشام ــ ١ / ١١٩ وانظر نهاية الأرب للنويرى : ١٦ / ٢٣ ط دار الكتب
(٢) السيرة ١ / ١٢٠ . ونهاية الأرب : ١٦ / ٢٤ .

فأخرجنا منها المليكُ بقدرةٍ
كذلك ، يا لَلناس ! تجرى المقادر
فسَحَّتْ دموعُ العينِ تبكى لبلدةٍ
بها حرمٌ أمْنٌ ، وفيها المشاعرُ

★ ★ ★

ورووا أن « تُبّعًا الآخِرَ الحِمْيَرى » مر بقرب « مكة » فى طريقه إلى اليمن ، فأتاه نفرٌ من هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر ، فقالوا له : « أيها الملك ، ألا ندلك على بيت مال داثر أغفلته الملوك قبلك ، فيه اللؤلؤ ، والزبرجد ، والياقوت ، والذهب ، والفضة ؟ . . .

قال : بلى . . .

قالوا : بيت بمكة يعبده أهله ، ويُصلون عنده . . . » .

قال ابن إسحاق : وإنما أراد الهذليون هلاك « تُبّع » بذلك ، لِمَا عرفوا من هلاك مَن أراد « البيتَ » من الملوك وبغى عنده[1] . ويقول « السهيلى » : « وروى نقلة الأخبار أن « تُبعًا » لما عمد إلى البيت يريد إخرابه ، رُمِىَ بداء تمخض منه رأسه قيحًا وصديدًا . . . وأنتن حتى لا يستطيع أحد أن يدنو منه قيدَ الرمح . وقيل : بل أُرسِلَتْ عليه ريحٌ كنعت منه — أى أيبست — يديه ورجليه ، وأصابتهم ظلمة شديدة . . . فدعا بالحزاة والأطباء فسألهم عن دائه ، فهالهم ما رأوا منه ولم يجد عندهم فرجًا »[2] .

حتى جاءه حبران من اليهود ، فقالا : لعلك هممت بشىء فى أمر هذا البيت ؟ فقال : « نعم . . . أردتُ هدمَه » وذكر لهما ما قال الهذليون . . .

---

(١) السيرة : ١ / ٢٤ .
(٢) الروض الأنف : ١ / ٢٧ ط الجمالية .

« فقالا : ما أراد القومُ إلا هلاكَك وهلاكَ جُندِك . ما نعلم بيتًا لله اتخذه في الأرض لنفسه غيرَه . ولئن فعلتَ ما دعوك إليه لتهلكن وليَهلكن من معك جميعًا »[1] .

ثم نصحا له إذا هو أقدم على « البيت » أن يصنع عنده ما يصنع أهله : يطوف به ، ويعظمه ويكرمه ، ويحلق رأسه عنده ، ويذل له حتى يخرج . .

قالوا : فعرف نصحهما وصدّق حديثهما ، فقرب النفر من هذيل فقطع أيديهم وأرجلهم . . ثم مضى فطاف بالبيت ونحر عنده وحلق رأسه ، وأقام بمكة أيامًا ينحر بها للناس ، ويسقيهم العسل ، ثم كسا البيت أحسن الكساء . . .

فيقال إنه برىء من دائه وصحّ من وجعه .

ويعلق « السهيلى » على ذلك قائلاً :

وأخلق بهذا الخبر أن يكون صحيحًا ، فإن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ **ومن يُرِدْ فيهِ بإلحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ من عذَابٍ أليمٍ** ﴾[2] .

ثم يروى لـ « تبع » شعرًا ، يقول فيه :

وكسونا البيت الذى حرّم اللـ ـهُ ملاءً منضدًا وبرودًا

....

ونحرنا بالشِعب ستةَ ألفٍ فترى الناسَ نحوَهن وُرودا

ثم سِرْنا عنه نؤُمُّ سُهَيْلا فرفعنا لواءنا معقودا[3]

---

(1) ابن إسحاق ، السيرة الهشامية : ١ / ٢٤ ــ ٢٥ .

(2) من آية ٢٥ سورة الحج .

(3) القصة مروية بمزيد من تفصيل فى الجزء الأول من السيرة النبوية ، والروض ١ / ٤٠ . واقرأ فى (السيرة : ١ / ٢٦) قصيدة « سبيعة بنت الأَجَبِّ النصرية » لولدها « خالد بن عبد مناف ابن كعب التيمى المرى » تعظم عليه حرمة مكة وتنهاه عن البغى فيها ، وتذكر قصة تبع الحميرى . ومنها أبيات فى (نسب قريش : ٢٩٣) وفى (الصاهل والشاحج : ٥٣٠) ط أولى ذخائر .

ويأتى ــ فيما يلى ــ خبرُ صاحبِ الفيل الذى رده الله عن بيته فى العام الذى وضعت فيه « آمنة » وحيدها ، محمد بن عبد الله . . .

* * *

وتبلغ حرمة مكة عند القوم ، مبلغًا يصوره لنا ما رووه عن السيدة « عائشة رضى الله عنها » أنها قالت : مازلنا نسمع أن « إسافًا ونائلة » ــ وهما من أصنام العرب فى الجاهلية ــ كانا رجلاً وامرأة من جرهم ، أحدثا فى الكعبة ، فمسخهما الله تعالى حجَرين !

وقد ذكر ابنُ إسحٰق فى « السيرة » وابن الكلبى فى « الأصنام » وياقوت فى « معجمه » ما تناقله الرواة من نسب هذين المخلوقين اللذين مُسِخا حجرين ، لاعتدائهما على حرمة الكعبة . . . والله أعلم[1] .

كما يصور تلك الحرمَةَ ، ما روى ابن هشام من السيرة لابن إسحاق : « ويزعمون أن أول ما كانت عبادة الحجارة فى بنى اسماعيل ، أنه كان لا يظعن من مكة ظاعنٌ منهم ، حين ضاقت عليهم والتمسوا الفسح فى البلاد ، إلا حمَل معه حجارة من حجارة البيت تعظيمًا للحرم ، فحيثما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة . . . »[2]

وكانت خدمة الكعبة نذرًا غاليًا تنذر له الأمهات والآباء فلذاتِ أكبادهم من قديم الزمان ، من ذلك ما رووه أن امرأة من « جرهم » كانت لا تلد ، فنذرت لله إن هى ولدت رجلاً أن تتصدق به على الكعبة عبدًا لها يخدمها ويقوم عليها ، فولدت « الغوث بن مر بن أد بن طابخة » فكان يقوم على الكعبة فى الدهر الأول مع أخواله من جرهم ، قالت :[3]

---

(١) السيرة : ١ / ٨٤ وانظر « الأصنام » لابن الكلبى .
(٢ ــ ٣) السيرة : ١ / ٧٩ ، ١٢٥ .

إنى جعلتُ رَبِّ من بُنَيَّهْ
رَبيطةً بمكةَ العَلِيّه
فبارِكَنْ لى بها أَلِيَّه
واجْعلْه من صالحِ البَرِيَّه

بهذا ومثله حدّث النقلة وأكّد الرواة ، وإنه لشاهد على مدى ما وصلت إليه حرمة « البيت العتيق » فيهم ، ومكانة « مكة » عندهم ، تلك المكانة التى تنافس من أجلها المتنافسون وتقاتل المتقاتلون :

حاربت « خزاعة » جرهمًا حتى أخرجتهم من مكة ، وظلت ولاية البيت فى « خزاعة » يتوارثها بنوها كابرًا عن كابر ، حتى انتزعها منهم « قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر » .

وكان « قصى » قد مات أبوه « كلاب » وتركه فطيمًا ، فخرجت به أمه « فاطمة بنت سعد بن سَيَل الأزدية » حين تزوجها « ربيعة بن حرام بن ضِنَّة العُذرىّ » واحتملها إلى بلاده ، وبقى « زهرة بن كلاب » أخو « قصى » فى قومه بمكة ، لكبر سنه[1] .

وشب « قصى » غريبًا وهو لا يعرف إلا أنه ابن « ربيعة » زوج أمه ، حتى تسابَّ هو ورجل من قضاعة ، فعيّره قائلاً :

ــ لست منا ، وإنما أنت فينا مُلْصَق . . .

فدخل على أمه وقد وجم لذلك ، فقالت له :

ــ يا بُنى ، صَدَقَ . . . إنك لست منهم ، ولكنِ رهطَك خير من رهطه ، وآباءك أشرف من آبائه ، وأنت قرشى ، وأخوك زُهرة ، وبنو عمك بمكة وهم جيران ببيت الله الحرام . . .

(١) طبقات ابن سعد : ١ / ٦٧ .

وفى رواية ابن سعد عن الواقدى أنها قالت :

« أوَ قد قال هذا ؟ فوالله ما أحسن الجوار ولا حفظ الحق . أنت والله يا بنى أكرم منه نفسا وولدا ونسبا ، وأشرف منزلا ، أبوك كلاب بن مرة ابن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة القرشى . وقومك بمكة عند البيت الحرام »[1]

وعاد إلى مكة رجلاً ، فانتشر ولده وكثر ماله وعظم شرفه ، وإذ ذاك رأى أنه « أوْلَى بالكعبة وبأمر الكعبة ، من خزاعة وبنى بكر ، لأنه قرشى ، وقريش سليلُ اسماعيلَ وصريحُ ولدِه »[2] .

وشبّت الحربُ بين قريش ومن حالفها ، وخزاعة وبنى بكر ، ثم تداعوا إلى الصلح والتحكيم ، وحكّموا « يعمر بن عوف » البكرى فقضى بأن « قصيًا أوْلى بالكعبة وأمرِ مكة ، من خزاعة » .

ويقول مؤرخو العرب ، ان مكة قد بدأت بقصىٍّ عهدًا تضاءلت إلى جانب مجده عهود خزاعة وجرهم ، وجدّت فيها وظائفُ دينية أضيفت إلى ما كان لها من قبل ، فكانت إلى قصى « الحجابة ، والسقاية ، والرفادة ، والندوة ، واللواء . وبها حاز شرف مكة كله ، وأبقاه فى ولده من بعده ، ما يُعرَفُ أن أحدًا نازعهم فيه قط . . . »[2] .

وكان أمر « قصى » فى قومه ، مدى حياته وبعد موته ، كالدِّينِ المتبع لا يُعمل بغيره ، واتخذ لنفسه دار الندوة ، وجعل بابها إلى حرم الكعبة ، ففيها كانت قريش تقضى أمورها .

فلما أدركه الكِبَرُ ورقّ عظمُه ، عزَّ عليه ألا يدرك ولدُه البِكرُ « عبدُ الدار » ما بلغه أخوه « عبد مناف » فى زمان أبيه من شرف ، فقال الشيخ لعبد الدار :

---

(١) طبقات ابن سعد : ١ / ٦٩ .

(٢) السيرة النبوية ١ / ١٢٧ — ١٣١ .

« أما والله يا بنى لألحقنك بالقوم وإن كانوا قد شرفوا عليك » ثم جعل إليه كل ما كان بيده من أمر قومه . . .[1]

قالوا : وهلك قصى ، ولبثت قريش على ما أراد لها زمنًا ، حتى قام بنو عبد مناف بن قصى : عبد شمس ، وهاشم ، والمطلب ، ونوفل ، فأجمعوا على أن يأخذوا ما بأيدى بنى عمهم « عبد الدار » مما كان جدهم « قصى » قد جعله إليه من : الندوة والحجابة واللواء والسقاية والرفادة ، إذ رأوا أنهم أولى بذلك منهم لشرفهم عليهم وفضلهم فيهم ، فتفرقتْ عند ذلك قريش وأجمعوا للحرب ، ثم تصالحوا على أن يقتسموا الميراث الجليل : لبنى عبد الدار ، الحجابةُ واللواء والندوة ، ولبنى عبد مناف ، السقايةُ والرفادة . . .

وظائف دينية ضخمة ، استحدث بعضَها « قصى » ، وبعضُها قديم عريق طالما اعتز به الذين تولوه ، وسجله الشعراء مباهين .

قال « أوس بن تميم بن مغراء السعدى » مفاخرًا بما كان قومه يتولون من إجازة الناس بالحج من عرفة :[2]

لا يبرح الناس ما حجُّوا مُعَرَّفهَم حتى يقال : أجيزوا آل صفوانا
مجدٌ بناه لنا قِدْمًا أوائلُنا وأورثوه طوالَ الدهر أُخْرانا

وقال جذل الطعان « عمير بن قيس » أحد بنى مالك بن كنانة ، يفخر بالنَسأة على العرب :

لقدْ علمتْ مَعَدٌّ أن قومى كرام الناس أن لهم كراما
فأى الناس فاتونا بوتر ؟ وأى الناس لم نَعْلُك لجاما ؟
ألسنا الناسئين على معدٍّ شهورَ الحِل نجعلها حراما ؟[3]

---

(١) السيرة النبوية ١ / ١٣٦ وطبقات ابن سعد ١ / ٧٣ .
(٢) السيرة النبوية ١ / ١٢٧ .
(٣) ابن اسحاق : السيرة الهشامية : ١ / ٤٦ .

وذلك أنه كانت للعرب فى مكة أشهر حُرُم لا يحل لهم فيها قتال أو غارة أو طلب ثأر ، إلا أن ينسأها لهم أحد النسأة . . .

ثم كانت للعرب فى مكة طقوس ومشاعر ومناسك منذ رفع « ابراهيم » القواعد من البيت و « اسماعيل » ، وعهد إليهما الله تعالى أن يطهرا بيته للطائفين والعاكفين والركَّع السجود وقال عز وجل :

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾ .

وقد ذكرنا آنفًا ، ما كان من تقديس بعض بنى اسماعيل لحجارة الحرم التى حملوها معهم تبركًا ، ثم خلف من بعدهم خلفٌ نسوا ما كانوا عليه فعبدوا الأوثان وبقيت فيهم على ذلك بقايا من عهد ابراهيم يتمسكون بها ، من تعظيم البيت والطواف به ، والحج ، والعمرة ، والوقوف على عرفة والمزدلفة ، وهَدْى البُدن ، والإهلال بالحج ، والتلبية .

* * *

وطال المدى و « مكة » مهوى الأفئدة وقبلة العرب ، لا تكاد بقعة أخرى تطمح إلى منافستها أو تطمع فى انتزاع مجدها ، حتى ترتد دون الغاية خاسئة وهى حسير . . .

وذاكرة الزمن قد وعت من أمر تلك المنافسة فى خارج الجزيرة وداخلها ، ما يتناقله الأخباريون من حديث البيت الذى أقامه « الغساسنة » بالحيرة والكنيسة التى بناها « أبرهة الأشرم » فى صنعاء ، ليصرف إليها حج العرب . . .

« وقد جلب إليها الرخام المجزع ، والحجارة المنقوشة بالذهب ، من بقايا قصر بلقيس صاحبة سليمان عليه السلام ، وكان القصر من موضع هذه

الكنيسة على فراسخ ، وفيه بقايا من آثار ملكها ، فاستعان بذلك على ما أراده فى هذه الكنيسة من بهجتها وبهائها ، ونصب فيها صلبانًا من الذهب والفضة ، ومنابر من العاج والآبنس »[1] .

ثم كتب إلى مولاه نجاشى الحبشة : « إنى قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يُبْن مثلُها لملك كان قبلك ، ولست بمنتهٍ حتى أصرفَ إليها حجَّ العرب »[1] .

لكن « أبرهة » هلك دون غايته ، وبقى البيت العتيق بمكة كما كان ، مثابة الخائفين ، وقبلة الحجاج العابدين ، دعوة ابراهيم الخليل وأذانه فى الناس :

﴿ وأذِّنْ فى الناسِ بالحجِّ يأتوكَ رِجالاً وعلَى كلِّ ضامرٍ يأتينَ من كُلِّ فَجٍّ عميق ﴾[2] .

وما تزال الدنيا تقف خاشعة حائرة أمام ذلك الجلال الذى استأثرت به « مكة » دون سواها من مدائن كبيرة ، وحواضر أجمل منظرًا وأرغد عيشًا وأخصب أرضًا . . .

وإنها لَبلدة أقرب إلى البداوة ، فى بقعة جرداء بوادٍ غير ذى زرع ولا ظل ، وصفها أحد المستشرقين فى القرن العشرين فقال :

« فى قلب الصحراء ، فى واد قفر بين سلسلتين من الجبال الصخرية تحجبانها فلا يحس الحاج بلوغها حتى يقع نظره على شوارعها . . .

« تقع بين تلال صخرية سود ، ذات أطوال متساوية تمتد عدة أميال ، حتى ليخال المرء أن لا نهاية لتلك التلال الجرداء ، ولا تلك الصحراء المترامية التى يكاد ضوؤها يذهب بالأبصار ، ولا يأمل المرء أن يختلس برهة ينجو فيها من حرارتها اللافحة . فحصاها ، وصخورها الصم ، تبعث إلى السماء بخارها فتبدو كأنها فحم يحترق ، ويصعد إلى السماء دخانه . . .

(١) السيرة ١ / ٤٤ ، والروض الأنف : ١ / ٣٠ .
(٢) سورة الحج — آية ٢٧ .

« وإذا استثنينا بضع شجرات السنط المتناثرة ، بدت معالم الحياة كأنما جمدت فى تلك الفلاة ، فالوحشة تامة ، والسكون مسيطر ، ولا يصك أذنيك إلا صفير الريح الصرصر العاتية . . . .

« وحتى السراب الذى يخدع المسافر فيجعله يأمل فى النخيل أو ظلال الحدائق الرطبة ، لا وجود له ، فلا نخيل هناك ، ولا حدائق توحى بالتفكير فيها وتمنيها ، فما من شيء ينبت فى بلدة الرسول المقدسة ، والليل هو الملاذ الوحيد من حرارة الشمس الكاوية »[1] .

* * *

حديثنا عن « مكة » و « البيت العتيق » قد طال .

ولا بأس علينا من ذلك ، ففى هذه البيئة المقدسة تفتحت عينا الفتاة التى عرفها التاريخ أمّاً خالدة .

فيها كان منبت « آمنة بنت وهب » والدة النبى العربى اليتيم الذى بعث فى مكة ، فأيّد مبعثه فيها ما كان لها من حرمة عريقة ظل العرب يتوارثونها جيلاً بعد جيل ، واتخذ الإسلام من الكعبة التى تعبّد فيها « الخليل » ، قِبلتَه التى يُولى المسلمون وجوهَهم قِبَلها حيثما كانوا وأنّى أقاموا ، ما عُبِدَ اللّهُ فى الأرض !

هذه هى مكة ، بلد « آمنة » ومهد ولدها الوحيد ، ومنزل آبائه وأجداده ، ودار مبعثه ، وقبلة أمته . . .

* * *

(١) بودلى : « الرسول » ـ ﷺ ـ الترجمة العربية للسحار .

بنو زُهْـــرَة

(. . . ثم لم يزل الله تعالى ينقلنى من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مُصَفًّى مهذَّبًا ، لا تتشعب شعبتان إلا كنتُ فى خيرِهما) من حديث شريف

فى يوم لم يحدده التاريخ ، فى نحو منتصف القرن السادس الميلادى ، رأت النورَ سليلةُ بيتٍ نابهٍ ، من القبيلة التى كانت ذات الشأن الأول فى تلك المنطقة المقدسة ، والتى استأثرت وحدها بوظائفها الدينية الضخمة وما يتبعها من أمجاد وامتيازات . . .

ويحمل البيت اسمَ « زُهرة[1] بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب ابن فِهر » وفهر هم قريش « لا قريش غيرهم ولا يكون قرشى إلا منهم »[2]

---

(١) كذا فى كل مصادرنا من كتب السيرة وتاريخ الإسلام . وليس فى « جمهرة أنساب العرب » ولا فى « نسب قريش » إشارة إلى خلاف فى أن زهرة رجل . فحيثما ورد ذكره فى الأنساب فهو « زهرة بن كلاب » . لكن جاء فى « المعارف لابن قتيبة » ان زهرة اسم امرأة عرف بها بنو زهرة . قال « السهيلى » فى « الروض الأنف ٧٩/١ » : « وهذا منكر غير معروف ، وإنما هو جدهم كما قال ابن اسحاق » .

يشير إلى قوله ابن اسحق : « فولد كلاب بن مرة رجلين : قصى بن كلاب ، وزهرة بن كلاب » .

وقد علق ناشرو السيرة على هذا بقولهم فى الهامش : « وزهرة امرأة نسب إليها ولدها دون الأب ، وهم أخوال الرسول ﷺ ـــ ١٠٩/١ » ثم لم يزيدوا ، ولم يشيروا إلى مرجعهم فى هذا . ويلاحظ عليهم انهم فى رقم ١ من هامش الصفحة نفسها ، نقلوا عن الطبرى نصًا صريحًا فى أن زهرة رجل كما نقلوا على هامش ص ١١٥ من الجزء نفسه ، عبارة ابن قتيبة فى المعارف ، وتعليق السهيلى عليها : وهذا منكر غير معروف ، وإنما هو ـــ أى زهرة ـــ اسم جدهم كما قال ابن اسحاق » .

(٢) ابن حزم : جمهرة الأنساب : ص ١١ ط أولى ذخائر .

وزهرة بن كلاب هو الأخ الشقيق لـ « قُصى بن كلاب » سيد مضر ،[1] ملك مكة ما عاش ، ثم تركها لقريش ميراثًا مجيدًا لم تنافسها فى شىء منه قبيلة أخرى ، حتى جاءها « محمد » حفيد قُصى وزهرة ابنى كلاب ، بمجد الدهر وعزِّ الأبد !

وأم زهرة وقصى : « فاطمة بنت سعد بن سَيَل » أحد بنى الجَدَرة . لُقِّبوا بذلك نسبة إلى جدهم « عامر بن عمرو الأزدى » وكان قد بَنَى للكعبة جدارًا حين دخلها السيل ذات مرة ، ففزعت قريش لذلك ، وخافت إن جاء سيل آخر أن يذهب شرفها ودينها . فلما بنى « عامر » ، الجدار ، سمى الجادر ، ولقب أولاده من بعده ببنى الجدرة[2] . . .

وفى سعد بن سَيَل ، جد زهرة وقصى لأمهما ، قال الشاعر[3] :

ما نرى فى الناس شخصًا واحدًا ... مَن عَلِمْناه ، كسعدِ بنِ سَيَلْ
فارسًا أضبط منه عسرةً ... وإذا ما واقَفَ القِرْنَ نزلْ
فارسًا يستدرج الخيلَ كما اسـ ... ـتدرج الحرُّ القطامىُّ الحجَلْ[3]

ابنته فاطمة ، هى إحدى الفواطم اللائى ولدن المصطفى ﷺ ، وإحدى منجبات العرب .[4]

* * *

عُرِف « بنو زهرة » منذ كانوا بالودِّ الخالص لبنى عبد مناف بن قصى دون إخوتهم من بنى عبد الدار . وسبقت الإشارة ، فى حديثنا عن « البيت العتيق » إلى ما كان من أمر « قصى » حين كبر ورق عظمه ، فعز عليه ألا يبلغ ابنه البكر « عبد الدار » ما بلغه ابنه « عبد مناف » من شرف ورفعة ، فقال قصى لبكره :

---

(١) المحبر لابن حبيب : ٤٥٦ .

(٢) المصعب الزبيرى : نسب قريش ١٤ ذخائر — ابن هشام : السيرة ١٠٩/١ حلبى .

(٣) السيرة لابن هشام ، ١١٠/١ . وانظر أخبار مكة للأزرقى : ٦١ والقرن : النظير . والحر القطامى : الصقر .

(٤) المحبر : ٥٢ ، ٤٥٦ وطبقات ابن سعد : : ٦٣/١ .

« أما والله يا بنى لألحقنك بالقوم وإن كانوا قد شرفوا عليه : لا يدخل رجلٌ منهم الكعبة حتى تفتحها أنت له ، ولا يَعقد لقريش لواءً لحربها إلا أنت بيدك ، ولا يشرب أحدٌ بمكة إلا من سقايتك ، ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعامًا إلا من طعامك ، ولا يُقطع أمر من أمورها إلا فى دارك » .

ثم كان ما كان من إذعان قريش لوصية شيخها حينًا ، ثم إجماع بنى عبد مناف بن قصى : هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل ، على أن يأخذوا ما بأيدى بنى عبد الدار ، لشرفهم عليهم وفضلهم فى قومهم ، فتفرقت عند ذلك قريش : فكانت طائفة مع بنى عبد مناف ، يرون أنهم بمكانتهم من قومهم ، أحق بالأمر من بنى عبد الدار ، وكانت طائفة مع بنى عبد الدار ، يرون ألا يُنزع منهم ما كان « قصى » جعله إليهم .

وعقد كل فريق على أمرهم حلفًا مؤكَّدًا ، على أن لا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضًا ، فأخرجت نساء بنى عبد مناف جفنة مملوءة طِيبًا ، فوضعوها لأحلافهم فى المسجد عند الكعبة ، ثم غمس القوم أيديهم فيها فتعاقدوا وتعاهدوا هم وحلفاؤهم ، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيدًا على أنفسهم ، فسُمُّوا بالمطيبين . كما تعاهد بنو عبد الدار وحلفاؤهم عند الكعبة ، على مثل ذلك فسموا بالأحلاف .

وقد كان « بنو زهرة » مع بنى عبد مناف فى ذاك الحلف ، ولما عُبِّيَتْ كل قبيلة من المطيبين لأخرى من الأحلاف ، عُبِّيَت « زهرة » لبنى جمح ، وأقسمت لتفنينَّها[1] .

كما كان « بنو زهرة » مع بنى عبد مناف إخوة متجاورين لا ينفصلون ، وبيوتهم متجاورة كذلك ، فحين جزأت قريش الكعبة ، كان شِق الباب لبنى عبد مناف وزهرة ، وكان ما بين الركن الأسود والركن اليمانى لبنى مخزوم ومن

---

(١) السيرة : ١٣٩/١ .

انضم إليهم من قبائل ، وكان ظهر الكعبة لبنى جُمَحَ وسهم ، وكان شِق الحِجْر لبنى عبد الدار بن قصى . . .

* * *

وكذلك كان « بنو زهرة » ممن سبقوا إلى تلبية النداء حين تداعت قبائل من قريش إلى « حلف الفضول » قبل المبعث بنحو من عشرين سنة ، وكان أكرم حلف وأشرفه . وذلك أن رجلاً من زبيد قدم إلى « مكة » ببضاعة فاشتراها منه العاصى بن وائل ، وكان ذا قدر بمكة وشرف ، فحبس عن الزبيدى حقه ، فاستعدى عليه الأحلاف : عبد الدار ، ومخزومًا ، وجمحَ ، وسهمًا ، وعديَّ بن كعب ، فأبوا أن يعينوه على العاصى وانتهروه . فلما رأى « الزبيدى » الشر ، أوفى على جبل أبى قبيس عند طلوع الشمس ، وقريش فى أنديتهم حول الكعبة ، فصاح بأعلى صوته :

يا آل فهرٍ لمظلوم بضاعتُه ببطن مكة ، نائى الدارِ والنَّفرِ
ومُحرمٍ أشعثَ لم يَقضِ عُمرَته يا للرجال ، وبين الحِجْر والحَجَرِ
إن الحرامَ لمن تمَّت كرامتُه ولا حرامَ لثوبِ الفاجر الغُدَرِ

فقام على أثر ذلك « الزبير بن عبد المطلب » وصاح : ما لهذا مَتْرك ![1] .

قالوا : فاجتمعت هاشم وزهرة ، وتيم بن مرة ، فى دار عبد الله بن جدعان : أحد بنى تيم بن مرة بن كعب بن لؤى ـــ وعبد الله هو ابن عم السيدة عائشة رضى الله عنها ـــ فصنع لهم طعامًا ، وتعاقدوا على « ألا يجدوا بمكة مظلومًا من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا أقاموا معه ، وكانوا على من ظلمه حتى ترد له مظلمته » .

وأنصفوا « الزبيدى » من العاصى .

فيروى « ابن اسحاق » بسنده إلى طلحة بن عبد الله الزهرى عن جبير

---

(١) السيرة : ١ / ١٤١ ، وطبقات ابن سعد : ١ / ١٢٨ .

ابن مطعم رضى الله عنه : عن رسول الله ﷺ قال : « لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفًا ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو أُدعَى إليه فى الإسلام لأجبتُ » .

وأسنده ابن سعد عن الواقدى من حديث طلحة عن جبير ، بلفظ مقارب[1] .

* * *

من هذه الأسرة القرشية الكريمة التى عُرفت من قديم بصلة الود لبنى عبد مناف بن قصى ، والتى ذكر لها التاريخ مشاركتها فى الأمجاد الكبرى لقريش ، واتصالها الوثيق بالأحداث الجليلة التى شهدتها « مكة » قبيل الإسلام ، وتحالفها مع « هاشم » وبنيه فى الحلفين العظيمين : حلف المطيبين وحلف الفضول . . من هذه الأسرة كانت « آمنت بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ابن مرة » التى توّجت ذاك المجد العريق بالشرف الذى لا يُدرك ولا ينال . . .

جدُّها لأبيها : عبد مناف بن زهرة الذى يُقرن اسمه بابن عمه عبد مناف بن قصى ، فيقال : « المنافان » تعظيمًا وتكريمًا[2] .

وأبوها « وهب بن عبد مناف » : سيد بنى زهرة شرفا وحسبا . وفيه يقول الشاعر :

يا وهبَ يا ابنَ الماجد بن زُهره   سُدْتَ كلابا كلها ، ابنَ مُرّةَ
بحَسَبٍ زاكٍ وأمٍّ بَرّه[3]

---

(١) الطبقات : ١ / ١٢٨ .

(٢) جمهرة الأنساب : ١٢ .

(٣) فى الروض الأنف (١ / ١٢٩) أن أم وهب : عاتكة بنت الأوقص بن مرة بن هلال السلمية ، إحدى العواتك من سليم . والذى فى (المحبر : ١٢٩) و (نسب قريش ٢٦١) أن أم وهب ، جدة السيدة آمنة ، وأم أخيه أهيب ، أبى هالة أم حمزة بن عبد المطلب : قيلة بنت أبى قيلة وجز بن غالب ، سيد بنى خزاعة . قابل على بنى مرة وأمهاتهم ، فى الجمهرة ، والسيرة (١ / ١٠٨) وطبقات ابن سعد : أمهات آباء رسول الله صلى الله عليه وسلم (١ / ٦٥) .

ولم يكن نسب « آمنة » من جهة أمها ، دون ذلك عراقةً وأصالة ، فهى ابنة « برة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصى بن كلاب » .

وجدتها لأمها : « أم حبيب بنت أسد بن عبد العزى بن قصى » .

ووالدة أم حبيب : « برة بنت عوف بن عُبَيْد بن عُوَيْج بن عدى بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر » .

سلالة عريقة أصيلة ، أنبتت « آمنة » لتضطلع بعبئها الجليل فى أمومتها التاريخية . . .

ووراثات مجيدة ، أهدتها إلى ولدها فجمعتْ له عِزَّ المنافين : « عبد مناف ابن زهرة بن كلاب ، وعبد مناف بن قصى بن كلاب » وجعلته ـ ﷺ ـ يعتز بنسبه فيقول من حديث رواه « ابن عباس رضى الله عنهما » مرفوعا :

« . . . لم يزل الله ينقلنى من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفى مهذبًا ، لا تتشعب شعبتان إلا كنت فى خيرهما »[1] .

وفى صحيح الحديث عن واثلة بن الأسقع ، رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله اصطفى كنانة منْ ولد اسماعيل ، واصطفى قريشا من كنانة ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم »[2] . فهو خِيَار من خيار من خيار من خيار . .

نسبٌ تَحسبُ العلا بحُلاه ... قلدته نجومَها الجوزاء

حبذا عقدُ سؤددٍ وفخار ... أنتَ فيه اليتيمة العصماء

(١) القاضى عياض (الشفا : فصل فى كرامة نسبه صلى الله عليه وسلم) .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (ك الفضائل) والترمذى فى السنن . ورواه أبو الفتح ابن سيد الناس اليعمرى فى (عيون الأثر : ١ / ٢٣ ــ ٢٤) من طريق مسلم ، والقاضى عياض فى (الشفا) من طريق الترمذى . وانظر تفسير القرطبى لآية (التوبة ١٢٨) .

المبحث الثالث

زَهْــرة قُريــش

— العروس الزُّهرية

— فَتَى هَاشــم

— العُــــرس

— البشــــرَىٰ

العروس الزُّهـريَّة

« . . . وكانت يومئذ أفضل امرأة فى قريش
نسبًا وموضعًا » . (ابن إســحاق)

تفتَّح صباها فى أعز بيئة وأطيب منبت ، فاجتمع لها من أصالة النسب ورفعة الحسب ، ما تزهو به فى ذاك المجتمع المكى المعتز بكرم الأصول وشرف الأعراق . . .

كانت زَهرة قريش اليانعة ، وبنت سيد بنى زُهرة نسبًا وشرفًا ، وقد ظلت فى خدرها محجَبة عن العيون مصونة عن الابتذال ، حتى ما يكاد الرواة يتبينون ملامحها أو يتمثلونها فى صباها الغض . والذى يعرفه المؤرخون عنها أنها ــ عندما خطبت لعبد الله بن عبد المطلب ــ « كانت يومئذ أفضل امرأة فى قريش نسبًا وموضعًا »[1] . . .

على أن شذاها العطر كان ينبعث من دور بنى زهرة ، فينتشر فى أرجاء مكة ويثير أكرم الآمال فى نفوس شبانها الذين زهدوا فى كثيرات سواها .

وقد عرَفت « آمنة » فى طفولتها وحداثتها ، ابنَ العم « عبد الله بن عبد المطلب » بين من عرفت من لداتها أبناء الأسر القرشية ، إذ كان البيت الهاشمى أقرب هذه الأسر جميعًا إلى آل زهرة : جمعتهما أواصر ود قديم لم تنفصم عراه منذ عهد الشقيقين « قصى وزهرة : ولدى كلاب بن مرة » .

عرفته قبل أن ينضج صباها ويحجبها خدرها ، وتلاقت وإياه فى الطفولة البريئة فى ربوع مكة وفى ساحة الحرم الأمين ، كما جمعتهما مجامع القبيلة حيث

---

(١) السيرة النبوية : ١ / ١٦٥ .

كان عبد المطلب سيد بنى هاشم ووهب سيد بنى زهرة يتزاوران على ود ، ويجتمعان للتشاور كلما أهمّ « قريشًا » أمر . . .

* * *

ثم حُجِبتْ « آمنة » حين لاحت بواكير نضجها ، فى الوقت الذى كانت فيه خطوات « عبد الله » تسرع به إلى الشباب .

ورنت أنظار الفتيان من بيوتات مكة إلى زَهرة قريش ، وتسابقوا إلى باب بيتها يلتمسون يدها ، ويزفون إليها ما لهم من مآثر ومناقب وأمجاد . . .

....

فتى هاشم

«إن الله اصطفى كنانة من ولدِ اسماعيل . واصطفى قريشا من كنانة ، واصطفى من قريشٍ بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم»

حديث شريف (صحيح مسلم)

لم يكن « عبد الله » بين الذين تقدموا لخطبة « زَهرة قريش » مع أنه الجدير بأن يحظى بيدها دونهم جميعًا ، فما كان فيهم من يدانيه شرفًا ورفعة وفتوة . . .

أبوه « عبد المطلب بن هاشم » و « فيه العمود والشرف . ولم يبق لهاشم عقب إلا منه . وقد شرف فى قومه شرفًا لم يبلغه أحد من آبائه ، وأحبه قومه وعظم خطره فيهم » .

وأمه « فاطمة بنت عمرو بن عائذ المخزومية » من صميم البيت القرشى ، وقد أنجبت لعبد المطلب : أبا طالب ، والزبير ، وعبد الله ، وأم حكيم البيضاء ــ توأمة عبد الله ــ وعاتكة ، وبرة ، وأميمة ، وأروى[1] .

وجدة « عبد الله » لأبيه : « سلمى بنت عمرو النجارية الخزرجية » التى « كانت لا تنكح الرجال لشرفها فى قومها ، حتى يشترطوا لها أن أمرها بيدها إذا كرهتْ رجلاً فارقته »[2] .

وجدته لأمه : « تَخْمُر بنت عبد بن قصى القرشية » وأمها « سلمى بنت عامرة بن وديعة الفهرية » .

* * *

(١) جمهرة الأنساب : ١٢ ، نسب قريش : ١٧ (ط أولى ذخائر) وتصحف فيه اسم « برة » بـ : مرة . ثم جاء على صواب فى صفحة ١٨ .

(٢) السيرة الهشامية : ١ / ١٤٥ .

ولم يكن غريبا ألا يبادر « عبد الله » إلى خطبة « آمنة » ، مع المعروف من نذر أبيه : لينحرنّ أحدَ بنيه لله عند الكعبة .

وأى القرشيين لم يعلم بقصة ذلك النذر المحتوم الذى يقرر مصير أبناء شيخ بنى هاشم ، وفيهم عبد الله ؟

ذلك أن « عبد المطلب » حين انتهت إليه إمارة « مكة » وولى السقاية فيما ولى من وظائف الحرم ، أخذ يطيل التفكير فيما يلقاه الحجيج من مشقة بسبب شُحِّ الماء .

وذكر بئر « زمزم » التى أنقذت جده « اسماعيل » من الهلاك ، وجذبت إلى « مكة » القوافل على آثار الرعاة . . وذكر ما تناقله الآباء عن الأجداد ، ورددته الرواة فى مسامر « مكة » ومجامعها ، من حديث « جرهم » ودفنها « زمزم » حين أُرغمتْ على الخروج من مكة . فودّ لو وفقه الله إلى العثور على موضع البئر المباركة المطمورة .

وقويت رغبته هذه مع طول التفكير ، حتى صارت مشغلة نهاره وليله ، وخايلته الرؤى فى منامه تبشره بتحقيق أمله وتلهمه أن يحفر عنها فى موضع بعينه ، من الحرم .

وروى « ابن إسحاق » عمن سمع « على بن أبى طالب » (رضى الله عنه) يحدّث حديث جَدِّه وما كان من حفره زمزم :

« قال عبد المطّلب : إنى لنائم فى الحجر إذ أتانى آت فقال :

« احفر زمزم ، إن حفرتّها لم تندم ، وهى تراث من أبيك الأعظم ، لا تنزِف أبدًا ولا تُذَم ، تسقى الحجيج الأعظم ، مثل نعام جحافلٍ لم يقسم . . . »[1] .

فغدا « عبد المطلب » بمعوله ومعه ابنه الحارث ، ليس له يومئذ ولد غيره ،

---

(١) السيرة : ١ / ١٥٤ .

حتى إذا همّ بالحفر بين وثنى « أساف ونائلة » قامت إليه قريش تصده قائلة :
والله لا نترك تحفر بين وثَنَيْنا هذين اللذين ننحر عندهما .

فالتفت « عبد المطلب » إلى ابنه « الحارث » وقال :

— ذُدْ عنى حتى أحفر ، فوالله لأمضين ما أُمِرْتُ به .

وقاومت قريش ، وأطمعها فيه أن كان قليل الولد ، لكنه أصرّ على أن يمضى فى الحفر ، فلما بدت له الحجارة التى طويت تحتها البئر ، رفع صوته مكبرًا ، فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته ، فقاموا إليه فقالوا :

— يا عبد المطلب ، إنها بئر أبينا اسماعيل ، وإن لنا فيها حقًا ، فأشركنا معك فيها . . . .

قال : ما أنا بفاعل ، إن هذا الأمر قد خُصِصتُ به دونكم ، وأُعطِيتُه من بينكم . . .

فقالوا : فأنصفْنا ، فإنا غيرُ تاركيك حتى نخاصمك فيها . . .

قال : لا ، ولكن هلموا إلى أمر نصَفٍ بينى وبينكم : نضرب عليها بالقداح ، أجعل للكعبة قدحين ، ولى مثلهما ، ولكم كذلك ، فمن خرج له قدحاه على شيء كان له ، ومن تخلف قدحاه فلا شيء له . . .

قالوا : أنصفت .

وضُربت القداح ، فخرج قدحا الكعبة على الذهب ، وقدحا عبد المطلب على الأسياف والدروع ، وتخلف قدحا قريش !

من ثم أقام عبد المطلب سقاية زمزم للحُجاج ، لا ينازعه فيها أحد من قومه قريش[1] .

يومئذ كان النذر :

---

(١) السيرة الهشامية : ١ / ١٥٠ — ١٥٥ وشرحها فى الروض الأنف : ١ / ١٦٦ — ١٧٤ ، طبقات ابن سعد : ١ / ٨٣ — ٨٨ .

ذلك أن عبد المطلب حين اشتغل بحفر البئر ، وليس له من الولد سوى ابنه الحارث ، وقد لقى من قريش ما لقى ، نذر يومئذ : لئن وُلد له عشرةُ نفر ثم بلغوا معه بحيث يمنعونه ، لينحَرَنَّ أحدهم عند الكعبة .

وتوافى بنوه عشرة ، وكان « عبد الله » أصغرهم جميعًا[1] ، فتلبث عبد المطلب حتى إذا عرف أنهم بحيث يمنعونه ، دعاهم إلى الوفاء لله بنذره فلبوا طائعين . . .

* * *

أصبحت « قريش » ذات يوم من شهر جمادى الأولى قبل المبعث بنحو إحدى وأربعين سنة ، ولا حديث لها إلا « عبد المطلب » الذى خرج ببنيه العشرة إلى الكعبة ، وقد حمل كلٌّ منهم قِدْحًا عليه اسمُه ، مستسلمين للمصير المحتوم .

وخفقت قلوب نساء قريش عطفًا وحنانًا فى انتظار اللحظة الفاصلة ، ولعل عددًا منهن قد ذهب فيمن ذهب إلى الكعبة ، ليسمع كلمة السماء فى الذبيح المختار ، على حين بقيت « آمنة » مع من بقين ، لا تستطيع أن تبرح دار أبيها ، وان أقامت تترقب الأنباء فى لهفة ، وهى لا تدرى أى بنى العم عبد المطلب ، يختاره ربُّ الكعبة وفاءً بنذر شيخ الهاشميين . . .

ومضت الساعة ثقيلة بطيئة ، وما من عائد يخبر عما كان هناك فى الحرم . . .

* * *

---

(1) السيرة : ١ / ١١٤ ــ شرح المواهب للزرقانى ١ / ٩٤ ــ نهاية الأرب : ١٦ / ٥٠ ، ٥١ . وعلق ناشرو السيرة ، على قول ابن اسحاق : « وكان عبد الله بن عبد المطلب أصغر بنى أبيه » بما نصه : « الظاهر أنه يريد أن عبد الله كان أصغر ولد أبيه حين أراد نحره . أو لعل الرواية : أصغر بنى أمه . وإلا فالمعروف أن حمزة كان أصغر من عبد الله . . » الخ ، وقلت : لا خلاف فى أن حمزة ولد بعد حادث الفداء ، وكان تربًا لمحمد بن أخيه عبد الله . وفى الخبر أن عبد المطلب خطب لنفسه هالة الزهرية يوم خطب لابنه عبد الله آمنة بنت وهب . وهالة هى أم حمزة بن عبد المطلب . راجع (جمهرة أنساب العرب : ١٣) ، و (نسب قريش : ١٧) ، و (الاستيعاب : ١ / ٣٧١ ط . نهضة مصر) .

ثم انتشر الخبر فجأة فى أرجاء مكة ، متنقلاً بين أندية قريش ودورها حتى بلغ مسمع « بنت وهب » :

لقد اختارت الكعبة « عبد الله » ذبيحًا .

ووجمت « آمنة » للنبأ كما وجمت له كل قرشية يعز عليها أن يُنحر زين شباب مكة وأعز أبناء « عبد المطلب » على أبيه وعلى قريش جميعًا !

وبكت بنات عبد المطلب ، وكنّ قيامًا هناك ينتظرن أمر الله[1] . . .

وتتابعت الأخبار بعد ذلك سراعًا ، تصف كيف دخل شيخ هاشم ببنيه على « هبل » فى جوف الكعبة ، وأخبر صاحبَ القداح هناك بنذره ، ثم قاوم عاطفة الأبوة ، بكل ما يملك من شجاعة ليقول لصاحب القداح :

« اضرب على بَنِىَّ هؤلاء بقداحهم هذه » !

فأعطاه كل واحد من الأبناء العشرة قدحه الذى فيه اسمه ، وأبوهم يُنَقِّل عينيه بينهم جميعًا ، حتى استقرت نظراته آخر الأمر على أصغرهم « عبد الله » ففاض قلبه رقة وحبًا وإشفاقًا ، ورأى « أن السهم إذا أخطأ هذا الفتى الحبيب ، فقد أشوى »[2] .

وحانت اللحظة الحاسمة :

ضرب صاحب القداح ، و « عبد المطلب » قائم عند هبل يدعو الله ، فخرج القدح على عبد الله !

هنالك جمع الشيخ نفسه ، وأخذ فتاه الغالى بيد ، وأمسك الشفرة باليد الأخرى ، ثم أقبل به على « أساف ونائلة » ليذبحه[3]

بهذا كله ، طارت الأنباء فى أرجاء « مكة » حتى بلغت حَىَّ بنى زهرة ،

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد : ١ / ٥٣ ط . أوروبا .

(٢) السيرة الهشامية : ١ / ١٦٢ .

(٣) السيرة الهشامية : ١ / ١٦٢ ، الطبرى ٢ / ١٧٣ .

ثم أمسك الراوى ، وخيم الوجوم الحزين على الأفق ، وجمدت الأعين فما تجود بدمعة . .

وأقفزت دار سيد بنى زهرة من رجالها ، كما أقفرت أندية قريش جميعًا ودورها . . . فهل ذهبوا ليشهدوا مذبح عبد الله ، ويكونوا إلى جانب أبيه وهو يعانى التجربة الرهيبة والبلاء المبين ؟

هكذا ظنت « آمنة » وتمنت فى تلك اللحظة ، لو استطاعت أن تنطلق فى إثر قومها وهم يسعون إلى الحرم مهرولين . ولكن ماذا كان بوسعها — لو أنها استطاعت الذهاب إلى الحرم — أن تصنع من أجل إنقاذ ابن العم ؟ لقد قضى الأمر وفات أوان الضراعة والدعاء .

وولى النهار . . .

وأقبل ليل كثيف السواد متراكب الظلمات ، ورجال قريش لم يئوبوا بعد إلى دورهم .

ما الذى أمسكهم هناك وعاقهم ؟ لم تكن « آمنة » تدرى ، حتى عاد من يخبر أن الرجال قد ارتحلوا عن « مكة » فما فيها منهم الليلة سامر !

وانبثق شعاع هزيل من الأمل وسط الظلمات المتراكمة ، حين مضى الراوى فى حديثه يقول :

« لم يكد الأب يهم بذبح ولده ، حتى قامت إليه قريش من أنديتها فقالوا : ماذا تريد يا عبد المطلب ؟

قال : أفى بنذرى . . .

فقالت له قريش :

— والله لا تذبحه أبدًا حتى تُعذر فيه . لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتى بابنه حتى يذبحه ، فما بقاء الناس على هذا[1] ؟

---

(١) السيرة لابن هشام : ١ / ١٦٢ — والكامل لابن الأثير : ٢ / ٦ .

ووثب المغيرة بن عبد الله المخزومى ــ وهو من آل فاطمة بنت عمرو المخزومية : أُم عبد الله والزبير وأبى طالب ــ فأمسك بيد عبد المطلب وهو يصيح :

ــ والله لا تذبحه أبدًا حتى تعذر فيه ، فإن كان فداؤه بأموالنا فديناه .

وأضاف شيوخ قريش :

ــ فلتنطلق بولدك إلى عرافةٍ بخيبر ، لها تابع ، فلتسألنها : إن أمرتْك بذبحه ذبحتَه ، وإن أمرتك بأمر لك وله فيه فرج ، قبلتَه[1] . . . .

فنزل « عبد المطلب » على رأى القوم ، وانطلقوا فى طريق « خيبر » يلتمسون الكلمة الفاصلة من عرافة الحجاز .

مضوا وخلفوا من ورائهم قلوبًا واجفة وعيونًا مسهدة ، وجنوبًا قد نَبَتْ بها المضاجع ، وألسنة ضارعة فى جوف الليل ، لا تفتأ تدعو الله للمستشهد الصابر : عبد الله ، زين الشباب من بنى هاشم . . .

وأعقب رحيلهم أيام قاربت العشرين عدّاً ، وانياتِ الخطو بطيئات المسرى ، كأنما كانت تجر أثقالاً من الصم الصلاب . . .

وبقيت أندية قريش ومسامرها طوال تلك المدة ، مقفرة خلاءً .

وغشيت بيوتها غاشية من القلق والهم والانتظار . . .

وتعلقت العيون والقلوب بمشارف الطريق الآتى من الشمال ، ترقب عودة الركب الراحل . . .

وأرهفت الآذان لعلها تتسمع نبأً عن مصير الفتى العزيز . . .

وتوقفت الحياة أو كادت فى تلك الأيام العشرين ، فقد غاب عن « مكة » شيخها وفتاها ، ومعهما سادة قريش ونجومها الزُّهْر . . .

---

(١) اختلفوا فى اسم العرافة ، فقيل : قطبة ، وقيل : سجاح . انظر السهيلى (١ / ١٧٧) ، والزرقانى (١ / ٩٦) ، والنويرى (١٦ / ٥٥) .

وراح العبيد والإماء يسعون بين الدور وممر القوافل ، يلتمسون هنالك وافدًا من « خيبر » يعرف شيئًا من أنباء الركب الغائب . . .

وشهدت الليالى نفرًا من العقائل الكريمات ، يتسللن من أحياء قريش محجبات بستار من الظلمة ، فإذا بلغن الحرم تعلقن بالكعبة مبتهلات متوسلات ، ثم انطلقن على أثر ذلك إلى « المسعى » بين الصفا والمروة ، يدعون الله أن يستجيب لضراعتهن كما استجاب لضراعة « هاجر » فى هذا المكان ، وأن ينقذ « عبد الله » كما أنقذ جده « اسماعيل » !

* * *

ثم كان لهذا كله آخر : لاحت على الأفق الشمالى سحب من غبار مستثار ، تكشف عن قافلة تغذ السير إلى « مكة » فعرج الغلمان على أسطح الدور ورؤوس الجبال ، يستكشفون أمر القافلة ، فإذا الركب يدخل « مكة » على عجل ساعيًا نحو ساحة الحرم ، وهناك ترجلوا جميعًا ولبثوا قائمين يدعون ، على حين مضت رسلهم إلى أحياء قريش تجمع الإبل وتسوقها نحو « البيت العتيق » .

وسعى غلام من موالى « بنى زهرة » ، يحدث سيدات البيت القرشى عما شاع فى البلد الحرام وذاع ، من خبر العرافة والنذر :

حدثوا أن القوم انطلقوا حتى جاءوها بخيبر ، وقص عليها « عبد المطلب » خبره وخبر ابنه « عبد الله » وما أراد به وفاء بنذره فيه . فقالت لهم :

— ارجعوا عنى اليومَ حتى يأتينى تابعى فأسأله . . .

فلما مضوا عنها قام « عبد المطلب » ليلَته يدعو ربه ، ثم غدوا عليها فقالت لهم :

قد جاءنى الخبر : كم الدية فيكم ؟

أجابوا : عشرة من الإبل . . .

قالت : فارجعوا إلى بلدكم وقربوا صاحبكم وقربوا عشرًا من الإبل ، ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح ، فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل عشرًا فعشرًا حتى يرضى ربكم ، وإن خرجت على الإبل فانحروها عنه ، فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم . . . »[1] . .

بعد فترة لم تطل ، سُمِعَت ضجةٌ عالية تقترب ، وإذا جماعة من وجوه « هاشم وقريش » يتقدمهم « عبد المطلب » وإلى يمينه « عبد الله » وهم يقتربون من بيت سيد « زهرة » .

إذن فقد نجا زين شباب هاشم !

ما أوسع رحمتك يا رب !

وهمت « آمنة » بأن تسعى إلى أبيها لتسأله كيف كانت النجاة ، لولا أن فوجئت بأبيها نفسه يقف بباب الدار مرحبًا بالوافدين الكرام .

* * *

(١) السيرة : ١ / ١٦٣ . وقابل على رواية الواقدى فى (الطبقات الكبرى لابن سعد) : ١ / ٨٨ .

العُــــرس

« ثم انصرف عبد المطلب آخذًا بيد عبد الله ــ إثر افتدائه من الذبح ــ فخرج حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة . . وهو يومئذ سيد بنى زهرة نسبًا وشرفًا ، فزوجه ابنته آمنة . . . »

(ابن إسحاق) ــ فى السيرة النبوية

فيم كان مقدمهم ؟ . . .

لم يطل بآمنة الوقت لتعرف الخبر السعيد ، فلقد أقبلت عليها أمها « برة » بعد قليل متهللة الوجه مشرقة الأسارير ، لتحدثها عن « عبد الله » كيف افتدى من النحر :

« قام عبد المطلب يدعو الله ، ثم قرَّبوا عبد الله وعشرًا من الإبل وضربوا فخرج القِدْحُ على عبد الله .

« فزادوا عشرًا أخرى وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا ، فخرج القدح على عبد الله . . .

« ثم ما زالوا يزيدون عشرًا بعد عشر ، والقِدح يخرج على عبد الله . . .

« حتى بلغت الإبل مائة ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القدح ، لأول مرة ، على الإبل ، فهتفت قريش ومن حضر :

ــ قد انتهى رضا ربك يا عبد المطلب !

فهز رأسه فى ارتياب ثم قال :

ــ لا والله حتى أضرب عليها ثلاث مرات !

« فضربوا على عبد الله وعلى الإبل المائة ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، فخرج القدِح على الإبل ثم عادوا الثانية ، فالثالثة ، والقِدْحُ يخرج عليها !

« وإذ ذاك اطمأن قلب الشيخ التقى ، ونُحرت الإبل ، ثم تُركت لا يُصَد عنها إنسان ولا سبع ! »[1] .

وسكتت الأم « برة » وقد بان عليها أنها لا تزال تطوى الذى جاءت من أجله ، وراحت ترقب أسارير ابنتها « آمنة » فى لهفة ، لكن الفتاة أفلحت فى أن تخفى رغبتها فى معرفة بقية الحديث ، وراء قناع رقيق من المداراة ، ودلها قلبها على أن أمها ما جاءت تقص عليها قصة الفداء إلا تمهيدًا لشأن آخر . . .

* * *

وإذ هما فى مجلسهما ذاك ، ترنو إحداهما إلى الأخرى كأنما تريد أن تعرف ماذا تخفى ، دخل عليهما « وهب » ليقول لابنته فى رقة وحنو :

« إن شيخ بنى هاشم قد جاء يطلبك زوجة لابنه عبد الله »[2] . . .

وعاد من فوره إلى ضيفه الكريم ، وترك « آمنة » فى شبه ذهول ، ما لبثت أن أفاقت منه على صوت قلبها يخفق عاليًا حتى ليكاد يبلغ مسمع أمها الجالسة إلى جوارها فاحتضنتها فى حنو غامر ، خدَّر مقاومة الفتاة فأسلمت نفسها إلى صدر الأم . . .

وطاب لها أن تبقى هكذا فى حضن أمها ، صامتة هادئة ، لولا أن سيدات آل زهرة توافدن واحدة فى أثر أخرى ، مهنئات مباركات .

وأحطن بالعروس يتحدثن عما ترامى إليهن من تعرض نساءٍ من قريش

---

(١) السيرة : ١ / ١٦٣ .

(٢) فى السيرة « ١ / ١٦٤ » أن وهبًا هو الذى زوج ابنته آمنة . ومثله فى عيون الأثر (١ / ٢٤) والذى فى طبقات ابن سعد « ١ / ٥٨ » أنها كانت فى حجر عمها وهب ، واتفقوا على أن عبد المطلب خطب فى المجلس نفسه « هالة بنت وهيب » وهى أم ولده حمزة .

لـ « عبد الله » ووقوفهن فى طريقه بين الحرم ودار « وهب » يعرضن أنفسهن عليه عرضاً صريحاً . . .

وسمعت « آمنة » من حديثهن ذاك عجبا !

سمعت أن بنت نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصى القرشية[1] ، استوقفت « عبد الله » قريباً من الكعبة فقالت له :

ــ أين تذهب يا عبد الله !

فأجاب فى إيجاز : مع أبى . . .

قالت : لك مثلُ الإبل التى نُحِرت عنك اليومَ ، إن قبلتَ أن أهب لك نفسى الساعة !

فرد عليها معتذراً فى تلطف :

ــ أنا مع أبى ، ولا أستطيع خلافه ولا فراقه ...

وقيل إن « فاطمة بنت مر » ــ وكانت من أجمل النساء وأعفهن ، تقرأ الكتب كما جاء فى طبقات ابن سعد ، أو كانت كما ذكر الطبرى وابن الأثير ، كاهنة من خثعم[2] ــ دعته إلى نكاحها فنظر إليها وقال :

أمَّـا الحرامُ فـالممـاتُ دونَــه

---

(١) اكتفى ابن إسحاق بذكر نسبها دون اسمها (السيرة : ١ / ١٦٥) وذكر ابن سعد فى طبقاته الاختلاف فى اسمها ــ (١ / ٨٥ أول) ولم يسمها ابن سيد الناس ، واكتفى بأنها أخت ورقة بن نوفل (عيون الأثر ١ / ٢٣) لكن بهامش السيرة أن اسمها « رقية بنت نوفل » ونقل النويرى فى نهاية الأرب (١٦ / ٥٨) أن اسمها « قتيلة بنت نوفل » ونقل السهيلى فى الروض الأنف « ١ / ١٠٢ » أن اسمها « رقية » ومثله فى نسب قريش ١٧ . ولم يذكرها ابن حزم فى جمهرة أنساب العرب : (١١١) مع ولد أبى ورقة « نوفل بن أسد بن عبد العزى » . .

واقرأ حديث من عرضن أنفسهن على عبد الله ، فى الجزء الأول من السيرة ، وطبقات ابن سعد وفى تاريخ الطبرى ٢ / ١٧٤ ، والكامل لابن الأثير : ٢ / ٤ .

(٢) السيرة : ١٦٤/١ ، الطبقات الكبرى ٩٦/١ ، تاريخ الطبرى : ١٧٤/٢ ، الكامل لابن الأثير : ٤/٢ .

والحِـلُّ لا حِـلَّ فـأستبينَــه
فكيف بـالأمـر الـذى تبغينـه

زاد فى رواية :

يحمى الكـريم عـرضه ودينـه

وقيل كذلك إن « ليلى العدوية » عرضت نفسها عليه يومئذ ، فلم يستجب لها .

بهذا ومثله كانت النساء يتحدثن إلى « زَهرة قريش » حين توافدن عليها للتهنئة ...

ولعلهن التمسن لهؤلاء النسوة عذرا : أن كان عبد الله الذبيح المفتدى ، وأن لم يُفْدَ أحد قبله بمائة من الإبل « وما رئى رجل في قريش قط ، أحسن منه »[1] .

هنيئاً لك يا آمنة ، لقد ظفرت بمن « تقطعت قلوب سيدات مكة من أجله ! »

وليس فى هذه المرويات ما يشذ عن الفطرة ، ولا فيها ما يريب ، وقد تواترت بها الرواية فى مصادرنا الأصول للسيرة وعصر المبعث . لكن « الدكتور محمد حسين هيكل » يقرر « أن الوقوف لتقصى أمثال هذه الروايات عن تعرض النساء لعبد الله ، لا غناء فيه » وكل ما استطاع الدكتور هيكل أن يطمئن إليه ، هو « أن عبد الله كان شاباً وسيماً قوياً ، فلم يكن عجباً أن تطمع غير آمنة فى الزواج منه ، فلما بنى بها تقطعت بغيرها أسباب الأمل ولو إلى حين » .

وكذلك قال « بودلى » فى كتابه (الرسول) :

« وكان عبد الله قد اشتهر بالوسامة . فكان أجمل الشباب وأكثرهم سحراً

---

(١) عيون الأثر : ١ / ٢٣ عن الزبير ـــ هو ابن بكار .

وذيوع صيت فى مكة ، ويقال انه لما خطب آمنة بنت وهب ، تحطمت قلوب كثيرات من سيدات ومكة » .

حين أراها ، على أى حال ، ذات غناء كبير فى فهم البيئة المكية ، وما حف بخطبة أبوى المصطفى ، عليه الصلاة والسلام ، من ظروف وملابسات تجلو الصورة التى تمثلها القوم للأم التى ولدت سيد البشر .

ولا نكاد نشك فى أن « آمنة » سمعت كثيرا ، وهى على وشك الزفاف ، عن تطلع غيرها من القرشيات إلى فتاها المرموق ، وأنها تلقت التهنئة الحارة بزواجها من الشاب الهاشمى الذى ملأ الأسماع بقصة فدائه ، كما ملأ الأعين بسحر فتوته ونضارة حيويته .. وسرَّ آمنة أن لم يكد يُفتدى من الذبح حتى هرع إليها خاطباً ، زاهداً فى كل أنثى سواها ، غير مُلقٍ أذنيه إلى ما سمع من دواعى الإغراء !

وطاب لها فى زحمة المهنئات أن تغيب عنهن وهى بينهن حاضرة ، تتمثل « عبد الله » وهو يدارى عواطفه طويلاً فلا يتقدم لخطبتها قبل أن يعرف مصيره ، ثم لما نجا ، كانت دار « آمنة » قبلته بعد الحرم ، ومقصده إثر النجاة ومبتغاه ، فهو يسعى إليها لم يكد يطيق الصبر عنها بعد الفداء ..

كم فكر فيها عبد الله ؟ !

وكيف يكون لقاؤهما الوشيك ؟

فى منطق الفطرة السوية ، أن هذه الأسئلة مما خطر بال « آمنة » وهى فى حلمها المستغرق ، حتى أفاقت منه على ضجة الدار تتهيأ لعرس عاجل قريب ..

* * *

كانت قصة الفداء قد هزت قلوب المكيين تعلقاً بالشاب الذى مسَّت الشفرة منحره وهو صابر مستسلم لأمر الله ، راض بقدره ، حتى إذا لم يبق بينه وبين الموت إلا قيد شعرة ، أنقذه اللهِ بأغلى فدية عرفها العرب !

وأضيئت المشاعل فى شتى أرجاء البلد الحرام الآمن ، وحفلت دار الندوة بوجوه قريش وساداتها ، وسهرت مسامر البلدة المقدسة تسترجع قصة الذبيح الأول حين مضى به أبوه « ابراهيم » إلى الجبل لكى يذبحه طاعة وتعبداً ، فافتداه الله بِذِبْحٍ عظيم بعد أن كان من الموت قاب قوسين أو أدنى . . .

إنها القصة التى تناقلها آباؤهم وأجدادهم جيلاً بعد جيل ، تعود فتمثل فى الموضع نفسه من البيت العتيق الذى رفع القواعدَ منه ابراهيمُ وولده اسماعيل ، الذبيح المفتدى ..

والمفتدى هذه المرة ، هو حفيد أصيل من ذرية « إسماعيل » التى انتشرت فى الأرض وتوارثت مجد الجدود ...

وغير مستبعد أن يخطر لبعض السمار فى ليلة العرس ، أن يَصِلُوا ما بين الذبيحين « اسماعيل وعبد الله » وربما أبعد بعضهم ، فحاول أن يلتمس وراء ستار الغد المحجب ، ما ينتظر « عبد الله » من أمر ذى شأن ، كذلك الذى كان لإسماعيل بعد الفداء ...

واستغرقت الأفراح ثلاثة أيام بلياليها ، كان « عبد الله » أثناءها يقيم مع عروسه فى دار أبيها على سُنَّة القوم[1] ، حتى إذا أشرق اليوم الرابع ، سبقها إلى داره كى يهيئها لاستقبال الوافدة العزيزة ، على حين مضت هى فى ذاكِ اليوم تملأ عينيها من دار أبيها التى استقبلتها وليدة ورعتها صبيةً ، وزفَّتها عروساً ...

ثم راحت تودع أهلها وأترابها وصواحب صباها الغض . وشغلها ذلك كله ساعات النهار وقطعة من المساء ، ثم جمعت نفسها وسارت فى رفقة من آلها متجهة الى دنياها الجديدة ، وهى تتلفت بين خطوة وأخرى إلى الربوع التى

---

(١) ابن سعد ، عن هشام بن محمد بن السائب الكلبى عن أبيه : ١ / ٩٥ . وعيون الأثر ١ / ٢٥ . من طريق محمد بن السائب الكلبى .

خلفتها من ورائها ، فتحس لفراقها لذعة خفية من شجو وحنين ، زادهما المساء الساجى مرارة وعذوبة !

وانطوت على ذاتها ، فأمسكت طوال الطريق عن الكلام ، وسارت خاشعة مخدرة ، كأنها طيف رقيق يسرى حالما !

حتى تلقاها « عبد الله » على باب داره متلهفاً مشوقاً ، فرفعت إليه وجهها المليح ، وقد أضاءه شحوب خفيف ، وتألقت فى عينيها دمعتان صافيتان ...

وأدرك « عبد الله » ما بها ، فلم يشأ أن ينقلها بغتة من ذكريات ماضيها الذى فارقته وشيكاً ، بل قادها فى رفق إلى رحبة الدار الواسعة ، حيث أعِدت هنالك مجالس للضيوف الكرام الذين صحبوا العروس إلى بيتها ...

وراح يريها بيتها الجديد ...

ولم يكن البيت كبيراً ضخم البناء ، لكنه إذا قيس ببيوت مكة يومئذ ، عُدَّ رحباً مريحاً لعروسين يبدآن حياتهما المشتركة ...

كان ، كما وصفوه[1] : ذا درج حجرى يوصل إلى باب يفتح من الشمال ، ويدخل منه إلى فناء يبلغ طوله نحو اثنى عشر متراً فى عرض ستة أمتار ، وفى جداره الأيمن باب يدخل منه إلى قبة ، فى وسطها — بميل إلى الحائط الغربى — مقصورة من الخشب ، أعدت لتكون مخدع العروس ...

* * *

وترك « عبد الله » عروسه فى مخدعها مع رفيقاتها من سيدات « آل زهرة » ثم خرج إلى رحبة الدار الواسعة ، حيث الضيوف الكرام . . .

ومضى وهَن من الليل والقوم ساهرون ، يباركون العتبة الجديدة التى انتقلت إليها زهرة قريش ، ويدعون للزوجين الكريمين : أعز من عرفت الحجاز حسباً وأعرقهم نسباً ...

---

(١) محمد لبيب البتانونى : الرحلة الحجازية .

البُشرى

« وسمعت هاتفاً يهتف بها فى رؤياها : إنك قد حملت
بسيد هذه الأمة » (ابن إسحاق)

ثم آب الضيوف إلى منازلهم ، وهجع الكون وسكنت الدنيا ، و « عبد الله » جالس إلى « آمنة » يؤنسها بحديث مثير عما رأى فى رحلته إلى كاهنة الحجاز ...

سألته العروس وقد أنساها لطفه ما كانت تحسه من شجن لفراق آلها :

ـــ هلا حدَّثْتنى يا عبد الله عن أولئك النسوة اللاتى شغلنك فى أيامك هذه ؟ فانبسطت أساريره لإقبالها عليه ، وقال يجيبها :

ـــ ما شغلننى عنك قط يا آمنة ، ولكنه الذى سمعتِ من تعرضهن لى ، وانصرافى عنهن إليك وحدك ! وأضاف قائلا :

ـــ على أن للقصة بقية لمَّا تسمعى بها ، حدثت فى يومنا هذا ، إذ كنت عائدًا من دار أبيك لكى أهيِّىء دارى لاستقبالك وشغلتُ بهذا يومى كله ، فلم أكد أحدث أحداً بما كان !

قالت وقد استثار أشواقها لمعرفة القصة :

ـــ أخاطبات جديدات يطلبن القرب من فتى مكةَ الأوحد ؟

فتبسم ضاحكاً من دعابتها الحلوة ، وأجاب :

ـــ كلا يا آمنة ، بل زاهدات فيه منصرفات عنه ، كأن لم يكن هو نفسه الذى تعلقن به منذ أيام ، وأنستْهن رغبتُهن فيه ما عُرف عن مثلهن من صدٍّ وتمنع !

وأمسك فترة يرنو إلى صاحبته ، كأنه يريد أن يعرف وقع الحديث عليها ، فما زادت على أن أومأت إليه يمضى فى قصته .

فاستجاب لإيماءتها واستطرد يقول :

أجل يا ابنة وهب ! زاهدات فى فتاك كأنه أُبدِل خلقاً جديداً . مررتُ بهن اليوم فى طريقى بين دار أبيك ودارنا هذه ، فأشَحْن عنى بوجوههن معرضات ، إلى حد أثار عجبى وفضولى لمعرفة سر هذا الانقلاب ، فسألت إحداهن « بنت نوفل » :

« مالك لا تعرضينْ علىّ اليومَ ، ما كنتِ عرضتِ علىَّ بالأمس ؟ »

فكان جوابها العجيب أن قالت :

« فارقكَ النورُ الذى كان معك بالأمس ، فليس لى بك اليوم حاجة ! »[1] .

وكذلك أعرضت عنى « فاطمة بنت مر » قائلة :

« قد كان ذلك مرةً ، فاليومَ لا »[2] .

ثم أضافت : « إنى والله ما أنا بصاحبة ريبة[3] ، ولكنى رأيت فى وجهك نوراً فأردت أن يكون لى ، فأبى الله إلا أن يجعله حيث أراد ، فما صنعتَ بعدى » !

قلت : « زوَّجنى أبى آمنة بنت وهب » .

فانشدت :

لله مـــا زُهريـــةٌ سلـــبتْ منكَ الذى استلبت وما تدرى !

---

(١) الحوار بنصه عن « ابن اسحاق » فى السيرة : ١ / ١٦٥ . وفى طبقات ابن سعد (١ / ٩٦) مع خلاف يسير فى بعض ألفاظ .

(٢) قال ابن سعد : ذهبت كلمتها هذه مثلاً . انظره فى مجمع الأمثال للميدانى : ٢ / ٣٤ .

(٣) هذه عبارة ابن سعد فى الطبقات ١ / ٩٦ ، ومثلها فى الطبرى : ١ / ١٧٤ ، وابن الأثير ٢ / ٤ ، وفى نهاية الأرب : إنى والله لست بصاحبة زنية ١٦ / ٦١ .

ثم قالت فى تحسر ، من أبيات :[٢]

ولما قضت منه « أمينة » ما قضت نبا بصرى عنه وكلَّ لسانى

وسألتُ الثالثة : « ليلى العدوية » ماذا صدها عنى ؟ .. فأجابت :

« مررتَ بى وبين عينيك غرة بيضاء ، فدعوتُك فأبيتَ علىَّ ، ودخلتَ على آمنة فذهبتْ بها »

وصمت « عبد الله » وسكتت العروس ، وقد راحا يفكران فى ذلك الموقف الغريب الذى وقفته نسوة قريش من « عبد الله » .

ثم كانت « آمنة » هى التى قطعت الصمت فجأة ، بأن طلبت من زوجها أن يعيد عليها ما كان بينه وبين « بنت نوفل » .

فتساءل « عبد الله » وقد رابه ما يبدو عليها من اهتمام :

ـــ ولماذا تسألين عن بنت نوفل دون سواها ؟

أجابت « آمنة » فى جد :

ـــ ستعرف بعدُ ، فهلا أعدتَ لى ما قالت ؟

فلم يسع عبد الله إلا أن يقول :

ـــ سألتها : مالَكِ لا تعرضين علىّ اليوم ما كنتِ عرضتِ علىَّ بالأمس ؟

فأجابت : فارقك النور الذى كان معك ، فليس لى بك اليوم حاجة .

فعلّقت « آمنة » بعد فترة تفكير :

ـــ والله يا ابن العم ، إنى لأرى لهذا الأمر ما بعده ، فهذه المرأة أخت « ورقة بن نوفل » وهو ـــ كما تعلم وأعلم ـــ قد تنصر واتبع الكتب ، وبشر بأن سيكون فى هذه الأمة نبى !

(١ ـــ ٢) وانظر بقية الأبيات فى طبقات ابن سعد (١ / ٩٧) تاريخ الطبرى (٢ / ١٧٤) والروض الأنف : ١ / ١٨٠ ، ونهاية الأرب : ١٦ /٧٧

ثم استطردت تقول بعد صمت قصير :

ـــ تراني نسيت أن فاطمة بنت مر ، قرأت الكتب كذلك ، وأنها كاهنة خثعم[١] .

فحدق « عبد الله » فى زوجته ملياً ثم هتف :

ـــ ترين يا آمنة أننا ...

فلم تدعه « آمنة » يكمل عبارته ، واستغرقت فى رؤيا ملهمة استعادت فيها كلّ الذى كانت الجزيرة تمتلىء به من أشعار ودلائل ، مرهصة عن نبى منتظر !

ونامت ليلتها ، وما تكف هذه الرؤيا عن الإلمام بها ، و « عبد الله » إلى جانبها ساهر يقظان ، يرنو فى نور الفجر الوليد إلى الابتسامة الرقيقة التى يتألق بها وجهها الحلو ، وهى نائمة تحلم .

حتى إذا دنا الصبح ، استيقظت العروس « آمنة » من نومها الهنىء وأقبلت على زوجها تحدثه عن رؤياها :

رأت كأن شعاعاً من النور ينبثق من كيانها اللطيف فيضىء الدنيا من حولها حتى لكأنها ترى به بصرى من أرض الشام . وسمعت هاتفاً يهتف بها : « إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ... »[٢] .

وبقى « عبد الله » مع عروسه أياماً لم يحدد لنا الرواة عددها ، ولكنها عند جمهرة المؤرخين لم تتجاوز عشرة أيام ، إذ كان عليه أن يلحق بالقافلة التجارية المسافرة إلى غزة والشام فى عِير قريش .

وأغلب الظن أن كلام « بنت نوفل » عن النور الذى فارق عبد الله الى « آمنة » قد شغل أويقات السمر فى تلك الأمسيات المعدودات التى قضاها

---

(١) ابن سعد : ١ / ٩٦ ، وتاريخ الطبرى : ٢ / ١٧٤ والنهاية لابن الأثير : ٢ / ٤ .
(٢) السيرة : ١ / ١٦٦ وطبقات ابن سعد : ١ / ٩٨

العروسان معاً قبل أن يفترقا ، وأن الأحلام قد حلقت بهما فى آفاق عالية ، خايلتهما فيها أمنية عزيزة غالية ، قلّ من شارفها أو طمح إليها .

وربما تذكرا خبر « سوداء بنت زهرة الكلابية » إذ وُلِدَتْ ورآها أبوها زرقاء شيماء فأراد وأدَها ، فأتى الحجونَ ليدفنها هناك ، فلما حفر لها الحافرُ سمع هاتفاً يقول :

« لا تئد الصبية وخلِّها فى البرية » ...

وتكرر ذلك ، فعاد إلى أبيها فقال : إن لها لشأنا ، وتركها . فكانت كاهنةَ قريش ، فقالت يوماً لبنى زهرة : إن فيكم نذيرة أو تلد نذيراً ، فاعرضوا علّى بناتكم . ففعلوا ، فقالت لكل واحدة قولاً ظهر بعد حين . حتى عُرِضتْ عليها آمنةُ فقالت : هذه النذيرة ، أو تلد نذيراً[1]

* * *

(١) الروض الأنف : ١ / ٢٤٥ .

المبحث الرابع

العروسُ الأرملة

— بِـــرَاق

— رسُـــول إلى يثرب

— غـائب لا يئوب . .

فِـــرَاق

ثم حانت ساعة الفراق !

ودّع « عبد الله » زوجه الحبيبة حين أذّن المؤذن برحيل القافلة ، فتشبثت به وقد ساورها هاجسٌ من قلق وتوجس ، ارتعدت منه . فربت « عبد الله » على يدها اللطيفة فى حنو ، وهو يظن أن الذى بها لا يعدو أن يكون وحشة الفراق الوشيك ...

ثم انتزع نفسه منها ، ووقف فى فناء الدار يقول لها وهو يتكلف التصبر ويتجمل بالمداراة :

ــ إن هى إلا بضعة أسابيع ، ثم أعود إليك يا آمنة على جناح الشوق واللهفة ....

فهمست فى صوت شِبه مختنق :

ــ وماذا أصنع بنفسى وأنت بعيد ؟

أجاب ملاصفا :

ــ تسامرين طيفى الذى لن يبرح مطيفاً بك محوماً عليك ، وترعَين قلبى الذى أدعه هنا وأسافر بجسم ينزع أبداً إلى أعز موضع ، ويحن إلى أحب وأجمل مَن خلق الله !

فتراخت يداها وأنّت فى ضعف :

ــ ويلى يا عبد الله من ليالىّ الطوال !

فصاح بها وهو يخطو نحو باب البيت ووجهه إليها :

ـــ لا ويل لك يا آمنة ! ستشاغلك طوالَ لياليك رُؤى مؤنسة . أفنسيت حديثَ بنتِ نوفل ، وفاطمة بنت مر ، ورؤيا الأمس القريب ؟

وإذ بلغ الباب ، انفلت مسرعاً قبل أن تخونه شجاعته وتغلبه عواطفه ، على حين بقيت « آمنة » حيث كانت ، واقفة بباب مخدعها الموحش ، وقد وضعت يدها على قلبها خشية أن يتمزق ...

وأدركتها بعد ساعة ، جاريتها « بركةُ أم أيمن » فقادتها برفق إلى فراشها ، ثم جلست إلى جانبها ترعاها مشفقة عليها مما تلاق ...

* * *

ومرت أيام وليال ، و « آمنة » فى بيتها لا تبرحه ، تجتر أشجانها وترسل قلبها فى أثر الحبيب الراحل . وقد حاول أهلها ، كما حاول « عبد المطلب » أن يصرفوها عن وحدتها حرصاً على صحتها ، لكنها آثرت العزلة على الأنس بالأهل والصواحب ، بل لعلها كرهت أن يفسد أحد عليها هذه العزلة لما كانت تجده فى مسامرة طيف الغائب ، من شجَن وشجو .

ومضى شهر لا جديد فيه سوى أن « آمنة » شعرت بالبادرة الأولى للحمل ، وكان شعورها به رقيقاً لطيفاً . روى ابن سعد من طريق الواقدى بسنده إلى عبد الله بن وهب بن زمعة الأسدى ، عن أبيه عن عمته ، قالت : كنا نسمع أن رسول الله ﷺ لما حملت به أمه كانت تقول :

« ما شعرت بأنى حامل به ولا وجدت له ثقلةً كما تجد النساء ، إلا أنى أنكرت رفعَ حيضتى ، على أنها كانت ربما ترفعنى وتعود ، فأتانى آت وأنا بين النوم واليقظة فقال هل شعرتِ أنك حملت ؟ فكأنى أقول : ما أدرى . فقال : إنك حملتِ بسيد هذه الأمة ونبيها ، وذلك يوم الاثنين . فكان ذلك

مما يقن عندى الحمل »[1] .

وعن الزهرى ، قال : قالت آمنة : لقد علِقتُ به فما وجدت مشقة حتى وضعته »[2] .

وودت لو طارت بالبشرى إلى « عبد الله » .

واستعادت شيئاً من إشراقها ، وقد هوّن عليها مرارة الفراق أن أكثر أيامه قد تصرمتْ ، وأن كل يومٍ يدنيها من اللقاء المنتظر ، ويزيدها يقينًا من الحادث السعيد الذى ترجو أن تلقى به زوجها فى اللحظة التى يؤوب فيها !

وأهلّ الشهر الثانى أو مضت قطعة منه ، وآن للقافلة أن تعود ، فتهيأت « آمنة » للقاءِ وشيك ، وراحت تعد ما بقى من أيام وليال ، وتتمثل زوجها وقد عاد إليها متلهفاً يحدثها عما لقى فى بعدها من حرّ الشوق ولهفة الحنين . ولكن هل تراها تستطيع أن تصبر فلا تفاجئه ببشراها ؟ هل تراها قادرة على أن تكتم عنه ما تراءى لها من أحلام اليقظة ورؤى المنام ، ريثما تستمتع بحديثه الشجى ؟

بهذا شغلت « آمنة » فى الفترة التى سبقت عودة القافلة ، ثم لما لاحت طلائعها ، خفق قلبها ووقفت فى ساحة الدار مما يلى الباب الخارجى ، تنتظر أن يفتح بين آونة وأخرى ، وتشرق منه طلعة الحبيب ...

وطال بها الانتظار حتى ساورتْها شكوك مبهمة وخوف طارىء ، فتنبهت فجأة إلى غيبة جاريتها « بركة » وكانت قد ذهبت منذ شاع خبر قدوم المسافرين ، كى تعجل بالبشرى إلى سيدتها .

(١ ـــ ٢) طبقات ابن سعد ١ / ٩٨ ، وقوبل عليه عيون الأثر : ١ / ٢٥ ، وانظر معه شرح المواهب للزرقانى : ١ / ١٠٦ وترجمة عبد الله بن وهب بن زمعة التابعى فى بابه من تهذيب التهذيب .

وقد اختلفت الروايات فى المكان الذى حملت فيه آمنة بسيد البشر ، ففى قول انها حملت به فى شعب أبى طالب عند الجمرة الوسطى ، قاله الزبير بن بكار (عيون الأثر ١ / ٢٦) ، وفى قول إنها حملت به فى بيت آلها بنى زهرة (الاستيعاب لابن عبد البر : ١ / ١٦) وهو الأرجح .

وتناهى إلى أذنيها ضجيج اللقاء فى الدور المتاخمة لدارها ، فأين عبد الله ؟ ما الذى أمسكه عنها فلم يَعجَل إليها ؟

لعله لقى — فى طوافه بالكعبة إثر عودته — من احتجزه حيناً ...

أو لعل أباه الشيخ آت فى صحبته ، فما يستطيع عبد الله إلا أن يمشى على مهل ، رعاية لشيخوخة أبيه ...

أو لعل ... ولعل ....

رسولٌ إلى يثرب

ثم ... سمعت خطوات وانية تدنو من الدار ، فتعلقت عيناها بالباب وهى لا تكاد تتماسك من انفعال ، حتى إذا فتح الباب بعد لحظة طالت كأنها دهر ، خذلتْها قدماها ، فوقفت حيث هى ، واجمة خائفة !

لم يكن « عبد الله » هو القادم ، وإنما جاء « عبد المطلب » الشيخ فى صحبة أبيها ونفر من أهليها الأقربين ، وقد غشيتْ وجوههم غاشيةٌ من القلق .

وكانت « بَرَكة أم أيمن » تمشى فى أثرهم متخاذلة مطرقة ، تحاول أن تخفى دمعة أفلتت من مقلتيها ...

وقال قائل من أهلها ، وهو يتحاشى النظر إليها :

ــ بعضَ الشجاعة يا آمنة ، فما فى الأمر ما يدعو إلى مثل ذلك الجزع . عادت القافلة وكنا فى انتظارها بالحَرَم ، فلما افتقدنا « عبد الله »أخبرنا رفاقه أن وعكة طارئة ألمت به وهو فى طريقه إلينا ، وعما قريب يبرأ ويعود سالماً إليك وإلى مكة وقريش ...

وانحلت عقدةٌ ربطت لسان « عبد المطلب » فعقَّب قائلاً :

ــ هو ذاك يا آمنة . . . وعكة هينة ولا شىء أكثر ، وقد قال الرفاق : خلَّفناه بيثرب عند أخواله ، فبعثتُ إليه أخاه الحارث[1] ، كى يكون معه ، ويصحبه فى طريقه إلينا ، فثوبى إلى صبرك وادعى له ...

(١) هذه رواية ابن اسحاق فى السيرة ، والواقدى فى طبقات ابن سعد (١/ ٩٩) واليعمرى من طريقه (عيون الأثر ١ / ٢٦) والذى فى النهاية لابن الأثير (٢ / ٣) ان الأخ الذى توجه إلى يثرب كان الزبير لا الحارث .

قالت فى ضعف : أفعل يا عم !

وانصرفت من فورها إلى الابتهال والدعاء ، فلم تكد تشعر بالقوم حولها ، حتى غادروها إلى الكعبة خاشعين ضارعين ...

* * *

وأتم الشهر الثانى دورته ، و « آمنة » على حالها تجاهد ما استطاعت أن تذود عن قلبها اليأس ، وتلوذ بالدعاء ، لعل الله يرد عليها ذاك الغائب الذى افتُدى بالأمس أغلى فداء ...

وكانت تعاودها ، فى لحظات نومها القصيرة ، رؤيا مُلِحَّة ، عن جنين عظيم تحمله ، وتسمع الهاتف يبشرها بأعظم بنوة ، فإذا آبت إلى يقظتها شقَّ عليها ألا تجد « عبد الله » بجانبها ، تقضى إليه بالذى ترى وتسمع ...

....

غائبٌ لا يئوب

وبعد حين ...

عاد « الحارث بن عبد المطلب » وحده ...

عاد لينعى أخاه الشاب ، إلى أبيه الشيخ ، وزوجه العروس ، وبنى هاشم والقرشيين جميعاً ...

لقد غاله الموت وهو بين أخواله من بنى النجار ، على اثر رحيل القافلة التى تخلف عنها ...

ودفن هناك ــ قبل وصول أخيه ، على أرجح الأقوال ــ ولم يُقبل فيه هذه المرة أى فداء !

وجمت « آمنة » للخبر ، وقست عيناها فما تسعفانها ببكاء ...

* * *

وأعفاها ذهولها من الانهيار والتصدع ، فلبثت أياماً لا تكاد تصدق النعى ، حتى إذا تيقنت من الكارثة ، فاضت عبراتها ، ويُرْوَى لها فى رثائه :[1]

عفا جانبُ البطحاء من زين هــاشم
وجــاور لحداً خارجًــا فى الغماغــم

دعتْـــه المنايـــا دعـــوةً فأجـــابها
وما تركتْ فى الناس مثلَ ابن هاشم

(١) ابن سعد عن الواقدى : ١ / ١٠٠ السهيلى : ١ / ١٠٧ ــ والزرقانى : ١ / ٢١٠ ــ والنويرى : ١٦ / ٦٦ .

عَشيَّـــةَ راحـــوا يحملـــون سريـــره
تعـــاوَرَه أصحابُـــهُ فى التزاحـــم
فـــإن يَكُ غـالتْـــه المنـــونُ وريبُهـــا
فقـــد كان مِعطـــاءً كثيـــرَ التراحـــم

ثم أمسكت لا تزيد ...

ووجد عليه « عبد المطلب » وإخوته وأخواته وجداً شديداً[1] .

ولبست « مكة » كلها ثوب الحداد على الشاب الذى غالته المنون غريباً ولما ينزع عنه ثوب العرس ، وصحلت من النواح عليه حلوق بُحَّتْ من الهتاف له حين احتفلت بفدائه منذ شهرين وأيام ...

كان فى ريعان شبابه[2] ، حين غاله الموت إثر فرحة الفداء !

وترملت العروس الشابة ، وما يزال فى يديها خضاب العرس !

....

---

(١) ابن سعد عن الواقدى ١ / ٩٩ ، النويرى : ١٦ / ٦٦

(٢) فى الثامنة عشرة : (السهيل ١ / ١٨٥ والعيون ١ / ٢٤) ونقل ابن سعد طبقاته عن الواقدى ان سنه كانت يوم وفاته ، خمساً وعشرين سنة ، وقيل ثلاثون (عيون الأثر ١ / ٢٤) وانظر نهاية الأرب : ١٦ / ٦٦ . والحاوى للفتاوى ٢ / ٢٣٠ .

المبحَث الخامِس

أمّ اليتيم

— الجَنين

— الوليد

— الرضيع

الجَنِيْن

ما مضت فترة من الرسْلِ إلا
بشرت قومَها بك الأنبيـاءُ
فهنيئا به لآمنـةَ الـفضـ
ـلُ الذى شَرُفتْ به حـواء
مَـن لحواءَ أنها حملتْ أحمـ
ـدَ أو أنها بـه نُـفَساء

(البوصيرى)

وانفضَّ المأتم ...

ولكن القوم لم يفرغوا من صاحبه الثاوى فى لحده بعيداً عن يثرب ...

كانوا فى حيرة من أمره :

لقد كتب الله تعالى عليه الموت هكذا سريعاً ، ففيم كان الفداء ؟

من كان يظن ، حين نُحرت الإبل المائة بالحرم ، وتُرِكت لا يُصَد عنها إنسان ولا سبع ، أن المنايا واقفة بالمرصاد للذبيح المفتدى ، على قيدِ خطوات معدودات ؟

وفى مثل هذا ، كانت « آمنة » تفكر ، وهى فى وحدتها تجتر أحزانها ، وتكابد الذى تجد من شدة المصاب ، حتى خيف عليها ، فتتابع أهلها يحاولون أن يعزوها ، وهى تأبى أن تقبل فى « عبد الله » عزاء . .

وناشدوها الصبرَ الجميل ، فأنكرت على نفسها الصبر ، كأنهاوجدت فيه خيانة لذكرى الحبيبِ الذى رحل ...

وأوجس « آل هاشم وزهرة » فى نفوسهم خيفة ، أن تشتد وطأة الحزن على « آمنة » فتذهب بها ، ولبثت « مكة » شهراً وبعض شهر ، وهى ترقب فى قلق ، إلى أين تنتهى الأحزان بالأرملة العروس ...

حتى كانت ليلة من ليالى شوال ، أحاط فيها العواد بفراش « آمنة » وهى فى غمرة أحزانها لا تفتأ تسائل كل وافد ووافدة من أهلها :

فيم كان العرس الحافل ، ويدُ القدر تحفر له لحدَه بيثرب ؟

على أنها ما لبثت أن أُلهِمَتْ فى نجواها :

كأنى عرفت سرّ الذى كان : إن عبد الله لم يُفتد من الذبح عبثا ! لقد أمهله الله ريثما يودعنى هذا الجنين الذى أحسست به اللحظة حيًّا فى رحِمى ، والذى من أجله يجب أن أعيش ...

ومن تلك اللحظة المباركة ، أنزل الله سكينته على « آمنة » فطوت أحزانها فى أعماقها ، وبدأت تفكر فى ابنها الذى يحيا بها ويحييها ...

وقبل أن أنتقل إلى الحديث عن أمومة « آمنة » أقف قليلا لأشير إلى اختلاف الروايات فى وفاة « عبد الله » :

هل كانت والابن جنين فى رحم أمه ؟

أو كانت بعد أن وضعته ؟

لا مراء فى أن الرسول يتيم ، وقد نزلت بهذا آية الضحى : « **ألم يجدك يتيماً فآوى** » والمشهور ، أنه ـــ ﷺ ـــ ولد يتيماً . وقد اكتفى « ابن اسحاق » بهذا ، دون أن يشير إلى أى خلاف فيه . قال : « .. ثم لم يلبث عبد الله ابن عبد المطلب ، أبو رسول الله ﷺ ، أن هلك وأم رسول الله ﷺ حامل

به » ونقل معه ابن سعد عن الواقدى وعن ابن الكلبى أقوالا أخرى ثم عقب عليها بقوله : « والأول أثبت ، وهو أن عبد الله توفى ورسول الله ﷺ حمل .. »[1]

وقدم الحافظ ابن عبد البر ، القول بوفاة أبيه « وأمه حامل به » وبعده : « وقيل وهو ابن ثمانية وعشرين شهرا . وقيل وهو ابن سبعة أشهر »[2] .

وأشار « البرزنجى » إلى الخلاف بقوله :

« ولما تم لحمِله شهران على مشهور الأقوال المروية ، توفى بالمدينة المنورة أبوه عبد الله ، وكان قد اجتاز بأخواله فى مرضه عائداً من الشام »[3] .

* * *

تسامعت بيوتات مكة بالنبأ السعيد ، فتوافدت عقائل قريش على دار عبد الله ، يهنئن آمنة ، ويصغين إلى ما كان من بشريات المولد المبارك .

وكانت بلاد العرب آنذاك ، تموج بأقوال مرهصة بنبىٍّ منتظر ، قد تقارب زمانه ، يتحدث بها الأحبار من يهود ، والرهبان من النصارى ، والكهان من العرب[4] .

ولعل العرب لم يلقوا بالاً — أول الأمر — إلى هذا الذى ذاع وانتشر ، غير أنى أكاد أطمئن إلى أن « آمنة » قد ألقت كل بالها إلى تلك المبشرات ، فما نسيت قط أن زوجها هو الذى استأثر من دون شبان قريش ورجالها بمجد الفداء الذى لم يحدث منذ افتدى اسماعيل ...

وقد بقى فى مسمعها صدى قوى مما ذكرته أخت ورقة بن نوفل وفاطمة بنت مر — وقد كانت فيما روى الطبرى وابن الأثير كاهنة من خثعم — عن

(١) السيرة : ١ / ١٦٧ . رواية ابن هشام ، ولم يعقب عليها بخلاف ، وطبقات ابن سعد : ١ / ٩٩ ، ومعها الروض الأنف ١ / ١٨٤ .

(٢) الاستيعاب : ١ / ٣٣ .

(٣) المولد النبوى : ص ١٢ .

(٤) بتفصيل ، فى الشمائل للترمذى ، والشفا للقاضى عياض ، والسيرة الشامية ١٢٧/١ وما بعدها ، وشرحها فى الروض الأنف ١٨٠/١ — ١٨٤ ، وعيون الأثر ٢٦/١ — ٣١ ، ونهاية الأرب ، الجزء ١٦ ... والمبشرات والدلائل فى المصنفات الحديثية . . .

النور الذى انتقل من « عبد الله » على إثر زواجه ، والغرة التى ذهبت بها « بنت وهب » فلم تدع لغيرها من النساء فى « عبد الله » مأرباً ..

ثم هى قبل هذا كله ، سيدة من صميم القبيلة الرفيعة الحاكمة فى مكة ، ومن شأن نساء هذه البيئة ، أن يرنون إلى بعيد ، وأن يرجون للأجنة فى بطونهن مجداً لم يسبق إليه أحد ...

* * *

وجمهرة المؤرخين المسلمين ، لم يتهموا المرويات عن الهواتف والبشريات للسيدة آمنة ، عندما حملت بسيد البشر ... وإن كان « الدكتور هيكل » قد مر بهذا عابراً دون أن يشير إليه ، فقال :

« وتقدمت بآمنة أشهر الحمل حتى وضعت كما تضع كل أنثى »[1] .

وأكثر المستشرقين ، يأبون روايات البشرى إباء صريحاً ، حتى « بودلى » وهو من أكثرهم إنصافاً وإعجاباً بالرسول ، ﷺ ، رفض أن يقبل الذى قيل فى رؤى « آمنة » عندما حملت بمن صار نبياً . قال فى كتابه (الرسول) :

« لا توجد أسرار تحيط بمولد النبى ، إذا استثنينا عدة خرافات لا يقبلها عقل : فما كان هناك بشائر على أنه المصطفى من الله ، ولا زارت الملائكة أمه قبل مولده ، ولا بشرتها بقدومه ... وإنما حملته أمه ووضعته كما تحمل كل أنثى وتضع »[2] .

من عجب أن يقرر مثله أن محمدا ، صلى الله عليه وسلم « حملته أمه ووضعته كما تحمل كل أنثى وتضع » ثم ينكر عليها ما يجوز على كل أنثى من البشر ، تحمل وتضع فى مثل ظروف « آمنة » ؟ وأن يصف ما تواترت به المرويات عن خواطرها ورؤاها بأنها « خرافات لا يقبلها عقل » ؟

---

(١) حياة محمد : ٦٩ .

(٢) الرسول : ص ٢٥ .

أوَ ليس من حقها ، أن يتعلق طموحها للجنين الذى تحمله ، بمجدٍ لم يكن لأحد من قبله ؟

لو أن « بودلى » استفتى علماء النفس ، لأنكروا عليه أن يسمى أحلام « آمنة » خرافات ! وإنما الخرافة حقاً أن نجردها من بشريتها وأمانى أمومتها ، فما من أنثى تحمل ، إلا حلمت لوليدها بأقصى ما تسمح به بيئتها وظروفها . وقد كانت بيئة « آمنة » ما نعرف عزاً وشرفاً وعراقة وحسباً ، كما حفَّت بزوجها « عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم » ظروف فريدة لم يشاركه فيها سواه ، فأى عجب فى أن تُبعِدَ بآمنة رؤاها فتسمع من يبشرها بأنها ستلد « سيد هذه الأمة » ؟

أو ليست أحق بهذا من « هند بنت عتبة » التى ردت على من بشرها بأن ابنها معاوية سيسود قومه قائلة : ثكلتْه أمُّه إن لم يسد إلا قومه ؟[1] .

لا نقول لبودلى وأمثاله ، إلا أن « آمنة » فى هذا كله ، هى هى حواء فى كل زمان ومكان ... دون أن نكرههم على تصديق ما تناقله رواة العرب من أخبار عما سمعت المنجبات العربيات من هواتف البشرى بالمجد المنتظر للأجِنَّة فى أرحامهن ، كمثل ما رووا عن « ليلى بنت مهلهل » هتف بها الهاتف حين حملت بابنها « عمرو بن كلثوم » :

يا لكِ ليلى من وَلَدْ
يُقدم إقدامَ الأسدْ
من جُشَمٍ فيه العدد
أقول قولاً ، لا فند

فلما استكمل وليدها سنةً أتاها ذلك الهاتف ليلاً فقال :

إنى زعيم لكِ أمَّ عمرِو

---

(١) راجع عيون الأخبار لابن قتيبة : ٢٢٤/١ .

بماجدِ الجد كـريم النجــر
أشجعَ من ذى لُبدٍ هِزَبْرِ
يسودهـم فى خمسة وعشر

قالوا : فساد قومَه ولم يجاوز خمس عشرة سنة ...

وكذلك رووا أن « عتبة بنت عفيف » أتاها الهاتف حين حملت بابنها « حاتم الطائى » فسألها :

ــ أغلام سمح يقال له حاتم أحب إليك ، أم عشرة غلمة كالناس ... ؟

فأجابت : بل حاتم !

و « خبيئة بنت رباح الغنوية » ، حدثوا أن هاتفاً هتف بها فى منامها ذات ليلة :

ــ أعشرة هدرَة ــ جمع هادر وهو الساقط ــ أحب إليك ، أم ثلاثة كالعشرة ؟

وعاودها ثانية ، فقصت رؤياها على زوجها فقال لها :

ــ إن عاد الثالثةَ فقولى : ثلاثة كعشرة .

ففعلت ، وولدت : خالداً ، ومالكاً ، وربيعة ، وعُدّت بهم إحدى منجبات العرب .

و « بودلى » قد اتخذ من كتاب السيرة والمؤرخين الإسلاميين الأُوَل ، مصادر ومراجع فى كتابه عن « الرسول » ، وزاد فاعتمد أقوال العرب الذين عاشوا ويعيشون اليوم فى الجزيرة حيث عاش الرسول ــ ﷺ ــ إذ « أنهم لا يتحدثون عن محمد كما يتحدثون عن شخص غامض بعيد أبداً ، لقد كان راعياً ، ارتدى نفس الثياب التى يلبسونها ، وامتطى إبلاً كما يفعلون ، وكان التمر الذى عاش عليه يشابه تمرهم . إنهم ليشاركونه فى كل ما فعله فهو بالنسبة لهم حى كفرد منهم ..

« لذلك كانت استعادة ذلك المشهد الذى مر عليه ثلاثة عشر قرناً بالنسبة لى ، أيسر من وصف جامعىٍّ فى أكسفورد ، الحياة فى عصر إليزابيث ، وأبسط من كتابة مؤرخ أمريكى عن الولايات المتحدة قبل حرب الاستقلال .. عاش أناس كثيرون من أصحاب محمد بعده ، فرووا ذكرياتهم عنه لذرياتهم ...

« إنى أعرف العرب عن كثب ، وإنى أحبهم ، وقد عشت فى خيامهم وأحببتها . وأظن أنى أستطيع أن أفكر كما يفكر محمد ، وأحس كما يحس ، وأفهم على التحقيق مشكلاته » .

فما باله بعد هذا ينكر إجماع كُتّاب السيرة على ما رأت « آمنة » من بشائر بمولد مَن كانت الجزيرة ملأى بالإرهاصات عن قرب مولده ؟

قد يكون له ولقومه عذرهم فى موقفهم من هذه الهواتف والرؤى والبشريات ، من حيث هى عندنا من دلائل النبوة وأعلامها . لكن ما عذرهم فى إنكارها ، والحوامل قبلها وبعدها ، وإلى يوم تنتهى الحياة على هذه الأرض ، قد عرفن ويعرفن وسيعرفن الهواتف والرؤى والأحلام ؟!

أو ليس مبلغ الأمر فيه أنه حالة تعرفها كل أنثى من البشر عانت تجربة الحمل ، واشتهت أن يبلغ ولدها من المجد ما يسبق به قرناءه ورفاقه ، وإنما يختلف مدى الطموح ومجال الأحلام ، على قدر ما تسعف عليه ظروف كل أم ، وتحتمله بيئتها ويمتد إليه بصرها !؟

السيدة « آمنة » بنت سيد بنى زهرة ، وُلدت فى « أم القرى » فى جوار البيت العتيق ـــ تلك البيئة التى عرفناها ، بكل حرمتها الدينية العريقة ، وما حف بها من السنى والجلال ـــ تزوجها « عبد الله بن عبد المطلب » يوم افتدائه من النحر على نحوٍ يُذكّر بجده الأعلى اسماعيل ، وهى يومئذ ، كما يقول ابن إسحاق ، شيخ كتاب السيرة : « أفضل امرأة فى قريش نسباً وموضعاً » . . .

وسمعت « آمنة » ما سمعت من تعرض النساء لزوجها ثم صدِّهن عنه لما تزوج بها ، وليكن ذلك ـــ فى أدنى حالاته ـــ تخيلا منهم وانفعالا بموقف

الفداء . أفلا يؤثر فيها ذلك حين تحمل جنينها الأول : حفيدَ المنافَين[1] ، وسليل البيت الهاشمى وآل زهرة ؟

أفكثير على مثلها أن تحلم ، وأن ترجو لوليدها المنتظر أقصى ما يرنو إليه خيالها ويمتد إليه أملها ، وأن ترى حين حملت به كأنما خرج منها نور ، على ما تواترت به الأنباء الصحيحة ، كنص عبارة ابن اسحاق ، وما أسنده الواقدى عن عدد من الصحابة رضى الله عنهم ؟[2] .

* * *

ونستأنف صحبة السيدة « آمنة » من حيث تركناها فى دارها بعد أن غاب عنها « عبد الله » إلى غير مآب ، وخلفها فى حزن قاسٍ ، لم يلطف منه إلا حركة الجنين فى رَحِمِها .

حتى إذا أوشك أن يتم أجله ، جاءها « عبد المطلب » ذات أصيل ، يطلب إليها أن تتهيأ للخروج من مكة مع قريش ، حيث رأى لهم أن يتحرزوا فى شعف الجبال والشعاب ، تخوفاً من معرة الجيش الذى جاء به « أبرهة الحبشى » من اليمن ...

وكانت « آمنة » قد سمعت بقدوم « أبرهة » هذا فى جيش لجب ، لكنها لم تُقدّر أن الأمر قد بلغ من الخطر حداً يدفع قريشاً إلى الخروج من بلدهم الأمين ...

وسألت «آمنة » عبد المطلب :

ــ علمتُ يا عم أن قريشاً وكنانة وهذيلا ومن بالحرم من سائر الناس ، قد أجمعوا على قتال الطاغية ، فما الذى جَدّ فى الموقف حتى يتركوا الكعبة لا يقاتلون عنها ؟

---

(١) المنافان : عبد مناف بن قصىّ بن كلاب ، الجد الثالث للرسول ﷺ من جهة أبيه ، وعبد مناف بن زهرة بن كلاب ، جد آمنة بنت وهب .

(٢) السيرة : ١ / ١٦٦ ، وطبقات ابن سعد : ١ / ٩٨ .

قال :

ـــ عرفوا ألا طاقة لهم بأبرهة ، فكرهوا معركة غير متكافئة ، تضعف فيها قريش أمام العدو ، ثم تؤوب بعار الهزيمة ...

وسكتت « آمنة » برهة ، ثم تذكرت ما سمعت عن لقاءٍ كان بين شيخ مكة وطاغية الأحباش ، فعادت تسأل عما تم فى ذاك اللقاء ...

فأجابها الشيخ :

« أجل كان بيننا لقاء ، سعى إليه أبرهة ولم أسع إليه . ذلك أنه حين بلغ مشارف مكة ، بعث « حناطة الحميرى » وقال له :

« سلْ عن سيد أهل البلد وشريفها ، ثم قل له إن الملك يقول لك : إنى لم آت لحربكم ، إنما جئت لهدم هذا البيت ، فإن لم تعرضوا دونه بحرب فلا حاجة لى بدمائكم . فإن هو لم يُرِدْ حربى فائتنى به » .

وجاءنى « حناطة » فأبلغنى رسالة « أبرهة » وتلقى جوابى :

« والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة ، هذا بيت الله الحرام ، وبيت خليله ابراهيم عليه السلام ، فإن يمنعه فهو بيته وحرمه ، وان يُخلِ بينه وبين أبرهة ، فوالله ما عندنا دفع عنه » .

قال حناطة :

ـــ فانطلق معى ، فإنه قد أمرنى أن آتيه بك ...

ففعلتُ ، ومعى بعض أبنائى ، وهناك مضى به إلى أبرهة أحد رجاله فقال له :

« أيها الملك ، هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك ، وهو صاحب عير مكة ، وهو يطعم الناس فى السهل ، والوحوش فى رءوس الجبال »[1] .

(١) ابن إسحاق ، السيرة : ١ / ٥٠ وما بعدها / الهشامية .

فأكرمنى « أبرهة » عن أن أجلس دونه ، وكأنما كره فى الوقت نفسه أن ترانى الحبشة معه على سرير ملكه ، فنزل عن سريره وجلس على بساطه وأجلسنى إلى جانبه ثم قال لترجمانه :

ــ قل له ما حاجتك ؟

فلما أجبت : حاجتى أن يرد علىَّ الملكُ مائتى بعير أصابها لى ...

بدا على الملك كأنما صغُرت فى عينيه ، وخيبت ظنه فىّ ، وقال لترجمانه فى جفوة :

ــ قل له : قد كنت أعجبتَنى حين رأيتك ، ثم قد زهدتُ فيك حين كلمتنى . أتكلمنى فى مائتى بغير أصبتُها لك ، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك لا تكلمنىْ فيه ؟

قلت على الفور :

ــ إنى أنا رب الإبل ، وإن للبيت ربّاً يحميه[1] ...

قال الفاجر مُدلاً بقوته : ما كان ليمتنع منى !

فأجبته متحدياً : أنت وذاك ...

وكان معى سيد هذيل ، فعرض على « أبرهة » ثلث أموال « تهامة » على أن يرجع ولا يهدم البيت ، فأبى متكبراً واكتفى بأن أمَرَ بردِّ إبلى إلىَّ ...

وانصرفنا ، فحَدثتُ قريشاً بالخبر ، وأمرتهم بالخروج من مكة ، ثم قمت فأخذت بحلقة باب الكعبة ، وقام معى نفر من « قريش » يدعون الله ، ويستنصرونه على « أبرهة » وجنده ...

* * *

(١) الحوار بنصه ، عن ابن إسحاق فى (السيرة ١ / ٥١) وانظر معه تاريخ الطبرى : ص ٩٤٠ من القسم الأول ط أوروبا .

وأطرق « عبد المطلب » لحظة ، ثم رفع رأسه إلى السماء وردد فى ضراعة أبياته التى قالها وهو آخذ بحلقة باب الكعبة :

لَاهُمَّ إن العبد يمنع رحلَه فامنع حِلالَكْ

جروا جموعَ بلادهم ، والفيلَ ، كى يَسبوا عيالَكْ

زاد الطبرى ، لعبد المطلب :

إن كنت تاركهم وكعبتَنا ، فأمرٌ ما بدا لك ؟[1]

يا رب لا أرجو لهم سواكا

يا رب فامنع منهم حماكا

إن عدوَّ البيتِ من عاداكا

امنعهمو أن يخربوا فناكا

فردَّدتْ « آمنة » من بعده :

يا رب لا أرجو لهم سِواكا

ثم ودعها الشيخ وخرج ، على أن يبعث إليها فى غد من يصحبها فى خروجها لتلحق بالجمع الراحل إلى الشِعب .

وخلت « آمنة » إلى نفسها تفكر فى الجنين الغالى الذى قاربت أن تضعه ، فعز عليها أن تلده بعيداً عن البلد الحرام وفى غير دار أبيه « عبد الله » .

وكان هذا الخاطر بحيث يقلق مضجعها ويسهر ليلتها ، لكنها أوت إلى فراشها وما يتخلى عنها إيمانها بأن الله مانع بيتِه ، ومتى كان للطاغين والجبابرة على البلد الحرام سبيل ؟

ونامت مطمئنة ، حتى انبلج الصبح وهى تتمنى ألا تبرح مكانها من جوار الحرم ، إلى أن يقضى الله أمره ...

---

(١) رواه الواقدى : إن كنت تاركهم وقبلتنا فأمر ما بدا لك (طبقات ابن سعد ٩٢/١) . وانظر الأبيات فى (السيرة : ٥٣/١) وفى (تاريخ الطبرى : ٩٤٠/١ ط . أوروبا) والروض الأنف : ٧٠/١ .

وارتفعت شمس الضحى دون أن يأتى من قومها أحد ، ثم مضى النهار إلا أقله وهى فى عجب : لِمَ لم يبعث عبد المطلب رسوله إليها ؟ وفيم هذا الصمت المريب الذى يخيم على أحياء مكة كأنما قد أمسك كل حى فيها أنفاسه ؟

ثم تناهى إليها من بعيد ، من أقصى الجنوب ، ضجيج مبهم مختلط ، لا تكاد تميزه : أهتاف هو ودعاء ، أم صراخ وضراعة ؟

ألا إن وراء ذلك كله لأمرًا . . .

* * *

وأقامت « السيدة آمنة » ، تترقب ، حتى إذا آذنت الشمس بمغيب ، جاءتها الرسل من قومها تسعى ، لا لتطلب إليها أن تخرج إلى حيث تحرزوا فى شعف الجبال ، ولكن لتبشرها بالنجاة ...

ولم يبق فى « مكة » بعدئذ من لم يعرف الخبر :

رووا أن [1] « أبرهة » كان قد تهيأ لدخول البلد الحرام ، وهيأ فيله وعبّى جيشه مجمعاً لهدم البيت العتيق ، ثم الانصراف إلى اليمن . فلما وجهوا الفيل من معسكره فى ظاهر البلدة من ناحية الجنوب ، برك وأبى أن يتحرك . فضربوه فى رأسه بآلة من حديد ، ثم أدخلوا محاجن لهم فى أسفل بطنه ، وهو بارك لا يقوم . فوجهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول ، ووجهوه نحو الشام ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى المشرق فتهيأ للانطلاق ، ولما عادوا يوجهونه نحو مكة برك !

ثم كان أن سلط الله نقمته على أصحاب الفيل ، فانتشر فيهم فجأة وباء

---

(١) بتضمين ، من السيرة ١/ ٥٤ ، وتاريخ الطبرى قسم أول ص ٩٤٠ ط أوروبا .

مهلك ، رمتهم بجراثيمِه طيرٌ أبابيل ، فجعلتهم كعصفٍ مأكول ...[1]

وجُنُّوا من خوف ورعب ، فولوا مدبرين يبتدرون الطريق الذى جاءوا ، ويسألون عن « نفيل بن حبيب الخثعمى » ـــ وكان قد خرج مع قومه لقتالهم حين مروا بأرض خثعم ، فلما أسره أبرهة ، افتدى نفسه بأن يكون دليل الحبشان بأرض العرب ـــ فلا يكاد « نفيل » يسمع صياحهم وضراعتهم إليه أن يدلهم على الطريق إلى اليمن ، حتى يرد بأعلى صوته :[2] .

أين المفر والإلهُ الطالبْ ؟
والأشرم المغلوب ليس الغالبْ !

أو يقول[3] :

وكل القوم يسأل عن نفيل كأن علىَّ للحبشان دينا !

« فخرجوا يتساقطون بكل طريق ، ويهلكون بكل مهلك على كل منهل ، وأبرهة معهم ينتثر جسمه وتسقط أنامله أنملة أنملة ! » .

ولم تكن أرض العرب قد شهدت ـــ فيما روى ابن إسحاق عن يعقوب بن عتبة الثقفى ، حليف بنى زهرة ـــ الحصبة والجدرى قبل ذاك العام المشهود ..

وأقبلت « قريش » على كعبتها المقدسة تطيف بها حامدة شاكرة ، وتجاوبت أرجاء البلد الأمين بدعوات المصلين وأناشيد الشعراء :

فتنكلوا عن بطن مكة إنها كانت قديمًا لا يرام حريمُها[4]

---

(١) فيهم نزلت سورة الفيل :
﴿ **ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . ألم يجعل كيدهم فى تضليل . وأرسل عليهم طيراً أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأكول** ﴾ صدق الله العظيم .

(٢) السيرة : ١ / ٥٥ .

(٣) من قصيدة لنفيل ، روى ابن اسحاق منها ستة أبيات . (السيرة ١ / ٥٥) .

(٤) من أبيات لعبد الله بن الزبعرى السهمى ، شاعر قريش (السيرة ١ / ٥٩) وانظره فى : (الاستيعاب) .

سائلْ أمير الجيش عنها ما رأى ‏ ‏ ‏ ولسوف يُنبِى الجاهلين عليمُها
ستون ألفًا لم يئوبوا أرضَهـم ‏ ‏ ‏ بل لم يعش بعد الإياب سقيمُها

* * *

وبلغت الأصداء مسمع « آمنة » فقامت تدعو وقد أشرق وجهها بنور اليقين والإيمان ، وأحست غبطة الفرح ، أن استجاب الله لدعائها فلم يكتب لولدها ــ ابن عبد الله ــ أن يولد بعيداً عن البلد الحرام .

....

الوليدُ

وُلِدَ الهدى فالكائناتُ ضياء
وفمُ الزمانِ تبسُّمٌ وثناء
الروحُ والملأ الملائك حولَه
للدين والدنيا به بشراء
والعرشُ يزهو والحظيرة تزدهى
والمنتهى ، والسِّدْرَةُ العصماء
(شوق)

ثم لم تك إلا فترة قصيرة المدى بعد يوم الفيل ، حتى ذاعت بشرى المولد . حدد قوم هذه الفترة بخمسين يوماً وهو الأكثر والأشهر ، على ما نقل « السهيلى » فى الروض الأنف[1] .

وعن « ابن عباس » أن المولد كان يوم الفيل ، واكتفى آخرون بأن ذكروا أنه كان فى سنة الفيل . وهو قول البخارى فى تفسيرسورة الفيل[2] .

وكانت الرؤى قد عاودت « آمنة » فى صدر ليلة مقمرة من ليالى ربيع ، وسمعت من يهتف بها من جديد ، أنها توشك أن تضع سيد هذه الأمة ، ويأمرها أن تقول حين تضعه :

«أعيذه بالواحد ، من شر كل حاسد » ثم تسميه محمداً ...

(١) وانظر الزرقانى ١٣٠/١ — والنويرى : ٦٨/١٦ . وعيون الأثر ٢٦/١ .
(٢) السيرة ١٦٧/١ . وعيون الأثر ٢٦/١ ، وصحيح البخارى ، ك التفسير ، مع (فتح البارى : ٥١٦/٨) .

وجاءها المخاض فى أوان السحر فجر الاثنين ، من شهر ربيع الأول ، من عام الفيل . وهى وحيدة فى دارها ليس معها أحد سوى جاريتها ، وفى رواية أن « أم عثمان بن أبى العاص الثقفى » كانت كذلك معها[1] — فأحست ما يشبه الخوف ، لكنها ما لبثت أن شعرت بنور يغمر دنياها . ثم بدا لها كأن جمعًا من النساء يحطن بمضجعها ويحنون عليها ، فحسبتهن من بنات هاشم ، وعجبت كيف علمن بأمرها وما أخبرت به من أحد ،غير أنها أدركت على الفور أن هؤلاء اللواتى حسبتهن من نساء البيت الهاشمى ، لسن سوى أطياف سارية ! وربما خيل إليها أن من بينهن « مريم ابنة عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وهاجر أم اسماعيل »

وزايلها كل ما كانت تحسه من خوف ، فتجلدت للحظة الحاسمة ، وما كاد نور الفجر ينبثق ، حتى كانت قد وضعت وليدها كما تضع كل أنثى من البشر !

فتقول أم عثمان بن أبى العاص : « فما من شىء أنظر إليه من البيت إلا نوَّر ، وإنى لأنظر إلى النجوم تدنو منى حتى إنى لأقول : لتقعنَّ علَّى »[2] .

وأسند ابن سعد من عدة طرق ، عن أم محمد ، صلى الله عليه وسلم ، قالت : « رأيت كأن شهابا خرج منى حتى أضاءت له الأرض »[3] . وعن أبى أمامة الباهلى ، رضى الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « رأت أمى كأنه خرج منها نور أضاءت منه قصور الشام » .[1] .

---

(١) هى الصحابية فاطمة بنت عبد الله رضى الله عنها : نساء الاستيعاب رقم ٤٠٥٩ ، والإصابة ، (٨٤٢) ، وعيون الأثر ٢٧/١ .

(٢) رواه ابن عبد البر فى ترجمتها بالاستيعاب وابن حجر فى الإصابة ، من طريق ابن عبد البر ، وابن سيد الناس فى عيون الأثر ، من طريق ابن السكن .

(٣) طبقات ابن سعد : ١٠٢/١ .

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد عن الواقدى (١٠٣/١) وانظر النويرى : ٧١/١٦ والروض الأنف للسهيلى ١٨٤/١ .

وأسند الحافظ ابن سيد الناس اليعمرى من طريق أبى بكر الخرائطى بسنده عن مخزوم بن هانئ المخزومى عن أبيه ، وأتت له خمسون ومائة سنة ، قال : « لما كانت ليلة ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ارتجس إيوان كسرى وسقطت منه أربع عشرة شرفة ، وخمدت نار فارس ولم تخمد قبل ذلك بألف عام ، وغاضت بحيرة ساوة ، ورأى الموبذان إبلا صعابا تقود خيلا عرابا قد قطعت دجلة وانتشرت فى بلادها » .

فذُكِر لهم سطيح الكاهن فطلبوه على مشارق الشام ، فعبر الرؤيا بدلائل المبعث وقضى مكانه .

وروى ابن حجر الطرف الأول من حديث هانئ المخزومى ، فى ترجمته بالإصابة ، من طريق ابن السكن بمثل إسناد الخرائطى . وذكر « ياقوت » فى (ساوة) حديث سطيح الكاهن فى أعلام النبوة [1] .

* * *

انبلج الصبح فكان أول ما فعلته الوالدة ، أن بعثت إلى الجد عبد المطلب ببشرى المولد . فأقبل مسرعا وملأ عينيه من طلعة حفيده ، وألقى سمعه إلى آمنة ، وهى تحدثه عن كل مارأت وسمعت حين الوضع . ثم حمل الوليد العزيز بين ذراعيه فى رفق ورقة ، وانطلق خارجا حتى أتى الكعبة فقام يدعو الله ويشكر له أن وهبه ولداً من ابنه الفقيد الغالى .

وأحاط به بنوه فى خشوع وغبطة ، وهو يطوف بالكعبة ويعوِّذ حفيده منشداً [2] :

---

(١) عيون الأثر ١ / ٢٨ ، والإصابة ، ترجمة هانئ المخزومى ، وهو ممن استدرك ابن فتحون على صحابة ابن عبد البر ، ومعجم البلدان لياقوت : ساوة .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ، عن الواقدى (١ / ١٠٣) وانظر النويرى ١٦ / ٧١ مع الروض الأنف للسهيلى ١ / ١٨٤ .

الحَمدُ للّهِ الذى أعطانى
هذا الغلامَ الطيب الأردان
قد ساد فى المهد على الغلمان
أعيذه بالبيت ذى الأركان
حتى أراه بالغ البنيان
أعيذه من شر ذى شنآن
من حاسد مضطرب العنان

ثم رده إلى أمه ، وعاد لينحر الذبائح ويطعم أهل الحرم وسباع الطير ووحش الفلاة .

وكانت مكة ، حين ذاعت فيها بشرى المولد ، قريبة عهد باحتفال النصر على أصحاب الفيل ، فرأى القوم فى مولد « محمد » حينذاك ، آية تذكر بأخرى ، يوم اختير أبوه للنحر ، ثم افتُدِى بالإبل المائة ..

وبلغ من غبطة البيت الهاشمى بالمولود العزيز ، أن « ثُوَيبة الأسلمية » جارية عمه « عبد العزى بن عبد المطلب » — أبى لهب — لم تكد توافى سيدها ببشرى المولد ، حتى أعتقها . ولو قد كشف له الحجاب عن الغد المغيب ، لروعته رؤية دوره فى الحرب الدامية التى قدر لقريش أن تصلاها بعد أربعين عاماً ، عندما جاءها الهاشمى اليتيم ، برسالة الإسلام .

وفيه ، وفى امرأته ، نزل قوله تعالى :

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾ ﴾

صدق الله العظيم .

فيقال إن « العباس بن عبد المطلب » رأى أخاه « أبا لهب » بعد موته

بسنة ، فسأله عن حاله ، فأجاب أبو لهب : فى النار ، إلا أن العذاب خُفّف عنى كل ليلة اثنين ، بماء أمصُّه من بين إصبعىّ هاتين ، وذلك أنى أعتقت « ثويبة » حين بشرتنى بولادة النبى ﷺ .

* * *

ولن يمضى وقت طويل ، بعد المولد ــ أربعون سنة ــ حتى يقف التاريخ ليستعيد ذكرى تلك الليلة الخالدة على الدهر ، ويبدأ بها كتابة عصر جديد للعرب وللإنسانية كلها ، وحتى تمتلىء الجزيرة بأخبار ومرويات عن اللحظة المباركة التى وضعت فيها « السيدة آمنة » ولدها . وتظل تلك المرويات تتناقل عبر الأجيال حتى تصل إلينا[1] ، وقد أضافت إليها الليالى والأيام جديداً من رؤى المحبين ، ومواجد العاشقين وملهَمَات الشعراء .

وكلما دار عام القمر دورته ، لِشهرِ ربيع الأول ، أصغى الزمان فى ذكرى تلك الليلة الميمونة ، إلى هتاف الملايين من المسلمين فى مختلف بقاع الأرض ، يرتلون قصة « المولد » ويترنمون بما تمثله الوجدان المؤمن ، لما حفَّ به من خوارق وغرائب :

« زيدت السماء حفظاً ، ورُدَّ عنها المردةُ وذوو النفوس الشيطانية ، ورُجِمت الجنُّ وتدَّلت إليه ﷺ الأنجمُ الزهرية ، واستنارت بنورِها وِهادُ الحِرم ورُباه . وخرج معه ﷺ نورٌ أضاء قصورَ الشامِ القيصرية ، فرآها من بطاحِ مكةَ دارِهِ ومغناه . وانصدع الإيوان بالمدائن الكسروية ، الذى رفع أنو شروان سَمْكه وسوّاه . وسقطت أربعٌ وعشرٌ من شُرفاته العلوية ، وكُسِرَ

(١) الشمائل للترمذى ، والشفا للقاضى عياض .
وانظر معهما (عيون الأثر : ٢٧/١) والجزء السادس عشر من (نهاية الأرب) وشرح المواهب للزرقانى .

سريرُ المِلك كسرى لهولِ ما أصابه وعَرَاه . وخَمَدَت النيرانُ المعبودةُ بالممالك الفارسية ، لطلوع بدرِه المنير ومُحيَّاه ..» ..

ويشدو المنشدون بقصائد الشعراء ، من وحى الذكرى الغراء لمولد ذلك اليتيم الخالد :

بكَ بشَّر اللهُ السماءَ فَزُينَتْ وتضوعت مسكاً بكَ الغبراءُ
يومٌ يَتيهُ على الزمان صباحُه ومساؤه بمحمــــد وضاء
ذُعِرتْ عروشُ الظالمين فزلزلت وعلَتْ على تيجانهم أصداء
والنارُ خاويةُ الجوانبِ حولَهم خمدت ذوائبُها وغاض الماء
والآىُ تترى ، والخوارقُ جمَّةٌ جبريـلُ روّاح بها غـدّاء ![1]

* * *

وفى أفراح الاحتفال بمولد « ابن عبد الله » ، لم تنس « قريش » أن تسأل شيخها « عبدالمطلب » : لِمَ عَدَلَ عن أسماء آبائه وسمَّى حفيده محمداً ؟

ذلك أن الاسم لم يكن ذائعاً فيهم فى الجاهلية ، وإنما ظهر قبيل المبعث . وقد تقصى أبو جعفر بن حبيب البغدادى النسابة ، (المسمَّين بمحمد لما كان يبلغهم أنه يُبعث فى العرب نبى يقال له محمد ، فجعل الله النبوة لمحمد صلى الله عليه وسلم) وهم ستة لاسابع لهم ، سماهم بأسمائهم[2] .

ثلاثة منهم ذكرهم السهيلى بمزيد تفصيل قال :

« لا يُعرف فى العرب مَن تسمى بهذا الاسم قبله ﷺ إلا ثلاثة ، طمع آباؤهم ـــ حين سمعوا بذكر محمد ﷺ ، وبقرب زمانه ، وأنه يبعث فى الحجاز ـــ أن يكون ولداً لهم ... وهم : محمد بن سفيان بن مجاشع ـــ جد الفرزدق الشاعر ـــ ومحمد بن أحيحة بن الجلاح ... ومحمد بن حمران بن ربيعة . وكان آباء هؤلاء الثلاثة قد وفدوا على بعض الملوك ، وكان عنده عِلم

---

(١) من نبويات أمير الشعراء : أحمد شوق .

من الكتاب الأول ، فأخبرهم بمبعث النبى ﷺ وباسمه ، وكان كل واحد منهم قد خلف امرأته حاملاً ، فنذر إن وُلِدَ له ذَكَرٌ أن يسميه محمداً ... »[1] .

وعقد القاضى عياض فى (الشفا) فصلا فى أسمائه صلى الله عليه وسلم ، قال فيه :

« وأما محمد ، فإن الله تعالى حمى أن يسمى به قبل زمانه أحد من العرب ، ولا من غيرهم ، إلى أن شاع قبيل وجوده وميلاده ﷺ أن نبياً يبعث اسمه محمد ، قد قرب إبان مولده ، فسمَّى قومٌ قليل من العرب أبناءهم بذلك رجاء أن يكون أحدهم ، والله أعلم حيث يجعل رسالته .

« وقال أبو جعفر ، محمد بن حبيب : وهم ستة لا سابع لهم : محمد بن سفيان بن مجاشع جد الفرزدق الشاعر ، ومحمد بن أحيحة بن الجلاح الأوسى ، ومحمد بن حمران الجعفى ، ومحمد بن مسلمة الأنصارى ـــ ولد بعد المصطفى وقبل المبعث ـــ ومحمد بن براء البكرى ، ومحمد بن خزاعى السلمى ، لا سابع لهم »[2] .

* * *

سألتْ « قريش » شيخها عن اسم حفيده ، فأجاب : أردت أن يكون محموداً فى الأرض وفى السماء ...

ونقل السهيلى رؤيا لعبد المطلب ، ذكرها على القيروانى فى كتاب البستان : رأى كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره ، لها طرف فى السماء وطرف فى الأرض ، ثم عادت كأنها شجرة على كل ورقة منها نور وإذا أهل المشرق والمغرب يتعلقون بها . فقصَّها فعُبِّرت له بمولود من صلبه يتبعه أهل المشرق

---

(١) المحبر : ١٣٠ ، الروض الأنف : ١٨٢/١ . وانظر فى طبقات ابن سعد (ذكر من تسمى فى الجاهلية بمحمد رجاء أن تدركه النبوة ، للذى كان من خبرها) ١٦٩/١ .

(٢) الشفا : ١٤٥/١ ، المحبر : ١٣٠ ، وانظرهم فى النويرى : ٧٦/١٦ ، وانظر عيون الأثر ٣١/١ .

والمغرب ، ويحمده أهل السماء والأرض (الروض ٨٢/١) ـــ وهذه الرؤيا ، نقلها ابن سيد الناس فى عيون الأثر (٣٠/١) من طريق أبى الربيع سالم ، الكلاعى ، صاحب الاكتفا .

ويعلق « بودلى » على تلك الإجابة قائلاً : « ... وأياً كان السبب ، فقد أصبح اسمُ الطفل محمداً ، وتسمَّى به ملايين الأطفال الذين وُلدوا بعد الدين الجديد الذى قدر لابن « آمنة » من عبد الله ، أن ينشره على العالمين ... »

* * *

الرضيعُ

«... فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها محمد — ﷺ — فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم ، وذلك أنَّا إنما كنا نرجو المعروف من أبى الصبى ، فكنا نقول : يتيم ؟! وما عسى تصنع أمه وجده ؟

« فما بقيت امرأةٌ قدمت معى إلا أخذت رضيعاً ، غيرى ، فلما أجمعنا على الانطلاق ، قلت لصاحبى : والله إنى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ولم آخذ رضيعاً ، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه .

قال : لا عليك أن تفعلى ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة ...»   (حليمة السعدية)

أحست « السيدة آمنة » بعد أن وضعت وليدها ، أن الشطر الأهم من رسالتها قد انتهى بمولد ابنها المبشَّر بأنه سيد البشر . كما انتهت رسالة أبيه « عبدالله » منذ أن أودعه جنيناً فى رَحِمِها . فأسلمت نفسها من جديد لأشجان الذكرى ، إلى حد أثَّر فى صحتها ، وإن قدَّرت أن جزءاً منَ رسالتها لم ينته بعد ، فما يزال عليها أن ترعى ولدها حتى يبلغ معها السعىَ ، فتحدثه عن أبيه ، ثم تصحبه إلى يثرب ، حيث يزوران قبر فقيدهما الغالى ...

وأقبلت الأم على صغيرها ترضعه ريثما تفد المراضع من البادية فيذهبن به مع لداته من رضعاء قريش ، بعيداً عن جو مكة الخانق . لكنّ لبن « آمنة » جفَّ بعد أيام — ويعلل « بودلى » ذلك بأنه أثرٌ لما أصابها من حزنٍ لموتِ

زوجها ـــ فدفعت به إلى « ثويبة » جارية عمه « عبد العزى » ، وكانت قد أرضعت قبله عمه « حمزة بن عبد المطلب » بلبن ابنها مسروح[1] .

ثم لم تمض إلا أيام معدودات ، حتى وفدت المراضع من بنى سعد بن بكر ، يعرضن خدماتهن على نساء الطبقة الموسرة من قريش ، فعرض عليهن « محمد ابن عبد الله » فزهَّدَهُنَّ فيه يتمُه ، وأنه لم يك ذا ثراء عريض يكافىء نسبَه الشريف ، فلقد مات « عبد الله » فى حياة أبيه « عبد المطلب » فلم يرث عنه مالًا ، وأعجلته منيتُه فى مقتبَل العمر قبل أن يتأثل لنفسه غنى ، فكان الذى ترك لولده وأمه ، جاريته الحبشية « بركة أم أيمن » ، وخمسة أجمال أوراك ـــ يعنى تأكل الأراك ـــ وقطعة غنم[2] .

وإنها ـــ كما يقول الدكتور هيكل ـــ لثروةٌ ضئيلة لحفيد أمير مكة ، وسليل البيت الهاشمى القرشى العريق ...

وثقُل على السيدة آمنة ، أن ترى المراضع يوشكن أن يعدن إلى البادية ، زاهدات فى ولدها الشريف اليتيم ، مؤثرات عليه أطفالَ الأحياء ممن يُرجَى منهم الخير الوافر . لولا أن عادت إحدى المراضع تلتمس « محمدًا » بعد أن انصرفت عنه أول النهار . كانت هذه المرضع : « حليمة بنت أبى ذؤيب السعدى » زوجة « الحارث بن عبدالعزى : أحد بنى سعد بن بكر بن هوازن » ..

وكان لهما من الولد ، الذين شرُفوا بأخوة محمد من الرضاعة : عبدالله ، وأنيسة ، والشيماء التى كانت تحضن الرضيع الهاشمى مع أمها[3] ...

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر ١/٣٧٠ وعيون الأثر ١/٣٢ ، والسيرة الحلبية ١/٨٥ .

(٢) رواه ابن سعد عن الواقدى الطبقات ١/١٠٠ ونقله النويرى فى نهاية الأرب : ١٦/٦٧ ..

(٣) السيرة : ١/١٧٠ ، وابن سعد فى الطبقات ، بخلاف يسير : ١/١١١ والزرقانى : ١/١٤٦ ، والنويرى : ١٦ / ٨١ .

وجاء فى شرح المواهب ان لقبها « الشماء » بغير ياء . واختلفوا فى اسمها : ففى الاصابة والروض الأنف أنها « حذافة » وفى رواية بهما : خذامة » وفى تاريخ الطبرى وطبقات ابن سعد : « جدامة » . وجزم أبو عمر بأنها حذافة ، بالمهملة والفاء (الاستيعاب) .

حدثت « حليمة » عن خبرها مع الرضيع اليتيم ، فيما روى « ابن إسحاق » ، شيخ كتاب السيرة ، نقلاً عمن سمع « عبد الله بن جعفر بن أبى طالب » رضى الله عنهما ، يقول :

« كانت حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية ، أم رسول الله ﷺ التى أرضعته ، تُحدث أنها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير ترضعه ، فى نسوة من بنى سعد بن بكر ، تلتمس الرضعاء . قالت : وذلك فى سنة شهباء لم تُبق لنا شيئاً ، فخرجتُ على أتان لى قمراء — أى عجفاء — معنا شارف لنا — أى ناقة مسنة — والله ما تبضُّ بقطرة ، وما ننام ليلتنا أجمعَ من صبيِّنا الذى معنا ، من بكائه من الجوع ، وما فى ثدييَّ ما يغنيه ، وما فى شارفِنا ما يُغذيه . ولكنا كنا نرجو الغيثَ والفرج ، فخرجتُ على أتانى تلك ... حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء ، فما منا امرأة إلا وقد عُرض عليها محمد — رسول الله ﷺ — فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم . وذلك أنَّا إنما كنا نرجو المعروف من أبى الصبى فكنا نقول : يتيم ؟ .. وما عسى أن تصنع أمه وجدّه ؟ ..

« فما بقيت امرأة قدمت معى إلا أخذت رضيعاً ، غيرى ، فلما أجمعنا على الانطلاق قلتُ لصاحبى : والله إنى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ولم آخذ رضيعاً . والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه .

« قال : لا عليك أن تفعلى ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة ...

« فذهبتُ إليه فأخذته ، وما حملنى على أخذه إلا أنى لم أجد غيره . فلما أخذتُه رجعتُ به إلى رحلى ، فلما وضعته فى حجرى أقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن ، فشرب حتى روى ، وشرب معه أخوه حتى روى ، ثم ناما ، وما كنا ننام معه قبل ذلك . وقام زوجى إلى شارفنا تلك فإذا هى حافل ، فحلب منها ما شرب ، وشربتُ معه حتى انتهينا ريّاً وشبعاً ، فبتنا بخير ليلة ...

« يقول صاحبى حين أصبحنا : تعلّمى والله يا حليمة لقد أخذتِ نسمة مباركة ! فقلت : والله إنى لأرجو ذلك ...

« ثم خرجنا وركبتُ أتانى وحملت محمداً عليها معى ، فوالله لَقطعتْ بالركب ما يقدر عليها شيءٌ من حُمرُهم ، حتى إن صواحبى ليقلن لى :

ـــ يا ابنة أبى ذؤيب ، ويحك ! اربعى علينا ، أليست هذه أتانك التى كنت خرجت عليها ؟

« فأقول لهن : بلى والله إنها لهى هى !

« فيقلن : والله إن لها لشأنا ...

« ثم قدمنا منازلنا من بلاد بنى سعد ، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها ، فكانت غنمى تروح علىَّ ، حين قدمنا به معنا ، شِباعاً لبناً ، فنحلب ونشرب ، وما يحلب إنسان غيرنا ... قطرة لبن ، ولا يجدها فى ضرع ، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم :

« ويلكم ، اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب !

« فتروح أغنامُهم جياعاً ما تبضُّ بقطرةِ لبن ، وتروح غنمى شباعاً لبناً . فلم نزل نتعرفُ من الله الزيادةَ والخيرَ حتى مضت سنتاه وفصلته »[1] .

* * *

هكذا نما الرضيع وترعرع فى رحاب البادية ، بين قبيلة بنى سعد وهى من أعرق قبائل العرب وأفصحها .

كيف أمضت الأم أيامها حين كان وحيدها بعيداً عنها مع أمه الأخرى « حليمة » فى بادية بنى سعد ؟ تسكت كتب السيرة فلا تحدثنا بشىء من ذلك ، وكأنما أحس الرواة والمؤرخون بالذى شعرت به « آمنة » من أن دورها الجليل هو أنها وضعت وليدها « سيد البشر » . .

على أنا لسنا بحاجة إلى من يخبرنا أنها أقامت فى دار « عبدالله » تنتظر عودة ابنها ليعمر هذا البيت الذى أوحش من بعد رحيله ...

---

(١) السيرة الهشامية : ١٧١/١ ، عيون الأثر ٣٣/١ .

وهاجت الأحزانَ المطوية فى أعماقها ، وحدتُها الموحشة إثر ذهاب ابنها إلى البادية ، فأرهقتها إرهاقاً لم يكن لها عهدٌ بمثله إبَّان حملها ، وحين كان « محمد » معها ...

ولكن أوانَ فطامه كان يدنو رويداً ، وهذه هى تُشغل عن أشجان ذكرياتها بانتظار ولدها الحبيب ، وتُسلِّى همَّها بتمثُّله إذ يعود فيملأ دنياها أنساً ونوراً .

* * *

واستبطأت عودةَ « حليمة » بالحبيب ، ولعلها همَّت غير مرة بأن تبعث إليها من يسترجعه بعد أن استكمل عامى رضاعته . لكن « حليمة » لم تلبث أن جاءت ومعها العزيز المنتظر ، فلم تكد أمه المشوقة تراه حتى التزمته معانقة ، وتشبثت به فى حضنها كأنما لا تريد أن تبعده عن قلبها الخافق ، ثم أرسلته بعد حين ، وجعلت ترنو إليه مغتبطة بما بدا عليه من علامات الصحة والنضرة والنضج وكأنه ابن أربع سنين ، وما مكث عندهم غير سنتين[1] .

وإذ أحست « حليمة » غبطة الأم بصحة الصبى عزيز ، راحت تحدثها عن جّو مكة ــ وقد كان إذ ذاك مرهق الحر شديد الوطأة ــ و« آمنة » تلقى إليها بعض سمعها ، إذ كانت فى شغل به عنها .

حتى تشجعت « حليمة » وأفصحت عن مرادها قائلة :

ــ لو تركتِ بُنّى عندى حتى يغلظ ، فإنى أخشى عليه وَبَأَ مكة ؟

وفى رواية لابن سعد عن الواقدى ، أن آمنة هى التى قالت لحليمة . ارجعى بابنى فوالله ليكونن له شأن »[2]

ورجعت الأم البصر إلى ابنها فترة فرأته حقاً قد أينع فى جو البادية النقى الطليق ، وحملها قلبها النابض بالحب والحنو والإيثار ، على مزيد من الاحتمال والتصبر ، فى سبيل ما تعلم حقاً أنه أنفع لولدها وأفضل .

---

(١) طبقات ابن سعد ، عن الواقدى : ١ / ١١٢ .

(٢) السيرة : ١ / ١٧٣ وطبقات ابن سعد : ١ / ١١٢ ، وعيون الأثر ١ / ٣٤ من طريق ابن إسحاق .

وودعت « آمنة » ولدها للمرة الثانية ، وفى قلبها وحشة وشجن ...

وانطلقت به « حليمة » راجعةً إلى مراعى بنى سعد ، والدنيا لا تكاد تسعها من فرط غبطتها وفرحها ، إذ كانت وقومها « شديدة الحرص على مُكثه فيهم ، لما رأوه من بركته » .(١)

* * *

ثم ، لم تمض إلا بضعة أشهر ، حتى عادت « حليمة » من تلقاء نفسها بالصبى المبارك إلى أمه ، وهى بادية القلق . . . ولم تذهب فرحةُ اللقاء بعجب « آمنة » من تلك العودة السريعة ، فقالت تسأل « حليمة » :

ــ ما أقدمكِ به يا ظئر وقد كنتِ حريصةً عليه وعلى مُكثِه عندك ؟

أجابت « حليمة » بعد تردد وتفكير :

ــ قد بلغ الله بابنى ، وقضيتُ الذى علىَّ ، وتخَّوفت الأحداثَ عليه ، فأديتُه إليك كما تحبين (٢) .

ولم يُقنع جوابُها هذا « آمنه » ، ولم يذهب بشىء مما خامرها من ريب وعجب ، فما زالت بحليمة حتى أبنأتها بالخبر :

قالت ، فيما رُوِى عن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب :

« فوالله إنه بعد مقدمنا به بأشهر ، مع أخيه ــ من الرضاعة ــ لفى بَهم لنا خلف بيوتنا ، إذ أتانا أخوه يشتد ، فقال لى ولأبيه :

ــ ذاك أخى القرشى قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه ، فشقَّا بطنه ، فهما يسوطانه .

فخرجت أنا وأبوه نحوه ، فوجدناه قائماً ممتقعاً وجهه . فالتزمته والتزمه أبوه ، فقلنا له : مالك يا بُنى ؟

---

(١) السيرة : ١ / ١٧٣ .

(٢) السيرة : ١ / ١٧٤ ، ونحوه مع خلاف يسير فى رواية ابن سعد عن الواقدى عن أصحابه . وعيون الأثر ١ / ٣٤ .

قال : جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعانى وشقاّ بطنى ، فالتمسا شيئاً لا أدرى ما هو ...

فرجعنا به إلى خبائنا ، وقال لى أبوه : يا حليمة ، لقد خشيتُ أن يكون الغلام قد أُصيب ، فألحقيه بأهله قبل أن يظهر ذلك به .

فاحتملناه فقدمنا به ... والله إنا لا نرده إلا على جَدْع أنفنا » [1] .

وأصغت الأم « آمنة » إلى القصة دون أن تبدو عليها بادرةُ خوف أو قلق ، حتى فرغت « حليمة » من حديثها ، فألقت عليها السؤال : أفتخوفتِ عليه الشيطان ؟

ردّت حليمة : نعم .

فقالت آمنة : كلا والله ، ما للشيطان عليه من سبيل ، وإن لبنىَّ لشأناً ، أفلا أخبرك خبرَه ؟

فقالت حليمة : بلى !

فحدثتها « آمنة » بما رأت وسمعت حين حملت به ، ثم قالت :

«... فوالله ما رأيت من حمل قط كان أخفَّ من حمِله ولا أيسر منه ، وقع حين ولدتُه وإنه لواضعٌ يديه على الأرض رافعٌ رأسه إلى السماء ... دعيه عنك وانطلقى راشدة » ...

فظهر على « حليمة » أنها تذكرت شيئاً كان قد غاب عنها ، وقالت :

« الآن فهمتُ ما لم أفهمه من قبل : ذلك أن نفراً من نصارى الحبشة رأوا ابنى محمداً معى حين رجعتُ به بعد فطامه ، فنظروا إليه وسألونى عنه ، وفحصوه ملياً ثم قالوا : لنأخذن هذا الغلام فلنذهب به إلى مِلكنا وبلدنا ، فإن له شأناً نحن أدرى به وأعرف .

فاختطفته منهم ، وقد هاجنى ذلك على رده إليك ، وهممت أن أفعل ،

(١) السيرة ١/١٧٤ ، وعيون الأثر ١ / ٨٤ ، ونهاية الأرب ١٦ / ٨٤ .

لولا أن مضارب بنى سعد كانت أقرب إلىَّ منك ، فعدوت نحوها ، و لم أشعر بالاطمئنان حتى دخلتُ به الحِمى » .

ثم استعادت ذكرى بعيدة ، كانت قد نسيتْها لطولِ المدى واستطردت تقول : وأذكر كذلك يوم انطلقتُ بولدى محمد من مكة لأول مرة ، فمر بى اليهود فسألتُهم ، ألا تحدثونى عن ابنى هذا ؟ وسردت لهم ما لقيت من بركته . فما راعنى إلا أن قال بعضهم لبعض : اقتلوه . ثم سألونى : أيتيم هو ؟ ... قلت وأنا أشير إلى زوجى : لا ... هذا أبوه وأنا أمه . فقالوا : لو كان يتيماً لقتلناه (١) !

* * *

المستشرقون لهم عذر فى رفض حديث الملَكين وشق الصدر . لكن الدكتور محمد حسين هيكل لم يكتف برفضها معهم ، بل زاد فجعل إنكارها موقفا عاماً ، للمستشرقين « والمفكرين من المسلمين » جملة .

ولست أدرى كيف جاز فى منطقه تعميم هذا الإنكار ، وقلَّ من المفكرين المسلمين من تردد فى التصديق بحديث شق الصدر ، وهو من أعلام النبوة .

وقال الدكتور هيكل ، فيما قال ، محتجاً لموقف الإنكار :

« وإنما يدعو المستشرقين ويدعو المفكرين من المسلمين ــ هكذا بالجملة ! ــ إلى هذا الموقف من الحادث ، أن حياة محمد كانت كلها إنسانية سامية ، وأنه لم يلجأ فى إثبات رسالته إلى ما لجأ إليه من سبقه من الخوارق ، وهم فى هذا يجدون من المؤرخين العرب والمسلمين سنداً حين ينكرون من حياة النبى العربى كل ما لا يدخل فى معروف العقل ، ويرون ما ورد من ذلك ، غير متفق مع ما دعا القرآن إليه من النظر فى خلق الله ، وأن سنة الله لن تجد لها تبديلا ، غير متفق مع تعبير القرآن المشركين بأنهم لا يفقهون ، وأنهم ليست لهم قلوب يعقلون بها »(٢) .

---

(١) طبقات ابن سعد : ١ / ٧١ قسم أول (١ / ١١٣ ط بيروت) ــ ونهاية الأرب : ١٦ / ٨٦

(٢) حياة محمد : ٧٣ .

وأراه هنا ، والذين تكلم عنهم ، قالوا بالرأى فيما ليس للرأى فيه مجال ، بل الاعتبار فيه لضوابط الرواية والنقل والنظر فى الإسناد ورجاله . وقد تعرض الدكتور هيكل لهذا ، فذهب إلى « أن رواية هذا الحديث ضعيفة السند » كما جرح المتن أيضا ، من جهة : « أن الروايات تجمع على أن محمدا أقام ببنى سعد إلى الخامسة من عمره ، وقصة الملكين هذه قد حددت سِنه بما دون الثالثة وأرجعته إلى مكة بعد فطامه بأشهر ، فبين الروايتين تناقض صريح » .

ومن جهة أن هذه القصة ، مما « لا يدخل فى معروف العقل »[1] .

وليس هذا مما للرأى فيه مجال . فحديث شق الصدر من أعلام النبوة والدلائل ، وقد صح على شروط أهل الحديث أصحاب هذا الشأن . فالحديث فيه عن رسول الله ﷺ ، رواه ابن إسحاق[2] فى السيرة وهو العمدة فيها ، وقد أسنده من طريقين ، ومعروف لأهل العلم أن ما أسنده فصحيح .

وبعدُ وقبل فحديث شق الصدر أخرجه الشيخان مرفوعا فى موضعين ، اتفقا على حديث أبى ذر الغفارى رضى الله عنه ، فى الإسراء ، أن رسول الله ﷺ قال : « فُرج عن سقف بيتى وأنا بمكة فنزل جبريل ففرج عن صدرى ثم غسله بماء زمزم ، ثم جاء بطست من ذهب ممتلىء حكمةً وإيمانا فأفرغه فى صدرى ثم أطبقه ... » الحديث بطوله ، أخرجه البخارى فى كتاب الأنبياء من صحيحه ، وأخرجه مسلم فى باب الإسراء من كتاب الإيمان . ومعه فى صحيحه حديث ثابت البُنانى عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فشق عن قلبه فاستخرج القلب فاستخرج منه علقةً ثم أعاده فى مكانه وجاء الغلمان يسعون

---

(١) حياة محمد : ٧٣ .

(٢) السيرة : ١ / ١٧٥ ، ورواه السهيلى من حديث أبى ذر رضى الله عنه (الروض ١ / ١٩٢) .

إلى أمه ، يعنى ظئره ، فقالوا إن محمدا قد قتل . فاستقبلوه وهو ممتقع اللون . قال أنس : وقد كنت أرى أثر المخيط فى صدره » .

والحديث إذا أخرجه الشيخان فى الصحيحين ، فمتفق عليه بإجماع من يُعتَدُّ به فى الإجماع .

وقد أسند الحافظ أبو الفتح ابن سيد الناس ، حديث حليمة السعدية فى شق الصدر أيام الرضاعة فى بادية بنى سعد ، ثم حديث أبى ذر رضى الله عنه ، مرفوعا فى الإسراء . وقال إنها واقعة واحدة متقدمة عن ليلة الإسراء بكثير . قال السهيلى : وليس الأمر كذلك ، بل كان هذا التقديس والتطهير مرتين : الأولى فى حال الطفولية ليُنقَّى قلبُه من مغمز الشيطان ، والثانية فى حال الاكتهال عندما أراد الله أن يرفعه إلى الحضرة المقدسة »[1]

وأما ما ذهب إليه الدكتور فى نقد المتن ، من تناقض صريح بين ما أجمعت عليه الروايات من « أن محمداً أقام ببنى سعد الخامسة من عمره ، وقصة الملَكين التى حددت سنه بما دون الثالثة » فقد فاته أن السيدة حليمة أرجعته إلى مكة بعد فطامه ، ثم « لم تزل بأمه ، السيدة آمنة ، حتى ردته معها » .

وأما القول فى نقد المتن بأنه مما « لا يدخل فى معروف العقل ، فمردود بأن شق الصدر أو البطن ، ليس من المستحيل العقلى . وبفرض استحالته عقلا ، فإنه لا يعتبر بهذه الاستحالة ، فيما هو من قبيل دلائل النبوة وأعلامها ، التى اشتهرت ، وصحت عند علماء الحديث والسيرة والتاريخ ، والله أعلم .

---

(١) عيون الأثر ، لأبى الفتح بن سيد الناس) : ١ / ١٣٦ مقابلا على (الروض الأنف للسهيلى) : ١ / ١٩٠ .

المبحث السادس

الرحيل

— سَفَر إلى يَثرِب

— الوداع

— عَودَة اليتيم

سـفَر إلى يثرب

ولنعُدْ إلى « السيدة آمنة » وهى تحتضن وحيدها اليتيم ، بعد أن بلغ مقامه فى البادية أقصى أجله ورجعت به ظئره السيدة « حليمة السعدية » إلى أم القرى ، مهد مولده ومنزل آبائه وحرم البيت العتيق .

عاد فبدد بنوره ظلال الكآبة التى كانت تغشى دنيا أُمِّه فى وحدتها وترملها الباكر ، وأحسبها لم تكف عن التحدث إليه عن والده الغائب ، ووصف شمائله ، ورواية قصة فدائه ، وما كان معقوداً عليه من آمال كبار .

وقد بذلت الأم لولدها فى تلك الفترة ، غاية ما يُرجَى من عناية ورعاية ، وهو وحيدها ومناط أملها ومعقد رجائها . ويعترف كُتّاب السيرة النبوية بما كان لها من أثر جليل فى هذه المرحلة من عمر نبى الإسلام ، فيقول شيخهم « ابن اسحاق » :

« وكان رسول الله ﷺ ، مع أمه آمنة بنت وهب فى كلاءة الله وحفظه ، ينبته الله نباتاً حسناً» (١).

وأثمرت العناية ثمرتها ، فبدت على « محمد » بوادر النضج المبكر ، ورأت فيه أمه ، عندما بلغ السادسة من عمره ، مخايل الرجل العظيم الذى طالما تمثلته ، ووُعِدت به فى رؤاها ...

عندئذ أدركت أن الأوان قد آن ، لكى تحقق رغبة طال عليها الانتظار ، فحدثت ابنها عن رحلة يقومان بها معاً إلى « يثرب » كى يزورا قبر الحبيب الثاوى هناك .

---

(١) السيرة ١ / ١٧٧ ، وعيون الأثر ١ / ٣٧ .

وهش الابن لفكرة السفر ، وسره أن يصحب أمه فى زيارتها لمثوى فقيدهما ، وأن يتعرف — فى الوقت نفسه — إلى أخوال جدّه المقيمين بيثرب[1] ، وكانوا ذوى شرف هناك وجاه عريق ، ولعله سمع أمه غير مرة ، تتحدث عن خئولة عبد المطلب فى بنى عدى بن النجار بيثرب ، إذ تزوج « هاشم بن عبد مناف » منهم « سلمى بنت عمرو بن زيد النجارية » وكانت إحدى نسوة ست من العرب ذكر ابن حبيب فى المحبر ، أن أمرهن فى الزواج كان إليهن « لشرفهن وقدرهن » ، وقد أنجبت عبد المطلب بن هاشم سيد مضر فى زمانه .

* * *

وكان الجو صيفا ، والشمس تلهب صخور مكة وتصهر رمالها ، حين بدأت « السيدة آمنة » تتهيأ لرحلة طويلة شاقة ، تجتاز بها الأميال المائتين التى تفصلها عن يثرب ، حيث يرقد فى ثراها « عبد الله » الذى ودعها من نحو سبع سنين .

ولم تكن تجهل مشقة السفر عبر الصحراء القاحلة ذات الرمال المتحجرة ، ولا غاب عنها ما يتكبده الضاربون فى أحشاء البيداء بسهولها الموحشة وقفرها المرهوب ، لكن شوقها إلى زيارة يثرب كان أقوى من أن تغلبه عقبات سفرٍ هو قطعة من العذاب ...

---

(١) أم عبد المطلب بن هاشم — جد الرسول ﷺ — هى سلمى بنت عمرو بن زيد النجارية . فهذه خئولة محمد — ﷺ — فى بنى النجار . انظر (السيرة : ١ / ١٧٧ ، ونسب قريش : ١٥ ، وجمهرة أنساب العرب : ١٢) .

(٢) رواها ابن اسحاق فى السيرة ، عن عبد الله بن أبى نُجيح ، مما حُدِّث به عن عبد الله بن صفوان بن أمية الجمحى . ثم عقب عليها بقوله : « والناس ينحلون هذا الكلام الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم » : ١ / ٢٠٦ .

(٣) السيرة الهشامية : ١ / ٢٠٦ .

وشُغلت أياماً بتجهيز راحلتها وإعداد مئونة الطريق ، ثم زودت ناقتها بهودج من أغصان مجدولة ، ذى مظلة مرفوعة تحجب الشمس عن الابن العزيز .

وأقامت بعد ذلك تنتظر أول قافلة تخرج من مكة نحو الشمال فى رحلة الصيف الموسمية ، فلما آذنتْ بالرحيل ، ضمت إليها ولدها وركبت راحلتها ، تصحبها الجارية الوفية : « بركة أم أيمن »[1].

* * *

وألقت « آمنة » نظرة وداع على دار عرسها التى جمعتها فترة بعبد الله ، ووضعت فيها من بعده ولدهما الوحيد . ثم عرجت على الحرم فطّوفتْ به داعية ، وانفلتت من بعد ذلك نحو الشمال ، حيث كانت القافلة تتهيأ للتحرك ، وقد علا رغاء الإبل مختلطاً بضجيج المسافرين ودعاء المودعين !

وسار الركب فى أول أمره بطيئاً وئيداً كأنما يعز عليه أن يفارق الحمى الأمين والديار الغاليات ، حتى إذا توارت معالم « مكة » خلف الجبال الشم التى تحف بها ، استقبل الراحلون طريق الشمال ، وحَثُّوا الخُطَا قدر ما استطاعوا ، كيْما يبلغوا سوق الشام فى إبانها ، ويعودوا إلى حماهم وإلى الأهل والأحباب .

ورفع الحادى عقيرته بالغناء ، يودع الديار التى خلفوها من ورائه ، ويَعِدُ الإبل بالراحة والظل والرى ، إذا هى سارت حثيثاً فبلغت بأصحابها ما يأملون . ورجَّعت أرجاء البيداء صدى الحداء الشجى ، فرقّت قلوب الراحلين ، من شجن الذكرى وشجو الفراق .

وعطفت « آمنة » على ولدها فى حنو فياض ، ثم أغمضت عينيها تحلم باللقاء القريب . . .

وساعدها صمت الصحراء ، إلا من رجع النغم ، على استرسالها فى الحلم ، فقطعت أكثر الطريق شبه غافية ، تنصت فى الحداء إلى نداء شجى يتناهى

---

(١) طبقات ابن سعد ، عن الواقدى : ١ / ١١٦ ، وانظر الزرقانى : ١ / ١٦٣ ، والنويرى : ١٦ / ٨٧ .

إليها من بعيد ، فهفا قلبها إلى الأليف النائى ، ورنت عيناها إلى الأفق الشمالى ، حيث تراءت لها « يثرب » أشبه بواحة خضراء ، تحنو ظلالها الوارفة على أعز مرقد ، ويؤوى ثراها الطيب أغلى رفات ...

فإذا جن الليل وصمت الحادى ونام الرفاق وهجع الكون ، ضمت « آمنة » وحيدها إلى صدرها ، وأسلمت نفسها إلى رؤاها تسرى بها نحو المزار ، وتستحضر لها روح « عبد الله » آيبة من مأواها البعيد المجهول ، لتحيى الزوج الحبيبة الوفية ، وتبارك الابن الصغير العزيز !

* * *

وشارفت الرحلة منتهاها ، فجمعت « آمنة » نفسها وأقبلت على ولدها تحدّثه من جديد عن أبيه ، ثم تغريه بأن يتطلع معها إلى المدينة البيضاء التى بدأت تتكشف من وراء جبل « أُحُد » حيث ينبسط السهل وتطمئن الأرض ، وتحنو عليها ظلال النخل الباسقات ...

وأناخ الركب رواحله فى « يثرب » ، ريثما تزود بالراحة والتمر والماء ، ثم استأنف مسيره شمالاً ، بعد أن ترك « آمنة » وولدها وجاريتها فى حِمى « بنى النجار » ...

* * *

لم يكد يستقر بها المقام بين ترحيب القوم واحتفالهم ، حتى أخذت بيد ولدها ومضت تطوف بالبيت الذى مرض فيه أبوه ، وتزور القبر الذى حوى رفاته ، ثم خلّت بين ولدها وبين الحياة الجديدة مع أبناء أخواله ، فانطلقوا به إلى ملاعبهم ومغانيهم ، يلعب ويمرح ، ويتعلم السباحة مثلهم فى مجامع المياه ، على حين عكفت « آمنة » على قبر الحبيب ، تناجيه حيناً وتبكيه أحياناً ، وهى على الحالين راضية مستروحة ، تجد من الأنس بقرب الفقيد ما يريح شجوها .

وطاب لهما العيش شهراً كاملاً . نفَّست فيه عن حزنها المكبوت ، وأسعفتها عيناها بما شاءت من دمع ، وتمتع ولدها بالجو اللطيف ، وبصحبة رفاقه من بنى الخال .[1]

* * *

ولا يدرى أحد كيف أمضت « آمنة » ليلتها الأخيرة قبل أن تشد رحالها عائدة إلى « مكة » ، وأغلب الظن أنها أمضتها فى مناجاة الحبيب الذى توشك أن تفارقه للمرة الثانية ، حتى إذا آن لها أن تمضى ، انتزعت نفسها قسراً من ذلك الجو المعطر بالذكرى ، وودعت مضيفيها شاكرة لهم ما لقيت ولقى ولدها من جميل ترحابهم وكرم ضيافتهم ، ثم ركبت راحلتها وركب معها ولدها وجاريتها ، فعرجت على القبر تزور الحبيب للمرة الأخيرة ، وتكلفت الصبر وهى تجامل القوم الذين صحبوها مودعين إلى ظاهر المدينة ، ثم أسلمت نفسها إلى أشجانها ، والناقة تمضى بها وبمن معها نحو مكة ، بلا حداء ...

ويظل « ابن عبد الله » ما عاش يذكر رحلته مع أمه فى صباه ...

* * *

(١) ابن سعد من طريق الزهرى وغيره ، عن ابن عباس رضى الله عنهما . (الطبقات ١ / ١١٦) .

الـوداع

وإذ هم فى مراحل الطريق بين البلدتين ، هبت ــ فيما يُروَى ــ عاصفة عاتية هوجاء ، أخذت تسفع المسافرين بريحها المحرقة ، وتثير من حولهم الرمال كأنه الشرر الملتهب . فتأخرت الرحلة أياماً ريثما هدأت العاصفة وسكنت ثائرتها ، ثم استأنف الركب سيره وقد شعرت « آمنة » بضعف طارىء ، مكَّن له من جسمها ما كانت تجد من لذعة الفراق الجديد .

ولم يجزع « محمد » أولَ الأمر لما بدا على أمه من إعياء بل رجا أن تزايلها وعكتها بعد أن هدأت العاصفة . وأما « آمنة » فأحست انه الأجل المحتوم ...

وتشبثت بوحيدها معانقة وقد انهمرت الدموع من عينيها ، فأخذ يجفف دمعها بيده اللطيفة ، مستمرئا لذة الحنان الفياض ، يطوى عنه رهبة الموقف ...

وفجأة ... تراخت ذراعاها عنه ، فحدق فيها فراعه أن بريق عينيها يوشك أن ينطفىء ، وأن صوتها يخفت رويداً رويداً ، حتى يصير إلى حشرجة هامسة .

وتضرع إليها أن تنظر إليه ، وأن تكلمه ، فيقال إنها « نظرت لوجهه وقالت فى أبيات :[1]

بارك فيك اللّهُ من غلام

يا ابنَ الذى من حومة الحِمام

---

(١) الروض الأنف للسهيلى : ١ / ٢٠٨ ، وانظر الحاوى للفتاوى : ٢ / ٢٢٢ .
والسهام هنا : الأقداح . اشارة الى افتداء عبد الله من النحر بمائة من الأبل ، غداة ضربوا عليها وعليه الأقداح عند الكعبة ، فخرج القدح أخيراً على الإبل .

نجا بعـون الملك العـلام
فُودِى غداة الضرب بالسهام
بمائـة مـن إبـلٍ سوام

ثم أمسكت تستريح ، فلما التقطت أنفاسها اللاهثة همست فى حشرجة الاحتضار :

« كل حى ميت ، وكل جديد بال ، وكل كبير يفنى . وأنا ميتة وذكرى باق ، فقد تركت خيراً وولدت طهراً ... »

وذاب صوتها فى سكون الفلاة ، فما تكلمت بعدها أبداً ...

* * *

وخيم على الكون صمت رهيب ، مزقته بعد حين ، صوت صبى مُرَوَّع ، انحنى على جثة أمه فى العراء يناديها فلا تلبى نداء ...

والتفت إلى « أم أيمن » يسألها عن سر هذه الحياة التى انطفأت ، والجسد الذى همد وبرد ، والصوت الذى فنى وذاب ، فضمته المسكينة إلى صدرها ، ولم تملك إلا أن تقول : « إنه الموت يا بنى » .

الموت ؟ !

ذاك الذى غال أباه من قبل ؟

ذاك الذى جرَّع أمه كأس الترمل ، فما طاب لها عيش ولا اندمل فى قلبها الجرح لمدى سبع سنين طوال ؟ !

ذاك الذى يطوى الأعزاء فى جوف الثرى ، فلا رجعة بعد ولا لقاء ؟!

ذاك الذى يمضى بالمسافر إلى حيث لا عودة فى هذه الدنيا ولا مآب ؟

وتلفت اليتيم حواليه حائراً ، فإذا الكون هامد موحش ، كأنما غشيته غاشية من الخوف والرهبة لمشهد الموت !

ولاذت عيناه الضارعتان بالسماء ، فإذا بها واجمة ، مغشّاة بزرقة كابية . . .

ومدَّ بصره المجهد إلى الأفق البعيد ، فإذا قطع ممزقة مشردة من غيوم شاحبة !

هنالك آب اليتيم إلى « أمه » فجلس قريباً منها يحدق فيها صامتاً واجماً عاجز الحيلة ، على حين أخذت « بركة » تلف الجسد الراقد ، وتعصب الوجه الشاحب ، وتغمض العينين المنطفئتين ...

وتبعها مطرقاً مستسلماً ، وهى تحمل الجثة إلى قرية « الأبواء » كيما تجهزها لضجعتها الأخيرة ، حتى إذا أوشك الثرى أن يغيبها ، اندفع وحيدها اليتيم نحوها فتشبث بها ، يريد أن يستبقيها أو يبقى معها !

وعلا نحيب القوم من إشفاق وتأثر ، وخلُّوا بينه وبين أمه ساعة أو بعض ساعة ، ثم نحّوه عنها فى رفق ، وأضجعوها فى لحدها ...

وسوّوا عليها الرمال . . .

* * *

كان بين السادسة والسابعة من عمره ، فى روايتى ابن إسحاق وأبى عمر ابن عبد البر ، أو فى الثامنة على أقصى الأقوال كما فى (المحبر لابن حبيب) .

عَودة اليَتيم

وجمت أرباض « مكة » وهى تشهد الصبى الحزين الذى غادرها مع أمه منذ شهر وبعض شهر ، بادى الغبطة والتهلل والإشراق ، يعود إليها اليوم وحيداً مضاعف اليتم ، قد ذاق الحزن المر ، ورأى بعينيه مشهد الموت فى أعز من له ، وواجَه المأساة الفادحة التى طالما حدثته أمه عنها ، وهى تستعيد ذكرى أبيه « عبد الله » .

وسوف تذكر « مكة » عودته هذه ، يوم يخرج منها بعد أقل من نصف قرن ، تحت جنح الظلام ، مهاجرًا بدينه الجديد إلى « يثرب » فى صحبة شيخ صديق ، وقريش من ورائه تعدو فى أثره وتلح فى طلبه . . .

وكذلك سوف تذكر « مكة » عودة الصبى اليتيم هذه ، يوم يرجع إليها من دار هجرته عام الفتح ، ويدخلها ظافراً منتصراً ليحطم الأصنام التى شوهت جلال الحرم ، ويهتف من أعلى البيت الحرام :

« الله أكبر ! »

فترجّع أرجاء الجزيرة هذا الدعاء ... ، ثم تتجاوب به آفاق الأرض على مر العصور والأجيال ...

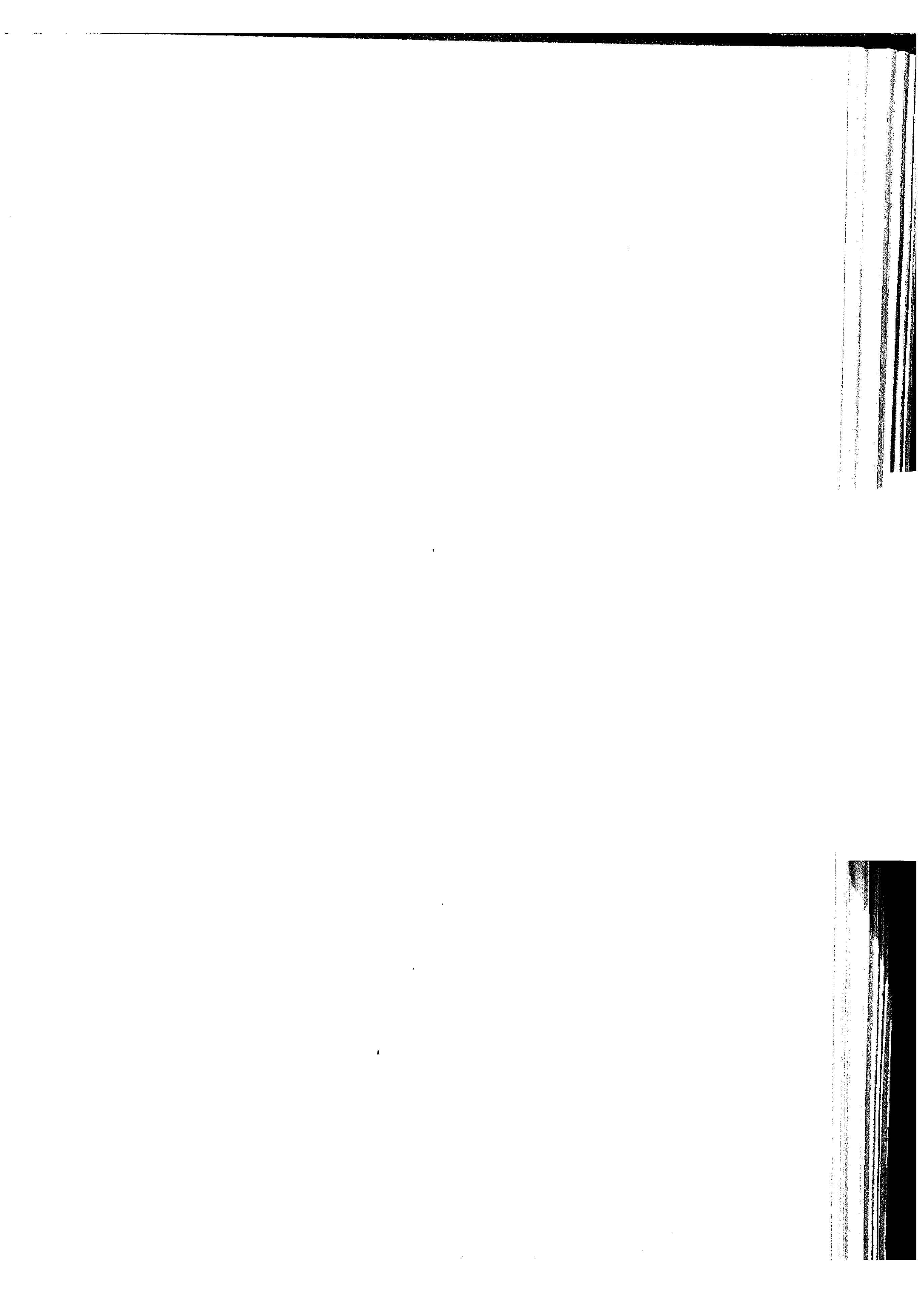
المبحث السابع

الخَالدة

— ذكرَى بَاقيَة

— طيفٌ لا يَغيب

— عَبر الأجيَال



ذكرى باقية

« ... ها هنا نزلت بى أمى ... وفى هذه
الدار قبر أبى عبد الله »
(من حديث للرسول ﷺ لما رأى دار
بنى عدى بن النجار بعد الهجرة ...)

إلى هنا تنتهى حياة « السيدة آمنة » على سطح الأرض ، وينصرف عنها التاريخ حيناً ليعود بعد نحو أربعة وثلاثين عاماً فيفسح لها أعز مكان فى كتاب الخلود ، أُمًّا للنبى ، الذى تركته وحيداً يتيماً فى بادية الحجاز بين يثرب وأم القرى ، فما بلغ مبلغ الرجال حتى اختارته السماء للرسالة العظمى ، واصطفاه الله ليبعثه بالدين القيم الذى يتبعه اليوم ملايين البشر من شتى الأجناس فى مشرق الأرض ومغربها .

وقد عاشتْ أولَ ما عاشت ، ملء قلب ولدها العظيم ، يخفق لذكراها ويرق لها رقة تثير الشجن ، وتستدر عصىَّ الدمع ...

ولقد تلقاه جده « عبد المطلب » بعد وفاتها ، وضمه إليه مسبغاً عليه من عطفه وحنانه ما لم يسبغ مثله على ولده ، « فكان يقربه منه ويدنيه ، ويدخل عليه إذا خلا وإذا نام فى فراشه »[1].

ذكر « الواقدى » ـــ فيما روى عنه ابن سعد فى طبقاته : « أن عبد المطلب كان يوضع له فراش فى ظل الكعبة ، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه ، لا يجلس عليه أحد منهم إجلالاً له . وكان رسول الله ﷺ

(١) السيرة الهشامية : ١ / ١٧٨ ، وطبقات ابن سعد : ١ / ١١٨ .

يأتى وهو غلام يجلس عليه ، فيهم أعمامه بأن يؤخروه عنه فينهاهم عبد المطلب قائلاً : دعوا ابنى ، إنه لَيُؤنس مُلْكاً . ثم يجلسه معه ويمسح ظهره بيده » (١)

وفى رواية لابن سعد : سئل رسول الله ﷺ : أتذكر موت عبد المطلب ؟ قال : « نعم أنا يومئذ ابن ثمانى سنين » قالت أم أيمن : رأيت رسول الله ﷺ يومئذ يبكى خلف سرير عبد المطلب .» (٢)

وكفله عمه أبو طالب بعد وفاة جده ، « فأحبه حباً شديداً ، فكان لا يفارقه ، ويخصه بالطعام ، حتى أن بنيه إذا أرادوا أن يتغدوا أو يتعشوا قال : كما أنتم حتى يحضر ابنى » .

وكان لمحمد من حنان « فاطمة بنت أسد بن هاشم : زوج عمه أبى طالب » ثم من حب زوجه « السيدة خديجة » ولطف عشرتها وأنس صحبتها ، ما لا مطمع فيه لمزيد ، لكن شيئاً من هذا كله لم يُنسه ذكرى يتمه المر ، ولم يمحُ من خاطره مشهد أمه الغالية وهى تموت بين يديه فى الصحراء . فى (صحيح مسلم : ك الجنائز) حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، من طريقين ، قال : زار النبى ﷺ قبر أمه فبكى وأبكى مَن حوله ، فقال : « استأذنت ربى فى أن أستغفر لها فلم يأذن لى ، واستأذنته فى أن أزور قبرها فأذن لى فزوروا القبور فإنها تذكر بالموت ».

وروى « ابن سعد » فى طبقاته ، من طريق الواقدى بإسناده ، أن رسول الله ﷺ لما مر بالأبواء فى عمرة الحديبية قال : إن الله أذن لمحمد فى زيارة قبر أمه . فأتاه ، وأصلحه ، وبكى عنده ، وبكى المسلمون لبكائه ، فقيل له فى ذلك ، فقال : أدركتنى رحمتُها فبكيت (٣) ...

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : « خرج النبى ﷺ يوماً وخرجنا معه حتى انتهينا إلى المقابر ، فأمرنا فجلسنا ، ثم تخطى القبور حتى

(١ ـ ٢) طبقات ابن سعد : ١ / ١١٩ ، ١١٦ ، عيون الأثر ١ / ٣٨ .

(٣) الطبقات الكبرى : ١ / ٧٧ قسم أول . ونهاية الأرب : ١٦ / ٨٧ .

انتهى إلى قبر فجلس إليه فناجاه طويلاً ، ثم ارتفع صوته ينتحب باكياً فبكينا لبكاء رسول الله ﷺ . ثم إن رسول الله أقبل إلينا فتلقاه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : ما الذى أبكاك يا رسول الله فقد أبكانا وأفزعنا ؟ ... فأخذ بيد عمر ثم أومأ إلينا فأتيناه فقال : أفزعكم بكائى ؟ فقلنا : نعم يا رسول الله . فقال ذلك مرتين أو ثلاثاً ثم قال : إن القبر الذى رأيتمونى أناجيه ، قبر أمى آمنة بنت وهب ، وإنى استأذنت ربى فى زيارتها فأذِن لى »[1]

وهكذا شهدته الدنيا يلتفت أبداً إلى تلك البقعة المهجورة حيث مضجع أمه ، ويرنو إليها بقلبه على تطاول المدى وتنائى الأبعاد ...

وعرفت « قريش » منه ذاك ، وهى تعلن الحرب عليه وعلى من آمنوا معه ، حتى إن « هند بنت عتبة » حين مرت بالأبواء مع جيش المشركين المتجه إلى المدينة ليثأر لقتلى بدر ، لم تَر ما تؤذى به بطل الإسلام ، أقسى من نبش قبر أمه « آمنة » ولم تجد لقريش رهينة أعز ولا أغلى من بقايا الجثة الثاوية هناك . رووا عن هشام بن عاصم الأسلمى أنه قال :

« لما خرجت قريش الى النبى ﷺ فى غزوة أُحُد فنزلوا بالأبواء ، قالت هند بنت عتبة لزوجها أبى سفيان بن حرب : لو بحثتم قبر آمنة أم محمد فإنه بالأبواء ، فإن أُسِر أحدٌ منكم افتديتم كل إنسان بإرب من آرابها ؟ » .

لكن أبا سفيان لم يكد يذكر ذلك لقريش ، حتى أخذ منها الفزع كل مأخذ ، فصاحت بالرجل : « لا تفتح علينا هذا الباب » وكأنما روعها تمثُل غضبة ابن آمنة والمسلمين والعرب ، للفعلة النكراء !

وانصرفتْ قريش عن الأبواء لم تجرؤ على العبث بحرمة القبر الذى استودعه

(١) انظر مع صحيح مسلم : ١٠٥/١١ ، ١٠٨ وسنن أبى داود : ٧٥/٢ ، تاريخ مكة المكرمة للأزرقى : ص ٤٣٣ ، والروض الأنف : ١٩٤/١ .

(٢) تاريخ مكة للأزرقى : ٤٨١ ــ وانظر السيوطى فى « الحاوى » ص ٢٣٣ ج ٢ والإرب ، بكسر الهمزة : العضو .

الصبى اليتيم جثمان أمه منذ أكثر من خمسين سنة ، ثم لم ينسها بعد ذلك أبداً ...

ولم تُنسه جلائل الأحداث ولا كرُّ الغداة ومر العشىِّ ، ذكرياتِ أيامه الخوالى فى حضن أمِّه الغالية ، ومشاهد رحلته الأولى معها إلى يثرب ، بل تشبث بها خاطره وأبى أن يفلت شيئاً منها . فعندما هاجر ﷺ إلى المدينة ، مضى يطوف بالربوع التى شهدته ــ قبل نحو من نصف قرن ــ صبياً خالى البال ، ويستعيد ما كان له من مواقف هناك . حدثوا أنه ﷺ لما رأى حى بنى عدى ابن النجار قال : « ها هنا نزلتْ بى أمى ... وفى هذه الدار قبرُ أبى عبد الله »(1) .

ونظر إلى أُطُمِ بنى عدى ، فرقَّ قلبُه وهو يقول :

« كنت ألعب مع أنيسة ــ جارية من الأنصار ــ على هذا الأطم ، وكنت مع غلمان من أخوالى . وأحسنتُ العوم فى بئر بنى عدى بن النجار» (2)

لم ينس محمد ﷺ تلك الأيام الخوالى ، كما لم ينس الدار التى شهدت مولده ، وقد أُغلقت أبوابُها بعد موت أُمِّه وتُركت خلاء ...

وربما مر بها بين الحين والحين ــ أيامَ شبابه فى مكة ــ فوقف يسائلها عما فعلت بها الأيام ، ويسترجع ذكرى مشهد أمه حين كانت هناك . . .

* * *

حتى هاجر ﷺ من مكة وفيها المهد الحبيب ، فلما عاد إليها يوم الفتح وعلم أن دار مولده أخذها عقيل ابن عمه أبى طالب كره ﷺ أن يستردها منه ، كما كره للمهاجرين أن يرجعوا فى شىء من أموالهم أُخِذ منهم فى الله تعالى ، وهجروه لله (3) .

فبقى بيت المولد لعقيل وولده من بعده ، حتى اشتراه « محمد بن يوسف »

(1 ــ 2) الطبقات الكبرى : 1 / 77 قسم أول . ونهاية الأرب : 16 / 87 .

(3) تاريخ مكة المكرمة للأزرقى : 457 .

فأدخله فى داره التى يقال لها البيضاء ، فلم يزل كذلك إلى أن حَجَّت « الخيزران » ـــ أم الخليفتين موسى وهارون ـــ فجعلته مسجدًا للصلاة ، وأشرعته فى الزقاق الذى يقال له « زقاق المولد » فحدثوا أن أهل الزقاق المبارك كانوا يقولون بعد أن نقلوا منه :

ـــ ووالله ما أصابتنا فيه جائحةٌ ولا حاجة ، حتى أُخرِجنا منه فاشتد الزمانُ علينا[1] .

* * *

(١) النهاية لابن الأثير : ١٨٦/١ ، والروض الأنف للسهيلى : ١٠٧/١ ، وتاريخ مكة المكرمة للأزرق : ٤٤٦ .

طيفٌ لا يغيب

« إنى لأدخل فى الصلاة وأنا أريد إطالتها
فأسمع بكاء الصبى فأتجوز فى صلاتى ،
مما أعلم من شدة وَجِد أمه من بكائه »

(حديث شريف)

متفق عليه

طواها الثرى قبل أن يستكمل ولدها الوحيد عامه السابع ، ورأته الدنيا من بعدها ينعم بالحياة الزوجية السعيدة ، كما رأته من بعد ذلك يصطفى للنبوة ، ويخوض معاركه التاريخية المظفرة ، ضد الوثنية والشرك والضلال ...

ولقد بقى طيفها العزيز يصحبه ما عاش ، وبقيت ذكراها تراوحه حيثما ذهب وأنى أقام ، فتستثير فيه أعمق عواطف البر والرحمة ، وترتفع بالأمومة عنده إلى المقام الأسنى الذى لا يطاوله مقام ...

ذكرها فى مرضعته « ثويبة » مولاة أبى لهب ، فكان ﷺ يَصِلها وهو بمكة ، كما كانت السيدة خديجة تكرمها ، فلما هاجر إلى المدينة ظل يبعث إليها بصلة وكسوة ، إلى أن جاءه خبر وفاتها سنة سبع ، عند مرجعه من خيبر . فلما دخل مكة ظافراً بعد ذلك بعام ، لم ينس فى غبطته بالفتح الأكبر ، أن يسأل بمكة : ما فعل ابنها مسروح ؟ فقيل له : مات قبلها ، ولم يبق من قرابتها أحد[1] .

(١) الروض الأنف : ٢ / ٧٩ . مع ترجمتها بالاستيعاب والإصابة . وانظر (عيون الأثر : ١ / ٣٧) .

وكذلك فعل مع « أم أيمن » حاضنته بركة التى رافقته وأمه فى رحلتهما إلى يثرب ، وشهدت معه وفاتها بالأبواء ، فعاش ﷺ يناديها : « يا أُمَّه » وحين يراها يرق قلبه لذكرى الراحلة ويقول :

« هى أمى بعد أمى »[1] .

* * *

والأحاديث والآثار فى بره ﷺ بأمه التى أرضعته « حليمة السعدية » مشهورة ، معبرة عما يعمر قلبه الكريم من حب للأمومة فى أى صورة من صورها . فكانت ربما أقبلت ودنت إلى النبى ﷺ فبسط لها رداءه ، فجلست عليه . فقيل : من هى ؟ فقالوا : « هذه أمه التى أرضعته »[2] .

وفى السنة الثامنة للهجرة ، حين انصرف الرسول ﷺ من غزوة الطائف منتصراً ومعه من سبى هوازن ستة آلاف من الذرارى والنساء ، وما لا يُدرَى ما عِدَّتُه من الإبل والشاه ، أتاه وفدُ هوازن – ممن أسلموا – فقال قائلهم :

« يا رسول الله ، إنما فى الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك » – وكانت حليمة من بنى سعد بن بكر من هوازن ...

فلمست ضراعتهم قلبه الكبير ، واستجاب لمن استشفعوا بالأم التى أرضعته ، فقال لوفد هوازن ، وطيف أُمِّه « آمنة » يباركه :

« أمّا ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم . وإذا ما أنا صليت الظهر بالناس فقوموا فقولوا : إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين ، وبالمسلمين إلى رسول الله ، فى أبنائنا ونسائنا . فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم ... » .

فلما صلى رسول الله بالناس الظهرَ ، قام رجال هوازن فتكلموا بالذى أمرهم به ، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام :

---

(١) ابن سعد ، من طريق الواقدى : ١٠٨/١ ، الروض الأنف : ٩/٢ — وترجمتها رضى الله عنها فى (الإصابة : كنى النساء رقم ١١٣٩) .

(٢) ترجمتها ، رضى الله عنها ، فى نساء (الإصابة : ٢٩٧) .

« أمّا ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم » . فقال المهاجرون :

– وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ ...

وقالت الأنصار :

– وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ ...

وإذ رأى عليه الصلاة والسلام تردد بعض القبائل ، مثل تميم وفزارة ، قال :

« أما من تمسك منكم بحقه من هذا السبى ، فله بكل إنسانٍ سِتُّ فرائض من أول غُنْمٍ أصنيه . . . »

فردوا إلى هوازن أبناءها ونساءها[1] .

لأن فيه حواضن الرسول ﷺ وعماته وخالاته من الرضاعة . . .

* * *

وتمثل ﷺ أمه « آمنة » فى شخص فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف ، تلك التى رعته أيام صباه فى بيت عمه أبى طالب ، وكانت له من بعد أمه أماً . ذكر ابن إسحاق فى السيرة وابن سعد فى طبقاته ، من طريق الواقدى ، و « ابن عبد البر » فى الاستيعاب ، و « أبو الفرج الأصبهانى » فى مقاتل الطالبيين ، عن على بن أبى طالب وعن ابن عباس رضى الله عنهم ، أنه « لما ماتت فاطمة أم على بن أبى طالب ، ألبسها رسول الله ﷺ قميصه ، واضطجع معها فى قبرها ، فقال له أصحابه : ما رأيناك صنعتَ بأحد ما صنعت بها ، فقال : إنه لم يكن أحدٌ بعد أبى طالب أبرَّ بى منها . إنى إنما ألبستُها قميصى لتُكسَى حُلَل الجنة ، واضطجعت معها فى قبرها ليهون عليها » .

وكذلك رأى ﷺ ملامحَ من أمه الراحلة ، فى زوجه الرءوم خديجة رضى

---

(١) السيرة : ٤ / ١٣١ ، والروض : ٤ / ١٥٢ ، وعيون الأثر : ٢ / ١٩٦ مع (يوم حنين ، وغزوة الطائف) فى صحيح البخارى وفتح البارى ، معه .

الله عنها ، تلك التى سكن إليها منذ بلغ الخامسة والعشرين من عمره إلى أن لحقت بربها قبل الهجرة بثلاث سنين ، لم يستبدل بها سواها ولا ضمَّ إليها زوجة غيرها ، ولا نسى لها طولَ عمره ، ما عوضته من حنان الأمومة الذى افتقده منذ ودَّع أمه فى الأبواء . .

ذكر محمد ﷺ أمه فى كل هؤلاء . . .

وتمثلها فى بناته حين كبرن وصرن أمهات ، ورأى صورتها فى كل أمٍّ تحنو على ولدها ، فما عُرِفَ عنه أنه ﷺ كان ينفعل بمثل تلك العاطفة الفياضة التى كان يجدها أمام مشهد الأمومة ، ولا وجد ما يُمثِّل بهُ لأصحابه رحمة الله بعباده ، أقوى من حنو الأم . فى صحيح الحديث عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قال : قدم على النبى ﷺ سبىٌ فإذا امرأة منهم قد تحلَّب ثديُها ، تسقى ، إذا وجدت صبياً فى السبى أخذته فألصقته ببطنِها وأرضعته . فقال النبى ﷺ لأصحابه : « أترون هذه طارحة ولدَها فى النار ؟ » قلنا : لا ، وهى تقدِر على أن لا تطرحه . فقال : « الله أرحمُ بعباده من هذه بولدها » — متفق عليه .

وكان ﷺ ، عامر القلب بذكرى أمه ، حين ارتقى بالأمومة إلى ما فوق البشرية ، فوضع الجنة تحت أقدامها وجعل البِرَّ بها مقدمًا على فضل الجهاد فى سبيل الله والدار الآخرة ،[1] إذ جاءه الصحابىّ « معاوية بن جاهمة السلمى » رضى الله عنه يستأذنه فى الخروج للجهاد ابتغاء وجه الله واليوم الآخر ، فلما سأله الرسول : أحيَّةٌ أمُّك ؟ وقال : نعم ، أمره أن يرجع إليها فيبرها .

وعاد معاوية يستأذن فى الخروج للجهاد ، فأعاد ﷺ سؤاله عن أمه ، ثم أمره أن يرجع إليها فيبرها .

---

(١) راجع « تقديم بر الوالدين على الجهاد » فى « الجهاد » بمفتاح كنوز السنة ص ١٣٤ ط ١٩٣٤ .

فلما كانت المرة الثالثة ، وعاد معاوية يُلح في الظفر بشرف الجهاد ، كرر ﷺ سؤاله : أحيَّةٌ أمك ؟ قال : نعم . . .

فما كان منه ﷺ إلا أن قال : ويحك ! الزمْ رجلَها فَثَمَّ الجنة ! وفى رواية : « فالزمها ، فإن الجنة تحت قدميها »[1] .

وإن الإنسانية لتصغى اليوم ، وغداً ، إلى قول الرسول الكريم :

« إنى لأقوم فى الصلاة أريد أن أطول فيها ، فأسمع بكاء الصبى فأتجوز فى صلاتى كراهيةَ أن أشق على أمه »[2] . فلا يغيب عنها أن تلمح طيف « آمنة بنت وهب » ملء ذلك القلب الكبير الذى ينبض بأسمى ما تعرف البشرية من عاطفة البِر بالأمومة وتكريمها . . .

وأى مطمح للبشرية إذ تتسامى بالأم ، واهبة الحياة ، وراء الذى يقال من حديث ابن آمنة ، المصطفى بشراً رسولاً :

« لو كنت أدركتُ والدىَّ أو أحدَهما وأنا فى صلاة العشاء ، وقد قرأتُ فاتحة الكتاب ، تنادى : يا محمد ، لأجبتها : لبيكِ »[3] .

* * *

(١) ابن عبد البر : الاستيعاب ١٤١٣/٣ (معاوية بن جاهمة) .

(٢) متفق عليه ، واللفظ للبخارى فى الصحيح ، وسبق فى عنوان المبحث لفظ مسلم للمتفق عليه من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه ، مرفوعا .

(٣) رواه البيهقى فى شعب الإيمان ، بسند فيه يس بن معاذ ، ثم قال : يس بن معاذ ضعيف . وانظر السيوطى فى « الحاوى » ٢٣٣/٢ .

عَبْر الأجيَال

تتباهى بك العصورُ وتسمو
بك علياء بعدها علياءُ
فهنيئاً به لآمنةَ الفضـ
ـلُ الذى شَرُفَتْ به حواء!
(البوصيرى)

ولقد ثوى المصطفى ﷺ، بعد أن أدى رسالته، فى ثرى «يثرب» كما ثوى أبوه من قبل، وآب إلى المصير الذى يثوب إليه كل حى ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ ولكنه عاش ملء الحياة فى حساب الإنسانية والتاريخ، وفى قلوب هذه الملايين ممن آمنوا برسالته، وستظل الدنيا أبداً خاشعة أمام ذلك البشر الرسول الذى لم يكد يهتف هتافه الخالد: الله أكبر، «حتى كان النسر الرومانى يترنح ثم يتمرغ فى التراب لآخر مرة» وإذا العرب الجفاة البداة الذين لم يكونوا يخرجون من جزيرتهم إلا لرحلتى الشتاء والصيف، يطأون هذا النسر بالأقدام، ويرثون عروش الأكاسرة وتيجان الأباطرة والفراعين، ثم يندفعون شرقاً حتى يبلغوا برسالة الإسلام أسوار الصين، وينطلقون بها غرباً حتى يصلوا إلى ساحل المحيط الأطلسى ليشيدوا لدينهم دولة إسلامية فى أسبانيا، معقل الكاثولوكية المتعصبة، ثم يغذون السير شمالاً حتى يقرعوا أبواب «فيينا» عاصمة امبراطورية النمسا، ذات السلطان فى قلب أوربا المسيحية.

وستظل العقول أبداً حيرى أمام عظمة ذلك الإنسان الذى ولدته أمه «آمنة بنت وهب» بشراً سويا: يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق، ويذوق مرارة

اليتم ولوعة الثكل ، ويحب ، ويتزوج ، ويلد ويموت شأن كل بشر ، واستطاع هذا البشر الرسول ، أن يوجِّه تاريخ البشرية كلها منذ مطلع القرن السابع الميلادى ، وأن يقرر مصاير دول عظمى وشعوب عريقة ، ما كانت لتعرف شيئا عن شبه الجزيرة القاحلة الجرداء ، أو تحس وجوداً لأهلها الذين يتنقلون على الإبل بين فيافيها المقفرة وصخورها القاسية . . .

وهذا « كيتانى » الذى وُلد وشب فى جوار الفاتيكان وحِمى القديس بطرس ، يشد رحاله إلى بلاد العرب فى صدر القرن الرابع عشر الهجرى ، لعله يكشف هناك عن سر خلود ذلك الراعى اليتيم ، وتعلق أتباعه به إلى حد لا يعرف التاريخ له مثيلا ...

وهذا مستشرق آخر ، يمسك قلمه ليتساءل فى دهشة وعجب ، عن المعجزة التى جعلت من ابن « آمنة » القرشية آكلة القديد ، بطل الأبطال كما وصفه « كارليل » ، رغم كونه النبى الأوحد بين أنبياء العالم ، الذى وُلد فى ضوء التاريخ الكامل ، ومعجزته كتاب عربى مبين ، يُقرر بشريته ، ويُنَحِّى عندما حف بالرسل قبله من قداسة وألوهية .

وهل عرفت الدنيا ابن أنثى قبل محمد أو بعده ، « يغدو سلوكه اليومى – كما يقول هوجارت – سواء فى الأمور الخطيرة أو الأمور البسيطة ، القانونَ الذى يرعاه الملايين من أتباعه بكل دقة ، ويقلدونه عن يقين وإيمان إلى أيامنا هذه » ؟ .

« كلا ، ولم يحدث أن اعتبر شخص واحد ، فى أية طائفة من طوائف الجنس البشرى ، المثلَ الكامل للإنسان ، فقُلِّدت أفعاله بتمام الدقة ، كما حدث لمحمد بن عبد الله ، الذى وضعته آمنة بنت وهب كما تضع كل أنثى من البشر » فى فجر يوم من أيام ربيع ، بجوار البيت العتيق ، ثم عاشت له حتى بلغ السادسة من عمره ، فسعت به إلى قبر أبيه بيثرب ، ثم خلَّفته وحيداً فى الطريق إلى مكة !

ولم تَذْرِ « بركة » وهى تودع الجسد الساكن ، تلك الحفرةَ النائية فى صحراء الحجاز ، أن الراحلة قد تركت وراءها ذكراً خالداً يقهر الزمن ويغلب الفناء .

ولا أحست وهى تبكى سيدتها فى ذاك القفر الموحش ، أن قوماً ممن آمنوا بابن السيدة آمنة ، قد زاروا قبرها بعد أعوام ، فخُيل إليهم أن هاتفا ينوح عليها منشدًا[1] :

نبكى الفتاة البرَّة الأمينه
ذات الجمال ، العفَّة الرزينه
زوجة عبد الله والقرينه
أمّ نبى الله ذى السكينه
لو فُودِيت لفوديت ثمينه
وللمنايا شفرةٌ سنينة
لا تُبقِيَنْ ظاعنا ولا ظعينه
إلا أتت ، وقطّعت وَتِينه

ولم يُقدِّر أحدٌ ممن شهدوا رقدتها فى مضجعها الأخير بالأبواء ، أن سوف يأتى حينٌ من الدهر تُبعث فيه ذكرى الراقدة ثم لا يموت لها ذكرٌ بعد ذلك أبداً ، بل تظل صورتها تنتقل عبر الأجيال باهرة السنا والبهاء ، ويظل اسمها خالداً على مر العصور والأدهار ، يحف به جلال أمومتها العظمى التى لبثت ، وسوف تلبث دائما ، تستثير أنبل ما فى وجدان المؤمنين من انفعال ، وتُلهم شعراءهم روائع القصيد . وهذه الدنيا تصغى فى الليلة المباركة من ربيع كل سنة قمرية إلى هتاف المحتلفين بذكرى الساعة الغراء التى قامت فيها « آمنة » عن ولدها سيد البشر ، عليه أزكى الصلاة والسلام :

---

(١) السيوطى فى الحاوى للفتاوى : ٢٢٢ .

كيف ترقى رقيّك الأنبياء
يا سماءً ما طاولتها سماءُ
لم يساووك فى عُلاكَ وقد حا
ل سنى منكَ دونهم وسناء
إنما مثّلوا صفاتك للنا
س كما مثّل النجومَ الماءُ
تتباهى بك العصورُ وتسمو
بكَ علياء بعدها علياء
فهنيئا به لآمنة الفض
لُ الذى شرفت به حواء
يوم نالت بوضعه ابنةُ وهب
من فخار ما لم تنله النساءُ[1]

* * *

سلام على « آمنة » سيدة الأمهات ، أم النبى المصطفى المبعوث خاتما للرسل الأنبياء ، عليهم السلام .

* * *

---

(١) من همزية البوصيرى : انظرها فى ديوانه .

الكتابُ الثانى

نســاءُ النَّبى

(عليْهِ الصَّلاة والسَّلام)

بسم الله الرحمن الرحيم
اللهم يَسِّرْ وأعِنْ

مقدّمة

هذا حديث عن حياة سيدنا محمد ﷺ فى بيته ، أعرضه فى صور متتابعة للسيدات الكريمات اللواتى أظلهن هذا البيت ، وكان لكل منهن أثرها فى حياة المصطفى عليه الصلاة والسلام ، ومكانها فى تاريخه العظيم وسيرته الخالدة .

ولم أكتب كلمة واحدة من هذا الحديث ، حتى قرأت ما تيسر لى من مصادر ومراجع لهذا الجانب من حياة الرسول ﷺ ، فى بيته . مبتدئة بالقرآن الكريم ، والحديث وكتب السيرة ، والتفسير ، ثم التراجم والتاريخ . وطالعت ما فى خزانتى من كتب للمستشرقين فى هذا الموضوع .

على أنى حين بدأت أكتب ، كان جهد محاولتى أن أرجع إلى مصادرنا الأصول ، لما أقدم عن حياة أمهات المؤمنين فى بيت النبى ﷺ ، كما تمثلتها بعد أن وعيت الذى قرأت ...

وأعترف بأنى شعرت حين فرغت من القراءة ، بتهيب هممت معه بالتراجع عن الكتابة فى هذا الموضوع ، وذلك لما ملأنى من إحساس بجلاله ودقته من ناحية ، ولكثرة ما كتب فيه من ناحية أخرى .

فهؤلاء السيدات اللواتى عشن فى بيت النبوة ، ينزعن جميعا إلى حواء ، وقد جئن إلى بيت تلاقت فيه البشرية بالنبوة واتصلت الأرض بالسماء ، وتزوجن ممن اصطفى خاتما للنبيين ، يتلقى الوحى من الله عز وجل

ويبلغ رسالته ، فأنّى لقلم أن يصور حياة كهذه ، تموج فيها أهواء البشرية فى فيض من النور الأسنى ، وتتجاذب فيها الأنوثةَ – التى نعرف رقتها وضعفها ورهافة وجدانها – تياراتٌ بالغة القوة والعمق ، يجذبها بعضها إلى هذه الأرض الدنيا ، وتشدها أخرى إلى السماوات العلا ، وتتعادل من هذا بشرية سماوية ، وسماوية إنسانية !

غير أنى عدت فقدرت أن تراجم سيدات بيت النبوة ، رضى الله عنهن تكليف لى وتشريف ، فلست بحيث أنصرف عنها بعد أن اتجهت إليها .

* * *

وإذ صح منى العزم على تناول هذا الموضوع الجليل الدقيق ، لم أعد أتهيب كثرة ما كتب فيه ، إذ يبقى مجال لتناول جديد ، يستوعب ما فى المصادر الموثقة عن حياة نساء النبى فى البيت الكريم ، ويتمثلها على هَدى دين الفطرة ، وبإيحاء البيئة ومنطق التاريخ ، فى نزاهة مؤمنة ، ودراسة محققة ...

وسيرى القارىء أنى اقتصرت فى هذا الكتاب على الأزواج اللائى شرفن بلقب أمهات المؤمنين ، ومعهن « مارية القبطية المصرية » التى كان لها إلى جانب حُظوتها عند المصطفى ﷺ وشرف أمومتها لابنه إبراهيم عليه السلام ، أثر واضح فى الحياة الخاصة للبيت الكريم ﷺ . وفيما عدا أمهات المؤمنين ومارية ، لم أتحدث عن السيدات اللائى تزوجهن ولم يدخل بهن ، وقد اختلفت الروايات فى عددهن وأسمائهن ، فمن شاء قراءتها فليرجع إلى كتب السيرة النبوية ، والأنساب وطبقات الصحابة وتاريخ عصر المبعث ...

كذلك لم أتحدث عمن وهبن أنفسهن للنبى ﷺ ، ولا اللواتى عرضن عليه أن يتزوجهن ، ولم يتم الزواج[1] .

---

(١) انظر فى (طبقات ابن سعد : ذكر من تزوج رسول الله ﷺ فلم يجمعهن ، ومن فارق منهن ، وسبب مفارقته إياهن) ١٤١/٨ ، ثم (ذكر من خطب النبى ﷺ من النساء فلم يتم نكاحه ، ومن وهبت له نفسها من النساء) ١٥٠/٨ – ١٦٠ .

ولست أجهل أنه قد كان لهؤلاء السيدات أثر فى حياته ﷺ ، العاطفية والزوجية ، غير أن التاريخ المروى ، لم يشأ أن يسجل ذلك الأثر ، ولا عرف لهن مكانا فى بيته ، ومن ثم جاز لى أن أدعهن كى أفرغ للحديث عن أولئك اللائى دخلن حياته ﷺ ، مركزة جهدى فى تصوير شخصياتهن كما بدت فى البيت المحمدى ، فلم أتعرض لما قبل مجيئهن إليه إلا على سبيل التمهيد ، ولم أتتبع حياتهن بعده ﷺ ، إلا أن تكون إشارة موجزة يدعو إليها المقام .

ذلك لأننى لم أشأ لهذا الكتاب أن يجمع شتى المرويات عن نساء النبى جمعا لمًّا ، ولا أردت أن أجعل من هذه الدراسة مجموعة من تراجمهن على النحو التقليدى المألوف فى تراجم الأشخاص ، وإنما عنانى تمثل حياة كل منهن فى بيت المصطفى ﷺ ، ومكانها منه ، وتصوير شخصيتها تصويرا يجلوها زوجًا وأنثى ، ولا على القارىء بعد هذا أن لا يجد هنا ما وراء ذلك من تحقيق تاريخى لسنة وفاتها ، وتحديد لمكان قبرها وتتبع دقيق لأنبائها وأنباء ذويها . . . فليلتمسه فى غير هذا الكتاب إذا شاء ، وحسبه منى أن أقدم له من ملامح شخصيتها الأصيلة ، ما يضىء تاريخها كله .

وأود بعد هذا كله أن يطمئن القارىء إلى أننى تحريت جهدى فى مادة الكتاب أصالة المصادر ، ثم كان لى بعد ذلك ، منهجى فى التناول وأسلوبى فى الأداء ونسق العرض .

وعسى أن أكون قد وُفقت إلى قريب مما حاولت من تقديم الحياة الزوجية فى بيته ﷺ ، بما ينبغى لى من محض التقوى والإخلاص ، وصدق التقدير لجلال الموضوع وأمانة الكلمة .

« وعلى الله قصد السبيل » صدق الله العظيم .

الباب الأول

الزوج . . . والبيت

مُحَمَّد

الزوج النَّبِي

صَلى الله عليهِ وَسَّلم

﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾

صدق الله العظيم

الزوج والبيت

الحديث عن « نساء النبى » ﷺ فى بيته، لا بد أن يسبقه حديث عن الزوج، وبيته الذى أظلَّهن. لا أعنى به بنيانه وموضعه، بقدر ما أعنى الحياة المشتركة فيه. وأما البيت بمعنى البنيان. فالواقع أنه لم يكن بيتا واحدا، بل بيتين: أولهما فى « مكة » حيث عاش « محمد » ﷺ، مع زوجه الأولى وحدها، وحيث أنجب، وواجه التحول الأعظم فى حياته وفى حياة العرب والإنسانية جميعا. وقد وصفتُ هذا البيت فى كتابى عن «بنات النبى» ﷺ[1] وأما البيت الآخر فكان فى « المدينة » حيث عاشت أمهات المؤمنين جميعا غير السيدة خديجة رضى الله عنهن، فيجد القراء وصفه موجزًا فى الفصل الخاص بالسيدة عائشة رضى الله عنهامن هذا الكتاب، إذ كانت أولاهنَّ مكانا فيه، ومن بعدها جاءت نساء النبى تباعا، وصار لزواجه ﷺ معنى اجتماعى وسياسى وتشريعى لم يُلحظ فى البيت الأول الذى دخله محمد - ﷺ - شابا فى الخامسة والعشرين من عمره، لم يُبعث بعد برسالة، ولم يُتلق الوحى.

* * *

وفى الحديث عن رب هذا البيت الذى أظلهن، لا أقدم هنا تتبعا للسيرة النبوية أو عرضا لأمجادها الخالدة ومواقفها المشهودة، وإنما أقف من هذا كله عند جانب بعينه لا ينبغى أن أتجاوزه إلى سواه، ذلك هو محمد الزوج، النبى الإنسان الذى أظل بيته هؤلاء السيدات الكريمات، ووسعتهن دنياه الخاصة، وكان لهن حظ المشاركة فى حياته الوجدانية ثم فى حياته العملية.

---

(١) ظهرت منه عدة طبعات لدار الهلال بالقاهرة. ثم دار الكتاب العربى فى بيروت. ويأخذ موضعه فى هذا المجلد الجامع لِ (تراجم سيدات بيت النبوة) رضى الله عنهن.

والفصل بين شخصيته زوجا رجلا ، وشخصيته ﷺ نبيا رسولا ، جِدُّ عسير ، وليس الأمر كذلك فى حياة نبى آخر من حملة الرسالات رغم كونهم جميعًا آدميين ، يقول الله تعالى فيهم : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾[1] ، ذلك لأن الإسلام قرر بشرية الرسل عليهم السلام أصلا من أصول عقيدته . ومحمد ﷺ كان أحرص الناس على تذكير أمته بأنه بشر : عبد الله ورسوله .

ولم تنزع الرسالة من قلبه عواطف البشر ، ولا جردته من وجدانهم ، ولا أبرأته مما يجوز عليهم فيما عدا ما يتصل بالنبوة ؛ فهو كما قال جل جلاله : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾[2] : يسكن إلى زوجه ، ويشغل بالأبناء ويعانى مثل الذى يعانيه بنو آدم من حب وكره ، ورغبة وزهد ، وخوف وأمل ، وحنين واشتياق ، ويجرى عليه ما جرى على سائر البشر من تعب ويتم وثكل ، ومرض وموت :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ، أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ، وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ﴾[3] .

ولو شاء الله لعصم نبيه من كل هذا ، ولأعفاه مما ذاق من حرِّ الثكل فى بنيه ، وفداحة المصاب فى خديجة ، ومحنة الإفك فى عائشة ، ولجعل حياته نصرا متصلا لا يعرف هزيمة ولا يشفق من خيبة ، وأراحه من اضطهاد أعدائه وكيد المنافقين من أتباعه ، ولكن سبقت كلمة الله لرسوله :

﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ، وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ، إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ

---

(١) من آيات : يوسف ١٠٩ ، والنحل ٤٣ ، والأنبياء ٧ .
(٢) سورة الكهف ١١٠ وفصلت آية ٦ .
(٣) من آية ١٤٤ سورة آل عمران .

يُؤْمِنُونَ ﴾[1] .

وإنه لغاية التكريم للبشرية ، أن ينتمى إليها النبى الرسول ، ومن قبل كرمها الله ، فأمر الملائكة أن يسجدوا لآدم ، أبى البشر .

* * *

ولكن محمداً ﷺ ، لم يكن مع ذلك كأحد من البشر ، وقد اصطفاه الله من بين المخلوقين جميعا ، خاتما للنبيين ، وبعثه فى الناس بشيرا ونذيرا ... إنه بشر رسول ، وهذا هو موضع الدقة والعسر فى الحديث عن « الرجل » فى حياته العاطفية والزوجية ، فما يغيب عن دارسٍ يعرض لهذا الجانب من شخصية محمد ، أنه قد كان النبى المصطفى ، وأن كلمة الإسلام الأولى هى الشهادة بأن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا عبده ورسوله .

ويزيد فى دقة الأمر وعسره ، أن نرى الشخصيتين مندمجتين فيه غير منفصلتين ، وأن الله سبحانه وتعالى لم يدع لرسوله حياته الخاصة يتصرف فيها على نحو ما يفعل أى رجل من سائر البشر ، وإنما كان ــ عليه الصلاة والسلام – يتلقى من حين إلى حين أوامر ربه فى أخص الشئون الزوجية ، وكانت علاقاته بنسائه تخضع أحيانا لتوجيه سماوى صريح :

فمحنة الإفك مثلا ، لم يحسمها إلا نزول الوحى ببراءة السيدة « عائشة » مما افتراه عليها الذين أرجفوا بالسوء ورموها بالفاحشة .

وزواجه ﷺ من السيدة « زينب بن جحش » ما كان ليتم لولا أن نزل به عتاب صريح من الله الذى كره لمحمد أن يخفى فى نفسه ما الله مبديه ، وأن يخشى الناسَ فى زواجه من مطلقة ابنه بالتبنى ، واللَّهُ أحقُّ أن يخشاه .

وطلاق الرسول ﷺ لزوجه السيدة حفصة ، خيف من وطأته على أبيها

---

(١) آية ١٨٨ من سورة الأعراف .

« عمر » رضى الله عنه ، فنزل أمين الوحى على النبى ﷺ بأمر الله أن يراجع حفصة ، رحمةً بعمر .

وضيق نساء النبى ﷺ ، بما فرض عليهن من حياة خشنة ، نزل فيه قوله تعالى فى سورة الأحزاب :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ٢٨ — ٢٩ .

وسلوك نسائه ، ﷺ ، كان يخضع لتبعات القدوة ومسئوليتها الباهظة الصعبة ، قال تعالى فى سورة الأحزاب :

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا * وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ، وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ، إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا * وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ، إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ ٣٢ — ٣٤ .

وبعض هذا يكفى لبيان صعوبة الفصل بين شخصية الزوج وشخصية النبى .

فأى رجل كان نبى الإسلام عليه الصلاة والسلام ؟

وأى زوج جمع بيته هذا العدد من عقائل كريمات ، اختلفت أنماطهن ، وتباعدت أصولهن ومنابتهن ، وتفاوتت أعمارهن وصورهن ؟ ..

قد نستطيع – بشىء من الجهد – أن نتبين بعض ملامحه المميزة ، فى الشاب الهاشمى الذى صحب عميه أبا طالب ، وحمزة ، إلى دار السيدة خديجة بنت خويلد ، ليحتفل بزواجه منها فى العام الخامس عشر قبل المبعث ...

كان وقتئذ بشرا غير رسول ، وإن يكن المهيأ ليبعث بالرسالة ...

كان شابا قرشيا هاشميا عريق الأصل طيب المنبت ؛ أبوه « عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم » ، الذى وعت « مكة » قصة افتدائه من النحر وفاء بنذر أبيه[1] ، وهى قصة مثيرة أحيت ذكرى الذبيح الأول « اسماعيل بن إبراهيم » جد العرب العدنانية .

وأمه « آمنة بنت وهب به عبد مناف بن زهرة بن قصى » أفضل امرأة فى قريش نسبا وموضعا[2] .

وقد أمضى أعوامه الأولى فى بادية بنى سعد ، فتركت هذه التربية البدوية طابعها الخاص فى شخصيته ، وأكسبته صحة الجسم والنفس ، وصلابة الخلق وفصاحة اللسان[3] كما أكسبته حياته اليتيمة الكادحة من بعد ذلك ، قوة احتمال وشعورا مبكرا بالمسؤولية ، وجاءت رحلة صباه مع عمه إلى الشام فوسعت من أفقه وَزَوَّدَتْه بَعضَ خبرةٍ بالدنيا والناس ، فكان – فى إبان شبابه – الرجل الناضج الجلد الصبور ، تلمح فى شخصيته آثار البادية ، وفى سلوكه تهذيب الحياة والسلوك لجيرة الحرم : مثابة الحجاج ، ومنزل قبيلةٍ تتولى المناصب الدينية ، والزعامة فى العرب ، ولها رحلتا صيف وشتاء . كماتلمح فى عقله تجارب الحياة الجادة العاملة ، وفى خلقه شمائل هاشمى قرشى ، لم يفسده الفراغ والمال ، ولم يُصِبْه الترفُ بآفات النعومة واللين .

---

(١) السيرة النبوية ، رواية ابن هشام ١٦٠/١ ، ط الحلبى وانظر مبحث الفداء بتفصيل ، فى كتاب (أم النبى) عليه الصلاة والسلام . مع طبقات ابن سعد ١٥٠/١ ، وأعلام النبوة فى (الشفا) .

(٢) السيرة ١٦٥/١ ، عيون الأثر ٢٤/١ . مع فصل (فصاحة لسانه) فى (الشفا للقاضى عياض) .

(٣) لم يفتنى هنا أن العرب عموما قد احتفظوا بسلامة ألسنتهم ، قبل اختلاطهم بالشعوب بعد الفتوح الإسلامية ، ولكن يبقى للبادية مع هذا ، نقاء عربيتها نسبيا بالقياس إلى بيئة مكة التى عرفت الاختلاط قبل الإسلام ، بحكم مركزها الدينى والتجارى : فإليها كان حج العرب ، ومنها كانت رحلتا الشتاء والصيف إلى اليمن والشام .

هكذا كان « محمد » حين سمعت به السيدة خديجة ، وبلغها ما يتحدث به القوم عن جده واستقامته ، وصدقه وأمانته وعفته ، فمهد هذا كله سبيله إلى قلبها الذى كانت قد أغلقته دون الرجال جميعا ، وفكرت فيه قبل أن تلقاه وتراه بعينيها : « شابا وسيما ، معرب الملامح ، أزهر اللون ، ربعة فى الرجال ليس بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد ، ضخم الرأس ، مبسوط الجبين ، مرسل الذقن ، عالى العنق ، عريض الصدر ، غليظ الكفين والقدمين ، يتوج هامته شعر كث شديد السواد ، وتشع عيناه الدعجاوان الواسعتان جاذبية وسحرا تحت أهداب طوال حوالك ، وتتألق أسنانه المفلجة البيضاء إذا تكلم أو ابتسم »[1] .

« وكان يسرع الخطو ملقيا بجسمه إلى الأمام ، ويحسن الإصغاء ملتفتا إلى محدثه بكل جسمه ، لطيف المحضر ، يضحك أحيانا حتى تبدو نواجذه فإذا غضب لم يخنه حلمه ، بل ينفر عرق بين حاجبيه السابغين المتصلين ، من أثر الغضب »[2] .

ولم تكن السيدة خديجة إذا ذاك بالفتاة الغريرة ، بل كانت السيدة الناضجة الحازمة التى بلت الدنيا وعرفت الناس ، وتزوجت من قبل ذلك رجلين من سادة قريش ، وعاملت رجالا آخرين كانوا يخرجون فى مالها إلى الشام ، وإن فى إعجاب مثلها « بمحمد » وحرصها على الزواج منه لدليلا على أنها وجدت فى شخصيته الآسرة اللافتة ، ما لم تجده فى أى رجل ممن تزاحموا على بابها يطلبون يدها ، ولسنا بحاجة إلى أن نقرر هنا أنها لم تر فيه يومئذ سوى الرجل المثالى ، لا النبى المصطفى .

---

(١) تاريخ الطبرى : ٣/١٨٥ - وانظر معه كتاب الفضائل من ، صحيح مسلم : باب صفته ﷺ (٤/١٨١٨) وعيون الأثر ١/١٨٨ .

(٢) من وصف الإمام على كرم الله وجهه للنبى عليه الصلاة والسلام : تاريخ الطبرى : ٣/١٨٥ ، ١٨٦ وانظر : صحيح مسلم ، من كتاب فضائله ﷺ (٤/١٨٠٤ - ١٨١٢) .

وقد عاشرته هذه السيدة الكريمة الناضجة خمسة عشر عاما قبل أن يبعث ، وإنها لأعوام طويلة تكفى لأن تكشف لها عن جوهر هذا الزوج وتبدى من طبائعه وخصاله ما قد يخفى على غيرها من الناس . ثم لم تكد تسمع حديثه العجيب عن الوحى الأول ، حتى قالت فى يقين :

« كلا والله ما يخزيك الله أبدا ... إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكَلّ ، وتكسب المعدومَ ، وَتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق »[1] الحديث .

تلك كانت شهادة الزوجة لزوجها بعد معاشرة طالت وامتدت ، وإن فيها ما يجلو لنا ملامح من شخصيته ، ﷺ قبل أن يبعث نبيا رسولا . ومن وصف « على بن أبى طالب » - كرم الله وجهه - لابن عمه الذى عاش معه طويلا فى بيت أبى طالب ، ثم انتقل معه صبيا بعد أن غادر هذا البيت وتزوج السيدة خديجة ، قال :

« ... وهو أجود الناس كفا ، وأجرأ الناس صدرا ، وأصدق الناس لهجة ، وأوفى الناس ذمة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه أحبه ... »[2] .

ومعه ، حديث لأم معبد الخزاعية « عاتكة بن خالد » ، قالت تصفه ﷺ ، وقد رأته فى هجرته قبل أن تعرفه :

« رأيت رجلا ظاهر الوضاءة ، أبلج الوجه ، حسن الخلق ... وسيم قسيم ، فى عينيه دعج ، وفى أشفاره وطف ، وفى عنقه سطع ، وفى صوته صحل ، وفى لحيته كثاثة ، أزج أقرن ، إن صمت فعليه الوقار ، وإن تكلم سما وعلاه البهاء ، أجمل الناس وأبهاه من بعيد ، وأحسنه وأجمله من قريب ، حلو المنطق ، فصل ، لا نزر ولا هذر ... ربعة ، لا بائن من طول ولا تقتحمه عين من

---

(١) متفق عليه من حديث السيدة عائشة رضى الله عنها ، عن بدء الوحى . والسيرة ٢٥٣/١ ؛ وعيون الأثر ٨٣/١ .

(٢) وانظر كتاب المناقب فى صحيح البخارى ، وكتاب الفضائل فى صحيح مسلم .

قصر ... له رفقاء يحفون به ، إن قال أنصتوا لقوله ، وإن أمر تبادروا إلى أمره ... »[1] .

والسيدة « خديجة » تنفرد من بين نساء النبى جميعا بأنها وحدها التى عرفته رجلا وزوجا قبل مبعثه ﷺ . ومن هنا كانت وقفتنا عند حياتهما الزوجية نلتمس فيها شخصية الرجل الزوج ، فإذا تركناها إلى الزوجات الأخريات اللواتى جئن بيت النبى بعدها ، شق علينا تمثل حياتهن هناك ، فما من امرأة منهن دخلت حياة « محمد ﷺ » إلا رأت فيه الزوج والنبى معا .

والذى نطمئن إليه ، هو أن الزوجة منهن كانت تأتى بيت النبى عليه الصلاة والسلام ، معتزة بشرف الزواج من النبى المصطفى ، ثم ما تكاد تدخل هذا البيت وتلقى من فيه من زوجات يشاركنها فى رجلها ، حتى ترى فيه — ﷺ — الزوج والنبى . ومن هنا كانت المغاضبة والمنافسة ، والغيرة التى تحتدم حتى تجاوز المدى . . . وما يكون شيء من هذا فى حياة نساء يرين فى زوجهن نبيا فحسب !

وحياة « محمد ﷺ » فى بيته ، تبدو رائعة فى إنسانيتها ، فقد كان يؤثر أن يعيش بين أزواجه رجلا ذا قلب وعاطفة ووجدان[2] ، ولم يحاول — إلا فى حالات الضرورة القصوى — أن يفرض على نسائه شخصية النبى لا غير ، ونحن اليوم نقرأ ما وعى التاريخ من مرويات عن تلك الحياة الزوجية ، فيبهرنا ما فيها من حيوية فياضة لا تعرف العقم الوجدانى ، ولا الجمود العاطفى ، وما ذاك إلا لأنه ﷺ كان سَوِىَّ الفطرة ، فأتاح بذلك لنسائه أن يملأن دنياه الخاصة حرارة وانفعالا ، وينحين عنها كل ظل من ظلال الركود والفتور والجفاف .

---

(١) الاستيعاب ١٩٥٩/٤ ، وعيون الأثر ١٨٨/١ ، ٣٢٣/٢ . ومعها من الباب الثانى من (الشفا ، للقاضى عياض) ٣٥/١ ط الحلبى ١٣٦٩ هـ .

(٢) فى كتاب السمط الثمين للمحب الطبرى ، حديث طويل عن رعايته ﷺ لزوجاته ، وسمره معهن ، وصبره عليهن : ص ٨ : ١١ .

وتاريخ الإسلام يعترف لهؤلاء السيدات الكريمات ، بأنهن كن دائما فى حياة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، يصحبنه حين يخرج فى مشاهده ومغازيه ، ويهيئن له من ذلك كله ما يرضى بشريته ، ويغذى قلبه ويمتع وجدانه ، ويجدد نشاطه ، فكان له من ذلك كله ما أعانه على حمل العبء الثقيل واحتمال ما لقى فى سبيل دعوته الخالدة .

وقد عاش رسول الله ﷺ ما عاش ، فتىَّ القلب حتى بعد أن جاوز الستين ، حيَّ الوجدان حتى يوم رحل عن هذه الأرض وأغمض عينيه فى حجر أحب نسائه إليه ، وأحظاهن عنده .

* * *

فى بيتِ الزوْجيَّة ، معَ الضرائِر

بيته صلى الله عليه وسلم فى مكة المكرمة لم يعرف الضرائر ، إذا انفردت به السيدة خديجة رضى الله عنها ، لم يتزوج عليها ولم تشاركها فيه ، حتى توفيت ، امرأة أخرى وإنما كان البيت الذى جمعهن ، فى دار الهجرة .

ولا بد هنا من تعرض للمسألتين الكبيرتين فى حياة النبى ﷺ مع نسائه : تعدد الزوجات ، وحياة الضرائر . . .

وقد قال المستشرقون فى أولاهما ما قالوا، ولم يروا فى هذا الجمع بين عدد من النساء ، لزوج واحد ، سوى مظهر مادية مسرفة . وإنه لضلال أملاه التعصب الأحمق والهوى المضل ، وانحراف عن المنهج العلمى الذى يأبى أن نقيس مسألة تعدد الزوجات بمقاييس عصرية مستحدثة أضَرَّت بالمرأة والأسرة والمجتمع ، من حيث يُظن بها أنها مُصلِحة منصفة .

وهذا الغرب لا يجرؤ اليوم على أن يدعى أن نظام الزوجة الواحدة ، يُتَّبع فى دقة وينفذ نصا . . . ومع هذا يأتى بعض أبنائه فينكرون فى جرأة ، تعدد الزوجات فى بيئة قد كان التعدد هو نظامها السائد التى لا تعرف سواه إلا فى حالات قليلة ولدواع خاصة . ولم يكن هذا النظام اختياريا ، وإنما قضت به طبيعة الزمان والمكان فى مجتمع ، البنون فيه زينة الحياة ، وفخر المرأة الإنجاب ، وفخر الرجال الولدُ وعزة النفر .

وربما بدا لنا اليوم أن ذاك التعدد كان مظهرا من مظاهر استعباد المرأة العربية ورقها المزعوم ، وأنه قصد إلى إرضاء الرجال . ولكنه فى الحق كثيرا ما ألقى على الرجل عبئا ثقيلا مرهقا ، وأنقذ المرأة العربية من نظام أبشع من التعدد ،

وهو هذا الرق العصرى الذى يعترف لِزوجة واحدة بشرعية الزواج ويدع لغيرها - ممن يعاشرهن الزوج فى الحرام - الضياع والهوان والعار ويرهق الإنسانية بموردٍ لا ينقطع من أولاد الحرام ، المنبوذين اللقطاء .

والإسلام قيد التعدد شرعا بأربع . ففارق الصحابة من زدن على أربع من نسائهم ، ولهن أن يتزوجن من بعدهم .

وأكرم الله تعالى أمهات المؤمنين فأحلَّهن للنبى عليه الصلاة والسلام :

﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ﴾ . الأحزاب ـــ ٥١ .

ذلك مع ما حرم الله على المؤمنين ، من الزواج من أمهاتهم ، نساء النبى ﷺ :

﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَاجَهُۥ مِن بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾ . الأحزاب ـــ ٥٣ .

وأمر الله تعالى الرجال بالعدل بين أزواجهم ، فيما هو من المعروف والمستطاع . مع تقدير الشرع لعجز الفطرة البشرية عن العدل المطلق ولو حرصنا . وقد كان ﷺ قدوة للمسلمين ومعلما وإماما ، أحرص الناس على العدل بين نسائه ، إلا فيما لم تملكه بشريته من المساواة بينهن فى العاطفة والقلب ، وقد قال عليه الصلاة والسلام :

« اللهم هذا قسَمى فيما أمِلكُ ، فلا تلُمْنى فيما لا أملك » .

* * *

وفى مسألة التعدد ، جانب دقيق غفل عنه كثير ممن هاجموه . ذلك هو أن الرّجال ليسوا سواء ، وقد تؤثر أنثى - راضية - أن يكون لها حظ النصف من حياة رجل ، على أن يكون لها غيره كاملا .

وليس معنى هذا أن نساء النبى كن سعيدات بحياة الضرائر ، ولا هو يقتضى

أن تستريح إحداهن ، إلى هذه المشاركة فى الزوج ، ولكن معناه على التحديد أن « محمدا » ﷺ ، كان من ذلك النمط الفريد بين الرجال ، الذى تؤثر الزوجة أن يكون لها أى مكان فى بيته ، على أن تكون لها مع غيره ، مملكة مستقلة تنفرد بها دون مشاركة ...

وليس من بين أزواجه – ﷺ – من دخلت بيته وفى حسابها أن تنفرد به ، فقد كانت مسألة التعدد تبدو طبيعية إلى حد يسهل علينا تصوره ، لو ذكرنا أن « خولة بنت حكيم » اقترحت عليه أن يخطب عائشة بنت أبى بكر وسودة بنت زمعة فى وقت واحد ، وأن « أم المؤمنين ، ميمونة بنت الحارث الهلالية » طمحت إلى الزواج منه ، ﷺ وفى بيته عشر نساء : ثمانى أزواج واثنتان ملك يمينه ، وأن عمر بن الخطاب غرض ابنته حفصة على أبى بكر وعنده « أم رومان » حماة النبى ﷺ وأن على بن أبى طالب همَّ بأن يتزوج على « فاطمة الزهراء » وأن أبا بكر وعمر ، صهرى النبى ﷺ رغبا فى الزواج من « أم سلمة بنت أبى أمية زاد الركب » حين مات زوجها ، وفى بيت كل منهما أكثر من زوجة[1] ...

ولو خُيرت نساء النبى ﷺ بين حياتهن تلك المشتركة فى بيت واحد ، مع زوج واحد ، وحياة أخرى منفردة فى غير ذلك البيت ، لما رضين عن حياتهن بديلا ...

فى صحيح الحديث عن أم المؤمنين أم حبيبة بنت أبى سفيان رضى الله عنهما ، قالت : قلت : يا رسول الله ، هل لك فى بنت أبى سفيان ؟ — أختها — قال : « فأفعل ماذا ؟ » قلت : تنكح . قال : « أتحبين ؟ » قلت : لستُ لك بمخلية ، وأَحَبُّ من شاركنى فيك أختى . قال : « إنها لا تحل لى » قلت : بلغنى أنك تخطب . قال : « ابنة أم سلمة ؟ » قلت : نعم . قال : « لو لم تكن ربيبتى ما حَلّتْ لى ، أرضعتْنى وأباها ثُوَيبة ، فلا تعرضن علىَّ بناتكن وأخواتكن » .

---

(١) يأتى بيان ذلك ، مع مراجعه ، فى مواضعه من مباحث الكتاب .

وكن مع ذلك مرهقات بهذه المشاركة ، تضنيهن الغيرة ويشقيهن ألا تنفرد كل منهن بقلب زوجها . وقد شهد البيت المحمدى من غيرة نسائه الحادة ، ما يخيل إلينا معه أنها جعلت من هذا البيت ميدانا لمعارك نسوية لا تهدأ ولا تفتر ، وإن لم تر فيه الفطرة سوى أثر لحيوية هؤلاء السيدات ، ومظهر من مظاهر التنافس على حب زوجهن والرغبة فى الاستئثار به ...

فإن يكن ، ﷺ عانى من ذلك كثيرا ، فلقد راض نفسه على احتماله ، تقديرا للدوافع الطبيعية التى كانت تدفع إليه قسرا ودون اختيار ، وحسبُنا كلمته فى زوجه « عائشة » حين لجت بها غيرتها الجامحة :

« ويحها ، لو استطاعت ما فعلت ! »

شاهداً على سلامة الفطرة وصحة النفس ، وعمق الفهم لطبيعة حواء . وقد كانت نساؤه يعرفن هذا فيه ، ويلذن به كلما أخرجتهن طبيعة حواء عما يجب لهن من مسالمة ووئام ، ويدركن أن الغيرة مهما تجمح بهن ، فمثل رسول الله من يعذر ، ويقدر ، ويرحم ، دون أن يرى فى ضعف البشرية إثما لا يغتفر ، أو يجد فى فطرة حواء ما يدعو إلى الغض والازدراء .

وسيأتى فى مبحث « السيدة حفصة بنت عمر » رضى الله عنهما ، حديث أبيها حين سمع من امرأته أن نساء النبى ﷺ ، يراجعنه حتى يظل يومه غضبان ...

ذلك أن عمر والصحابة رضى الله عنهم ، كانوا يرون فى « محمد » النبى المصطفى ، وأما نساؤه فكن يرين فيه الزوج أيضا . وهو ﷺ ، راضٍ بهذا مقر له ، غير ضجرٍ به ولا كاره . . .

* * *

ومن الناس من يشفقون من تناول ما كان يحدث بين نساء النبى ﷺ من خصام وخلاف ، والحق أنه ﷺ ما ضاق بهذا إلا أن يجاوزن المدى ، فيغضب ، أو يزجر ، أو يهجر ، لعلهن يرعوين ...

وفيما عدا تلك الحالات القليلة التى اضطر فيها إلى أخذهن بالشدة ، لم يكره ﷺ أن يقف فى ساعات فراغه من معركته الكبرى فى سبيل الدين الحق ، ليرقب تلك المعركة الصغيرة بين نسائه ، يشعلها حبهن له وغيرتهن عليه ، ولعله كان مما يرضى الرجلَ فيه أن يغار مثلهن على مثله ، وأن تتنافس أزواجه على الظفر بحبه ورضاه إلى حد ينسين معه أحيانا أنه ليس كغيره من الأزواج . وما حاول - ﷺ - أن يروضهن على قهر غريزة الأنثى فيهن ، ولا كان بحيث يطيب له أن تمسخ فطرتهن فيبرأن من نوازع حواء وأهوائها ، ويتجردن من الغيرة ، والشوق ، واللهفة ، والرغبة فى الاستئثار بالزوج الحبيب ، وما كان أحلمه ﷺ ، وأرق وجدانه ، وألطف مزاجه ، حين سمع قصة ائتمار نسائه بعروس له غِرْنَ من جمالها ، فأوصينها أن تستعيذ بالله حين يدخل عليها النبى ﷺ ، استجلابا لمحبته ورضاه ، ففعلت وسرحها ﷺ قبل أن يدخل بها ، وقال عن نسائه :

« إنهن صواحبات يوسف ، وإن كيدهن عظيم ! »[1]

* * *

وهذه صورة من حياة أزواجه رضى الله عنهن ، أرجو أن يرى فيها القارىء شخصية الزوج المصطفى الذى آمنت به نساؤه رسولا ، وأعجبن به بطلا ، وعاشرنه زوجا ، وشاركن فى حياته قائدا مجاهدا ...

---

(١) بتفضيل ، فى الفصل الخاص بعائشة أم المؤمنين ، رضى الله عنها .

الباب الثانى

أمهاتُ المؤمِنينَ رَضِى الله عنهنّ

على ترتيب دخولهن البيت المحمدى

ومعهن « مارية القبطية » أم إبراهيم عليه السلام

﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ ﴾

سورة الأحزاب

(١)

خديجة بنت خُويلد

أم المؤمـــنينَ الأولى
ووزير النبى صلى الله عليه وسلم

« ... والله ما أبدلنى الله خيرًا منها : آمنتْ بى حين كفر الناس ، وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالِها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى منها الله الولد دون غيرها من النساء »

ـــ من حديث السيدة عائشة ، رضى الله عنها مرفوعا . أخرجه الإمام أحمد فى مسندها ، وابن عبد البر فى ترجمتها بالاستيعاب .

ذكرَى أليمَــة

أينع صباه واكتمل شبابه ، فى بيئة تَعِد أمثاله من الفتية الهاشميين بما شاءوا من ملذات ، لكنه كان يجد طعمَ الحياة فى مذاقه مرا كلما عاودته ذكرى بعيدة .

وما فتئت تلك الذكرى تعاوده ، وترده إلى لحظةٍ طواها الزمن منذ ثمانية عشر عاما ، وما يزال يذكر موقفه فى بقعة موحشة من الصحراء بين « مكة ويثرب » ، أمام أمه « آمنة » والحياة تتسرب من جسدها رويدا ، ثم تنطفىء إلى الأبد ...

ثمانية عشر عاما ، وما يزال المشهد الأليم يتراءى له عبر السنين ، فيرى نفسه مكبا على الحفرة التى ألقوا فيها جثمان الغالية « بالأبواء » ، ضائع الحيلة مهيض الجناح ، لا يملك أن يستبقى أمه لحظة واحدة بعد أن حان أجلها ، ولا أن يرد عنها عاديات الوحشة والبرد والظلام ، بعد أن هالوا عليها الرمال .

وربما شغلته شواغل العيش حينا عن أشجانه ، وصرفته دواعى الحياة فترة عن تمثل ذاك الموت الذى غال أعزَّ من له ، أمام عينيه وبين يديه ، لكنه لا يلبث أن يُنتزع من حاضره مستثارَ الحزن ، فإذا قلبه يخفق بين جوانحه شعوراً بعالم بعيد ، فى طريق الشمال ، ليطوف بمرقد الثاوية فى جوف الصحراء ، ثم ينثنى مثقلا بالأسى والشجن .

ما أكثر ما كان يمر فى مكة بالبيت المهجور الذى ضمَّه وأُمَّه زمنا ، ثم أوحش من بعدها وخلا ! ..

ما أكثر ما كان ينطلق إلى المراعى خارج مكة ، فإذا حان المساء وآن له أن يثوب إلى منزله ، تلبث برهة عند مدخل البلد الحرام ، وتمثل نفسه عائدا من رحلته الأولى إلى يثرب ، وحيدا محزونا مضاعَف اليتم ، يتبع جاريته « بركة » واتىَ الخطو صامتا واجما ، وهى تسعى به إلى بيت جده الشيخ « عبد المطلب » .

وكم حاول الجد الرحيم أن يذود عن أفق الغلام اليتيم تلك الرؤى الحزينة التى تروع صباه .

كم جاهد — عامين كاملين — ليضمد بيده الرقيقة ذلك الجرح الدامى فى قلب حفيده الصغير العزيز ! .

لكن الزائر المرهوب الذى ألم بآل الغلام فانتزع أباه ثم أمه ، عاد من جديد فطوّف بحىِّ بنى هاشم ، وتلبث برهة يحوم حول فراش عميدهم الشيخ عبد المطلب ، وينذر بالرحيل .

ووقف الغلام مرة ثانية ، يرقب الحياة وهى تنطفىء فيمن كان له أبا بعد أبيه ...

وأصغى فى وجوم حزين إلى صوت الشيخ المحتضر ، وهو يدنى إليه ولده « أبا طالب » فيوصيه بمحمد ، ابن أخيه « عبد الله » .

ثم يمضى ...

* * *

وانتقل الصبى من بعده إلى منزل جديد ، ووجد فى عمه أبا ثالثا ، لكنه ظل يفتقد الأم .

وبقى قلبه على الأيام والشهور والسنين ، ينزع نحو مرقدها الأخير فى « الأبواء » ...

ولم يستطع ضجيج صبية بنى هاشم فى ملاعب حداثتهم ، أن يمحو من

مسمعه صدى الحشرجة الرهيبة التى صَكَّتْ أذنيه وقلبه فى جوف البيداء .

ولا استطاعت مشاهد الحياة الزاخرة الحافلة حول « البيت العتيق » فى « أم القرى » أن تطوى فى متاهة النسيان ذلك المشهد الفاجع لاحتضار أمه وموتها ، قرب « الأبواء »[1] .

وهذا هو يقف فى المساء الساجى عند مدخل مكة شارد البال ، والكون من حوله موحش واجم ، يلفه الغلَس برداء أربد ، ويتنفس فيه الصمتُ العميق شجنا وإعياء .

وتتكاثف الظلمة من حوله ، فيجمع نفسه فى جهد ، ويأخذ طريقه إلى منزل عمه ، وفى نفسه إحساس مرهف بفراقٍ وشيك ، فقد آن له أن يغادر هذا المنزل الذى آواه سبعة عشر عاماً ، وحسبُ العمِّ ما يحمل من أعباء بنيه الكثار ...

ولكن إلى أين ؟ ..

إلى « الشام » مؤقتا كما أراد له عمُّه فى صباح يومه ذاك ، فلقد حدثه فى مطلع الشمس عن رحلةٍ مرجوة الخير ، وقال له فيما قال :

« يا ابن أخى ، أنا رجل لا مال لى ، وقد اشتد الزمان علينا وألحَّتْ علينا سِنونَ منكرة ، وليس لنا مال ولا تجارة ، وهذه عِير قومك قد حضر خروجها إلى الشام ، وخديجة تبعث رجالا يتجرون فى مالها ويصيبون منافع ، فلو جئتَها لفضَّلتك على غيرك لما يبلغها عنك من أمانتك وطهارتك ، وإن كنت أكره أن تأتى الشام وأخاف عليك من يهود ...

« وقد بلغنى أنها استأجرتْ فلانا ببكرين ، ولسنا نرضى لك بمثل

(١) بتفصيل فى كتابنا (أم النبى) ﷺ .

ما أعطته ، فهل لك فى أن أكلمها ؟ »[1] .

قال « محمد » : ما أحببت ياعمّ .

ترى هل كلمها العم واستقر العزم على الرحيل ؟

إذن فليرحل ، تاركا تدبير المستقبل للغد المطوى فى ضمير الغيب .

---

(١) ابن سعد ، عن الواقدى (١٣٠/١) وابن سيد الناس فى (عيون الأثر ٥٧/١) والذى فى السيرة الهشامية ١٩٩/١ ، والسمط الثمين للمحب الطبرى ص ١٣ طبعة حلب – وتاريخ الطبرى ، ١٩٦/٢ ، أن السيدة خديجة هى التى عرضت عليه ، مباشرة ، أن يخرج فى مالها إلى الشام تاجرا .

لقَـــاء

القافلة تغذ السير نحو « أم القرى » عائدة من رحلة الصيف إلى الشام ، والحداة يهزجون بأغانيهم التى تَعِدُ الإبل بالراحة والظل والرى ، وتمنى الركب بالأُنس فى لقاء الأهل والأحباب .

والمسافرون قد استغرقتهم نشوة حالمة منذ بلغوا « مر الظهران » على مقربة من « مكة » واشرأبت أعناقهم إلى معالمها التى لاحت لهم من بعيد ، تناديهم فى لهفة واشتياق ...

لكنه وحده ، من بين هؤلاء جميعا ، انطوى على نفسه يكابد أشجانه التى هاجها مرور القافلة قريبا من « الأبواء » فى طريق عودتها إلى « مكة » .

وعبثا حاول تابعه المرافق ، أن يغريه بالتطلع إلى « أم القرى » أو يشغله بالحديث عما ينتظره هنالك من تقدير السيدة الثرية الكريمة ، التى اختارته ليخرج فى مالها إلى الشام ، ووعدته بأن تعطيه ضعف ما كانت تعطى غيره ممن استأجرتهم قبله ...

وقال « ميسرة » :

« أسرع أنا إلى سيدتى فأخبرها بما صنع الله لها على وجهك ، فإنها تعرف ذلك لك »[1] .

فتركه « محمد » يمضى وفرغ لتأملاته :

أهذا كل ما ينتظر المسافر العائد من الشام ، والحُداة يمنون الركب بالأنس فى لقاء العشيرة والأحباب ! ...

---

(١) السيرة ، وطبقات ابن سعد (١٣٠/١) .

وكَرَّ بصرُه راجعا إلى وراء ، يتبع آثار طيف من أمه « آمنة » ، بدا كأنما يملأ فضاء الصحراء .

وتذكر رحلته الأولى ، فى السادسة من عمره ، عائدا من « يثرب » بغير أم ! .

* * *

حتى علا ضجيج الركب مختلطا بهتاف المستقبلين ورغاء الإبل التى أناخت على ثرى « مكة » مطمئنة ، فمضى « محمد » على بعيره قاصدا دار « خديجة » بعد أن طاف بالبيت العتيق ...

وكانت « خديجة الطاهرة » هناك فى دارها ، ترقب الطريق من عِلِّيَّةٍ لها فى لهفة مشوبة بشىء من القلق ، وإلى جانبها غلامها « ميسرة » يملأ سمعَها بحديث مثير عن رحلته مع « محمد »[1] .

وإذ ظهر لها أخيرا يدنو من الدار بطلعته الوسيمة وملامحه النبيلة ، عَجِلتْ إليه تستقبله لدى الباب مرحبة ، مهنئة بسلامة العودة ، فى صوت يفيض عذوبة ورقة وحنانا .

ورفع إليها وجهه شاكرا ، وقد غضَّ من بصره ، ثم مضى يقص عليها أنباء رحلته وربح تجارته وما جاءها به من طيبات الشام . . .

وأنصتت إليه شبه مأخوذة ، حتى إذا ودعها ومضى ، ظلت واقفة حيث هى ، تتبعه عيناها إلى أن توارى فى منعطف الطريق .

واتجه هو إلى منزل عمه « أبى طالب » وهو يحس شيئا من الرضى والارتياح ، أن عاد إليه من رحلته موفقا سالما ، لم يمسسه أذى من يهود ...

زوَاج سَعيد

وسارت الحياة فى « مكة » على وتيرتها أياما ، وقد عكف أصحاب الأموال على مراجعة حساباتهم وإحصاء أرباحهم أو خسارتهم ، وانصرف التجار العائدون إلى أهليهم يستجمون من آثار سفر شاق طويل ، محفوف بالأخطار . . .

وصُفِّىَ حساب القافلة أو كاد ، وانقطع ما بين التجار والأُجَراء إلى حين ، اللهم إلا ما كان بين السيدة « خديجة » الطاهرة و « محمد » الصادق الأمين . . .

لقد بلت « خديجة » الدينا وعرفت الرجال ، وتزوجت مرتين ، باثنين من سادات العرب وأشرافهم : عتيق بن عائذ بن عبد الله المخزومى ، وأبى هالة هند بنّ زرارة التميمى[1] ، واستأجرت غير واحد من الكهول والشبان ، فما رأت فيمن عرفت ، ذلك النمط الفريد من الرجال .

واستغرقت فى تفكيرها ، تستعيد صوته الفريد المميز ، وهو يحدثها عن رحلته ، ويطالعها مرآه وهو مقبل عليها ملء المهابة والجلال .

وفجأة ، ألفت خواطرها تحوم حول الموضع الذى التقت فيه بالشاب الهاشمى ، فهزها شعور مباغت ، خفق له قلبها :

---

(١) هذه رواية السيرة (١٩٣/٤) وتاريخ الطبرى (١٧٥/٣) ، والسمط الثمين (١٣) وعيون الأثر (٥١/١) قابل على رواية الاستيعاب ، وعلى رواية ابن حبيب فى (المحبر) .
وانظر ترجمة عتيق وأبى هالة فى (جمهرة أنساب العرب لابن حزم) : ص ١٣٣ ، ١٩٩ ط أولى ذخائر العرب .

فيم الخفقان وقد أدبر الشباب أو كاد ؟ ..

وانتفضت لا تدرى كيف تواجه دنياها بمثل هذه العاطفة ، بعد أن نفضت يديها من الرجال أو خرجت – فى حساب بيئتها – من حياة الرجال ؟

وكيف تلقى بها قومها وقد ردت عن بابها الخُطَّاب من سادة قريش وسراة مكة ؟[1]

لقد فكرت فى قومها ، دون أن تعرف رأى « محمد » فيها : أتراه يستجيب لعاطفة أرملة كهلة فى الأربعين من عمرها وهو الذى انصرف حتى اليوم عن عذارى مكة وزهرات بنى هاشم الناضرات ؟

وانتابها ما يشبه الخجل ، فما هى فى كهولتها بالقياس إلى « محمد » فى شبابه غير خالة أو أم ، ولو عاشت « آمنة بنت وهب » لما جاوزت يومئذ سنَّ الأربعين ! ... وهى بعد ليست خلية من هموم الأمومة ، فقد ترك لها زوجها عتيق بن عائذ المخزومى ابنة أدركت سن الزواج ، وخلف لها زوجها أبو هالة هند بن زرارة التميمى ، ولدها « هندا » غلاما لم يشب عن الطوق[2] .

فأى طائل وراء هذه العاطفة التى تبدو يائسة عقيما ؟

وفيما هى فى حيرتها ، زارتها صديقتها « نفيسة بن مُنية » فلم يغب عنها الذى تجد صاحبتها ، فمازالت بها حتى كشفت لها عن سرها المطوى . . .

وهوَّنت « نفيسة » الأمر عليها ، فما فى نساء قريش من تفوقها نسبا

---

(١) السيرة : ١ / ٢٠١ ـــ والسمط الثمين ١٣ .

(٢) انظر ترجمة أم محمد بنت عتيق فى جمهرة الأنساب (١٣٣) وانظر ترجمة هند بن أبى هالة ، ربيب رسول الله ﷺ فى الاستيعاب (٤ / ١٥٤٥) وفى الجمهرة (١٩٩) .

وشرفا ، وهى بعدُ ذات غنى وجمال ، كلُّ قومها حريص على الزواج منها لو يقدر عليه[1] .

ثم تركتها وقد اعتزمت أمرا ...

* * *

جاءت[2] « محمدا » فسألته فيمَ عزوفه عن الدنيا وقضاؤه على شبابه بالحرمان ؟ .. هلا سكن إلى زوج تحنو عليه وتؤنسه وتزيل وحشته ؟

فأمسك الشاب دمعة كادت تخونه وهو يذكر ما ذاق من حرمان منذ تركته أمه صبيا فى السادسة من عمره ، وتكلف الابتسام ليرد على محدثته :

ـــ ما بيدى ما أتزوج به ...

قالت على الفور :

ـــ فإن دُعِيتَ إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة ، ألا تجيب ؟

فما مسَّ سؤالها أذنيه حتى أدرك من تعنى :

تلك « خديجة » ورب الكعبة ، ومن سواها تدانيها شرفا وجمالا وكفاءة ؟ ..

ألا لو دعتْه لأجاب ، ولكن هل تدعوه ؟

وانصرفت « نفيسة » وتركته مشغول البال ، يرنو فى رقة إلى طيفٍ من خديجة ، وقد تراءت له فى وحدته طلقة المحيا باشة الأسارير ، تشع لطفا وبهاء وحنوا ...

وأشفق من أن تبعد به أمانيه ، إذ كان يعلم ردها أشراف قريش وأغنياءها

---

(١) السيرة : ١ / ٢٠١ ، طبقات ابن سعد : ١ / ١٣١ .

(٢) من طبقات ابن سعد ، عن الواقدى ١ / ١٣١ ، والإصابة فى ترجمتى خديجة ، ونفيسة ، والذى فى سيرة ابن هشام أن السيدة خديجة عرضت نفسها عليه من غير وساطة . وانظر تاريخ الطبرى ٢ / ١٩٧ والروايتان فى (عيون الأثر ١ / ٤٩) .

فغالب نفسه ليستردها إلى واقعه ، وانطلق يسعى نحو الكعبة ، فإذا كاهنة تلقاه فى طريقه فتستوقفه سائلة : جئت بخاطبا يا محمد ؟

أجاب غير كاذب : كلا

فتأملته برهة ثم هزتْ رأسها وهى تقول :

ــ ولم ؟ .. فوالله ما فى قريش امرأةٌ ، وإن كانت خديجة ، لا تراك كفئا لها[1] .

* * *

ثم لم تك إلا فترة قصيرة المدى ، حتى تلقى دعوة « خديجة » فسارع إليها ملبيا وفى صحبته عماه « أبو طالب وحمزة ، ابنا عبد المطلب » .

وهناك فى بيتها ألفوا قومها ينتظرون ، وكل شيء مهيأ لزواج . سريع ... وتكلم « أبو طالب » :

« أما بعد : فإن محمدا ممن لا يوازَن به فتى من قريش ، إلا رجح به شرفا ونبلا وفضلا وعقلا ، وإن كان فى المال قلّ ، فإنما المال ظل زائل وعارية مسترجعة ، وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك ... » .

فأثنى عليه عمها « عمرو بن أسد بن عبد العزّى بن قصيّ » وأنكحها منه ، على صداق قدره عشرون بكرة[2] .

ولما انتهى العقد ، نُحِرتْ الذبائح ودقت الدفوف ، وفُتحت دار خديجة للأهل والأصدقاء ، فإذا بينهم « حليمة » قد جاءت من بادية بنى سعد ، لتشهد عرس ولدها الذى أرضعته ، ثم لتعود فى الغداة ومعها أربعون رأسا

---

(١) الروض الآنف ١ / ٢١٤ ، وعيون الأثر ١ / ٥٠ مع ترجمة نفيسة فى نساء الإصابة ٨ / ٢٠٠ والاستيعاب ٤ / ١٩١٩ .

(٢) فى رواية لابن إسحاق عن الزهرى ، أن أباها هو الذى زوجها . والتفصيل فى (عيون الأثر ١ / ٥٠) مع السيرة ١ / ٢٠١ ، وهمّته الواقدى وقال والثابت عندنا المحفوظ عن أهل العلم أن أباها خويلد بن أسد ، قبل الفجار ، وأن عمها عمرو بن أسد هو الذى زوجها (طبقات ابن سعد : ١ / ١٣٣) .

من الغنم ، هبةً من العروس الكريمة لتلك التى أرضعت « محمدا » زوجها الحبيب ...

وتندت عينا « محمد » وهو يتفقد أمه « آمنة » فإذا يد لطيفة رقيقة ، تأسو الجرح القديم فى حنان غامر ، وإذا به يجد فى « خديجة » عوضا جميلا عما قاساه من طويل حرمان ...

* * *

ولم يعنِ « مكةَ » من أمر الزوجين السعيدين ، سوى أن زواجا ربط بين « محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشى » و « خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزّى بن قصىّ »[1] القرشية الطاهرة .

ولكن « التاريخ » تلبث بعد بضع عشرة سنة ، ليسترجع يوم العرس المشهود ، ويُسجله بين أيامه الخالدات على مر الزمان .

وقد انصرف إلى حين ، تاركا هذين الزوجين ينعمان بأُطيب حياة زوجية شهدتها « مكة » ويترشفان على مهل ، رحيق ودٍّ صاف عميق ، سيظل حديث التاريخ .

واستغرقا فى هناءتهما خمسة عشر عاما ، ناعمين بالألفة والاستقرار ، وقد أتم الله عليهما نعمته ، فرزقهما البنين والبنات : القاسم ، وعبد الله ، وزينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة[2] .

وأرخى الزمن لهما فى حياتهما تلك الرضية الهادئة أعواما ذات عدد ، ارتوى « محمد » خلالها من نبع الحنان ، معوضا بذلك حرمان ماض يتيم ، ومتزودا لغد مقبل ، حافل بالكفاح المضنى والشواغل الجسام .

---

(١) وأم خديجة : فاطمة بنت زائدة بن الأصم بن هرم بن رواحة . راجع الاستيعاب (١٩١٧/٤) وتاريخ الطبرى (١٧٥/٣) – ونسب قريش : ٢٣٠ والمحبر ١٢ – ١٨ .

(٢) انظر السيرة : ٢٠٢/١ ، وطبقات ابن سعد : ١٣٣/١ ، وتاريخ الطبرى ١٧٥/٣ والمحبر ٧٩ ، والاستيعاب ١٨١٧/٤ ، ونسب قريش ٢١ .

وقد ذاقا فى تلك الفترة لوعة الثكل فى الولدين العزيزين ، فكان للزوجين فى وئامهما وتصبرهما ، ما أعانهما على تجرع الكأس التى تدور على الناس جميعا فلا يعفى من شربها أحد ، وما كان ولداهما إلا وديعة ، ولا بد يوما أن تسترد الودائع ![1] .

(١) لم نطل الحديث هنا عن أبوة محمد ﷺ وأمومة خديجة رضى الله عنها ، لأن موضع هذا الحديث يأتى فى كتابنا عن « بنات النبى » ﷺ .
وذكر الطبرى أن هند بن أبى هالة ، كان عند أمه خديجة بعد زواجها بمحمد - ﷺ - وفى ترجمة هند بطبقات الصحابة ، والحفاظ ، وكتب الأنساب ، أنه ربيب رسول الله ﷺ .

معَ المصطفى ﷺ فى ليلة القدر

ثم كان الحادث الخطير ، لا فى حياة هذه الأسرة الوادعة فحسب ، ولا فى حياة قريش والعرب وحدهم ، بل فى حياة الإنسانية أجمع .

لقد تلقى « محمد » رسالة الوحى ، فى ليلة القدر ، واصطفاه الله تعالى خاتما للنبيين عليهم السلام ، وبعثه فى الناس بشيرا ونذيرا ...

وكانت الرسالة إيذانا بحياة جديدة ، شاقة كادحة ، وبدءا لعهد ملؤه الاضطهاد والأذى ، والجهاد ، ثم النصر .

وفى الحق لم يكن الحادث الأكبر مفاجأة للعرب ، فما أكثر ما تناقلت الجزيرة أنباء إرهاصات عن نبى جديد قد حان مبعثه ، وما أكثر ما تحدث السمار والكهان والمتحنفون ، عن رسالة سماوية منتظرة آن أوانها ![1] .

و « مكة » على الخصوص ، كانت الموضع الذى تتلاقى فيه تلك الإرهاصات والبُشريات ، وتتجمع روافدها من هنا ومن هناك وهنالك ، لتصب حول « البيت العتيق » : مثابة الحج ومركز العبادة من قديم العصور والآباد ... غير بعيد من دار المولد وما حف بها من ذكرى قصة الفداء ، وبشريات الحمل والمولد والرضاعة ، والرحلة إلى الشام .

لكن أحداً لم يكن يدرى يقيناً كيف ومتى يكون المبعث المنتظر ، ومن هنا كان لنزول الوحى على المصطفى ﷺ ، وقع المفاجأة العنيفة التى جاوزت

(١) انظر هذه المرويات بالتفصيل فى الجزء الأول من سيرة ابن هشام ، ط . الحلبى ، وطبقات ابن سعد ، والشفا للقاضى عياض ، وفى الجزء السادس عشر من نهاية الأرب للنويرى ، ط دار الكتب — وفى الجزء الأول من عيون الأثر ووفاء الوفا ، بأخبار دار المصطفى للسمهودى . ط السعادة بمصر .

أبعاد التصور . كان منذ استقرت به الحياة فى رعاية الزوج الرءوم ، وأعفته ظروفه المادية من عناء الكفاح اليومى ، قد أتيح له أن يستجيب لما فى نفسه من نزوع إلى التأمل ، وميل إلى التفكير المستغرق . وهى نزعة ظهرت فيه واضحة منذ الصبا . ووجدت فى ساعات فراغه – أيام رعيه للغنم – مجالا رحْبا ، ثم صرفه عنها كدح العيش ، لتعود فتظهر من جديد ، قوية أصيلة ، كأنما هى فطرة فيه .

وكثيرا ما حامت تأملاته حول الكعبة ، تلك التى صنعت تاريخ « مكة » وتاريخ أسرته بوجه خاص[1] ، ووصلت ما بين أبيه « عبد الله » و « إسماعيل » جد العرب ، برباط وثيق نسجته يد الزمن طوال قرون لا عداد لها . فأحيت بحادث فداء « عبد الله » من الذبح ، ذكرى متناهية فى القدم ، لمشهد الذبيح الأول : ابن ابراهيم .

وانبلج له نور الحق ، فرفض هذه الأصنام التى تكدست فى بيت الله ، صماء عمياء ، لا تملك لنفسها نفعا ولا ترد عن نفسها ضرا ، وأنكر أن تخف أحلام قومه ، فيتعبدوا لحجارة بالغة الهوان ، ويقدموا القرابين لأوثان وأصنام صنعوها بأيديهم ، ثم جعلوا منها آلهة لهم وأربابا .

وأرهف التأمل حسه ، فإذا هو يستشف أدق ما فى الكون من أسرار ، ويلمح وراء جلال الليل ورهبة الصحراء وسنا الضوء وبهاء السماء ، قوة عظمى خفية ، تدبر هذا الكون وفق نظام دقيق ونواميس مطردة ، لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون ...

وما شارف الأربعين ، حتى كان قد ألف الخلوة فى غار « حراء » واستطاب رياضته الروحية التى يحس خلالها كأنما يدنو من الحقيقة الكبرى ويستجلى السر الأعظم . وما كانت « خديجة » فى وقار سنها وجلال أمومتها

(١) السيرة : ١٦٣/١ – واقرأ الفصل الخاص بمكة فى كتابنا « أم النبى » ﷺ .

لتضيق بهذه الخلوات التى تبعده عنها أحيانا ، أو تعكر عليه صفو تأملاته بالمعهود من فضول النساء ، بل حاولت ما وَسِعَها الجهد أن تحوطه بالرعاية والهدوء ما أقام فى البيت ، فإذا انطلق إلى (غار حِراء) ظلت عيناها عليه من بعيد ، وربما أرسلت وراءه من يحرسه ويرعاه . . [1]

وهكذا بدا كأن كل شىء مهيأ لاستقبال الرسالة المرتقبة ، لكنها ، رغم هذا التهيؤ ، زلزلت حين جاءت أرجاء ذلك العالم الذى طالما أرهص بنبوة وشيكة ، وهزت ذلك النبى المصطفى « محمد بن عبد الله » الذى ما رضى قط عن موضع الأصنام بالكعبة ، ولا ارتاب قط فى أن حياة قومه لن تمضى هكذا على سفه وضلال . . .

فلمانزل عليه الوحى فى ليلة القدر وهو فى (غار حراء) انطلق يلتمس بيته فى غبش الفجر خائفا شاحبا يرجف فؤاده ، حتى بلغ حجرة زوجه وذهب عنه الروع ، فحدثها فى صوت مرتجف عن كل ما كان ، ونفض لديها مخاوفه ، قال : « لقد خشيت على نفسى » .

أتراه يهذى حالما ؟ أم به جُنة ؟

وضمته إلى صدرها ، وقد أثار مرآه أعمق عواطف الأمومة فى قلبها ، وهتفت فى ثقة ويقين :

« الله يرعانا يا أبا القاسم ، أبشر يا ابن عم واثبت ، فوالذى نفس خديجة بيده ، إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة ، والله لا يخزيك الله أبدا . . . إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكَلَّ ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق »[2] .

---

(١) السيرة ٢٥٣/١ — الدرر : ٣٤ والإصابة ٢٠٠/٨ .

(٢) متفق عليه ن حديث بدء الوحى ، ومعه السيرة ٢٥٣/١ وشرحها فى الروض الأنف ٢٧٠/١ وابن سعد ، بإسناده من عدة طرق (١٩٤/١) وتاريخ الطبرى : ٢٠٥/٢ — ٢٠٧ ، والسمط الثمين ص ١٠ ، وعيون الأثر ٨٣/١ ، والإصابة ٢٠٠/٨ . . . . بألفاظ متقاربة .

وزايله روعه ، فما هو بالكاهن ولا به جنَّة ، وهذا صوت « خديجة » العذب الواثق ، ينساب مع ضوء الفجر إلى فؤاده ، فيبث فيه الثقة ، والأمن والهدوء .

وأحس الراحة والطمأنينة وهى تقوده فى رفق إلى فراشه ، فتضعه فيه كما تفعل أم بولدها الغالى ، ثم تهدهده بصوتها الأليف . . .

واستراحت عيناها عليه برهة وهو مستغرق فى نومه الهادىء المطمئن ،ورفرف عليه قلبها ملء الحب والإيمان ، ثم قامت فتسللت من المخدع على حذر ، حتى إذا بلغت الباب اندفعت إلى الطريق الخالى ، تحث خُطاها نحو ابن عمها « ورقة بن نوفل » ومكة ما تزال تنعم بغفوة الصبح ، والكون يبدأ تفتحه للضوء والحياة .

وجاءت « ورقةَ » فأقعدته الشيخوخة عن النهوض للقائها ، لكنه ما كاد يصغى إلى ما تتحدث به حتى اهتز منفعلا ، وتدفقت الحيوية فى بدنه الواهن ، فانتفض يقول فى حماسة :

« قدوس ... قدوس ، والذى نفس ورقة بيده ، لئن كنت صدقتنى يا خديجة ، لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى وعيسى ، وإنه لنبى هذه الأمة ، فقولى له فليثبت »[1] .

و لم تنتظر مزيدا من قوله ، و لم تستعد كلمة واحدة منه، بل أسرعت إلى زوجها الحبيب تعجل إليه بالبشرى .

° ° °

(١) السيرة ٢٥٤/١ – وتاريخ الطبرى : ٢٠٦/٢ والحديث مخرج فى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها . ومجال عرضه بتفصيل ، فى كتابى (مع المصطفى) صلى الله عليه وسلم .

في حديث السيدة عائشة ، رضى الله عنها ، عن بدء الوحى ، قالت : فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العُزَّى ، ابن عم خديجة ، وكان امرأً تنصر فى الجاهلية .. يكتب الإنجيل بالعبرانية ، وكان شيخا كبيرا قد عمى ، فقالت له خديجة : يا ابن عمٍّ ، اسمع من ابن أخيك ... فأخبره ﷺ بخبر ما رأى وسمع . فقال له ورقة : هذا الناموس الذى نزل على موسى ، عليه السلام ، يا ليتنى فيها جَذَعًا ، ليتنى أكون حيًّا إذ يخرجك قومك . فقَال رسول الله ﷺ : " أوَ مُخْرِجِىَّ هم ؟ " قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزَّراً »[1] .

وطابت نفسه ، ﷺ ، بما سمع ، فانصرف إلى بيته مطمئنا مع زوجه أم المؤمنين الأولى ، ليبدأ نضاله من أجل الدعوة ، وليلقى فى سبيلها أشقّ ما وعى التاريخ من أذى واضطهاد ، فما كانت قريش لترضى أن يعيب دينها ويسفه أحلامها ، ويحقر آلهتها التى وجدوا آباءهم لها عابدين .

° ° °

(١) متفق عليه ، وانظر السيرة ٢٥٤/١ وتاريخ الطبرى : ٢٠٦/٢ ، ٢٠٧ .
مع (فتح البارى : ١ / ١٧ ، وعيون الأثر ١ / ٨٠) .

ووقفت زوجه المحبة المؤمنة إلى جانبه ، تنصر وتشد أزره ، وتعينه على احتمال أقسى ضروب الأذى والاضطهاد سنين عددا ، فلما قُضى على بنى هاشم وعبد المطلب أن يخرجوا من مكة لائذين بشِعب أبى طالب ، بعد أن أعلنت قريش عليهم حرباً مدنية لا ترحم ، وسجلت مقاطعتها لهم فى صحيفة عُلقت فى جوف الكعبة[1] . ولم تتردد « خديجة » فى الخروج مع زوجها ، وهكذا تخلت عن دارها الحبيبة ، مغنى صباها ومجمع هواها ومثابة ذكرياتها ، وقامت تتبع رجلها ونبيها وقد علت بها السن ، وناءت بأثقال الشيخوخة ، والثكل ، والاضطهاد .

وأقامت هنالك فى شِعب أبى طالب ثلاث سنين ، صابرة مع زوجها النبى ﷺ ومن معه من صحبه وقومه ، على عنت الحصار المنهك ، وجبروت الوثنية العاتية العمياء .

* * *

(١) السيرة : ١/٣٧٥ وتاريخ الطبرى ٢/٢٢٨ .

(٢) السيرة ، والمحبر لابن حبيب (١١) وفى رواية لابن سعد أنهم أقاموا سنتين ، ورواية أخرى بلفظ « مكثوا سِنينَ » – الطبقات ١/٢١٠ .

عَـام الحُـزن

حتى تهاوى الحصار أمام قوة الإيمان الصادق والمجاهَدة الباسلة . وآن للنبى ﷺ أن يعود إلى بيته فى جيرة الحرم المكى ، مع زوجه المؤمنة الصابرة التى بذلت له فى المحنة ، ما أبقى لها الزمن من طاقة ، فى عامها الخامس والستين .

بعد نحو ستة أشهر من انهيار الحصار ، مات العم « أبو طالب بن عبد المطلب بن هاشم » وقد كان لابن أخيه ، ﷺ ، أباً صديقاً وكافلا وحاميا ، ومانعاً له من طواغيت قريش ، قومه .

ولم تشهد رضى الله عنها مأتمه . كانت فى فراشها تودع الدنيا ، وزوجها عليه الصلاة والسلام إلى جانبها يرعاها ويؤنس وحشة احتضارها ببشرى ما لها عند الرفيق الأعلى ، ويتزود منها لفراق لا لقاء بعده فى هذه الدنيا . ثم أسلمت الروح بعد ثلاثة أيام ، بين يدى الزوج الذى تفانت فى حبه منذ لقيته ، والنبى الذى صدقته وآمنت برسالته من فجر ليلة القدر ، وجاهدت معه حتى الرمق الأخير من حياتها ، وكانت له سكنا وأنسا وملاذا ، إلى أن رجعت نفسها المطمئنة إلى ربها راضية مرضية . ودفنها ، ﷺ ، بالحجون .

* * *

كانت وفاتها ، رضى الله عنها ، قبل الهجرة بثلاث سنين على الصحيح[1] .

(١) ابن إسحاق فى رواية يونس بن بكير (عيون الأثر ١٣٠/١) والإصابة ٦٢/٨ ، والمحبر لابن حبيب ١١ .

وتلفت محمد - ﷺ - حوله ، فإذا الدار من بعدها موحشة خلاء ، وإذا « مكة » تنبو به بعد رحيلها فليس له على أرضها مكان . . .

قال « ابن اسحق » : « فتتابعت على رسول الله ﷺ المصائب بهلك خديجة ، وكانت له وزير صدق على الإسلام »[٢] .

وأسند الواقدى عن عبد الله بن ثعلبة ، بن صُعَيْر ، رضى الله عنه ، قال : لما توفى أبو طالب وخديجة بنت خويلد ، وكان بينهما شهر وخمسة أيام ، اجتمعت على رسول الله ﷺ مصيبتان ، فلزم بيته وأَقَلَّ الخروج ، ونالت منه قريش ما لم تكن تنال ولا تطمع به .. »

وبلغت متاعبه ، ﷺ أقسى مداها فى عام موت « خديجة » الذى سمى « عام الحزن » وخيل إلى أعدائه المشركين أن الظلمات تكاثفت حوله فما عاد يبدو على الأفق شعاع من ضياء . وكذبتهم أمانيهم فظنوا أن الظفر به جد قريب ، وما دروا أن الظلمة تبلغ ذروتها قبيل الفجر ...

ذلك أن « خديجة » لم تمض إلا وأمين الوحى يرعى النبى ﷺ غاديا رائحا ، يذود عنه اليأس والإحباط ، والسابقون الأُولون من المؤمنين يحيطون بنبيهم مستبسلين يفتدونه بالمهج والأرواح ، ويرون الاستشهاد فى سبيل دعوته مجدا وانتصارا ...

لم تمت « خديجة » إلا والدعوة قد ذاعت وجاوزت « مكة » إلى أطراف الحجاز ، ثم إلى ما وراءها من بلاد العرب ، وحملها فئة من صحابته عبر البيد والبحار إلى « الحبشة » مهاجرين بدينهم ، متخلين عن ديارهم وأهليهم ، عارضين على الدنيا مشهدا رائعا فريدا من مشاهد الإيمان الباذل الصابر ، مالئين

(١) السيرة : ٥٧/٢ - تاريخ الطبرى : ٢٢٩/٢ ، عيون الأثر ١٣٠/١ .

(٢) طبقات ابن سعد : (ذكر سبب خروجه ﷺ إلى الطائف) ٢١١/١ .

الأسماع والقلوب بحديث مثير عن صدق الجهاد ومجد التضحية وبطولة الاستشهاد .

لم تمت « خديجة » إلا وفى الموسم بمكة ، رجال من « يثرب » لن يلبثوا أن يبايعوا الرسول ﷺ ويعودوا فيعبئوا المدينة كلها لنصرته ، وأقصى أمانيهم أن يخوض بهم المعركة الباسلة ، ليظفروا بإحدى الحسنيين : النصر على أعداء الله ، أو الاستشهاد فى سبيله . . .

* * *

ملءُ الحيَــاة

ولكن ، هل ماتت « خديجة » حقا ؟

كلا ! .. إنها لماثلة فى حياة زوجها الرسول ﷺ ، فما يسير إلا وطيف منها يتبعه ، وما يسرى إلا وسنى مشرق منها يبدد من حوله حالك الغواشى . . .

وستدخل بعدها فى حياته ﷺ ، نساء ذوات عدد ، لكن مكانها من قلبه وفى دنياه ، سيظل أبدا خالصا لهذه الزوج الأولى ، والحبيبة الرءوم التى انفردت ببيت رجلها ربع قرن من الزمان ، لم تشركها فيه أخرى ، ولا لاح فى أفقه ظل من شريكة سواها .

سوف تفد على هذا البيت بعدها أزواج أخريات ، فيهن ذوات الصبا والجمال ، والحسب والجاه ، ولكن واحدة منهن لن تستطيع أن تزحزح « خديجة » عن مكانها هناك ، ولن تفلح فى إبعاد طيفها الذى أقام أبدا يحوم حول الحبيب ويستأثر بإعزازه ما عاش .

وستشهده « المدينة » بعد أعوام عندما انتصر فى « بدر » يتلقى فداء الأسرى من قريش ، فلا يكاد يلمح قلادة لخديجة بعثت بها ابنتها « زينب » فى فداء زوجها الأسير « أبى العاص بن الربيع » حتى يرق قلب البطل المصطفى من شجو وشجن ، ويسأل أتباعه الظافرين ، فى أن يردوا على « زينب » قلادتها ويفكوا أسيرها[1] .

وسيشهد بيت النبى « عائشة بنت أبى بكر » فى عزة صباها ونضرة شبابها

(١) السيرة ٢/٢٠٧ – ولحديث القلادة فصل خاص فى كتاب « بنات النبى » ﷺ .

وحب النبى ﷺ لها ، تشعلها الغيرة من تلك الضرة التى سبقتها إلى قلب « محمد » واستأثرت به وحدها حتى يومها الأخير ، ثم ظلت بعد موتها حيث كانت من قلبه .

فى الصحيحين من حديث عائشة رضى الله عنها ، قالت : استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة ، على رسول الله ﷺ ، فعرف استئذان خديجة فارتاع لذلك فقال : « اللهم هالة ! » فغِرت فقلت : ما تذكر من عجوز من عجائز قريش ، حمراء الشدقين ، هلكت فى الدهر أبدلك الله خيرا منها ؟ »[1] زادت فى رواية الإمام أحمد بالمسند ، وابن عبد البر فى الاستيعاب ، وابن حجر فى الإصابة من طريق أبى بشر الدولابى :

فتغير وجهه عليه الصلاة والسلام وزجر عائشة غاضبا ، قال :

« والله ما أبدلنى الله خيرا منها : آمنت بى حين كفر الناس ، وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى منها الله الولد دون غيرها من النساء » . وزاد الطبرانى فى روايته ، قالت : قلت : يا رسول الله ، اعف عنى ، ولا تسمعنى أذكر خديجة بعد هذا اليوم بشىء تكرهه » .

وكانت قبل ذاك ، لا تكف عن الكلام فيها ! فى الصحيحين من حديثها رضى الله عنها ، قالت : ما غِرت على أحدٍ من نساء النبى ﷺ ما غِرت على خديجة . وما رأيتها ، ولكن كان النبى ﷺ يكثر ذكرها وربما ذبح الشاة ثم قطعها أعضاء ثم يبعثها فى صدائق خديجة ، فربما قلت له : كأن لم يكن فى الدنيا امرأة إلا خديجة . فيقول : إنها كانت وكانت ، وكان لى منها ولد ... »[2]

(١ – ٢) متفق عليه ، من فضائلها رضى الله عنها .

وفى رواية بصحيح مسلم ، أنه ﷺ قال : « إنى قد رُزِقتُ حبَّها »[1] .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت :

« ما حسدت امرأة ما حسدت خديجة ، وما تزوجنى رسول الله ﷺ إلا بعد ما ماتت »[2] .

* * *

وحتى يوم الفتح – وقد مضى على وفاة خديجة أكثر من عشر سنين حافلة بأجل الأحداث – رُئى رسول الله ﷺ ، يختار مكانا إلى جوار القبر الذى ثوت فيه زوجه أم المؤمنين الأولى ، ليشرف منه على فتح « مكة » وليقيم فى قبة ضربت له هناك ، تؤنسه روح « خديجة » ثم تصحبه من بعد الفتح وهو يطوف بالكعبة ويحطم الأصنام ، ملتفتا بين آونة وأخرى إلى دارِهما ، حيث نهل من نبع الحب والحنان ما تزود به لذاك الجهاد المضنى الطويل ..

وستدخل فى الإسلام من بعد « خديجة » ملايين النساء ، لكنها ستظل منفردة دونهن بلقب المسلمة الأولى التى آثرها الله بالدور الأجل فى حياة المصطفى عليه الصلاة والسلام . وسيذكر لها المؤرخون – المسلمون وغير المسلمين – ذلك الدور ، فيقول « بودلى » :

« إن ثقتها فى الرجل الذى تزوجته – لأنها أحبته – كانت تضفى جوا من الثقة على المراحل الأولى للعقيدة التى يدين بها اليوم واحد فى كل سبعة من سكان العالم »[3] .

ويؤرخ « مرجليوث » حياة محمد ــ ﷺ ــ باليوم الذى لقى فيه خديجة

---

(١) صحيح مسلم : فضائلها رضى الله عنها ، ح (٢٤٣٥) والإصابة ٦٢/٨ .

(٢) تاريخ الطبرى – حوادث السنة الثامنة للهجرة « جـ ٣ » .

(٣) بودلى : الرسول ، الترجمة العربية لمحمد فرج وعبد الحميد السحار .

« ومدت يدها إليه تقديرا » . كما يؤرخ حادث هجرته إلى « يثرب » باليوم الذى خلت فيه « مكة » من « خديجة » ...

ويطيل « درمنجم »[1] الحديث عن موقف « خديجة » حين جاءها زوجها من غار حراء « خائفا مقرورا أشعث الشعر واللحية ، غريب النظرات ... فإذا بها ترد إليه السكينة والأمن ، وتسبغ عليه ود الحبيبة وإخلاص الزوجة وحنان الأمهات ، وتضمه إلى صدرها فيجد فيه حضن الأم الذى يحتمى به من كل عدوان فى الدنيا » .

وكتب عن وفاتها :

« ... فَقَد محمد بوفاة خديجة تلك التى كانت أول من علم أمره فصدقته ، تلك التى لم تكف عن إلقاء السكينة فى قلبه . . . والتى ظلت ما عاشت تشمله بحب الزوجات وحنان الأمهات » .

ودرمنجم هنا ، يدرك ما غاب عن كثير من قومه المستشرقين ، فاتهم أن يقدروا حاجة الشاب اليتيم إلى الأمومة ، حين تحدثوا عن زواجه بالأرملة الموسرة : فمرجليوت يجعل لمال خديجة المكان الأول فى زواج كهذا « بين شاب فقير ، وأرملة كهذه كهلة مات عنها زوجان من بنى مخزوم وتركا لها ثروة ذات شأن » ثم يمضى فيكتب ، بكلمات تقطر حقداً وزُورا :

« إن دعوة خديجة جاءت محمدا وهو يجتر كلمات مريرة سمعها من عمه أبى طالب حين خطب إليه ابنته أم هانىء ، فرده لفقره وزوجها لذى مال ، واستشعر محمد ذلة الفقر ومهانته ، فما كاد يسمع عن رغبة خديجة فى الزواج منه حتى أقبل متلهفا على الثراء ، يداوى به جرح كرامته التى أهدرها فقره »[2] .

(١ــ٢) حياة محمد لدرمنجم ــ ص ٥٨ من الترجمة العربية للأستاذ عادل زعيتر .

وليس هذا بمستغرب من مثله ، فكذلك يَلوُون الأخبار فى تفسيرهم لتاريخ الإسلام . وكلامه هنا مردود بما فى مصادرنا الموثقة من حديث « عبد الله ابن عباس » ابن عم أم هانىء ، رضى الله عنهما . ذكر خطبته ، ﷺ أم هانىء إلى أبيها ، عمه أبى طالب ، وقد سبقه إلى خطبتها هبيرة بن عمرو بن عائذ المخزومى ، وهو كفء كريم . فقال أبو طالب : يا ابن أخى ، إنا قد صاهرنا إليهم ، والكريم يكافىء الكريم « ثم فرق الإسلام بين أم هانىء وهبيرة ، فخطبها ﷺ فقالت : والله إنى كنت لأُحبك فى الجاهلية فكيف فى الإسلام ؟ ولكنى امرأة مصبية ــ أى ذات صبية ــ فأكره أن يؤذوك »[1] .

وفيها قال عليه الصلاة والسلام : « نساء قريش خير نساء ركبن الإبل : أحْناه على طفل وأرعاه على زوج فى ذات يده »[2] .

وفى رواية من طريق الشعبى أن أم هانىء رضى الله عنها قالت : يا رسول الله ، لَأنت أَحَبُّ إلىّ من سمعى وبصرى . وحقُ الزوج عظيم ، فأخشى إن أقبَلتُ على زوجى أن أضيع بعض شأنى وولدى ، وإن أقبلت على ولدى أن أضيع حق الزوج . فقال رسول الله ﷺ : « إن خير نساء ركبن الإبل نساء قريش ، أحناه على ولد فى صغره ، وأرعاه على بعل فى ذات يده »[3] .

وفسر « موير » فى كتابه (حياة محمد وتاريخ الإسلام) وفاء محمد - ﷺ - لخديجة بتهيبه لمركزها المالى والاجتماعى ، وخوفه من أن تطالبه بالطلاق !

وكان على « موير » أن يفسر لنا : فِيم إذن كان وفاء محمد ، عليه الصلاة والسلام ، لخديجة بعد موتها ؟ ... وهل كان ﷺ يخاف أن تطالبه بالطلاق ، وهو يخاصم « عائشة » فيها بعد وفاتها بسنين ، ويأبى عليها أن تمس ذكراها ؟!

(١ــ٢) ترجمتها بالإصابة . والحديث متفق عليه .

(٣) طبقات ابن سعد : ١٥١/٨ وانظر فى (نسب قريش) أبناء هبيرة المخزومى من أم هانىء رضى الله عنها . ٣٤٤ ط أولى ، ذخائر .

لقد كانت « خديجة » ملء حياته ﷺ حية وميتة ، وما جاوزت « عائشة » الحق حين قالت : « كأن لم يكن فى الدنيا امرأة سواها » .

وهل كان باستطاعة امرأة سواها أن تأسو جرحه القديم الغائر الذى تركه فى أعماقه موت أمه بين يديه ؟!

هل كان لأنثى غيرها ، أن تهيِّىء له الجو المسعف على التأمل ، وأن تبذل له من نفسها - فى إيثار نادر - ما أعده لتلقى ختام الرسالات .

هل كان لزوجٍ عداها ، أن تستقبل عودته التارخية من غار « حراء » ، بمثل ما استقبلته هىٰ به من حنان مستثار وعطف فياض وإيمان راسخ ، دون أن يساورها فى صدقه أدنى ريب ، أو يتخلى عنها يقينها فى أن الله غير مخزيه أبدا ؟!

هل كان فى طاقة سيدة غير خديجة ، غنية مترفة منعمة ، أن تتخلى راضية عن كل ما ألفت من راحة ورخاء ونعمة لتقف إلى جانبه فى أحلك أوقات المحنة ، وتعينه على احتمال أفدح ألوان الأذى وصنوف الاضطهاد ، فى سبيل ما تؤمن بأنه الحق ؟

كلا ... بل هى وحدها التى مَنَّ الله تعالى عليها بأن ملأت حياة الرجل الموعود بالنبوة ، وأن كانت أول الناس إسلاما ، كما منَّ بها على رسوله عليه الصلاة والسلام ، ملاذا وسكنا ووزيرا .

قال ابن اسحق : « كان رسول الله ﷺ لا يسمع شيئاً يكرهه من ردٍّ عليه وتكذيبٍ له فيحزنه ذلك ، إلا فرج الله عنه بها رضى الله عنها : إذا رجع إليها تثبته وتخفف عنه ، وتصدقه وتهون عليه أمر الناس ، حتى ماتت رضى الله عنها »[1]..

---

(١) فى السيرة : ١/٢٥٧ - وانظر السمط الثمين : ٢٣ .

وتركت الراحلة من بعدها ، بناتها الأربع ملء حياة أبيهن الرسول ﷺ ، وملء التاريخ الإسلامى . وقد أفردت لهن كتابى عن « بنات النبى » وفيه تفصيل ما أجملتُ هنا عن أمومة السيدة خديجة ، أم المؤمنين الأولى رضى الله عنها وعنهن [1] .

ومَنَّ الله عليها وعلى المسلمين ، بأن حفظ فى نسل الزهراء بنت الطاهرة ، ذرية نبيه عليه الصلاة والسلام ، قَبَساً من سَنا نوره ونفحة من عطر شذاه . فهى أم آل بيت النبى ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

* * *

---

(١) وانظر فضائلها رضى الله عنها فى : المناقب من صحيح البخارى والفضائل من صحيح مسلم .

(٢)

سَودة بنت زمعَة العامرية

المهاجرة أرملة المهاجر

« . . ووالله ما بى على الأزواج من حرص ، ولكنى أحب أن يبعثنى الله يوم القيامة زوجا لك »

سودة بنت زمعة رضى الله عنها

(الإصــابة)

وحشَــة

الأيام تمضى ثقيلات الخطو مرهقات بأعباء الجهاد ، والليالى كوالح مسهدات ، مشحونة بالذكريات ، ومحمد ﷺ – فى وحدته بعد خديجة : أم العيال وربة البيت ووزيرُه فى الإسلام والشريكة فى الجهاد – يخلو إلى نفسه كلما أجهده ما يلقى من قومه ، ليسامر طيف التى ملأت دنياه .

والصحابة يرقبون آثار الحزن على نبيهم ﷺ فيشفقون عليه من تلك الوحدة ، ويودون لو يتزوج ، لعل فى الزواج ما يؤنس وحشته بعد « أم المؤمنين » الراحلة .

لكن واحدا منهم لم يجرؤ على التحدث إليه فى موضوع الزواج ، حتى كانت « خولة بنت حكيم السلمية »[1] هى التى سعت إليه ذات مساء متلطفة مترفقة ، تقول : « يا رسول الله ، كأنى أراك قد دخلَتْك خَلَّةٌ لفقد خديجة ! »

فأجاب : « أجل ، كانت أم العيال وربة البيت » .

فتشاغلت « خولة » بالنظر إلى بعيد ، ثم أقبلت على المصطفى فاقترحت عليه أن يتزوج ! وفى رواية لابن سعد أنها قالت : أفلا أخطب عليك ؟[1] .

وأطرق عليه الصلاة والسلام صامتا ، وقلبه عامر بطيف الراحلة ، يتذكر

---

(١) الطبقات : ٥٧/٨ ، تاريخ الطبرى : ١٧٥/٣ و السمط الثمين : ١٠٣ ، والإصابة ١١٧/٨ .
ترجمة خولة بنت حكيم السلمية ، ذات هجرتين ، زوجها عثمان بن مظعون الجمحى ، رضى الله عنهما .

« نفيسة بنت منية » حين جاءته منذ بضع وعشرين سنة ، تحدثه فى الزواج وتعرض عليه « خديجة بنت خويلد » .

لكن ، مَن . . . بعد خديجة ؟

ذكرت له « خولة » على الفور ، كأنما انتظرت هذا السؤال وأعدت له الجواب : « عائشة ... بنت أحب الناس إليك » ![1]

وتفتح قلبه ﷺ حين ذكر صاحبه : أول رجل صدقه وآمن به مع ابن عمه على ، ومولاه زيد ، ثم وقف إلى جانبه من اللحظة الأولى ، باذلا من ماله ونفسه أغلى ما يبذل أخ وصاحب وصديق .

وذكر ﷺ مع « أبى بكر » ابنته عائشة ، تلك الصبية اللطيفة الحلوة ، التى طالما آنسته بمرحها ولطفها ، واستثارت فيه أحلى مشاعر الأبوة ...

ولم يستطع أن يقول لخولة : لا ...

ولو حاول أن يقولها ، لما طاوعه لسانه !

أيرفض بنت أبى بكر ؟

تأبى عليه ذلك صحبة طويلة مخلصة ، ومكانة لأبى بكر عنده ﷺ لم يظفر بها سواه ، وأنس إلى تلك الصغيرة العزيزة ، الذكية الملامح ، اللطيفة المحيا ..

ــ لكنها ما تزال صغيرة يا خولة ...

وكان رد « خولة » حاضرا :

ــ تخطبها اليوم إلى أبيها ثم تنتظر حتى تنضج ...

لكن ، من للبيت يرعى شئونه ، ومن لبنات الرسول ﷺ يخدمهن ؟

وهل جاءت « خولة » لتعرض زواجا آجلا ، لن يتم قبل سنتين أو

(١) تاريخ الطبرى : ١٧٥/٣ .

ثلاث ؟... بل جاءت وفى خاطرها اثنتان ، إحداهما بكر وهى « عائشة بنت أبى بكر ... » والأخرى ثيب ، هى « سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس ابن عبد ودّ العامرية »[1] وأمها « الشموس بنت قيس بن زيد بن عمرو » من بنى عدى بن النجار[2] .

وأذن لها ﷺ فى خطبتهما ، فمرت أولا ببيت « أبى بكر » ثم جاءت بيت « زمعة » فدخلت على ابنته « سودة » تقول :

ــ ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة يا سودة ؟

فسألت « سودة » وهى لا تدرى مرادها : وماذا يا خولة ؟

قالت : أرسلنى رسول الله أخطبك عليه !

وجاهدت « سودة » لتملك نفسها من فرط العجب والدهشة ، ثم قالت فى صوت مرتجف : وددت ! .. ادخلى على أبى فاذكرى له ذلك .

فدخلت « خولة » عليه وهو شيخ كبير تخلف عن الحج ، فحيته بتحية الجاهلية ، ثم قالت : إن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب أرسلنى أخطب عليه سودة .

فصاح الشيخ : كفء كريم ، فماذا تقول صاحبته ؟

أجابته خولة : تحب ذاك .

فسألها أن تدعوها إليه ، فلما جاءت تلقاها قائلا :

ــ أى سودة ، زعمت هذه أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب أرسل يخطبك ، وهو كفء كريم ، أفتحبين أن أزوجكه ؟

قالت : نعم[3] .

---

(١) من بنى عامر بن لؤى – انظر نسب قريش « ٤٢١ » وجمهرة الأنساب « ١٥٧ » ذخائر .

(٢) السيرة ٣٥٢/١ والاستيعاب : ١٨٦٧/٤ والإصابة ١١٧/٨ ، والمحبر ٧٩ أو : الشموس بنت قيس بن عمرو بن زيد (نسب قريش « ٤٢٢ » وجمهرة أنساب العرب « ١٥٨ » وعيون الأثر ٣٠٠/٢)

(٣) تاريخ الطبرى : ١٧٦/٣ ، والنقل منه ، والسمط الثمين ١٠٢ .

وهنا أشار « زمعة بن قيس » إلى خولة أن تدعو إليه « محمدا » ، فقامت تدعوه للزواج .

وبنى ﷺ بسودة ، بمكة ، وعائشة يومئذ بنت ست سنين[1]

* * *

وفى رواية للواقدى عن مخرمة بن بكير بن عبد الله الأشج ، عن أبيه قال : قدم السكران بن عمرو مكة من أرض الحبشة ومعه امرأته سودة بنت زمعة ، فتوفى عنها بمكة ، فلما حَلَّت أرسل إليها رسول الله ﷺ فخطبها ، فقالت : أمرى إليك يا رسول الله . فقال ﷺ : « مُرِى رجلا من قومك يزوجك » فأمرت حاطب بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود العامرى – ابن عمها ، وأخو السكران – فزوجها فكانت أول امرأة تزوجها ﷺ بعد خديجة . وفى رواية الواقدى عن ابن أخى الزهرى عن أبيه ، أنه تزوجها فى شهر رمضان سنة عشر من النبوة[2] .

(١ـ٢) (طبقات ابن سعد : ٨ / ٥٧ ، ٥٢) .

هجـــرَة وتَرمّـــل

وشاع فى « مكة » أن محمدا ﷺ قد خطب « سودة بنت زمعة » فكاد ناس لا يصدقون سمعهم ، فما فى مثل « سودة » مأرب ، وتساءلوا فى ارتياب : أرملة مُسِنَّة ، غير ذات جمال ، تخلف « خديجة بنت خويلد » التى كانت يوم خطبها الشاب الهاشمى ، سيدة نساء قريش ، ومطمح أنظار السادة من قريش ؟ .

كلا ، لن تخلف « سودة » أو سواها « خديجة » وإنما تجىء إلى بيته ﷺ جبرا لخاطرها ، وعزاء لها عن زوجها ابن عمها : « السكران بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ودّ القرشى العامرى » الذى هاجر بها فيمن هاجر إلى الحبشة ، ثم مات عنها وترك أرملته من بعده ، قد أسلمتها محنة الاغتراب إلى محنة الترمل .

وذكر رسول الله ﷺ أولئك النفر الثمانية من بنى عامر ، يخرجون من ديارهم وأموالهم ويجوزون القفر المرهوب ثم يركبون أهوال البحر ، لينجوا بدينهم من مطاردة مجنونة آثمة ، تحاول أن تردهم قسرا إلى متاهة الضلال ومهواة الشرك .

من هؤلاء النفر الثمانية ، كان : « مالك بن زمعة بن قيس بن عبد شمس العامرى » أخو سودة ، و « السكران بن عمرو بن عبد شمس » زوجها وابن عمها ، وأخواه « سليط وحاطب ولدا عمرو بن عبد شمس » وابن أخيه « عبد الله بن سهيل بن عمرو »[1] .

---

(١) السيرة : ٣٥٢/١ ، وتاريخ الطبرى : ٢٢٢/٢ ، وعيون الأثر ١١٥/١ - ١١٨ مع : جمهرة الأنساب ١٥٧ ، والسمط ١٠١ ، وتراجمهم فى (الإصابة) .

وصحب ثلاثة من الثمانية زوجاتهم ، وكلهن عامريات : سودة بنت زمعة ابن قيس بن عبد شمس بن عبد ودّ ، وأم كلثوم بنت سهيل بن عمرو بن عبد شمس ، وعمرة بنت الوقدان بن عبد شمس .

وهكذا خرجت الأسرة المؤمنة ، برجالها ونسائها ، من دارها ووطنها ، راضية بما هو أقسى من الموت ، فى سبيل الله .

وتمثل ﷺ « سودة » وهى تودع أرضا عزيزة حُلّت بها تمائمها وازدهر فيها صباها واطمأنت على أرضها كهولتها ، ثم تمضى إلى بلد مجهول ، وناس لا هى منهم ولا هم منها ، لسانهم غير عربى ، ودينهم غير الإسلام ، وقبل أن تثوب من غربتها ، وتبلغ « أم القرى » فاضت روح زوجها « السكران ابن عمرو » ... لم يمهله الموت ريثما يعود كيما يدفن فى ثرى مكة ، مرقد من مضوا من الأهل والخلان[1] .

وتأثر ﷺ للمهاجرة المؤمنة المترملة أيما تأثر ، فما كادت « خولة بنت حكيم » تذكرها له ، حتى مدّ يده الرحيمة إليها يسند شيخوختها ، ويهون عليها الذى ذاقت من قسوة الحياة .

* * *

(١) فى موت السكران بن عمرو روايتان : أنه مات عن سودة بأرض الحبشة مهاجرا . وقيل : عاد بها إلى مكة فما لبث أن مات قبل الهجرة إلى المدينة .

حكاهما ابن عبد البر فى ترجمة السكران بالاستيعاب (٦٨٥/٢) وعلى القول الأول موسى بن عقبة ، وابن حزم فى الجمهرة (١٥٧) والزبير بن بكار ، فيما نقل ابن سعد . وعلى الثانى . ابن إسحاق فى السيرة (٧/٢) والواقدى ، حكاه ابن سعد أيضا وابن حجر فى ترجمتها بتهذيب التهذيب ، وابن سيد الناس فى (عيون الأثر ٣٠٠/٢) . وانظر الدرر : ٦١ .

وهَبتُ ليلتى لِعائشَة

وأصبحت « سودة » ذات يوم ، فإذا هى زوجة لرسول الله ﷺ[1]

وداخلتها رهبة من جلال زوجها ، وقاست نفسها إليه ﷺ ، ثم إلى « خديجة » الزوجة الأولى ، ثم إلى « عائشة » العروس الصبية المنتظرة ، فأحست كأن الأرض تميد بها من فرط دهشتها وعجبها .

ولم تخدعها نفسها قط ، بل أدركت بتجربة سنها أن بينها وبين قلب « محمد » ــ ﷺ ــ حاجزا لا حيلة لها فيه . . .

وعرفت من اللحظة الأولى التى جمعتها بزوجها ، أن « الرسول » هو الذى تزوجها ، لا « الرجل » الذى لم تجرده النبوة من بشريته .

وأيقنت دون ريب ، أن حظها من الرسول بر ورحمة ، لا حب وتآلف

لكن ذلك لم يرعها ، بل كان حسبها أن رفعها رسول الله ﷺ إلى تلك المكانة ، وأن جعل منها ــ أرملة السكران بن عمرو ــ أما للمؤمنين .

وأرضاها كل الرضا أن تأخذ مكانها فى بيت رسول الله ، وأن تخدم بناته ...

وكان يسعدها أن تراه ﷺ يضحك من مشيتها - وكانت ثقيلة الجسم - وأن يأنس أحيانا إلى خفة روحها أو يستملح عبارة من عباراتها ...

---

(١) فى خبر بالمحبر (٨٠) ورواية لابن سعد عن هشام ابن الكلبى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما (٥٦/٨) أنها رأت قبل موت السكران رؤيا قصتها عليه ، ففسرها بقرب موته ، وزواجها من بعده بالنبى عليه الصلاة والسلام . فاشتكى من يومه ذاك ، فلم يلبث رضى الله عنه إلا قليلا حتى مات .

قالت له مرة :

« صليتُ خلفك الليلة يا رسول الله ، فركعتَ بى حتى أمسكتُ بأنفى مخافة أن يقطر الدم ! »[1] .

فتبسم عليه الصلاة والسلام ضاحكا من قولها ...

وكانت فيها طيبة توشك أن تكون سذاجة ، أسند « ابن إسحاق » عن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة الأنصارى ، قال :

قُدِم بأسرى بدر ، وسودة بنت زمعة زوج النبى ﷺ عند آل عفراء ، فى مناحتهم على عوف ومعوذ ابنى عفراء ، وذلك قبل أن يضرب على أمهات المؤمنين الحجاب . قال : تقول سودة : والله إنى لعندهم إذ قيل : هؤلاء الأسارى قد أتى بهم . فرجعت إلى بيتى ورسول الله ﷺ فيه ، وإذا أبو يزيد ، سهيل بن عمرو — أخو السكران بن عمرو — فى ناحية الحجرة ، مجموعة يداه إلى عنقه بحبل ، فلا والله ما ملكتُ نفسى ، حين رأيت أبا يزيد كذلك ، أن قلت : أى أبا يزيد ، أعطيتم بأيديكم ، ألا متم كراما ؟

فو الله ما أنبهنى إلا قول رسول الله ﷺ من البيت :

« يا سودة ، أعلى الله ورسوله تحرضين ؟ »

قلت : يا رسول الله ، والذى بعثك بالحق ، ما ملكت نفسى حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه أن قلت ما قلت ![2] .

* * *

كانت « سودة » تقوم على بيت النبى ﷺ ، حتى جاءت « عائشة بنت

---

(١) ابن سعد ، من حديث الأعمش عن ابراهيم التيمى (٥٤/٨) والاستيعاب ١٨٦٧/٤ ، والإصابة ١١٨/٨ .

(٢) السيرة : ٢٩٩/٢ .

أبى بكر » فأفسحت لها « سودة » المكان الأول فى البيت ، وحرصت جهدها على أن تتحرى مرضاة العروس الشابة ، وأن تسهر على راحتها .

ثم وفدت على البيت أزواج أخريات ، فيهن حفصة بنت عمر ، وزينب بنت جحش ، وأم سلمة بنت أبى أمية المخزومى زاد الركب ... فما ترددت سودة فى إيثار عائشة بإخلاصها ومودتها ، وإن لم تظهر ضيقاً بهؤلاء الزوجات اللائى يستأثرن دونها بعواطف الزوج الرسول ، عليه الصلاة والسلام .

لكنه ﷺ ، أشفق عليها من الحرمان العاطفى ، وكره لها قسوة الشعور بأنها ليست مثل الأخريات ، وحاول جهد طاقته أن يفتح لها قلبه ، لكن بشريته لم تطاوعه ، فكان أقصى ما استطاعه لسودة ، أن يعدل بينها وبين نسائه فيما يملك من مبيت ونفقة ، وأما عواطفه فأنى له — وهو بشر — أن يقسرها على غير ما تهوى ، أو يخضعها بإرادته لموازين العدل وضوابط القسمة !

وبدا له آخر الأمر أن يسرحها سراحا جميلا كيما يعفيها من وضع أحسَّ أنه يؤذيها ويجرح قلبها ، وإن لم تُبْدِ بادرة شكوى أو ضيق ، فانتظر ﷺ إلى أن جاءت ليلتها ، فأنبأها مترفقا بعزمه على طلاقها .

وسمعت النبأ ذاهلة ، وأحست كأن الجدران تطبق على صدرها فلا تدع لها متنفسا ، فرفعت وجهها إليه ، ﷺ ، فى ضراعة صامتة ، ومدت يدها مستنجدة ، فأمسك بها رسول الله حانيا مشفقا ، وبوده لو استطاع أن يذهب عنها الروع الذى كاد يقضى عليها ...

وعندئذ آبت إليها سكينتها فهمست فى ضراعة :

— أمسكنى ، ووالله ما بى على الأزواج من حرص ، ولكنى أحب أن يبعثنى الله يوم القيامة زوجا لك[1] .

---

(١) ابن حجر ، الإصابة : ١١٧/٨ ، والنقل منه ، ونحوه فى الاستيعاب ١٨٦٧/٤ وعيون الأثر ٣٠٠/٢ وفى رواية أخرى بالمحبر ٨٠ وطبقات ابن سعد (٥٤/٨) وفى الإصابة ، أنه ﷺ بعث إليها بطلاقها فقعدت فى طريقه وناشدته أن يرجعها ، وجعلت يومها لعائشة .

ثم أطرقت محزونة ، وقد عزَّ عليها أن تحمله ﷺ على ما يكره ، وأنكرت على نفسها ألا تستجيب لرغبته فى تسريحها وهى التى تهب حياتها راضية فى سبيل مرضاته .

وأحست برودة الشيخوخة تناوش جسدها الكليل الثقيل ، فخجلت من تشبثها بزوج تتنافس فى حبه عائشة بنت أبى بكر ، وزينب بنت جحش ، وأم سلمة بنت زاد الركب ، وحفصة بنت عمر ! ... وأنكرت أن تنتزع لنفسها بين هؤلاء مكانا ، بل شعرت أنها إذ تأخذ ليلتها مثلهن ، كأنما تأخذ ما لا حق لها فيه ! ..

وهمت بأن تجيب فى قهر وعلى استحياء :

ـــ سرحنى يا رسول الله !

لكن الكلمات تعثرت فى حلقها ...

وطال عذابها ، وطالت حيرتها ، ورسول الله إلى جانبها ينظر إليها صامتا فى إشفاق وتأثر .

وفجأة ، لاح لها خاطر سكنت له نفسها ، فقالت فى هدوء :

ـــ أبقنى يا رسول الله ، وأهب ليلتى لعائشة ، وإنى لا أريد ما تريد النساء[1] .

فتأثر ﷺ لهذا الموقف السمح الكريم : يأتى سودةَ ليسمعها كلمة الطلاق – وما أبغضها ! – فيكون جوابها هذا الإيثار النبيل ، تتحرى به مرضاة الزوج الكريم .

وانجابت ظلمة الليل ، فخرج ﷺ إلى المسجد لصلاة الفجر ، وقامت « سودة بنت زمعة » فى بيتها تصلى وقلبها عامر براحة الرضى .

---

(١) الإصابة : ١١٧/٨ والاستيعاب : ١٨٦٧/٤ – وصحيح مسلم – وانظر السمط الثمين ، ص ١٠٣ – ويقال أنها قد أشرفت يومئذ على المئة !

أسند الواقدى عن الزهرى عن عروة عن عائشة ، قالت : « كانت سودة بنت زمعة قد أسنَّت ، وكان رسول الله ﷺ لا يستكثر منها ، وقد علمتْ مكانى من رسول الله ﷺ وأنه يستكثر منى . فخافت أن يفارقها وضنت بمكانها عنده ، فقالت : يا رسول الله ، يومى الذى يصيبنى لعائشة ، فقبله النبى ﷺ ، وفى ذلك نزلت : ﴿ **وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا** ﴾ الآية[1] .

فلندعها فى صلاتها راضية مطمئنة ، شاكرة لله أن ألهمها هذا الحل الموفق ، تنجو به من محنة فراقها لخير خلق الله ، دون أن تستشعر الخزى بالحرص على الأزواج فى مثل سنها العالية !

ولقد عاشت فى بيت الرسول حتى لحق ﷺ بربه ، وفى الخبر أنها عمرت حتى « توفيت فى آخر زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه » على الأرجح[2] وقد ظلت أم المؤمنين عائشة ، تذكر لها صنيعها ، وتؤثرها بجميل الوفاء ، فتقول : « ما من امرأة أحب إلَىَّ من أن أكون فى مسلاخها ، من سودة بنت زمعة ، ... لما كبرتْ قالت : يا رسول الله قد جعلت يومى منك لعائشة » . الحديث[3] .

* * *

(١) طبقات ابن سعد : ٥٣/٨ والآية من سورة النساء : ١٣٨ .

(٢) الاستيعاب ، والإصابة ، وعيون الأثر ، ٣٠١/٢ ورجح الواقدى أنها توفيت سنة أربع وخمسين فى خلافة معاوية .

(٣) صحيح مسلم : كتاب ١٧ ح (١٤٦٣) وفى ترجمتها - بطبقات ابن سعد من عدة طرق بألفاظ متقاربة ، والاستيعاب والإصابة .

(٣)

عائشة بنتُ أبى بَكر

حَبيبَة المصطفى ، الصِّديقة بنت الصِّدِّيق

« أى بُنَيَّة ، خفِّضى عليك الشأنَ فواللَّهِ لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها ، لها ضرائر ، إلا كثَّرن عليها »

أم رومان رضى الله عنها

من حديث الإفك فى الصحيحين

الصّـهرُ الكـريم

« إنَّ من أَمَنِّ الناسِ عليَّ فى ماله وصحبته أبا بكر . ولو كنت متخذًا خليلًا لاتخذتُ أبا بكرٍ خليلا ، ولكنْ أخوة الإسلام »

حديث نبوى

متفــق عليه

عندما ذكرت « خولة بنت حكيم السلمية » للرسول عليه الصلاة والسلام اسم عائشة بنت أبى بكر ، تفتح قلبه ﷺ لصلة تؤيد ما بينه وبين أحب الناس إليه من صحبة وقربى ، وتربطهما معا برباط المصاهرة الوثيق .

حدثت عائشة عن هذه الخطبة فيما أسند الطبرى[1] من طريق سعيد بن يحيى بن سعيد الأموى عن أبيه ، قالت : « فجاءت خولة ، فدخلتْ بيت أبى بكر فوجدتْ « أم رومان » أم عائشة ، فقالت لها :

أى أم رومان ، ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة !

قالت : وما ذاك ؟ قالت : أرسلنى رسول الله أخطب عليه عائشة !

قالت : وددتُ ، انتظرى أبا بكر فإنه آت . . . .

وجاء « أبو بكر » فقالت له : يا أبا بكرُ ، ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة ! أرسلنى رسول الله أخطب « عائشة » . . . قال : وهل تصلح له ؟ . . إنما هى ابنة أخيه . . .

---

(١) تاريخ الطبرى ٣ / ١٧٦ ، والنقل منه . ونحوه فى طبقات ابن سعد (٥٩/٨) وفى الإصابة من حديث عائشة رضى الله عنها ، أخرجه ابن أبى عاصم . وانظر معه المحب الطبرى فى السمط الثمين ص ٣١ .

فرجعتْ إلى رسول الله ﷺ فقالت له ذلك ، فقال :

« ارجعى إليه فقولى إنك أخى فى الإسلام ، وأنا أخوك ، وابنتك تصلح لى » .

فأتَتْ « أبا بكر » فذكرت له فقال : انتظرينى حتى أرجع . . .

قالت « أم رومان » : إن المطعم[1] بن عدى كان قد ذكر عائشة على ابنه « جبير » ولا والله ما وعد — أبو بكر — شيئا قط فأخلف .

فدخل أبو بكر على مطعم وعنده امرأته « أم جبير » — وكانت مشركة — فقالت العجوز : يا ابن أبى قحافة ، لعلنا إن زوَّجنا ابننا ابنتك ، أن تصبئه وتدخله فى دينك الذى أنت عليه ؟

فلم يرد عليها « أبو بكر » بل التفت إلى زوجها « المطعم » فقال : ما تقول هذه ؟ فقال : إنها تقول ذاك .

فخرج « أبو بكر » — وقد شعر بارتياح لما أحلَّه الله من وعده — وعاد إلى بيته فقال لخولة : ادعى لى رسول الله . . .

فمضت « خولة » إليه ﷺ فدعته ، فجاء بيت صديقه أبى بكر ، فأنكحه عائشة وهى يومئذ بنت ست سنين أو سبع » على متاع بيتٍ قيمته خمسون أو نحو من خمسين درهما .

وفى رواية عن ابن عباس رضى الله عنه ، بطبقات ابن سعد (٥٨/٨) قال : خطب رسول الله ﷺ إلى أبى بكر الصديق عائشة ، فقال أبو بكر : يا رسول الله ، قد كنت وعدت بها — أو : ذكرتها — لمطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف ، لابنه جبير ، فدعنى حتى أسلها منهم . ففعل » .

---

(١) المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف القرشى مات مشركا ، وكان أحد الخمسة الذين قاموا فى نقض صحيفة المقاطعة الظالمة ، وأما ابنه جبير فقدم على النبى ﷺ ، مشركا ، فى وفد قريش فى أسارى بدر وكان من أكابر قريش ، وأعلمهم بالنسب . ثم أسلم بين الحديبية والفتح . توفى فى خلافة معاوية . رضى الله عنهما . وحديثه عند الستة .

ولا يذكر التاريخ عنها وقتئذ ، إلا أنها بنت ست سنين أو سبع ، وأنها كانت قد خطبت لجبير بن المطعم بن عدى النوفلى . أبوها أبو بكر بن أبى قُحَافة بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة . وأمها أم رومان بنت عمير بن عامر – أو بنت عامر بن عمير – من بنى الحارث بن غنم بن كنانة[1] .

وقد عُرف قوم عائشة ، بنو تيم ، بالكرم والشجاعة والأمانة وسداد الرأى ، كما كانوا مضرب المثل فى البر بنسائهم والترفق بهن وحسن معاملتهن ...

ثم كان لأبيها إلى جانب هذا الميراث الطيب ، ما عرف له من دماثة فى الخلق وحسن العشرة ولين الجانب . وأجمع مؤرخو الإسلام على أنه « كان أنسب قريش لقريش ، وأعلم الناس بها وبما كان فيها من خير وشر . وكان رجلا تاجرا ذا خلق معروف ، يأتيه رجال قومه ويألفونه لغير واحد من الأمر : لعلمه وخبرته وحسن مجالسته »[2] .

فلما بعث محمد ﷺ ، أضاف « أبو بكر » إلى هذا كله شرف السبق إلى الإسلام ، وكان المدافع عنه بكل ما يملك ، الداعى إليه فى شجاعة وحميَّة . وممن أسلم من الصحابة بفضل أبى بكر واستجابة لدعوته : عثمان ابن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وطلحة بن عبيد الله ... وهم من العشرة المبشرين بالجنة ، رضى الله عنهم .

---

(١) السيرة : ٢٩٣/٤ – ابن سعد : ١٦٩/٣ وتاريخ الطبرى : ١٧٧/٣ والاستيعاب ١٨٨١/٤ ، وعيون الأثر (٣٠٠/٢) . ومات المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف بمكة مشركا قبل بدر . وذكره ﷺ بخير فى أسْراها من قريش . وأسلم جبير يوم فتح مكة . وأمه أم جميل بنت سعيد العامرية .

(٢) السيرة : ٢٦٧/١ — وانظر معه مناقب أبى بكر فى صحيح البخارى : ٢٠٠/٢ وفضائله فى الجزء الرابع من صحيح مسلم .

قال عليه الصلاة والسلام :

« ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد ، إلا ما كان من أبي بكر بن قحافة ، ما عكم - أى ما تلبث - حين ذكرته له وما تردد فيه » . وقال ﷺ :

« ما نفعنى مال قط ، ما نفعنا مال أبى بكر » . قيل فبكى « أبو بكر » وقال : « يا رسول الله ، وهل أنا ومالى إلا لك ؟ » .

* * *

وأم عائشة : أم رومان بنت عامر الكنانية ،[1] من الصحابيات الجليلات . كانت قد تزوجت فى الجاهلية من عبد الله بن الحارث الأسدى فولدت له الطفيل ، ثم توفى عنها فخلف عليها أبو بكر. فولدت له عائشة وعبد الرحمن . وهاجرت إلى المدينة بعد أن استقر مقام الرسول وصاحبه بها ، فلما توفيت فى حياة رسول الله ـــ بعد حادث الإفك ـــ نزل ﷺ قبرها واستغفر لها وقال : « اللهم لم يخفَ عليك ما لقيت أم رومان فيك وفى رسولك »[2] .

أسلمت بمكة قديما ، وبايعت ، وهاجرت إلى المدينة مع أهل رسول الله ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم . وولده وأهل أبى بكر . وتوفيت بالمدينة فى عهد النبى ﷺ ، فى ذى الحجة ، سنة سِتٍ . وأسند ابن سعد من طريق يزيد بن هـٰرون

---

(١) لا خلاف فى نسبها فى بنى مالك بن كنانة ، لكن الخلاف من أبيها إلى كنانة كثير جدا كما صرح فى الاستيعاب (٤/١٩٣٦) وابن سعد فى الطبقات (٣/١٦٩) راجع معها الإصابة ، ونسب قريش : ٢٧٦ وجمهرة أنساب العرب : ١٢٧ - ذخائر ، والمحبر ٨٠ ، وعيون الأثر ٢/٣٠٠ وتهذيب التهذيب ١٢/٤٣٣ .

(٢) ابن سعد فى ترجمتها بطبقاته ، وعنه ابن حجر فى الإصابة كما أخرجه ابن عبد البر فى ترجمتها بالاستيعاب ، ولم يختلفوا فى وفاتها بعد محنة الإفك ، لكنهم اختلفوا فى تحديد سنة الوفاة .

راجع ترجمتها فى طبقات ابن سعد والاستيعاب والإصابة (باب الكُنَى) ومعها : تهذيب التهذيب لابن حجر ١٢/٤٦٧ .

وعفان بن مسلم ، حديث القاسم بن محمد بن أبى أبكر ، قال : لما دُليت أم رومان فى قبرها قال رسول الله ﷺ : « من سَرَّه أن ينظر إلى امرأة من الحور العين فلينظر إلى أم رومان » . ونزل ﷺ فى قبرها[1] .

* * *

(١) الطبقات الكبرى : ٨/٢٧٧ .

مـألوفــة

كان حسب « عائشة » أن تكون بنت أبى بكر ، لينزلها زوجها ﷺ من قلبه ومن بيته فى أعز مكان . . . لكنها كانت إلى جانب هذه البنوة ، ذات لطف آسر وذكاء لماح وصبا غض نضر . .

وُلدت بمكة فى الإسلام ، بعد أربع سنين أو خمس من المبعث ، وأسلمت قبل أن تشب عن الطوق هى وأختها أسماء ، وكان المسلمون إذ ذاك قلة معدودة .

وفى صحيح البخارى من حديثها فى الهجرة ، قالت : لم أعقل أبوىَّ قط إلا يدينان الدين » .

وعرفها ﷺ ، منذ طفولتها الباكرة ، وأنزلها من نفسه أعز ما تنزل ابنة غالية ، وشاهدها تنمو بين عينيه ويتفتح صباها عن ملاحة أخاذة وبديهة حاضرة ، مع فصاحة فى اللسان وشجاعة فى القلب ، إذ كان الذى تولى حضانتها جماعة من بنى مخزوم .

وفى الصحيحين من حديث عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ قال لها : « أُرِيتُك فى المنام مرتين ، أرى أنك فى سَرَقة ـــ شقة بيضاء ـــ من حرير ويقول : هذه امرأتك . فأكشف عنها فإذا هى أنت ، فأقول : إن يك هذا من عند الله يُمْضِه »[1] .

ولم تدهش « مكة » حين أعلن نبأ المصاهرة بين أعز صاحبين وأوفى

---

(١) متفق عليه ، من فضائلها رضى الله عنها .

صديقين ، بل استقبلته كما تستقبل أمرا طبيعيا مألوفا ومتوقعا . ولم يجد فيها أى رجل من أعداء الإسلام أنفسهم موضعا لمقال ، بل لم يدر بخلد واحد من خصومه الألداء ، أن يتخذ من زواج محمد ﷺ بعائشة مطعنا أو مجالا لمقال . . . وهم الذين لم يتركوا سبيلا للطعن عليه إلا سلكوه ، ولو كان بهتانا وزورا وافتراء .

وماذا عساهم أن يقولوا ؟ . . .

هل ينكرون أن تخطب صبية كعائشة ، لم تتجاوز السابعة من عمرها ؟

لكنها قد ذُكرت قبل أن يخطبها المصطفى ﷺ ، على « جبير بن مطعم بن عدى » بحيث لم يستطع « أبو بكر » أن يعطى كلمته لخولة بنت حكيم ، حتى مضى فتحلل من وعده لأبى جبير .

أو ينكرون أن يكون زواج بين صبية فى سنها ، وبين رجل اكتهل وبلغ الثالثة والخمسين ؟

أى عجب فى مثل هذا ، وما كانت أول صبية تزف فى تلك البيئة إلى رجل فى سن أبيها ، ولن تكون كذلك أخراهن ؟ لقد تزوج « عبد المطلب » الشيخ من « هالة » بنت عم « آمنة » فى اليوم الذى تزوج فيه عبد الله أصغر أبنائه ، من تِرب هالة « آمنة بنت وهب » .

وسيتزوج « عمر بن الخطاب» من بنت على بن أبى طالب ، وهو فى سن فوق سن أبيها !

ويعرض « عمر » على « أبى بكر » أن يتزوج ابنته الشابة « حفصة » وبينهما من فارق السن مثل الذى بين المصطفى وعائشة .

لكن نفرا من المستشرقين يأتون بعد بضعة عشر قرنا من ذلك الزواج ، فيهدرون فروق العصر والبيئة ، ويطيلون القول فيما وصفوه بأنه « الجمع الغريب بين الزوج الكهل والطفلة الغريرة العذراء » ، ويقيسون بعين الهوى ،

زواجا عقد فى مكة قبل الهجرة ، بما يحدث اليوم فى الغرب المتحضر ، حيث لا تتزوج الفتاة عادة قبل سن الخامسة والعشرين ، وهى سن تعتبر حتى وقتنا هذا جد متأخرة فى الجزيرة العربية ، وفى ريف مصر وأكثر مناطق الشرق ، وهو ما أدركه مستشرق منصف زار الجزيرة وعاد يقول :

« ولكن هذا الزواج شغل بعض مؤرخين لمحمد . . . نظروا إليه من وجهة نظر المجتمع العصرى الذى يعيشون فيه ، فلم يقدروا أن زواجا مثل ذاك ، كان ولا يزال عادة أسيوية ، ولم يفكروا فى أن هذه العادة لازالت قائمة فى شرق أوروبا ، وكانت طبيعية فى أسبانيا والبرتغال إلى سنين قليلة ، وأنها ليست غير عادية اليوم فى بعض المناطق الجبلية البعيدة بالولايات المتحدة ... »[1] .

* * *

ولقد كانت غبطة آل أبى بكر بالمصاهرة الكريمة ، مما صحت به الآثار وتواترت المرويات . ومنها ما أسند الواقدى[2] من حديثٍ لحبيب التابعى المدنى ، مولى عروة بن الزبير ـــ ابن السيدة أسماء بنت أبى بكر ـــ « أن رسول الله ﷺ كان يختلف إلى بيت أبى بكر ويقول : « يا أم رومان ، استوصى بعائشة واحفظينى فيها » فكان لعائشة بذلك منزلة عند أهلها ، وكان ﷺ لا يخطئه يوما واحدا أن يأتى إلى بيت أبى بكر منذ أسلم إلى أن هاجر ، فيجد عائشة متسترة بباب الدار تبكى بكاء حزينا ، فسألها فشكت أمها فدمعت عيناه ودخل على أم رومان فقال : « يا أم رومان ، ألم أوصِك بعائشة » ؟

* * *

(١) بودلى : الرسول ـــ ص ١٢٩ من الترجمة العربية لفرج والسحار .
(٢) الطبقات الكبرى : ٧٨/٨ .

الهِجـــرَة

لم يرض محمد ﷺ أن ينتزع الصبية اللطيفة المرحة من ملاهى حداثتها ، أو يثقل كاهلها الغض بأعباء الزوجية ومسئولياتها ، بل تركها حيث هى فى بيت أبيها ، تمرح لاهية مع لداتها وصواحبها وأترابها خلية البال ...

وكان كل حظه منها أن تسرع إليه كلما مر ببيت « أبى بكر » فتكاد تنسيه بلطفها وإيناسها ، المشاغل الجسام التى تنتظره لدى الباب ، وتزيل عنه تلك الوحشة المضنية يجدها كلما أوى إلى منزله وحيدا غريبا ...

وحيداً ، وإن كان فى عصمته « سودة بنت زمعة » تتفانى فى خدمته وتقوم على شئون داره وبناته .

غريبا ، وإن يكن مقيما فى «مكة » : بلد آبائه وأجداده منذ ما لا يحصى من الدهور والأحقاب .

وطاب له أن يسعى إلى بيت صاحبه « أبى بكر » كلما اشتدت عليه وطأة الشعور بالوحدة والغربة ، ليلاطف خطيبته الصغيرة ويغرق أشجانه فى فيض من دعابتها الذكية ومرحها الفياض .

وطاب لعائشة أن ترى رسول الله ﷺ ، فى عظمته وجلاله ووقاره ، يرتاح إليها ويأنس إلى صحبتها ويجد فى عالمها المرح ما يجذبه إليه ، حيث يشاركها لهوها فى بساطة حلوة وألفة حبيبة .

وازدهاها « ألا يخطىء رسول الله ﷺ ، أن يأتى بيت أبى بكر أحد طرفى النهار ، إما بكرة وإما عشية »[1] .

---

(١) السيرة : ١٢٨/٢ وعيون الأثر ١٨٢/١ من طريق البخارى . فى صحيحه ، حديث الهجرة ، مع فتح البارى : ١٦٦/٧ .

وذات يوم ـــ وقد بلغت محنة الاضطهاد أقصاها ، وخرج المسلمون عن مكة إلى المدينة مهاجرين ، إلا من حُبِسَ أو فُتِنَ ، ولم يبق بمكة مع النبى ﷺ ، غير أبى بكر وعلى بن أبى طالب – علت شمس الضحى حتى توسطت كبد السماء ، وراحت تقذف الأرض بالحمم وتظللها بظلة من لهب ، وران على الكون ذلك الصمت المكدود والسكون اللاغب ، وكانت « عائشة » فى فناء الدار ، يأبى عليها مرح صباها أن تهجع القيلولة .

وفجأة أحست خطوات تدنو من الباب ، فأصغت فى لهفة وقد عرفت فيها خطوات زوجها العزيز .

وبادرت إلى الباب تفتحه مشوقة مرحبة ، فما لمح « أبو بكر » شخص النبى ﷺ قريبا من الدار فى تلك الساعة من حر الهاجرة ، حتى وثب من مهجعه وهو يقول :

« ما جاء رسولَ الله ﷺ هذه الساعة إلا لأمر حدث » .

فلما دخل تأخر له « أبو بكر » عن سريره ، فجلس عليه الصلاة والسلام ، يبدو عليه أنه مشغول البال بأمر جلل ، فأمسكت « عائشة » أنفاسها ، وكذلك فعلت أختها « أسماء » ، ووقفتا خاشعتين تترقبان . . .

وتكلم ﷺ فقال لصاحبه دون أن ينظر إلى من فى الحجرة :

« أخرج عنى مَن عندك . » .

قال الصديق : يا رسول الله ، إنما هما ابنتاى ...

ثم أضاف مستفسرا فى قلق : وما ذاك فداك أبى وأمى ؟

قال عليه الصلاة والسلام :

« قد أُذِنَ لى فى الخروج والهجرة ... »

فهتف الصديق : الصحبة يا رسول الله ... الصحبة ![1]

(١) السيرة : ٢/١٢٩ والنقل منها . وحديث الهجرة مخرج فى الصحيحين عن السيدة عائشة ، وابن عباس رضى الله عنهم .

وكان كثيرا ما يستأذن الرسول ﷺ فى الهجرة فيقول له :

« لا تعجل ، لعل الله يجعل لك صاحبا ! »

فيطمع فى أن يكونه ...

وتذاكر الصاحبان - على مسمع من عائشة وأسماء - ما كان من غيظ قريش « حين صارت لمحمد شيعة وأصحاب من غيرهم ، بغير بلدهم ، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم ، عرفوا أنهم قد نزلوا دارا وأصابوا ملاذا ، فحذِروا خروج رسول الله إليهم ، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم ، فاجتمعوا فى دار الندوة - وهى دار قصى بن كلاب التى كانت قريش لا تقضى أمرا إلا فيها - يتشاورون فيما يصنعون فى أمر محمد ﷺ .

وكان فيهم عتبة بن ربيعة - أبو هند - وشيبة أخوه ، وأبو سفيان بن حرب ، وطعيمة بن عدى ، وجبير بن مطعم ، والنضر بن الحارث بن كلدة ، وزمعة بن الأسود ، وأبو جهل بن هشام ، وحكيم بن حِزام ، وأمية بن خلف ، وغيرهم من رجال قريش .

واستقروا آخر الأمر على رأى لأبى جهل بن هشام : أن تأخذ كل قبيلة فتى شابا جليدا نسيبًا ، فيعطَى كلُّ فتى منهم سيفا صارما ، ثم يعمدوا إلى محمد فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعا ، فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا ، فيرضوا منهم بالدية ![2] .

وأُذِنَ لرسول الله فى الهجرة ، واختار أبا بكر له صاحبا !

وأحست « عائشة » ضيقا وقلقا من الفراق الوشيك ، وتطلعت إلى المصطفى الحبيب ثم إلى أبيها ، فما راعها إلا أن رأته يبكى من الفرح .

---

(١) السيرة الهشامية : ١٢٤/٢ ، ١٢٦ وابن سعد من طريق الواقدى (٢٢٧/١) وتاريخ الطبرى : ٢٤٣/٢ وعيون الأثر ١٧٦/١ من طريق ابن إسحاق .

وما شعرت قط – فى سنها الغضة – قبل اليوم أن أحدا يبكى من الفرح ، حتى رأت أباها يفعل يومئذ[1] .

* * *

وبدأ التأهب لرحيل عاجل ...

بعث « أبو بكر » يدعو إليه « عبد الله بن أُرَيقط » – وكان دليلا ثقة ، خبيرا بمجاهل الطريق – فدفع إليه راحلتين يرعاهما لميعادهما الموقوت .

ودعا ﷺ إليه ابن عمه « على بن أبى طالب » فأسر إليه النبأ الخطير ، ثم استخلفه بمكة ليؤدى عنه ودائع كانت عنده للناس .

فلما حانت ساعة الرحيل : وقف ﷺ على مرتفع هناك ببيت أبى بكر ، فرنا إلى « البيت العتيق » وقتا ، ثم أشرف على « أم القرى » وقال :

« والله إنك لَأَحبُّ أرضِ الله إلَّى ، وإنك لأَحَبُّ أرضِ الله إلى الله ، ولولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت »[2] .

ثم استدار فنظر إلى « عائشة » وحاول جهده أن يبتسم لها مودعا ، وقد أذهلها الفراق المفاجىء السريع ، فما درت أفى يقظة هى أم تلك رؤيا منام ...

وتسلل الصاحبان من خوخة فى ظهر بيت أبى بكر ، وقد حمل الصديق معه خمسة آلاف درهم هى كل ما بقى له ولأهله من مالٍ ، ثم انطلقا وما يعلم أحد فى « مكة » بخروجهما إلا « على بن أبى طالب » وآل أبى بكر ...

وأخذ المهاجران طريقهما إلى غار يعرفانه فى « جبل ثور » بأسفل مكة ، وبقيت « عائشة » فى الدار وحيدة قلقة .

أما أخوها « عبد الله » وهو شاب لَقِن ، فكان يدلج كل سحَرٍ فيصبح مع قريش بمكة ، يتسمع ما يقول الناس ...

---

(١) السيرة : ٢٤٦/٢ .

(٢) السيرة : ١٢٩/٢ ، والنقل منها ، وتاريخ الطبرى : ٢٤٧/٢ .

وأما أختها « أسماء » فشغلت بتدبير طعام تحمله خفية إلى الغار فى سِتْر المساء .

وسمعت « عائشة » من أخيها « عبد الله » أن المشركين قد أحسُّوا خروج الرسول ﷺ وجعلوا مائة ناقة لمن يرده عليهم .

وكادت نفسها تطير شعاعا ، لولا أن عصمها من اليأس إيمانها بالله ورسوله ، فضلا عما كانت تسمع من حديث أخيها إلى مولاهم « عامر بن فهيرة » أن يرعى النهار فى رعيان أهل مكة ، فإذا أمسى أراح غنم أبى بكر على الغار !

وكانت مشغلة « عائشة » طول النهار أن تعد الدقائق وهى تمضى فى بطء كأنها أعوام ، مرهفة سمعها إلى نبأ جديد . فإذا ولّى النهار وتأهبت أختها « أسماء » لرحلتها المسائية ، حملتها « عائشة » سلامها ودعواتها للمهاجرين العزيزين ، ثم وقفت تحدق فى الطريق مترقبة عودة « أسماء » وقلبها يخفق فى لهفة وقلق .

وتعود « أسماء » فتثب إليها عائشة معانقة ، تقبل عينيها اللتين رأتا الرسول والأب ، واليد التى صافحتهما ، والأذن التى سمعت صوتهما ، ثم تجلس إليها لتسمع منها ما رأت من حالهما ...

وتحدثها « أسماء » عن مشقة الإقامة فى الغار ، وعما كان من حزن أبى بكر حين رأى المصطفى فى ضيق الغار مع فرقة الأهل ووحشة الغربة ، فقال :
« إن قُتِلتُ فإنما أنا رجل واحد . وإن قُتِلتَ أنت هلكت الأمة » .
فيُذهِب ﷺ عنه الخوف بقوله :
« لا تحزن إن الله معنا »[1] .

وتظل « عائشة » تستعيد حديث أختها المرة بعد المرة ، حتى ينال منها الجهد

(١) من حديث الهجرة فى الصحيحين ، والسيرة — والنقل منها — (وعيون الأثر ١ / ١٨٢) . مع آية التوبة : ٤٠ .

والسهد ، فتستسلم عيناها للغمض ، وتحوم روحها حول الغار القريب ، مأوى أعز من لها فى الوجود .

ومر اليوم الثانى يحمل أنباء جديدة عن خروج نفر من قريش لمطاردة محمد وصاحبه ، ثم حان المساء وتسللت « أسماء » خفية تحمل الزاد ، فلما عادت قصت على « عائشة » كيف أن المطاردين بلغوا الغار ، وتلبثوا عنده برهة ، بل هموا بالنزول إليه ، لولا أن صدهم عنه نسيج من عنكبوت على وجه الغار ، وحمامتان وحشيتان وقعتا عليه !

وحدثتها عن قلق أبيها حين أحس بالمطاردين يقفون على قيد خطوة منهما ويتشاورون فى اقتحام الغار ، فقال : لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا . قال ﷺ : « ما ظنك يا أبا بكر باثنين ، الله ثالثهما »[1] .

* * *

فلما كانت الليلة الثالثة ، وقفت « عائشة » فى مرقبها إثر نهار مشحون بالقلق ، ترصد الطريق ... وطال بها الانتظار أكثر مما اعتادت ، وهى مرهفة الحواس تحدق فى غسق الدجى لعلها تلمح شخص « أسماء » ، وتتسمع بملء وعيها وانتباهها ، لعل هواء الليل يحمل إليها حسا من خطوات بعيدة !

ومضى وهن من الليل وهى فى وقفتها تلك تذهب بها الظنون والهواجس كل مذهب ، حتى أقبلت « أسماء » أخيرا تسرى على عجل ، مضطربة الخطو متلاحقة الأنفاس .

واشتد القلق « بعائشة » ، فوقفت حيث هى ، تحدق فى نطاق « أسماء » الذى عادت به من رحلتها ممزقا . قد غاب شِقٌّ منه !

(١) متفق عليه من حديث أبى بكر ، فى بابه من فضائل الصحابة ، رضى الله عنهم .

ورحمتها « أسماء » فعجلت لها بنبأ خروجهما سالمين من الغار ، ثم انتظرت لحظة تسترد أنفاسها ، وأقبلت تحدث « عائشة » عما كان :

ففى هدأة المساء من تلك الليلة التاريخية الخالدة على الدهر — والتى اختيرت ليبدأ بها التقويم الإسلامى — جاء الدليل « عبد الله بن أريقط البكرى » يسوق الراحلتين اللتين أودعهما أياه أبو بكر منذ أيام ، وراحلة له ثالثة ، فأناخ عند فتحة الغار ، فخرج ﷺ وصاحبه ، وجاءت « أسماء » بطعامهما فى سفرة وقد فاتها أن تجعل للسفرة عصاما ، فلما همَّا بالرحيل وأرادت أن تعلقها ، أعوزها العصام تربط به السفرة إلى الرحل ، فحلَّت نطاقها فشقته نصفين ، علقت السفرة بأحدهما ، وانتطقت بالشق الآخر . فبذلك سميت ذات النطاقين[1] .

ونظر « أبو بكر » إلى الراحلتين يفحصهما ، ثم اختار أفضلهما فقربها إلى المصطفى قائلًا : « اركب . . . فداك أبى وأمى » . . .

فركب النبى ﷺ ، ثم ركب « أبو بكر » وأردف خلفه مولاه « عامر ابن فهيرة » . . .

وسرى الركب من أسفل مكة ممعنا إلى الجنوب فى دربٍ غير مطروق ، ووقفت « أسماء » تتبعه بعينيها وقلبها حتى أبعد ، فعادت وحدها إلى بيت أبيها ، وهى توجس خيفة من تنبه المطاردين ...

وغابت « عائشة » عما حولها ، ومضت تسرى بروحها فى أثر الراحلين ، فما راعها إلا طرقات عنيفة تلح على الباب ، فوقفت مكانها لا تملك حراكا ، وخرجت ذات النطاقين تلقى الطارقين بليل ، فإذا نفر من قريش — فيهم أبو جهل بن هشام بن المغيرة المخزومى — يسألونها فى غلظة :

« أين أبوك يا بنت أبى بكر ؟ »

(١) ابن إسحاق ١٣١/٣ وابن سعد ، من حديث هشام بن عروة عن أبيه (٢٠٥/٨) والإصابة من طريق ابن إسحاق . وانظر تخريج الحديث فى (فتح البارى : ١٧٦/٧) .

قالت : « لا أدرى والله أين أبى . » .

وما كذبت ، فقد كان آخر عهدها بأبيها منطلقا من الغار ، ساريا فى مجاهل الفلاة ، إلى حيث لا تدرى أين بلغ به سراه فى صحبة النبى ﷺ .

فلم تشعر إلا ويد « أبى جهل » ترتفع بغتة فتلطم خدها لطمة قاسية ، طرحت قرطها ![1]

ثم انصرفوا بغيظهم يتهددون وتوعدون ...

* * *

ومضت أيام وليال ، لم يكن لمكة فيها من حديث إلا عن تلك المطاردة الشرسة العنيدة ، تعدو فيها قريش وراء المهاجر شبه أعزل ، وقد جُنَّ خوفها أن ينجو بدعوته إلى حيث يغدو مطمئنا وما لها إليه من سبيل .

ونجا ﷺ ، وصاحبه فى الغار .

وتضاربت الأنباء فى وجهته ، حتى جاء خبر من يثرب أن المسلمين هناك يخرجون إذا صلوا الصبح إلى ظاهر المدينة منتظرين ، فما يبرحون مكانهم حتى تغلبهم الشمس على الظلال . . .

وإذ هم يدخلون بيوتهم ذات يوم ولم يبق ظل ، سمعوا صيحة رجل من يهود : يا بنى قيلة ، هذا جدكم قد جاء .

فخرجوا مسرعين ليروا النبى ﷺ فى ظل شجرة ومعه أبو بكر فى مثل سنه ، وأكثرهم لم يكونوا رأوهما قبل ذلك ، فحفوا بالصاحبين وما يعرفون أيهما

(١) السيرة ١٣٢/٢ ، وتاريخ الطبرى : ٢٤٧/٢ وترجمة أسماء فى الاستيعاب بسند ابن عبد البر ، وفى الإصابة من طريق مسلم وابن سعد . وابن سيد الناس فى عيون الأثر (١٨٩/١) من طريق الغيلانيات .

النبى ﷺ ، حتى زال الظل عن أحدهما فقام الثانى فأظله بردائه ، فعرفوه[1] .

وسرى النبأ فى أنحاء « يثرب » وتعالى الهتاف من كل مكان ، وبدأت الأفواج تملأ الطرقات ساعية فى شوق ولهفة إلى حيث تلقى المهاجر العظيم ، وصيحات ابتهاجهم وأناشيد ترحيبهم ، تشق أجواز الفضاء !

وعرفت « عائشة » مكان الحبيب ...

وكذلك عرفت قريش ، حين لم تعد تجليها معرفة ، وجاء دورها لتنتظر فى خوفٍ وغيظٍ ، ماذا يأتى به الغد . . .

انكمشت فى قهر ، أنْ أعجزها الظفر بمهاجرٍ فرد ، خرج من « مكة » وليس معه غير صاحب واحد ، ودليل غير مسلم . ومولى تابع ...

وأرهف التاريخ سمعه ، يبدأ بهذه الهجرة إلى يثرب كتابا جديداً فى تاريخ الإنسانية ، ويبدأ بها ليثرب نفسها ، عهدا جديدا مباركا ، مدينة النبى عليه الصلاة والسلام .

(١) السيرة : ١٣٧/٢ ،وانظر نسب « قيلة » أم الأنصار الأوس والخزرج ، فى جمهرة أنساب العرب (٣١٢ - ٣٤٧) وفى « وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى » للسمهودى ص ٨ : ١٥٦ ط ١٩٥٥ .

العــروس

بعد أن استقر ﷺ فى دار هجرته ، بعث « زيد بن حارثة » إلى مكة ليصحب بنات النبى ﷺ ، ومعه رسالة من « أبى بكر » إلى ابنه عبد الله ، يطلب إليه فيها أن يلحق به ، مصطحبا زوجته « أم رومان » ، وابنتيه « أسماء ، وعائشة » وكان مع زيد « أبو رافع » مولى النبى ﷺ .

وتهيأ الجمع للسفر ، وخرجوا صحبة يريدون دار الهجرة ، وما تكاد الدنيا تسع « عائشة » من فرحتها وابتهاجها ، وقد أمضت الأيام الأولى للسفر مرحة تتوثب ، فلما كانوا ببعض الطريق نفر بعيرها فاستغاثت « أم رومان » مذعورة :

« وابنتاه ، واعروساه ! »[1]

وأسرع عبد الله بن أبى بكر ، وطلحة بن عبيد الله ، وزيد بن حارثة ، وأبو رافع ، فردوا البعير النافر ، ومن ثم سكنت عائشة فوق راحلتها وأسبلت عينيها منتشية بقرب لقاء الأحباب . . .

* * *

وفى « المدينة » كان ﷺ يهيِّىء داراً لعائشة .

أقام ﷺ فى « قباء » أربعة أيام ، أسس خلالها أول مسجد فى الإسلام ، وكان مقامه عليه الصلاة والسلام بقباء ، فى مربد هناك لكلثوم بن هِدْم الأنصارى .[2]

(١) تاريخ الطبرى : حوادث الهجرة – والاستيعاب والإصابة ، فى ترجمة أم رومان رضى الله عنها .
(٢) السيرة لابن هشام : ١٣٩/٢ – وتاريخ الطبرى ٢٥٦/٢ ووفاء الوفا بأخبار دار المصطفى للسمهودى : ٢٥٠/١ .

وركب ناقته « القصواء » يوم جمعة ، فأدركته صلاتها فى « بنى سالم بن عوف » فصلى أول جمعة بالمدينة ، ثم استأنف مسيره فكلما مر بحى من أحياء يثرب خرج إليه رجاله مرحبين داعين :

« هلم إلينا يا رسول الله ، إلى العدد والعدة والمنعة » .

فيجيب شاكرًا : « خلوا سبيل ناقتى » .

حتى انتهت إلى باب « أبى أيوب الأنصارى » وفيه نزل رسول الله ﷺ حتى بنى مسجده ومساكنه . . .[1]

وتنافس المهاجرون والأنصار فى البناء ، حتى تم بناء مسجد المدينة ، ومن حوله تسع حجرات ، بعضها من الجريد والطين ، وبعضها من حجارة مرضومة ، بعضها فوق بعض .

وكانت أبوابها جميعا تفتح على ساحة المسجد .

وفى واحد من هذه البيوت أقامت « سودة بنت زمعة » ترعى الشئون المنزلية ، وتسهر على خدمة النبى ﷺ ، وبنتيه أم كلثوم ، وفاطمة ...

أما « رقية » فكانت مع زوجها « عثمان بن عفان » حيث نزل بالمدينة .

وأما « زينب » فكانت « بمكة » مع زوجها « أبى العاص بن الربيع » ابن خالتها هالة ، وكان لا يزال مشركا ، لم يفرق بينهما الإسلام بعد ...

* * *

بعد أن تم بناء مسجده عليه الصلاة والسلام وبيته ، واستقر المسلمون فى دار الهجرة واطمأن بهم المقام ، آمنين من اضطهاد عدوهم ، تحدث « أبو بكر » بعد الهجرة بأشهر معدودات ، إلى محمد ﷺ فى إتمام الزواج الذى عقده بمكة قبل ثلاث سنين .

---

(١) السيرة ١٣٩/٢ ، وطبقات ابن سعد : ٤٩٩/١ ووفاء الوفا : ٢٥٦/١ .

فلبى ﷺ راضيا ، وأسرع مع رجال ونساء من الأنصار إلى منزل صهره الصديق ، حيث كان ينزل بأهله ، فى بنى الخزرج .

وتصف « عائشة » يوم عرسها فتقول : « جاء رسول الله بيتنا فاجتمَع إليه رجال من الأنصار ونساء ، فجاءتنى أمى وأنا فى أرجوحة بين عذقين ، فأنزلتنى ثم سوت شعرى ومسحت وجهى بشىء من ماء ، ثم أقبلت تقودنى حتى إذا كنت عند الباب ، وقفتْ بى حتى ذهب بعض نفَسى ، ثم أدخلتنى ورسول الله جالس على سرير فى بيتنا ، فأجلستنى فى حجره وقالت : هؤلاء أهلك فبارك الله لك فيهن ، وبارك لهن فيك[1] .

ووثب القوم والنساء فخرجوا ، وبنى بى رسول الله فى بيتى ، ما نُحرت علىَّ جزور ولا ذُبحت من شاة ، وأنا يومئذ ابنة تسع سنين ، حتى أرسل إلينا سعد بن عبادة بجفنة كان يرسل بها إلى رسول الله » .

وحُمِلَ إليهما كذلك قدح من لبن ، شرب ﷺ منه ثم تناولته العروس على استحياء فشربت منه ... » .

وكانت عائشة عروسا حلوة ، خفيفة الجسم ، ذات عينين واسعتين ، وشعر جعد ، ووجه مشرق مشرب بحمرة ، وقد انتقلت إلى بيتها الجديد ، وما كان هذا البيت سوى حجرة من الحجرات التى شيدت حول المسجد ، من اللبن وسعف النخيل ، وضع فيه فراش من أدم حشوه ليف ، ليس بينه وبين الأرض إلا الحصير . وعلى فتحة الباب أسدل ستار من الشعر ...[2] .

وفى هذا البيت المتواضع بدأت « السيدة عائشة » حياة زوجية حافلة ، ستظل حديث التاريخ حتى يومنا هذا وغد بعده ، كما بدأت تأخذ مكانها المرموق فى حياة الرسول ﷺ ، وفى تاريخ الإسلام .

(١) الإصابة ، وتاريخ الطبرى : ٣/١٧٦ ووفاء الوفا : ١/٢٦٠ مع صحيح مسلم : كتاب النكاح ، ح (١٤٤٢) .

(٢) السمهودى : وفاء الوفا ٢/٤٥٩ : ٤٦١ وانظر فى صحيح مسلم ، الحديثين ٢٠٨٢ ، ٢٤٣٨ .

كانت صغيرة السن ، أو طفلة – كما يحلو لذوى الهوى أن ينعتوها ، وقال المستشرق بودلى : « منذ وطئت قدماها بيت محمد ، كان الجميع يحسون وجودها . ولو أن هناك شابة عرفت ما هى مقبلة عليه ، لكانت عائشة بنت أبى بكر ... فلقد كونت شخصيتها منذ اليوم الأول الذى دخلت فيه دور النبى الملحقة بالمسجد ... »[1].

وأدق من هذا أن يقال إن السيدة « عائشة » قد اكتمل نموها فى هذا البيت ، ونضجت شخصيتها وتدرجت بين عينى المصطفى من صبية يأتيها زوجها بصواحبها ليلعبن معها ، أو يحملها على عاتقه لتطل على نفر من الحبشة يلعبون الحراب[2] إلى شابة ناضجة مجربة ، تسألها امرأة فى مسألة دقيقة من مسائل الزينة والتجميل ، فتجيبها : « إن كان لك زوج فاستطعت أن تنزعى مقلتيك فتضعيهما أحسن مما هما فافعلى ! »

وتكره أن تلقى امرأةٌ زوجَها فى كآبة الحداد ، وهى تروى الحديث عن رسول الله ﷺ ، قال : « لا يحل لامرأة تؤمن بالله أن تحد فوق ثلاثة أيام إلا على زوج . » .

وتظل ، رضى الله عنها ، تبارك الشهر الذى خُطبت فيه وتزوجته فيه ، وتختاره لنساء قومها ، تفاؤلا به .

وفى صحيح مسلم حديث عروة بن الزبير عنها ، قالت : تزوجنى رسول الله ﷺ فى شوال ،وبنى بى فى شوال ، فأى نساء رسول الله ﷺ كان أحظى عنده منى ؟ قال عروة : وكانت عائشة تستحب أن تدخل نساءها فى شوال[3] . رواه ابن سعد ، من طريق الواقدى من حيث عروة عنها .

---

(١) بودلى : الرسول ، ص ٩٣ ، ١٣٠ من الترجمة العربية .

(٢) صحيح البخارى : ١٨٢/٣ ط الشرقية . ومسند أحمد .

(٣) كتاب النكاح من صحيح مسلم . ومعه عن الواقدى بسنده ، بلفظ مقارب ، من حديث عمرة بنت عبد الرحمن ، بن سعد بن زرارة الأنصارية المدنية ، عن عائشة رضى الله عنها (طبقات ابن سعد : ٨/ ٦٠) .

ولم يكن وجود « سودة » على مقربة منها ، زوجة ثانية للرجل الذى أحبته « عائشة » بكل كيانها ، يشغل بالها فى كثير أو قليل ، فما غاب عنها قط أن لا مكان لسودة فى قلب الزوج ، وإنما الذى كان يشغل عائشة ، هو ذلك الحب العميق الذى ظفرت به « خديجة » قبلها من زوجها ﷺ ، وتلك المكانة التى احتفظ بها لمن استأثرت بكل عواطفه ربع قرن من الزمان !

وأشد ما كان يغيظ العروس الشابة ، أن خديجة بقيت تشاركها عواطف زوجها ، وهى راقدة فى مثواها بالحجون ، تحت ثرى مكة ، فما تستطيع « عائشة » أن تشتفى منها بدعابة قاسية ، أو تباهيها بشبابها الغض وصباها الفتىّ اليانع ، أو تفاخرها بأنها زُفّت إلى المصطفى ﷺ بكرا لم تعرف قط زوجًا غيره . . .

ومع المشهور من حبه ﷺ لعائشة ، حاولت أن تتجاهل هذه الضرة التى ماتت ، فذهبت محاولتها عبثا . ذلك أن طيف « خديجة » بقى ماثلا أبدا أمام عينى زوجها ، واسمها الحبيب على لسانه ، وصوتها فى مسمعه ، وذكراها حية ملء دنياه .

وزاد فى قسوة الموقف أن مضت الشهور والسنون ، و « عائشة » لا تنجب لزوجها ولدا[1] ، على حين ولدتْ له « تلك العجوز من قريش » ــ كما كانت تصفها ــ البنين والبنات .

وكانت عائشة تعرف فى زوجها ، وفى رجال قومها جميعا ، ذلك الحب الفطرى للأبناء ، والحرص على الإنجاب ، ثم ترى من تعلق الزوج ــ الذى أحبته جهد الحب – ببنات خديجة ، ما يرهف شعورها بوطأة الحرمان تجثم على

(١) فى ترجمتها بالإصابة ، قال ابن حجر : « فقيل إنها ولدت من النبى ﷺ ولدا فمات طفلا ، ولا يثبت هذا » وفيها : « وذكر أبو سعيد الأعرابى فى معجمه بسند ضعيف جدا ، إنها أسقطت من النبى ﷺ ، سقطاً » .

صدرها فتكاد تكتم أنفاسها لولا ما يغمرها من عطف الزوج ومحبته ، وما يأخذها به إيمانها من تجمل بالصبر فيما لا حيلة لها فيه . . .

وكانت بحيث تجد فى بنات محمد – زوجها الحبيب – ما يلطف من لهفتها على الأمومة ، لو حاولت أن تتبناهن ، لكنْ يبدو أنها ما تكاد تذكر أنهن ، كذلك ، بنات ضرتها« خديجة » حتى تحس كأن حواجز منيعة تقوم بينها وبينهن ، بل تحس أن كل واحدة منهن ، هى « خديجة » ذاتها ، تثير فيها أبدا شعورا مرا بالعقم ، وتذكرها فى كل آن بما كتب عليها من حرمان .

والتفتت عائشة حولها تلتمس من أبناء أخواتها من تفيض عليه عواطف أمومتها المحرومة كى لا يرهقها الكبت ، فأنزلت ابن أختها أسماء « عبد الله ابن الزبير » منزلة الابن ، وبه كانت تكنى فيقال : « أم عبد الله »[(1)] . وحين مات أخوها « عبد الرحمن » ضمت إليها ابنه القاسم وابنته الطفلة ، فيقول القاسم :

« فما رأيت والدة قط أبر منها » .

وكذلك حاولت أن تستعين على ما تجد من حرمان ، بما عرفت لها من موضع فى قلب المصطفى ﷺ لم تبلغه أخرى بعد خديجة ، وما حظيت به من حبه وإيثاره . . .[(2)]

* * *

(1) الاستيعاب : ١٨٨٣/٤ وفيه أنها استأذنت رسول الله ﷺ فى الكنية ، فقال لها : اكتنى بابنك عبد الله بن الزبير . ومعه (طبقات بن سعد : ٦٣/٨ ، ٦٦) .

(2) انظر مناقبها فى صحيح البخارى ، وفضائلها فى صحيح مسلم .

الضـــرائر

وإذ هى سعيدة بهذا الحب تحاول أن تجد فيه عوضا عن حرمانها . آملة أن تستطيع به – ولو بعد حين – تناسى ضرتها التى ماتت ، فوجئت بزوج جديدة تدخل بيت النبى ، وتشغل الحجرة التالية لحجرتها وحجرة « سودة » وتشاركها فى حياتها الزوجية ، يوما بيوم وليلة بليلة !

إنها « حفصة » بنت عمر بن الخطاب الذى أعز الله الإسلام به !

وروع « عائشة » أن يتزوج « محمد » ﷺ – عليها ، وما تزوج قط على خديجة ، حتى ماتت فى الخامسة والستين !

وأشقاها ألا يحميها شبابها وشرف أبوتها ، وحبُّ الرسول لها ، من ذلك الهم البغيض المر الذى لم يرض المصطفى لخديجة أن تذوقه ما عاشت !

وجاءت من بعد « حفصة » زوجات أخريات ، حتى امتلأت بهن البيوت التسعة . . .

كانت فيهن « زينب بنت جحش » الشابة الجميلة ، و« أم سلمة بنت أبى أمية زاد الركب » ، الحسناء الأبية المترفعة ، و« جويرية بنت الحارث » التى تأخذ العين بملاحتها ، و« صفية بنت حيى » سليلة اليهود ، الناعمة الساحرة ، و « أم حبيبة » بنت أبى سفيان زعيم مكة وقائد جيشها ...

ثم كانت هناك « مارية » المصرية الجذابة ، أم إبراهيم بن محمد .

وريحانة بنت عمرو : حسناء بنى قريظة ، لم يتزوجها ﷺ ، لكنها أقامت فى مِلْكِه ما عاش .

وكان هذا بحيث يجعل « عائشة » تسيغ هذه المشاركة على مر الأيام ، لكن يخطىء من يزعم أو يتوهم أنها أساغت يوما مرارة الضرائر ، ويجهل فطرة الأنثى من يظن أن « عائشة » استراحت من ألم حرمانها من الأبناء ووجدت فى كنيتها بأم عبد الله ، أو فى أمومتها للمؤمنين جميعا ، ما يطفىء شوقها لأن يكون لها ولد من زوج حبيب ، عزَّ مثله فى الأزواج .

ولم تدر « عائشة » أول الأمر كيف تدفع هذا الضر المحتوم ، فقد كانت تعرف — كما يعرف سواها — أن النبى ﷺ يتزوج لضرورة وحكمة ، وأنه أَمْلَكُ الناس لهواه . . .

وكانت تعلم — ويعلم الناس جميعًا— أن عائشة هى الزوج الحبيبة المفضلة ، أحظاهن عنده ﷺ . فهل تُسكن إلى رضى واستسلام ؟

كلا ، بل حرصت جهدها على أن تذود هؤلاء الأخريات عن مكانها فى قلب زوجها ﷺ ، مهما يكلفها الأمر ، وأن تحاول بكل أنوثتها وذكائها وصباها ، أن تلزمهن موضعا بعينه لا يتجاوزنه .

وأعانها على ذلك أن كان الرسول بشرا لا يبرأ من بشريته ولا يحمل « عائشة » أو غيرها من نسائه على التجرد منها .

فلتستجب « عائشة » لفطرتها دون كبت أو قهر ، ولتكن لنسائه مشاغلهن النسوية وشواغلهن العاطفية ، ولو جمحت بهن الغيرة ، وكلفته ﷺ من أمرهن شططا .

* * *

وكانت « عائشة » بينهن أشدهن غيرة عليه ، ونضالا فى سبيل الاستئثار بحبه .

وعذرها أنها أول من تفتح لها قلبه بعد « خديجة » ، وأنها وحدها التى تزوجها بكرا ، وأنها « عائشة بنت أبى بكر » .

وقد نظرت إلى ضرائرها تقيس نفسها إليهن ، محاولة قدر ما وسعها الجهد أن تزن كل واحدة منهن بإنصاف ، لتعرف من أين تأخذهن .

وبدأت فأسقطت من حسابها غير ذوات الخطر منهن ، ممن لا قبل لهن بمنافستها ، مثل « سودة بنت زمعة » ، و « زينب بن خزيمة الهلالية » التى لم تلبث أن ماتت بعد زواجها بأشهر معدودات .

ووجدت من بعد ذلك ألا طاقة لها بمحاربة الزوجات مجتمعات ، تظاهرهن « السيدة فاطمة الزهراء » التى أرادت لها « عائشة » منذ جاءت البيت المحمدى أن تكون لها شِبه ضرة .

وقررت أن تختار من هؤلاء ، أبعدهن عن الخطر فى ميدان المنافسة ، فتوددت فى شجاعة ولباقة إلى « حفصة بنت عمر »[1] متخذة من تقاربهما فى الأبوة سبيلاً إلى هذا التودد .

واستجابت « حفصة » لهذا التودد وقد سرَّها أن تؤثرها « حبيبة المصطفى » ، بالمودة ، وأن تعترف بأن بنت عمر ، أقرب نساء النبى إلى بنت أبى بكر ...

واتخذت « عائشة » من « حفصة » موضع سرها منذ سمعت بزواج رسول الله ﷺ من « أم سلمة » فشكت لحفصة أنها وجدتها أجمل مما يقول الناس ...

وهونت « حفصة » من خطر « أم سلمة » فإنها على جمالها كبيرة السن ، وإن الجمال ليذبل سريعا فى مثل سنها ، فلتُبق عائشة غيرتها لمن تستحق ...

وفعلت عائشة ...

ادخرت غيرتها للشابة الشريفة الحسناء « زينب بنت جحش » وراحت تراقبها وتحصى عليها أن أطال ﷺ مكثه لديها ، إذ كانت تسقيه من عسل يحبه .

(١) فى حديث السيدة عائشة عن حزب النساء ، أن حزبها كان فيه حفصة وسودة وصفية والحزب الآخر فيه أم سلمة وسائر الأزواج رضى الله عنهن ، انظر السمط الثمين ص ٣٩ .

فى (الصحيحين) من حديث عائشة رضى الله عنها ، قالت إن النبى ﷺ كان يمكث عند زينب بنت جحش ويشرب عندها عسلا ، فتواصيتُ أنا وحفصة : أيّتنا دخل عليها النبى ﷺ فلتقل : إنى أجد منك ريح مغافير ، أكلت مغافير ؟ فدخل على إحداهما فقالت له ذلك فقال : « لا ، بل شربت عسلا عند زينب بنت جحش ، ولن أعود له . فنزلت : « **يـٰأيّها النبىُّ لِمَ تُحرِّمُ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكَ** » الآيات .

وفى رواية بالصحيحين كذلك ، عن عائشة ، أن حفصة هى التى سقته من عكّة عسلٍ أهدتها لها امرأة من قومها ، فأقسمت عائشة أن تحتال للأمر ، فكان تواطؤها مع سودة بنت زمعة وصفية بنت حيّى ، أيتهن دخل عليها النبى ﷺ فلتقل : أكلت مغافير ؟ ما هذه الريح التي أجد منك ؟ فيقول : « سقتنى حفصة شربة عسل » فتقول كل منهن : جَرَسَتْ نحلُه العُرفط – أى رَعَتْه .

والعرفط شجر يثمر المغافير ، مذاقها حلو ، ورائحتها كريهة ، فكان أن امتنع ﷺ من شرب العسل .

وأحست « سودة » ندما فقالت لصاحبتيها : « سبحان الله ! والله لقد حرمناه ! »[٢] .

فنظرت إليها عائشة ، أن اسكتى !

الحديث ، بروايتيه ، متفق عليه ، عن السيدة عائشة رضى الله عنها .

* * *

حتى جاءت وافدات أخريات شغلن « عائشة » حينا عن أم سلمة وزينب ، وإن عرفت أن هاتين أحب نساء النبى إليه بعدها ...

وإحدى هؤلاء الوافدات من كندة ، وثانية من مصر .

أما الأولى فكانت « أسماء بنت النعمان بن الأسود الكندية الجونية » التى

أحست « عائشة » خطر جمالها منذ وقعت عليها عيناها ، وقدرت أنها إذا لم تحل بينها وبين زوجها ﷺ ، فسوف تكلفها من أمرها عسرا .

ومن ثم قررت أن تفرغ منها قبل أن يتم الزواج !
وبدأت تعمل على الفور مستعينة بصواحبها !
دعت إليها حفصة ، وأخرى ممن يحرصن على أرضائها ، فقالت لهما :
« قد وضع يده فى الغرائب يوشكن أن يصرفن وجهه عنا » .

واتفقن على خطة موحدة : أقبلن على العروس مهنئات ، يجلونها للزفاف ويوصينها بما تفعل وما تقول استجلابا لرضى الزوج العظيم ومحبته ، فكان مما نصحن لها به أن تستعيذ بالله إذا ما دخل عليها !

وفعلت المسكينة !

لم تكد تراه مقبلا عليها ، حتى استعاذت بالله ، وفى حسابها أنها تستجلب محبته ورضاه !

فصرف رسول الله وجهه عنها وقال :
« لقد عُذت بمعاذ » ...
وغادرها من لحظته ، وأمر أن تُمتَّع وتلحق بأهلها[1] .

فبعثت إليه ، أو بعث أبوها ، من يتوسط لردها ويحدث عما كان من نسائه معها ، فلم يملك عليه الصلاة والسلام إلا أن يبتسم ويقول :
« إنهن صواحب يوسف ، وإن كيدهن عظيم ! »
وبقى عند كلمته ، فلم يمسك تلك التى عاذت بمعاذ ، وتخلصت عائشة من منافسة خطرة !

---

(١) اختلفت الروايات فى اسم التى استعاذت بالله عندما دخل عليها ﷺ ، فقيل هى أسماء بنت النعمان ، وقيل هى ابنة عم لها من كندة ، كذلك ـــ السيرة ٢٩٧/٤ . وفى الطبرى أنها ملكة بنت داود الليثية (١٢٣/٣) أو فاطمة بنت الضحاك الكلابية (١٣٩/٣) وانظر : المحبر لابن حبيب (٩٤) وعيون الأثر (٣١٠/٢) .

وأما « مارية » المصرية ، فلعل « عائشة » لم تأبه لها أول الأمر ، إذ كانت أمة قبطية أجنبية ، فى منزل دون منازل أمهات المؤمنين .

وربما استكثرت « عائشة » عليها أن تعدها منافسة لها .

حتى نبأتها حفصة بما كان من خلوه ، ﷺ بمارية فى بيت حفصة ، فاسترضاها بأن حرم « مارية » على نفسه ، موصيا « حفصة » بكتمان ما كان[1] .

لكن حفصة لم تستطع أن تكتم سرا عن عائشة ، فكأنما أشعلت فيها النار .

ولجت عائشة فى غيرتها ، والنساء يظاهرنها على النبى ﷺ ، غيظا من « مارية » التى حملت دونهن من رسول الله ، وترفق ﷺ بهن ما استطاع ، مقدرا بواعث هذا التظاهر ، لكنهن تمادين فى اللجاج إلى حد الشطط ، لطول ما أملى لهن ﷺ .

* * *

وما كان ﷺ فارغ البال لذلك الشطط النسوى المسرف ، ولا كان بحيث يرخى لعائشة وحفصة والباقيات أكثر مما فعل ، فاعتزلهن جميعا فى صرامة لم يألفنها .

وشاع فى المسلمين أن النبى ﷺ طلق نساءه ، وانكمشت المتظاهرات فى بيت النبى حزينات نادمات ، فقد جاوز الأمر ما قدَّرن ، وما لهن من عاصم إذا لم تدركهن رحمة الله تعالى وعفو رسوله عليه الصلاة والسلام . . .

---

(١) طبقات ابن سعد : ١٨٦/٨ من عدة طرق ، تفسير الطبرى : سورة التحريم . والسمط ٨٥ ، مع أسباب النزول للواحدى : سورة التحريم .

ـــ ويأتى مزيد تفصيل فى تراجم السيدات : حفصة ، وزينب بنت جحش ، ومارية القبطية .

على أن « عائشة » ـــ قائدة الثورة وزعيمة المتظاهرات ـــ لم تفزع لغضب رسول الله ، بقدر ما فزعت لما مسه ﷺ من مشقة . وكان قلبها يتمزق ، كلما تمثلت الحبيب يأوى إلى خزانة له ذات مشربة[1] ، يرقى إليها على جذع خشن من جذوع النخل ، ويجلس غلامه « رباح » على عتبتها ما أقام عليه الصلاة والسلام بها ، وما من يد رقيقة تمسح عن جبينه الطاهر قطرات العرق ، ولا من زوج يسكن إليها ويرتاح .

ومضى شهر بأكمله والمصطفى فى شغل عنهن ، و« عائشة » فى شغل به ، وأمهات المؤمنين مروعات بالهجر ، والمسلمون يرقبون نبيهم فى عزلته دون أن يجرؤوا على مفاتحته فى موضوع نسائه ، إلا ما كان من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه[1] .

* * *

ولكن النبى لم يطلق نساءه . ولطف الله بهن فاكتفى بإنذارهن إن لم يتُبن . فعسى ربه إن طلقهن ، أن يبدله أزواجا خير منهن .[2] وقال : « ما أنا بداخل عليهن شهرا » من شدة موجدته عليهن حين عاتبه الله تعالى[3] ـــ وطارت البشرى إلى أمهات المؤمنين إن النبى ﷺ عائد إلى بيته . بعد إيلائه منهن تسعا وعشرين ليلة . فوقفن بأبوابهن فى لهفة يلتمسن نظرة إلى وجهه الكريم إذ يعود من معتزله ، على حين بقيت « عائشة » داخل بيتها تستعد للقاء الحبيب العائد ، إذ كانت تعرف عن يقين أن إليها أولَ المطاف !

وأمسكت قلبها أن يذوب حين سمعت خطواته تقترب من بابها . ولاذت بكل ما استطاعت من تجمل لتتلقاه قائلة فى عتاب رقيق :

---

(١) انظر وصف المشربة التى اعتزل فيها الرسول نساءه ، بكتاب (وفاء الوفا ، بأخبار دار المصطفى) للسمهودى : ٤٦٣/٢ مع المتفق عليه من حديث عمر رضى الله عنه فى الإيلاء ، والتحريم .

(٢) سورة التحريم ويأتى حديث عمر ، فى مبحث ابنته حفصة رضى الله عنهما .

(٣) بلفظ عمر ، رضى الله عنه ، فى الحديث المتفق عليه .

« بأبى أنت وأمى يا نبى الله ! قلتُ كلمة لم ألق لها بالا فغضبتَ علىَّ » .

وإذ أقبل عليها مصغيا ، استطردت تقول فى دلال ودعابة حلوة :

« أقسمتَ أن تهجرنا شهرا ، ولما يمض منه غير تسع وعشرين ؟

فأشرق وجهه عليه الصلاة والسلام ، وقد سره أن يعرف أنها كانت تحصى ليالى الفراق عدّاً ...

وقال لها إن شهرهما ذاك ، تسع وعشرون ليلة »

* * *

ونجت « عائشة » من محنة الهجر ، ومن قبل نجاها الله من محنة فادحة منكرة ، وتجلت لها رحمته تعالى حين أظلمت الدنيا حولها ، وأوشكت على الضياع ...

تلك كانت محنة الإفك ، ننقلها فيما يلى ، من حديث السيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها .

محنـة الإفك

حدث ذلك فى السنة السادسة للهجرة ، مرجعهم من غزاة بنى المصطلق بالمريسيع ، « وفيها قال أهل الإفك ما قالوا ، فبرأها الله عز وجل مما قالوا .

وكان عليه الصلاة والسلام فى خروجه لغزو بنى المصطلق ، أقرع بين نسائه على عادته كلما خرج فى سفر أو غزوة ، فخرج سهم « عائشة » .

وانطلقت فى صحبته سعيدة هانئة .

وكانت فألا حسنا على القائد المصطفى ، فعاد من غزوته منتصرا ، وسار ركبه الظافر يغذ السير إلى « المدينة » التى كانت إذ ذاك تهزج بأغانى النصر ...

وفى الطريق ــ قريبا من المدينة ــ أناخ العسكر فباتوا بعض الليل ، ثم أذن فيهم بالرحيل ، فارتحلوا ، وما يخطر ببال أحدهم أن السيدة عائشة قد تخلفت حيث أناخوا .

وبلغ الركب المدينة فى مطلع الصبح ، واقتيد بعير أم المؤمنين إلى مناخه أمام بيتها ، وأنزل الهودج فى رفق ، فإذا أم المؤمنين ليست فيه !

ولبث الرسول وصحبه ساعة من نهار ، حائرين قلقين ، وانطلق بعضهم فى الطريق يلتمسون العزيزة الغائبة ...

حتى ظهرت من بعيد تركب بعيرا ، يقوده رجل عرفوا فيه « صفوان بن المعطل السلمى » .

واطمأن النبى ﷺ أن وجدها بخير ، وسمع حديثها عن سبب تخلفها فما أنكر منه شيئًا .

قالت رضى الله عنها :[1]

« خرجت لبعض حاجتى ، قبل أن يؤذّن فى الناس بالرحيل ، وفى عنقى عقد لى فيه جزع « ظفار » — مدينة باليمن — فلما فرغت انسل من عنقى ولا أدرى . فلما رجعت إلى الرحل ذهبت ألتمسه فى عنقى فلم أجده ، وقد أخذ الناس فى الرحيل ، فرجعت إلى مكانى الذى ذهبت إليه فالتمسته حتى وجدته ، وجاء القوم — وأنا بعيدة — فرحلوا بعيرى وأخذوا الهودج وهم يظنون أنى فيه — إذ كنت خفيفة لم يُثقلنى اللحم — فاحتملوا الهودج فشدوه على البعير ولم يشُكُّوا أنى فيه . ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا به ، فرجعت إلى العسكر وما فيه من داع ولا مجيب ، قد انطلق الناس ...

« فتلففت بجلبابى ، ثم اضطجعت فى مكانى ، وعرفت أن لو قد افتُقِدتُ لرُجع إلىَّ . فوالله إنى لمضطجعة ، إذ مر بى صفوان بن المعطل السلمى وقد كان تخلف عن العسكر لبعض حاجته فلم يبت مع الناس ، فرأى سوادى فأقبل حتى وقف علىَّ — فعرفنى ، وكان يرانى قبل أن يضرب علينا الحجاب — فلما رآنى قال : « إنا لله وإنا إليه راجعون ، ظعينة رسول الله ﷺ ! ما خلَّفكِ يرحمك الله ؟ !

فما كلمته ... ثم قرب البعير فقال : اركبى .

واستأخر عنى ، فركبت ، وأخذ برأس البعير فانطلق سريعا يطلب الناس ، فوالله ما أدركنا الناس وما افتُقِدتُ ، حتى أصبحت ونزل الناس ، وطلع الرجل يقود بى » .

---

(١) حديث الإفك مروى بتمامه فى الصحيحين وأكثر المسانيد وكتب السنن ، وفى طبقات ابن سعد والسيرة الهشامية عن ابن إسحاق — والنقل منها ، مع زيادة من الصحيحين (٣/٣) وعيون الأثر (٩٦/٢ — ١٠٣) وهو فيها جميعا من رواية ابن شهاب الزهرى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها .

وأوت «عائشة » إلى فراشها فنامت هادئة ، والمدينة يقظى لا تنام ! ذلك أن قوما من اليهود والمنافقين ، على رأسهم « عبد الله بن أبيٍّ ابن سلول » ــ الذى ما برئ من حقده على النبى ﷺ وما فتىء يكيد له ــ تلقفوا الحادثة فنسجوا حولها ما شاءوا من مفتريات ، ليشفوا أحقادهم ...

وانتقل حديث الإفك من دار « ابن سلول » ومن لفّ لفه ، إلى أحياء المدينة ، وردده ناس من المسلمين ، فيهم « حسان بن ثابت الأنصارى » شاعر النبى ﷺ ، و « مسطح بن أثاثة بن عباد » قريب أبى بكر وموضع بره ، و « حمنة بنت جحش » ، ابنة عمة النبى ﷺ وأخت زوجته زينب ! ..

وبلغ الحديث أذنى محمد ﷺ ، كما بلغ مسامع أبى بكر وأم رومان فصكها صكا ! لكن أحدا منهم لم يستطع أن يواجه « عائشة » بالشائعة الرهيبة ، إذ كانت منذ عادت من غزوة بنى المصطلق ، معتلة تشتكى شكوى شديدة ، فظلت لا تدرى ما يقول الناس عنها ولا يبلغها من ذلك شيء ، إلا أنها أنكرت من رسول الله جفوة ظاهرة ، وقد عودها إذا اشتكت من قبل أن يلطف بها ويغمرها بحنانه ، فأمست هذه المرة ولا حظَّ لها من ذلك اللطف والحنان إلا أن يدخل عليها من حين إلى حين ، وعندها أمها تمرضها فيسأل :

« كيف تيكم » ثم ينصرف ، لا يزيد على ذلك !

ولم تشأ أن تسأله عما يريبها من جفائه ، فقد كان يبدو لها واجما مشغول البال ، وكانت تحس بقلبها أنه ﷺ يكابد هما ثقيلا ، فتماسكت متجلدة ، وهى تعلل نفسها بانقشاع هذه السحابة التى غشيت دنياها .

فتقول « عائشة » :

« حتى وجدتُ فى نفسى فقلت ، حين رأيت ما رأيت من جفائه لى : يا رسول الله ، لو أذنت لى فانتقلتُ إلى بيت أمى فمرضتنى ؟ قال : « لا عليك » .

فانتقلتُ إلى أمى ولا علم لى بشىء مما كان ، حتى نقهت من وجعى بعد بضع وعشرين ليلة ...

فخرجت ليلة لبعض حاجتى ومعى « أم مسطح » بنت أبى رهم بن المطلب بن عبد مناف — وكانت أمها بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد ابن تيم ، خالة أبى بكر — فو الله إنها تمشى معى إذ عثرت فى مرطها فقالت : تَعِسَ مِسْطَح !

قلت : بئس لعمر الله ما قلتِ لرجل من المهاجرين قد شهد بدرا !

فقالت : أو ما بلغك الخبر يا بنت أبى بكر ؟

قلت : وما الخبر ؟

قالت : نعم والله ، لقد كان ...

فو الله ما قدرت على أن أقضى حاجتى ، ورجعت فمازلت أبكى حتى ظننت إن البكاء سيصدع كبدى ، وقلت لأمى :

— يغفر الله لك ، تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لى من ذلك شيئاً ؟

قالت : أى بنية ! خفِّضى عليك الشأن ، فو الله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها ، لها ضرائر ، إلا كثَّرن وكثر الناس عليها ! »

لكن « عائشة » باتت مسهدة لا يرقأ لها دمع ولا تكتحل عيناها بنوم .

* * *

وبعيدا عنها كان ﷺ يعانى مثل الذى تعانيه : قلبه يحدثه أنها ضحية اتهام ظالم قارح ، وأذناه تصغيان إلى الشائعات المرجفة بالسوء .

وقد قام فى الناس يخطبهم ولا علم لعائشة بذلك ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« يا أيها الناس ، ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى ويقولون عليهم غير

الحق ؟ .. والله ما علمت منهم إلا خيرا ، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيرا ، وما يدخل بيتا من بيوتى إلا وهو معى » .

فتكاد أفئدة المسلمين تنخلع تأثرا لنبيهم فى هذا البلاء ، ويثورون غضبا لشرف زوجة كريمة ، وعقيلة حرة ، فتختلط أصواتهم فى طلب الانتقام والتأديب ، ويتماسك الأوس والخزرج متصايحين مطالبين بأعناق أصحاب الإفك من هؤلاء وأولئك ، حتى كاد يكون بين هذين الحيين من الأوس والخزرج شر .

وتمضى عائشة فى وصف محنتها فتقول :

« ونزل رسول الله ﷺ فدخل علىَّ ، فدعا « على بن أبى طالب وأسامة بن زيد » فاستشارهما .

فأما أسامة فأثنى علىَّ خيرا وقال : يا رسول الله ، أهلك ، ولا نعلم منها إلا خيرا ، وهذا الكذب والباطل .

وأما « علىّ » فإنه قال : يا رسول الله ، إن النساء لكثير ، وإنك لقادر على أن تَستخلِف ، وسل الجارية فإنها ستصدقك[1] .

« فدعا رسول الله ﷺ جاريتى « بريرة » ليسألها : فقام إليها « على بن أبى طالب » وقال :

ـــ اصدقى رسول الله ﷺ .

فتقول « بريرة » : والله ما أعلم إلا خيرا ، وما كنت أعيب على عائشة شيئاً إلا أنى كنت أعجن عجينى فآمرها أن تحفظه ، فتنام عنه ، فتأتى الشاة فتأكله ! »

ويخرج ﷺ مثقل الكاهل محزون الفؤاد .

ثم يعود بعد حين إلى بيت أبى بكر ، فإذا عائشة هناك مقرحة الأجفان

---

(١) انظر تعليق الإمام النووى فى شرح مسلم ، والحافظ ابن حجر فى فتح البارى ، على موقف الإمام على كرم الله وجهه ، مع (اللؤلؤ والمرجان ، هامش ح ١٧٦٣) ٢٥٩/٣ .

تبكى ، فتبكى لها زائرة عندها من الأنصار ، وأبواها ينظران إليها فى صمت وأسى .

ولأول مرة منذ شاع حديث الإفك ، جلس ﷺ يحدث عائشة ، قال :

« يا عائشة ، إنه قد كان ما قد بلغك من قول الناس ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله . وإن كنت قد قارفت سوءا مما يقول الناس فتوبى إلى الله ، فإن الله يقبل التوبة من عباده » .

فما هو إلا أن قال لها ذلك حتى جف دمعها وهرب الدم من عروقها لهول ما سمعت ، وحاولت أن تتكلم فعصى لسانها ، فالتفتت إلى أبويها ، منتظرة أن يجيبا عنها رسول الله ﷺ .

وإذ سكتا لا يحيران جوابا ، صاحت فيهما بملء عذابها : ألا تجيبان ؟

قالا معا بصوت تخنقه العبرات : والله ما ندرى بم نجيب !

فأسعفتها عيناها بفيض من الدمع أطفأ اللهب المشتعل فى كيانها ، ثم اتجهت إلى زوجها تقول فى إصرار :

« والله لا أتوب إلى الله مما ذكرتَ أبدا ، والله إنى لأعلم لئن أقررتُ بما يقول الناس ، والله يعلم أنى بريئة ، لأقولَنَّ ما لم يكن . ولئن أنا أنكرتُ ما يقولون ، لا تصدقوننى » .

وحاولت أن تتذكر اسم « يعقوب » لتتأسى به فما استطاعت ، واستطردت : ولكن سأقول كما قال أبو يوسف : ﴿ **فَصَبْرٌ جَمِيلٌ واللَّهُ المستعانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ** ﴾ ثم تحولت ، واضطجعت على فراشها .

فلم يبرح ﷺ مجلسه عندها ، حتى تغشاه ما كان يتغشاه من نزول الوحى ، فسُجى بثوبه ، ووُضعت له وسادة من أدم تحت رأسه .

وأمسك الأبوان أنفاسهما حتى ظنت عائشة لتخرجن نفساهما ، فرقاً

وقلقا ، وأما هى فما فزعت ولا خافت ، إذ كانت تعرف براءتها وتعلم أن الله عز وجل غير ظالمها .

ثم سُرِّى عن رسول الله ، ﷺ فجلس يمسح العرق عن جبينه ويقول : « أبشرى يا عائشة ، فقد أنزل الله براءتك » .

وتنفس أبو بكر كمن أزيح عن صدره كابوس جاثم ، ووثبت أم رومان من مكانها وقد استخفها الفرح ، فأشارت إلى عائشة أن تقوم إلى زوجها ، فقالت عائشة فى إباء : « والله لا أقوم إليه ، فإنى لا أحمد إلا الله عز وجل ، هو الذى أنزل براءتى » .

ثم التفتت إلى أبيها وهو يدنو منها فيقبل رأسها وعيناه نديتان بالدمع فرحا وانفعالا ، فقالت له : « يا أبتاه هلا كنت عذرتنى ! » فأجاب : « أى سماء تظلنى وأى أرض تقلنى إن قلت بما لا أعلم ؟ »

وأما النبى ﷺ ، فرنا إليها فى عطف وهو يتذكر ما كابدت من إفك ظالم ، وخرج إلى المسجد وتلا على الناس آيات النور :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ (١٢) لَوْلَا جَاءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا

لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا
وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ (١١ــ١٩) .

وبأمره تعالى ، جَلد الذين تقولوا بالفاحشة :

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ
جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ ﴾

صدق الله العظيم . النور : ٤ .

* * *

العُـــرْوَةُ الوُثْــقَى

وعادت السيدة « عائشة » إلى مكانها فى البيت المحمدى ، تحف بها هالة من آيات النور ، نصرا إلَهيًّا جعل براءتها من الإفك الأثيم ، قرآنا يتعبد به المسلمون ...

عادت لتستأنف حياتها الزوجية الحافلة ، مزهوة بصباها ودلالها وحظوتها عند الحبيب ، تباهى ضرائرها قائلة :

« أية امرأة كانت أحظى عند زوج منى ! »

ولا تفتأ تردد على مسامعهن قوله عليه الصلاة والسلام :

« حبك يا عائشة فى قلبى كالعروة الوثقى » .

عن عمرو بن العاص رضى الله عنه ، قال : قلت لرسول الله ﷺ :

يا رسول الله ، من أحب الناس إليك ؟

قال : « عائشة » قلت : من الرجال ؟ قال : « أبوها » قلت : ثم من ؟

قال : « ثم عمر بن الخطاب ... » فعدَّ رجالا » متفق عليه[1] .

وعن عائشة رضى الله عنها ، قالت :

قال لى رسول الله ﷺ ، « إنى لأعلم متى كنت عنى راضية ، وإذا كنت علىَّ غَضْبَى » قلت : ومن أين تعرف ذلك ؟ قال : « أما إذا كنت راضية فإنك تقولين : لا وربِّ محمد ، وإذا كنتِ غضبى قلتِ : لا وربِّ إبراهيم » . قلتُ : أجل والله يا رسول الله ، ما أهجر إلا اسمَك[2] » متفق عليه .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه فى كتاب المناقب (٢٠١/٢) ومسلم فى كتاب الفضائل : ح (٢٣٨٤) والنقل من البخارى .

(٢) صحيح مسلم : باب فضل السيدة عائشة (ح : ٢٤٣٩) والنقل منه . وأخرجه البخارى فى كتاب الغيرة (١٨٦/٢) . وابن سعد ، بسنده إلى عروة بن الزبير ، عن خالته عائشة رضى الله عنها (الطبقات الكبرى ٦٩/٨) .

و « حديث أمِّ زرعٍ » مشهور ، خلاصته أن إحدى عشرة نسوة جلسن يتحدثن عن أزواجهن ، وتعاهدن أن لا يكتمن من أحوالهم معهن شيئا . فتحدثت كل منهن عن زوجها وما تشكو من أمره أو أبويه ، فلما جاء دور أخراهن « أم زرع » تحدثت عن زوجها « أبى زرع » فأثنت عليه أطيب الثناء ، وأسهبت فى وصف كرم سجاياه وفيض خيره وجميل عشرته .

قالت السيدة عائشة بعد أن حكت خبرهن ؛ قال لى رسول الله ﷺ : « كنتُ لكِ كأبى زرع لأمِّ زرع »[1] .

وكان المسلمون يعلمون مكانتها عند النبى ﷺ ، فيتحَرَّوْن بهداياهم يوم عائشة ، يبتغون بذلك مرضاة رسول الله ﷺ »[2] . ومع أنه كان يرسل لكل زوجة نصيبها مما يتلقى وهو فى بيت عائشة ، إلا أن الغيرة استفزتهن ، فتشاورن فى وضع حد لما يلقين من بنت أبى بكر .

وانتهى بهن الرأى إلى أن يلتمسن من « السيدة فاطمة الزهراء » مخاطبة أبيها ﷺ فى الأمر . واستجابت رضى الله عنها فدخلت على أبيها وعائشة عنده فقالت : يا أبى ، إن نساءك أرسلننى إليك ، وهن ينشدنك العدل فى ابنة أبى قحافة ، فقال لها ، ﷺ : « أى بنية ، ألستِ تحبين ما أحب ؟ »

قالت : بلى . قال : « فأحِبِّى هذه » .

فعادت إليهن فأخبرتهن بالذى سمعت من أبيها ﷺ ، وقالت : « والله لا أكلمه فيها أبداً »[3] .

* * *

---

(١) متفق عليه من فضائل السيدة عائشة رضى الله عنها .
وشرحه القاضى عياض فى كتاب مفرد ، نشرته وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالرباط .

(٢) صحيح مسلم : كتاب الفضائل ، حـ (٢٤٤١) واللفظ منه . وصحيح البخارى فى كتاب الهبة . والإصابة ٨/١٤٠ .

(٣) صحيح مسلم ، الفضائل : حـ (٢٤٤٢) . والإصابة ، من طريقه ، فى ترجمتها رضى الله عنها .

وقد ظلت السيدة عائشة رضى الله عنها ، تبارك ما عاشت ، الشهرَ الذى خطبها فيه النبى ﷺ ، وبنى بها فيه ، فكانت تستحب أن تزوج النساء من آلها فى شوال ، وتقول :

« تزوجنى رسول الله ﷺ فى شوال ، وبنى بى فى شوال ، فأى نساء رسول الله ﷺ كانت أحْظَى منى ؟ »[1] .

وحين كانت الغيرة تشتط بها ، كان النبى ﷺ يوسع لها العذر فيقول :

« ويحها ، لو استطاعت ما فعلت ! »

وفى صحيح الحديث عن عروة بن الزبير ، عنها : أن رسول الله ﷺ خرج من عندها ليلا ، قالت : فغرت عليه فجاء فرأى ما أصنع فقال : « ما لكِ يا عائشة ؟ أغِرتِ ؟ » فقلت : وما لى لا يغار مثلى على مثلك ؟[2] .

وصدقت « عائشة » ...

وكتبت السيدة الزميلة « الدكتورة زاهية قدورة » ، فى رسالتها للدكتوراه عن « عائشة أم المؤمنين » : « إن الغيرة لم تكن لتتغلغل إلى أعماقها ، بل كانت تقف عند الحدود التى تقضى بها قواعد الدين والعدل ... وإن الأمر لم يكن ليدخل فى باب الخصومات الحزبية كما يحلوُ لبعض كتاب التاريخ الإسلامى من الإفرنج أن يصفوها ... ولعل ما يرد على هؤلاء ، ما رأيناه من صور الوفاق الرائع بين الضرائر ، وتفانيهن فى إرضاء زوجهن رسول الله » .

سبحان الله ! وما لها لا يغار مثلها على مثله ؟

وهل كان تحزبهن فى قصة المغافير ، وتظاهرهن ضد مارية ، من صنع الفرنجة ؟

أو كانت وصيتهن للعروس أن تستعيذ بالله إذا دخل عليها رسول الله ﷺ

---

(1) صحيح مسلم ، كتاب النكاح : حـ (١٤٢٣) .

(2) صحيح مسلم ، حـ (٢٨١٥) والسمط الثمين : ٨٠ .

إحدى الصور للاتفاق الرائع بين الضرائر ؟

اللهم لا ، وإنما كانت « عائشة » أنثى سليمة الفطرة ، ينزع بها ميراثها العاطفى إلى حواء فتستجيب له دون أن تتكلف نفاقا أو مداراة .

وما غيرتها الشديدة ، بعد هذا كله ، إلا مظهر حب عميق لرجلها الفريد ، ودليل تعلق بالرسول عليه الصلاة والسلام ، ورغبة لا تقاوم فى الاستئثار به ...

ونظلمها ، ونظلم نبينا الكريم ، إذا تكلفنا نفى هذه الغيرة عنها . . .

لقد غارت على السيدة خديجة ، رضى الله عنها ، وقد ماتت ولم ترها عائشة قط . ولم تنج من غيرتها حفصة ، وإنها لأقرب ضرائرها إليها ، وفى (الصحيحين) من حديث عائشة رضى الله عنها : إن النبى ﷺ أقرع بين نسائه ، فى سفر « فطارت القرعة لعائشة وحفصة ، وكان النبى ﷺ إذا كان بالليل سار مع عائشة يتحدث فقالت حفصة : ألا تركبين الليلة بعيرى وأركب بعيرك تنظرين وأنظر ؟ فقالت : بلى . فركبت فجاء النبى ﷺ إلى جمل عائشة وعليه حفصة ، فسلم عليها ثم سار حتى نزلوا ، وعائشة تدعو على نفسها تقول : '' يا ربِّ سلِّط علىَّ عقربا أو حية تلدغنى '' ولا أستطيع أن أقول له شيئا » ــ متفق عليه .

الـــوداع

كانت السنوات التى تلت محنة الإفك حافلة بجليل الأحداث ...

والسيدة « عائشة » مع الحبيب ﷺ تشهد انتصاره ، وتتلقاه عائدا مظفرا من مغازيه ومشاهده ، وترى دعوته وهى تنتشر وتمتد ، كنور الفجر ينسخ الظلمات فتنجاب أمامه قطع الليل .

ثم آن للقائد أن يستريح بعد حياة ناصبة مناضلة مجاهدة ...

وآن للرسول البشر ، أن يرجع إلى ربه ، بعد أن بلغ رسالته .

عاد من حجة الوداع سنة عشر إلى « المدينة » فما أقام بها غير قليل حتى أرق ذات ليلة من أخريات صفر سنة إحدى عشرة ، فخرج إلى البقيع يحيى الراقدين هناك ويستغفر لهم . قالت السيدة عائشة ، فيما أسند ابنُ إسحاق عنها : رجع رسول الله ﷺ من البقيع فوجدنى وأنا أجد صداعا فى رأسى وأنا أقول :

« وا رأساه ! »

فقال : « بل أنا والله يا عائشة وا رأساه ! »

ثم قال : « وما ضركِ لو مُتِّ قبلى فقُمت عليك ، وكفنتُكِ ، وصليتُ عليك ، ودفنتك ؟ »

ردّت وقد هاجت غيرتها :

« ليكن ذلك حظ غيرى ! والله لكأنى بك لو قد فعلت ذلك ، لقد رجعتَ إلى بيتى فأعرستَ فيه ببعض نسائك ! فتبسم رسول الله ﷺ . وتتّام به وجعهُ وهو يدور على نسائه ، حتى استعزّ به وهو فى بيت ميمونة فدعا نساءه فاستأذنهن فى أن يُمَرَّض فى بيتى فأذِنَّ له »[1] .

وفى (الصحيحين) من حديثها رضى الله عنها ، أن رسول الله ﷺ كان

---

(١) بلفظ ابن إسحاق ، فى السيرة (٤/٢٩٢) بسنده عن عائشة رضى الله عنها .

يسأل فى مرضه الذى مات فيه ، يقول : « أين أنا غدا ؟ أين أنا غدا ؟ » يريد يوم عائشة ، فأذِنَ له أزواجه أن يكون حيث شاء ، فكان فى بيت عائشة حتى مات عندها »[1] .

وانتقل إلى بيت الحبيبة تمرضه ، وجاء بلال يؤذنه بالصلاة ، وقد ثقل ، فقال : « مروا أبا بكر أن يصلى بالناس » فقالت عائشة : يارسول الله ، إن أبا بكر رجل أسيف ، وإنه متى ما يقم مقامك لا يُسمع الناس ، فلو أمرتَ عمر ؟ فقال ﷺ : « مروا أبا بكر أن يصلى بالناس ... » الحديث[2] .

قالت عائشة : لقد راجعت رسول الله ﷺ فى ذلك ، وما حملنى على كثرة مراجعته إلا أنه لم يقع فى قلبى أن يحب الناس بعده رجلا قام مقامه أبدا ، ولا كنت أرى أنه لن يقوم أحد مقامه إلا تشاءم الناس به ، فأردت أن يعدل رسول الله ﷺ ، عن أبى بكر »[3] .

« وقُبِضَ رسول الله بين سحرى ونحرى ... فمن سفهى وحداثة سنى أنه ﷺ قبض وهو فى حجرى ، ثم وضعت رأسه على وسادة وقمت ألتدم مع النساء وأضرب وجهى »[4] .

* * *

وكادت تكون فتنة ، عصم الله المسلمين منها حين ألهم « أبا بكر » أن يقف فى المسلمين فيقول :

« أيها الناس ، إنه من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حىٌّ لا يموت » ...

ثم تلا فيهم قوله تعالى فى كتابه المنزل على رسوله ﷺ :

---

(١) متفق عليه من حديثها (فضائل الصحابة فى اللؤلؤ والمرجان : ١٥٨٣)

(٢ — ٣) متفق عليه من حديثها (ك الصلاة ، اللؤلؤ : ح ٢٣٩ ، ٢٣٧) .

(٤) ابن إسحاق فى (السيرة ٣٠٥/٤) بإسناده عن عباد بن عبد الله بن الزبير) عنها . وتاريخ الطبرى : ١٦٧/٣ والنقل منه — ونحوه فى صحيح مسلم ، كتاب الفضائل : ح (٢٤٤٤) .

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

آل عمران : ١٤٤

فو الله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت ، حتى تلاها « أبو بكر » يومئذ ![١] .

ودُفن ﷺ حيث قُبِضَ فى بيت « عائشة » .

وتولى أبوها الصديق الخلافة من بعده ...

* * *

وعاشت « عائشة » لتكون المرجع الأول فى الحديث والسنة ، والفقيهة الأولى فى الإسلام .

قال مسروق بن الأجدع الهمدانى ، التابعى الفقيه الإمام القدوة :

« لقد رأيت مشيخة أصحاب محمد ﷺ الأكابر يسألونها فى الفرائض » . وكان إذا حدث عنها قال : حدثتنى الصديقة بنت الصديق ، حبيبة حبيب الله .. »[٢] .

وقال الإمام « الزهرى » : لو جُمِعَ علمُ عائشة ، إلى علم جميع أزواج النبى ﷺ ، وعلم جميع النساء ، لكان علم عائشة أفضل .

وقال هشام بن عروة عن أبيه رضى الله عنه : « ما رأيت أحدا أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة »[٣] وعن أبى موسى الأشعرى ، رضى الله عنه قال :

« ما أشكل علينا أمر فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها فيه علما »[٤] .

---

(١) صحيح البخارى ، مناقب أبى بكر ، رضى الله عنه (٢٠١/٢) .

(٢ ـــ ٤) من ترجمتها فى طبقات ابن سعد : ٦٦/٨ ـــ ٧٧ والاستيعاب : ١٨٨٣/٤ ، والإصابة ١٤٠/٨ .

عاشت لتصحح رأى الناس فى المرأة العربية ، وتشارك فى حياة الإسلام أقوى مشاركة ، فتخوض معركة الفتنة الكبرى التى صنعت التاريخ الإسلامى منذ مقتل « عثمان بن عفان » رضى الله عنه ، وتشهد الحرب يوم الجمل .

....

ثم توفيت رضى الله عنها فى السادسة والستين من عمرها ، بعد أن تركت أعمق الآثار فى الحياة الفقهية والاجتماعية والسياسية للمسلمين ، وحفظت لهم بضعة آلاف من صحيح الحديث عن رسول الله ﷺ منها ألفان ومائة وعشرة أحاديث ، فى الكتب الستة .

وكانت وفاتها — على الأرجح — ليلة الثلاثاء لسبع عشرة مضين من رمضان سنة سبع وخمسين ، وصلى عليها « أبو هريرة » ثم شيعت جنازتها فى غسق الليل إلى البقيع — كما أوصت — على أضواء مشاعل من جريد مغموس فى الزيت ، وسارت الجموع من ورائها باكية معولة ، فلم تُرَ ليلةٌ أكثرَ ناسا منها .

وأودع جثمانها مع أمهات المؤمنين ، وقد ألغى الموت ما كان بينها وبينهن من غيرة وتنافس ، وأخمد الزمن ذاك اللهب الذى توهج أعواما فى ذلك الكيان الرقيق اللطيف .

وفى (صحيح البخارى) أن عائشة رضى الله تعالى عنها أوصت عبد الله ابن الزبير — ابن أختها أسماء — أن يدفنها مع صواحبها بالبقيع[1] .

ونزل معها إلى القبر ولدا أختها أسماء ذات النطاقين : عبد الله وعروة ابنا الزبير ، والقاسم وعبد الله ابنا أخيها محمد ، وعبد الله ابن أخيها عبد الرحمن ، وكلهم من رواة الحديث عنها[2] .

...

(١) وانظر وصف قبرها وموضعه ، فى (وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى) للسمهودى : ٣/٩١٣ .

(٢) طبقات ابن سعد ، والاستيعاب ، والإصابة ، وتهذيب التهذيب : فى ترجمتها رضى الله عنها .

ونامت أخيرا ، وخلفت الدنيا من ورائها ساهرة فيها ، والتاريخ مشغولا برصد دقائق حياتها منذ كانت فى السادسة من عمرها ، معنيا بتتبع حركاتها وسكناتها وكلماتها طوال الأعوام الستين التى عاشتها ملء الحياة ، من الشهر المبارك ، شوال ، الذى شرفت فيه بالزواج من خير البشر ، خاتم النبيين عليهم وعليها السلام ...

* * *

(٤)

حفصَة بنتُ عمَر

حَافظة المصحَف الشريف

« ... يا بنية لا يغرنك هذه التى أعجبها حسنُها وحبُّ الرسول ﷺ إياها . والله لقد علمتِ أن رسول الله لا يحبك ، ولولا أنا لطلقك »

عمر بن الخطاب رضى الله عنه

فى (الصحيحين)

الأرملة الشابّة

لم يشهد « بدرا » من بنى سهم غير رجل واحد ، هو[1] الصحابى الجليل « خنيس بن حذافة بن قيس بن عدى السهمى القرشى » وكان من أصحاب الهجرتين ، هاجر إلى الحبشة مع المهاجرين الأولين إليها ، ثم إلى المدينة ، وشهد « أحدا » كذلك ، ثم مات بعدها فى دار الهجرة ، من جراحة أصابته فى « أحد » وترك من ورائه أرملته « حفصة بنت عمر بن الخطاب العدوية » .

وتألم « عمر » لابنته الشابة التى ترملت فى الثامنة عشرة من عمرها .

وأوجعه أن يلمح الترمل يغتال شبابها ويمتص حيويتها . . . وبدأ يشعر بانقباض أليم كلما دخل بيته ، ورأى ابنته فى حزنها ، فبدا له — بعد تفكير طويل — أن يختار لها زوجا ، قد تأنس إلى صحبته فتسترد بعض الذى أضاعت فى حداد استغرق ستة أشهر أو تزيد ...

ووقع اختياره على « أبى بكر الصديق » صفىّ النبى ﷺ ، وصهره ، وصاحبه ، وأول رجل آمن وبايع ...

وارتاح للفكرة ، فإن أبا بكر فى رزانة كهولته وسماحة خلقه ووداعة طبعه ، كفيل بأن يحتمل « حفصة » بما ورثت عن أبيها من شدة الغيرة وصرامة الخلق ، وما ابتلاها به الترمل من كآبة وضجر .

وأرضاه أن يصهر إلى أحب رجل إلى رسول الله ﷺ .

ولم يتردد عمر ، بل سعى من فوره إلى أبى بكر ، فحدثه عن « حفصة » والصديق يصغى فى عطف ومواساة .

---

(١) انظر السيرة : ٦/٣ وطبقات ابن سعد : ٨١/٨ ، ٣٤١ وتاريخ الطبرى : ١٧٧/٣ — وترجمة خنيس فى : طبقات ابن سعد ، والاستيعاب ، والإصابة . ومعها : وفاء الوفا : ٩٠٠/٣ . وانظره فى نسب بنى سهم فى جمهرة الأنساب ١٥٦ ، والمحبر لابن حبيب ٨٣ ، ونسب قريش ٤٠٢ .

ثم عرض عليه أن يتزوجها ، وفى يقينه أن « أبا بكر » سيرحب بالشابة التقية ، ابنة الرجل الذى أعز الله الإسلام به .

لكن « أبا بكر » أمسك لا يجيب ! ..

وانصرف « عمر » لا يكاد يصدق أن صاحبه رفض « حفصة » بعد أن عرضها أبوها عليه .

وسارت به قدماه إلى دار « عثمان بن عفان » وكانت زوجته السيدة « رقية بنت محمد » ﷺ قد مرضت بالحصبة ــ بعد عودتها من الحبشة ــ والمسلمون يلقون عدوهم فى بدر ، ثم ماتت رضى الله عنها ، بعد أن تم النصر للمؤمنين[1] .

وتحدث عمر إلى عثمان ، فعرض عليه « حفصة » وهو لا يزال يحس مهانة الرفض من أبى بكر ، وإن حاول جهده أن يكظم غيظه ، فلعل الله قد اختار لحفصة « عثمان » وهو تعالى ، يعلم أى الرجلين أصلح للأرملة الشابة .

وكان جواب عثمان أن استمهله أياما ، جاءه بعدها فقال :

« ما أريد أن أتزوج اليوم ! »[2] .

فاغتاظ « عمر » من قسوة الموقف ، ثم اشتد به الغضب ، فانطلق إلى النبى ﷺ يشكو صاحبيه ...

أمِثْل حفصة ــ فى شبابها وتقواها وشرفها ــ تُرفَض ؟

وممن ؟ من أبى بكر وعثمان ، صاحبى الرسول ﷺ وصهريه ، وأوْلَى المسلمين بأن يعرفا قدر عمر ، وأحق الصحابة بألا يردا مثله صهرا ؟

واستأذن « عمر » على النبى ﷺ ، وما يملك نفسه من غضب وقهر ،

---

(١) يأتى حديث السيدة رقية رضى الله عنها فى كتابنا « بنات النبى » ﷺ .

(٢) هذه رواية الاستيعاب « ١٨١١/٤ » والإصابة ٥١/٨ ، وعيون الأثر ٣٠٢/٢ ومعها رواية بطبقات ابن سعد من عدة طرق (٨١/٨) والسمط الثمين ٨٣ ، أن عمر عرض حفصة على عثمان ، ثم على أبى بكر ، رضى الله عنهم .

فتلقاه الرسول عليه الصلاة والسلام هاشا باشا ملاطفا ، وأقبل عليه يسأله في عطف ومودة عما يغضبه ...

ونفض « عمر » لدى النبي الكريم ما يرهقه ويقهره ، وحدثه عما كان من « أبي بكر بن أبي قحافة ، وعثمان بن عفان » ...

فتبسم ﷺ وقال :

« يتزوج حفصةَ من هو خير من عثمان ، ويتزوج عثمانُ من هي خير من حفصة »[1] .

وردَّد عمر مأخوذا بروعة المفاجأة : « يتزوج حفصةَ من هو خير من عثمان ؟ »

وأشرقت في خاطره لمحة مضيئة . أيتزوج النبي ﷺ ، ابنته حفصة ؟ ذاك والله شرف لم تتطاول إليه أمانيه .

وقام إلى المصطفى يصافحه متهللاً ، وقد زال عنه ما كان يجد من مهانة الرفض .

وخرج مسرعا ليزف إلى ابنته ، وإلى أبي بكر وعثمان ، وإلى المدينة كلها ، بشرى الخطبة المباركة .

ولقيه أبو بكر ، فما نظر إليه حتى أدرك على الفور سر تهلله وفرحه ، فمد إليه يده مهنئًا معتذرًا يقول :

« لا تَجِدْ عليَّ يا عمر ، فإن رسول الله ﷺ ، ذكر حفصَة ، فلم أكن لأفشي سر رسول الله ﷺ ، ولو تركها لتزوجتها »[2] .

ومضى كل منهما إلى ابنته :

أبو بكر ليهون على « عائشة » من وقع الخبر .

وعمر ليبشر « حفصة » بأكرم زوج .

(١ - ٢) طبقات ابن سعد : ٨٢/٨ ، والاستيعاب : ١٨١١/٤ ، والإصابة ٥١/٨ وعيون الأثر ٣٠٢/٢ ، والسمط الثمين ٨٣ .

وباركت المدينة يد النبى ﷺ وهى تمتد لتكرم عمر بن الخطاب وتأسو جراح ابنته حفصة .

كما باركت بعد قليل زواج عثمان من « أم كلثوم بنت محمد » فى جمادى الآخرة ، من السنة الثالثة للهجرة .

وتهيأ بيت النبى لاستقبال « حفصة » التى تزوجها ﷺ فى شهر شعبان ، من تلك السنة على الأرجح[1] .

أسند ابن سعد عن سعيد بن المسيب ، سيد التابعين ، وذكر حديث الخطبة : قال :

« فخار الله لهم جميعا : كان رسول الله ﷺ لحفصة خيرا من عثمان ، وكانت بنت رسول الله ﷺ لعثمان ، خيرا من حفصة »[2] .

* * *

---

(١) ابن سعد : ٨٣/٨ تاريخ الطبرى : ٩/٣ ، الاستيعاب ، الإصابة ، وفاء الوفا للسمهودى : ٩٠٠/٣ .

وأرخ الذهبى زواجها : فى شهر رمضان (العبر : وفيات السنة الثالثة للهجرة) .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٨٣/٨ .

السِرّ المُذاع

جاءت العروس ، وفى البيت « سودة » و « عائشة » .

أما « سودة » فرحبت بها راضية ، وأما « عائشة » فغاظها أن يأتيها زوجها بضرة ، وما فعل ذلك قط مع « خديجة » .

وضايقها ألا تجد فى « حفصة » مغمزا ، فهى مَنْ هى ، شبابا وتقى ، وعزة نسب ...

لقد كانت عائشة تزهو على سودة وخديجة من قبلها ، بشبابها الغض وأبيها الصاحب الأول أحد العشرة ؛ وحظ « حفصة » من هذين ، ليس بالذى ينكر أو يجحد .

و « عائشة » كانت تضيق بيوم « سودة » التى ما اكترثت لها عائشة كثيراً ، حتى تنازلت لها عنه . فكيف يكون موقفها حين يبيت زوجها عند حفصة ؟

واحتارت ماذا تفعل ، إذ كانت تقدر مغزى زواج كهذا يرضى عمر ويباركه الإسلام والمسلمون .

وسكتت على مضض وغيرة ، إلى أن وفدت على بيت النبى أزواج جديدات ، فتناست « عائشة » ما كانت تجد من « حفصة » ، وحاولت أن ترى فيها أقرب ضرائرها إليها ، وأجدرهن بأن تقف معها فى وجه الخطر المشترك .

وأدركت حفصة ، أنها إذا جاز لها أن تنكر ضرة لها ، فليس من الحق ولا من العدل أن تكون هذه الضرة هى « عائشة » وقد سبقتها إلى بيت النبى ﷺ ، وإلى قلبه .

وربما جرح شعورها أن تعرف حب المصطفى لعائشة ، لكنها حين توالت الضرائر ، وقفت دون تردد ، إلى جانب بنت أبى بكر .

وكان « عمر » يرقب ابنته حفصة فى قلق مبهم ، فيريبه هذه التقارب — غير الطبيعى — بين ابنته وبين بنت أبى بكر ، فلما استبان له ما وراء تقاربهما من ائتمار بالزوجات الأخريات ، كره لحفصة أن تساير صاحبتها وليس لها مثلُ حظها من حب الرسول ﷺ ولا مكانتها من قلبه . فأقبل على ابنته يحذرها أن تتشبه بالصبية الحبيبة ، ويردها عن جموحها بمثل قوله :

« أين أنتِ من عائشة ، وأين أبوك من أبيها ؟ »

وسمع يوما من زوجته أن ابنته تراجع الرسول ﷺ حتى يظل يومه غضبان ، فمضى من فوره حتى دخل عليها فسألها إن كان ما سمعه حقا ؟ قالت بأنه حقّ . فزجرها قائلا :

« تعلمين أنى أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله ، يا بنية ، لا يغرنَّك هذه التى أعجبها حسنها وحب رسول الله ﷺ إياها ، والله لقد علمتِ أن رسول الله ﷺ لا يحبك ، ولولا أنا لطلقك ! » متفق عليه من حديث عمر رضى الله عنه فى باب الإيلاء والتحريم .

ويمضى عن « حفصة » وفى حسابه أنه قد ردها إلى ما ينبغى لها من خضوع ومجاملة ، لكنها كانت معتدة بذاتها مدلَّة بشخصيتها ، لا ترى فى منزلة عائشة أو سواها ما يجور على مكانتها ، أو ما يلزمها بأن تتكلف ما ليس فى طبعها . بل تركت نفسها على سجيتها ، فلم تكن تتحرج من معارضة زوجها ، عليه الصلاة والسلام ، حين يبدو له من الأمر ما لا يرضيها ، وربما سمعت منه حديثا فردت عليه غير متهيبة إذا بدا لها وجه آخر فيما يقول . فى الصحيح من حديث جابر بن عبد الله الأنصارى عن أم مبشر الأنصارية ، رضى الله عنهم ، أنها سمعت رسول الله ﷺ عند حفصة ، يذكر فى أصحابه الذين بايعوه تحت شجرة الحديبية فقال : « لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد

من الذين بايعوا تحتها » قالت حفصة : بلى يا رسول الله ! فانتهرها فتلت الآية : ﴿ **وإنْ مِنْكُم إلَّا وارِدُها ، كانَ عَلىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا** ﴾ فقال النبى ﷺ : قد قال الله عز وجل : ﴿**ثُمَّ نُنَجِّى الَّذِينَ اتَّقَوا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا**﴾[1] .

ولعل إباءها هو الذى فرض عليها أن تدارى غيرتها من « عائشة » وتحاول أن تلتمس فى صحبة هذه الشابة المرحة ، ومشاركتها فى معاركها الصغيرة ومؤامراتها الذكية ، ما يشغلها عن ذاك الهم المطوى ...

ويرخى لهما النبى ﷺ ما استطاع ، ويشفع لهما عنده أنوثة ضعيفة تستثير رحمته ، وبنوتهما لأعز صاحبين .

حتى تظاهرتا عليه ، ﷺ ، فكان الهجر واعتزاله ، عليه الصلاة والسلام ، نساءه « من شدة موجدته عليهن » وفى تظاهرهما نزلت آيات التحريم .

وفى المتفق عليه من حديث عمر ، رضى الله عنه ، قال ابن عباس ، رضى الله عنهما : مكثت سنةً أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية فما أستطيع ، هيبة له ، حتى خرج حاجا فخرجت معه ، فلما رجعت وكنا ببعض الطريق عدل إلى الأراك لحاجة له فوقفت له حتى فرغ ثم سرت معه فقلت : يا أمير المؤمنين ، من اللتان تظاهرتا على النبى ﷺ من أزواجه ؟ فقال : تلك حفصة وعائشة .. » الحديث بطوله[2] .

وفى رواية لحديث ابن عباس عن عمر ، متفق عليها كذلك ، أنه سأله : يا أمير المؤمنين ، من المرأتان من أزواج النبى ﷺ اللتان قال الله تعالى : ﴿ **إن تتوبا إلى الله فقد صَغَتْ قلوبُكما ..** ﴾ ؟ قال : عجبا لك يا ابن عباس : هما

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الفضائل : من فضائل أصحاب الشجرة ، أهل بيعة الرضوان ، رضى الله عنهم . وابن سعد ، بإسناده ، فى غزوة الحديبية : الطبقات الكبرى : ٢/٧٣ ط ليدن ــ والآيتان من سورة مريم : ٧١ ، ٧٢ .

(٢) اللؤلؤ والمرجان ، ك الطلاق : الحديثان (٩٤٤ ، ٩٤٥) .

عائشة وحفصة .. » الحديث بطوله ، وفيه قال عمر : فاعتزل النبى ﷺ نساءه من أجل ذلك الحديث ، حين أفشته حفصة إلى عائشة ..[1] .

وتعددت المرويات فى السر الذى نبأت به ، وفى أسباب نزول آيات التحريم ، وقد سبق حديث عائشة ، المتفق عليه ، فى نزول التحريم فى مكثة ﷺ عند زينب بنت جحش ، تسقيه عسلاً يحبه ، فتواطأت عائشة وحفصة ، أيتهما دخل عليها ﷺ فلتقل : إنى أجد ريح مغافير ، أكلتَ مغافير ؟ أو كان التواطؤ على حفصة ، بين عائشة وسودة وصفية .

وأسند الواقدى من عدة طرق ، عن ابن عباس وعدد من الصحابة رضى الله عنهم ، أن النبى ﷺ خلا بمارية فى بيت حفصة وكانت قد خرجت ، فجاءت ومارية معه ، فبكت مقهورة فاستترضاها ﷺ بأن أسر إليها أن مارية عليه حرام ، من يومئذ ، على أن تكتُم حفصة السر ، فأنبأت به عائشة .[2] .

وفى رواية بصحيح البخارى ، أنهن تظاهرن فى طلب التوسعة فى النفقة ، وفى أخرى عن عمر رضى الله عنه قال : اجتمع نساء النبى ﷺ فى الغيرة عليه ، الحديث .

وقد خرَّج الحافظ ابن حجر حديث عمر ، وغيره ، فى التظاهر والتحريم من مختلف الطرق وقال : « والراجح من الأقوال كلها قصة مارية لاختصاص عائشة وحفصة بها ، بخلاف العسل فإنه اجتمع فيه جماعة منهن ... ويحتمل أن تكون الأسباب جميعها اجتمعت ، فأُشِيرَ إلى أهمها »[3] .

وهذا الذى رجحه الحافظ بن حجر ، هو المتداول فى كتب الفقه ، فى سبب نزول سورة التحريم[3] . وهو المتداول أيضا فى كتب التفسير . وعليه اقتصر الواحدى فى « أسباب النزول » لسورة التحريم .

(١) اللؤلؤ والمرجان ، ك الطلاق : الحديثان (٩٤٤ ، ٩٤٥) .

(٢) الطبقات الكبرى : ٨/١٨٦ — ١٨٧ .   (٣) فتح البارى : ٩/٢٣٣ .

(٤) القاضى عياض فى شرح مسلم ، على هامش ٢/١١٠٠

وفى حديث عن ابن عمر ، رضى الله عنهما : أن عمر دخل على حفصة وهى تبكى ، فقال : ما يبكيك ؟ لعل رسول الله ﷺ طلقك ، إنه طلقك وراجعك من أجلى ، والله لئن كان طلقك لا كلمتك كلمة أبدا[1] .

وفى هذا الارتجاع تختلف الروايات ، فمنها أن ذلك كان رحمةً بعمر الذى حثا التراب على رأسه وقال : « ما يعبأ الله بعمر وابنته بعدها » فنزل جبريل عليه السلام من الغد وقال للنبى ﷺ : « إن الله يأمرك أن تراجع حفصة ، رحمة بعمر » .

وفى رواية أخرى أن جبريل عليه السلام قال : « أرجع حفصة ، فإنها صوامة قوامة ، وإنها زوجتك فى الجنة »[2] .

والراجح أن هذا الطلاق الرجعى ، كان قبل تظاهرهما على النبى ﷺ ، فلما اعتزل نساءه ، كان من الطبيعى أن يكون إحساس حفصة بالذنب والندم ، أقوى وأشد من إحساس الأخريات ، فما كان لها وهى التقية العابدة أن تفشى سرا ائتمنها عليه رسول الله ﷺ ، ولا أن تقابل بالجحود ترضيته لها بتحريم حلالٍ له .

وفى حديث عمر لابن عباس ، المتفق عليه ، فى تظاهر عائشة وحفصة ، ذكر أنه كان له جار من الأنصار يتناوبان النزول على النبى ﷺ ، فيخبر كل منهما صاحبه بما حدث فى نوبته . قال عمر : وكنا قد تحدثنا أن غسان تنعل الخيل لغزونا . فنزل صاحبى الأنصارى يوم نوبته ، فرجع إلينا عشاءً فضرب بابى ضربا شديدا وقال : أثَمَّ هو ؟ ففزعت فخرجت إليه فقال : قد حدث اليوم أمر عظيم . قلت : ما هو ؟ أجاء غسان ؟ قال : لا ، بل أعظم من ذلك وأهوَل : طلق النبى ﷺ نساءه . فقلت : خابت حفصة وخسِرتْ ،

---

(١) « رواه الطبرانى ، ورجاله رجال الصحيح » (مجمع الزوائد : ٢٤٤/٩) والإصابة ، من طريق الطبرانى .

(٢) رواه الطبرانى ، ورجاله رجال الصحيح (المجمع ٢٤٤/٩) وفى ترجمتها بالاستيعاب والإصابة .

قد كنت أظن هذا يوشك أن يكون . فجمعتُ علىَّ ثيابى فصليت صلاة الفجر مع النبى ﷺ فدخل ﷺ مشربةً له ، فاعتزل فيها . ودخلت على حفصة فإذا هى تبكى ، فقلت : ما يبكيك ؟ ألم أكن حذرتُكِ هذا ؟ أطلقكن النبى ﷺ ؟ قالت : لا أدرى ، ها هو ذا معتزل فى المشربة . فخرجتُ فجئت إلى المنبر فإذا حوله رهط يبكى بعضهم ، فجلست معهم قليلا ثم غلبنى ما أجد ، فجئت المشربة التى فيها النبى ﷺ فقلت لغلام له — فى رواية مسلم : أنه رَباح — استأذنْ لعمر . فدخل فكلم النبى ﷺ ثم رجع فقال : كلمتُ النبى ﷺ وذكرتُكَ له فصَمتَ . فانصرفت حتى جلست مع الرهط الذين عند المنبر ، ثم غلبنى ما أجِدُ فجئت فقلت للغلام : استأذِنْ لعمر . فدخل ثم رجع فقال : قد ذكرتُك له فصمتَ . فرجعت فجلست مع الرهط الذين عند المنبر ثم غلبنى ما أجد فجئتُ الغلام فقلت : استأذن لعمر . فدخل ثم رجع إلىَّ فقال : قد ذكرتك له فصمت . فلما ولَّيت منصرفاً ، إذا الغلام يدعونى فقال : قد أذن لك النبى ﷺ . فدخلتُ على رسول الله ﷺ فإذا هو مضطجع على رمالِ حصيرٍ ليس بينه وبينه فراش ، قد أثر الرمال بجنبه ، متكئا على وسادة من أدَمٍ حَشوُها ليف . فسلمت عليه ثم قلت وأنا قائم : يا رسول الله ، أطلقت نساءك ؟ فرفع إلىَّ بصره فقال : « لا » فقلت : الله أكبر . ثم قلت وأنا قائم ، أستأنس : يا رسول الله ، لو رأيتنى ، وكنا معشر قريش نَغلِبُ النساء فلما قدمنا المدينة إذا قوم تغلبهم نساؤهم ؟ فتبسم النبى ﷺ . ثم قلت : يا رسول الله ، لو رأيتنى ، ودخلتُ على حفصة فقلت لها : لا يغرنَّكِ أنْ كانت جارتك أوضأ منك وأحب إلى النبى ﷺ ؟ يريد عائشة . فتبسم النبى ﷺ تبسمةً أخرى فجلست حين رأيته تبسم .. » الحديث .

واسترد عمر طمأنينته ، فما طلق نساءه وإنما هجرهن شهرا ...

ورُدَّت الروح إلى « عمر » ، فاستأذن ونزل إلى المسجد .

فبشر المسلمين : « لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه » .

* * *

وخرج النبى عليه الصلاة والسلام فتلا فيهم قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ۝٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا ۝٥ ﴾ .

صدق الله العظيم / التحريم ١ ــ ٥

* * *

الوديعة الغالية

وعت نساء النبى رضى الله عنهن هذا الدرس ، وثابت « حفصة » إلى طمأنينتها وقد كادت تهلك أسى وندما .

ولا نعرف أنها من ذلك الحين ، قد اشتركت فى مؤامرة نسوية ببيت النبى ، أو تسببت له فيما يكره ما عاش ، فلما انتقل ﷺ إلى جوار ربه الأعلى وجُمِعَ المصحف فى عهد أبى بكر . كانت « حفصة » هى التى اختيرت من بين أمهات المؤمنين جميعا ــ وفيهن عائشة ــ لتحفظ النسخة الأولى للمصحف الشريف .

ذلك أن « عمر » لما استحرَّ القتل بالصحابة يوم اليمامة ، أشار على « أبى بكر : الخليفة الأول » أن يبادر فيجمع القرآن الكريم من صحفه المتفرقة ، قبل أن يبعد العهد بنزوله ، ويمضى حفظته الأولون ، وقد استشهد منهم مئات فى حروب الردة .

فاستجاب « أبو بكر » وجمع المصحف الكريم فكانت صُحُفُه عند أبى بكر حتى توفى ، ثم عند عمر حتى قُبِض ، فأوصى إلى حفصة فكان المصحف عندها[1] رضى الله عنهم جميعا .

* * *

فى أواخر جمادى الآخرة من السنة الثالثة عشرة للهجرة ، توفى أبو بكر الصديق ، أول الخلفاء الراشدين . وتولى الخلافة من بعده ، بعهدٍ منه ، أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .

---

(١) الزركشى : البرهان فى علوم القرآن (٢٣٤/١ ط القاهرة) من طريق البخارى . مع صحيح البخارى ، ك الفضائل . وطبقات ابن سعد (٨٤/٨) .

وشهدت حفصة أمجاد أبيها ومآثره ، وفتوح الشام والعراق ومصر على عهده ...

إلى أن روعت وروع المسلمون كافة ، بالمصرع الفاجع لأمير المؤمنين عمر ابن الخطاب ، بطعنات من خنجر أبى لؤلؤة المجوسى ، فى ليالى المحاق من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين للهجرة .

وترك أمر الخلافة للستة أصحاب الشورى من كبار الصحابة ، فوليها أمير المؤمنين عثمان بن عفان . وفى عهده تم توحيد حرف المصحف ورسمه ، من المصحف المجموع المودع لدى أم المؤمنين حفصة . ونُسِخَت من المصحف العثمانى الإمام ، نُسخ وُزِّعت على الأمصار .

* * *

بعد مقتل ذى النورين عثمان رضى الله عنه ، فى ذى الحجة سنة خمس وثلاثين ، بويع أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه . وكانت الفتنة الكبرى التى خرجت فيها السيدة عائشة مع الذين كرهوا البيعة ، وقد عزمت على السيدة حفصة فى الخروج معها ، فهمت بأن تستجيب لها ، كالعهد بهما فيما مضى . لولا أن ردّها أخوها : « عبد الله بن عمر » عن الخروج فى تلك الفتنة .

* * *

وأقامت بالمدينة عاكفة على العبادة قوامة صوامة ، إلى أن توفيت فى عهد معاوية بن أبى سفيان مؤسس الدولة الأموية . وشيعتها المدينة إلى مثواها بالبقيع مع أمهات المؤمنين رضى الله عنهن[1] .

---

(١) فى سنة وفاتها خلاف ، والراجح أنها توفيت سنة سبع وأربعين . انظرها فى الطبقات والمحبر ٨٣ ، والاستيعاب والإصابة ، وفى عيون الأثر (٣٠٢/٢) . وتهذيب التهذيب ٤١٠/١٢ .

وبقى لها مع ذكراها أمّاً للمؤمنين حافظة للمصحف الشريف ، ما روت من الحديث عن النبى ﷺ ، وعن أبيها عمر رضى الله عنهما . روى عنها أخوها عبد الله وابنه حمزة ، فى عدد من حفاظ التابعين ...

* * *

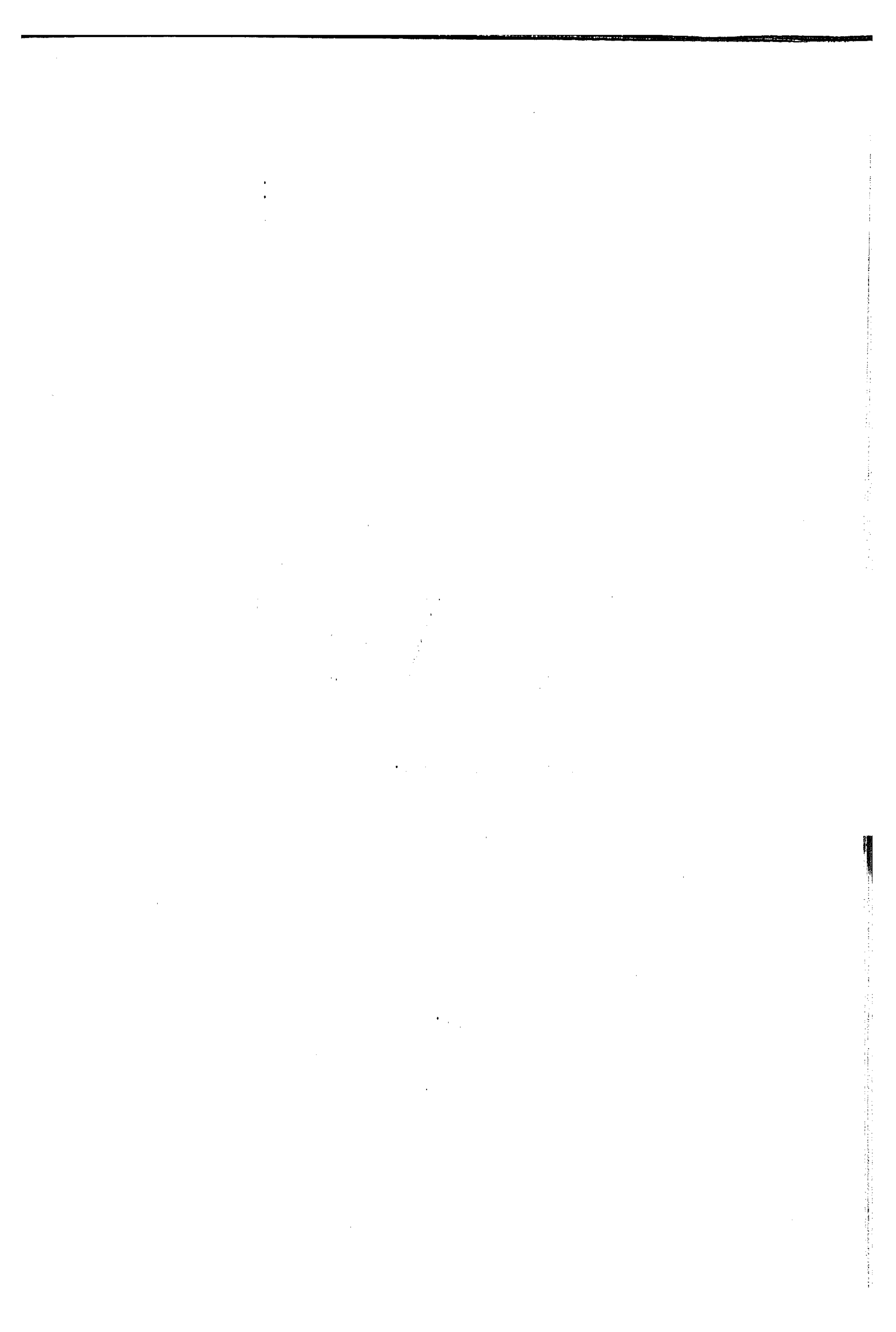
(٥)

زينب بنتُ خُزَيْمَة

أمّ المسَــاكِين

« وكانت تسمى أم المساكين لرحمتها إياهم ورقتها عليهم »

ابن إسحاق : فى السيرة النبوية



لم يكن قد مضى على دخول « حفصة » البيت المحمدى غير وقت قصير ، حين دخلته أرملة شهيد قرشى من المهاجرين الأولين ، خامسة أمهات المؤمنين : « زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبد الله بن عمرو بن عبد مناف بن هلال بن عامر بن صعصعة ، الهلالية » .

ويبدو أن قصر مقامها ببيت النبى ﷺ ، قد صرف عنها كتّاب السيرة ومؤرخى عصر المبعث ، فلم يصل إلينا من أخبارها سوى بضع روايات لا تسلم من تناقض واختلاف .

لم يختلفوا فى نسبها من جهة أبيها ، كما صرح ابن عبد البر فى ترجمتها بالاستيعاب ، بعد سياق نسبها . وهو ما أجمعت عليه مصادرنا لترجمتها أو نسبها[1] .

وأما من جهة أمها ، فأغفلته جمهرة هذه المصادر . ونقل ابن عبد البر فيها قول أبى الحسن الجرجانى على بن عبد العزيز النسابة : « وكانت زينب بنت خزيمة أخت ميمونة بنت الحارث ــ أم المؤمنين ــ لأمها » قال ابن عبد البر : « ولم أر ذلك لغيره ، والله أعلم » . وحكاه ابن سيد الناس عن ابن عبد البر ، ولم يعقب عليه .

قلت : بل ذكره كذلك ، النسابة « أبو جعفر بن حبيب » فى مبحث (أسلاف رسول الله ﷺ) من قِبَل ميمونة بنت الحارث بن حزن الهلالية . أمها : « هند بنت عوف بن الحارث بن حماطة ، الحميرية » وأخوات ميمونة

(١) الطبقات الكبرى ، ونساء الاستيعاب والإصابة . والسيرة الهشامية ٢٩٧/٤ ، وتاريخ الطبرى ١٧٩/٣ ، والمحبر لابن حبيب ٨٣ ، وجمهرة أنساب العرب ٢٦٢ ، والسمط الثمين ١١٢ ، وعيون الأثر ٣٠٢/٢ .

لأبيها وأمها : أم الفضل لبابة الكبرى أم بنى العباس بن عبد المطلب ، ولبابة الصغرى أم خالد بن الوليد ، وعزة بنت الحارث ... وأختهن لأمهن : زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبد الله الهلالية ، وأسماء بنت عميس زوج الشهيد الطيار جعفر بن أبى طالب ، خلف عليها أبو بكر الصديق ثم على بن أبى طالب ، وسلامة بنت عميس زوج عبد الله بن كعب ...

« ولا يُعلم امرأة فى العرب كانت أشرف أصهارا من هند بنت عوف ، أم ميمونة وأخواتها »[1] .

واختلفوا فيمن كانت عنده قبل النبى ﷺ ، والراجح — والله أعلم — أنها : كانت عند الطفيل بن الحارث بن عبد المطلب ، فخلفه عليها أخوه عبيدة ابن الحارث ، استشهد رضى الله عنه فى بدر ، فخلفه عليها النبى ﷺ .

وهى رواية ابن حبيب فى المحبر ، وابن سعد من طريق الواقدى ، والجرجانى النسابة — حكاه ابن عبد البر — وابن سيد الناس فى عيون الأثر ، والمحب الطبرى فى السمط ، وأحد الأقوال فى ترجمتها بالاستيعاب والإصابة .

وقيل : كانت عند الطفيل بن الحارث بن عبد مناف فطلقها ، فخلف عليها النبى ﷺ . حكاه الطبرى وابن عبد البر عن قتادة . والواقدى عن الزهرى .

وفى السيرة الهشامية قال ابن إسحاق إنها كانت عند عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، وكانت قبله عند جهم بن عمرو بن الحارث الهلالى ، وهو ابن عمها .

وفى قول رابع إنها كانت عند عبد الله بن جحش فاستشهد فى أحد ، فخلف عليها النبى ﷺ . حكاه ابن عبد البر — عن الزهرى — وابن حجر فى (الإصابة) .

---

(١) المحبر : ١٠٥ — ١٠٩ ومعه الإصابة : ٩٥/٨ .

وعن « ابن الكلبى » : كانت عند الطفيل بن الحارث فطلقها ، فخلفه عليها أخوه فقتل عنها ببدر ، فخطبها رسول الله ﷺ .

وفى الطبرى :

« وفى هذه السنة — الرابعة — تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت خزيمة من بنى هلال ، فى شهر رمضان ... وكانت قبله عند الطفيل بن الحارث فطلقها » .

واختلفوا مرة ثالثة فيمن تولى زواجها من النبى ﷺ .

فى الإصابة عن « ابن الكلبى » أن رسول الله ﷺ خطبها إلى نفسها فجعلت أمرها إليه فتزوجها ...

وفى السيرة ، رواية ابن هشام : « زوَّجه إياها عمها : قبيصة بن عمرو الهلالى ، وأصدقها ﷺ أربعمائة درهم » .

واختلفوا رابعة فى المدة التى أقامتها ببيت النبى ﷺ :

ففى الإصابة رواية تقول : « كان دخوله ﷺ بها ، بعد دخوله على حفصة بنت عمر ، ثم لم تلبث عنده شهرين أو ثلاثة وماتت » .

ورواية أخرى عن ابن الكلبى : « فتزوجها فى شهر رمضان سنة ثلاث ، فأقامت عنده ثمانية أشهر وماتت فى ربيع الآخر سنة أربع » .

وفى (العبر) قال الذهبى : « وفيها — يعنى السنة الثالثة — دخل بزينب بنت خزيمة العامرية ، أم المساكين ، فعاشت عنده ثلاثة أشهر وتوفيت » .

* * *

وكذلك اضطربت فيها نقول المحدَثين : ذكرها الدكتور هيكل باسم « زينب بنت مخزوم » فى قضية زواج زينب بنت جحش . وجزم بأنها « قد كانت زوجا لعبيدة بن المطلب الذى استشهد يوم بدر ، فلم تلبث إلا سنة أو سنتين (؟!) كما جزم بأنها « لم تكن ذات جمال »[1] .

---

(١) حياة محمد : ٢٨٨ ، ٢٩١ .

ومبلغ علمى أنه ما من مصدر مما وقفتُ عليه ، تعلق بوصف شكلها وصورتها .

وقال بودلى : « ... تبع زواجَ محمد من حفصة زواجٌ آخر ، وكان زواجا شكليا أكثر من أى شىء آخر . كانت العروس أرملة عبيدة بن الحارث ، ابن عم لمحمد سقط فى بدر ، وكان اسمها زينب بنت خزيمة ، وما ضمها محمد إلى نسائه إلا بدافع الشفقة ، وما اهتمت عائشة أو حفصة بها أبدا ، وماتت بعد زواجها بثمانية أشهر »[1] .

ولم يطل بها المقام فى بيت النبى ﷺ ، ليقال إن زواجها كان شكليا بدافع الشفقة .

* * *

على أنه مهما يختلف المؤرخون وكتَّاب السيرة فى أمر زينب بنت خزيمة ، فقد أجمعوا على وصفها بالطيبة والكرم والعطف على الفقراء ، ولا يكاد اسمها يذكر فى أى كتاب مما ذكرنا إلا مقرونا بلقبها الكريم : أم المساكين .

فى السيرة الهشامية :

« وكانت تسمى أم المساكين لرحمتها إياهم ورقتها عليهم »[2] .

وعن الزهرى ، قال : تزوج النبى ﷺ زينب بنت خزيمة ، وهى أم المساكين . سميت بذلك لكثرة إطعامها المساكين . وهى من بنى عامر بن صعصعة[3] .

وفى الاستيعاب والإصابة :

« وكان يقال لها أم المساكين ، لأنها كانت تطعمهم وتتصدق عليهم » .

ومثله فى تاريخ الطبرى[4] .

---

(١) الرسول : ١٧٦ من الترجمة العربية .
(٢) السيرة : ٢٩٦/٤ .
(٣) رواه الطبرانى ، ورجاله ثقات (مجمع الزوائد : ٢٤٨/٩) .
(٤) ٣٣/٣ .

وأحتاج إلى أن أشير هنا إلى مقال كتبه فضيلة الأستاذ « الشيخ محمد المدنى » فى مجلة الرسالة — عدد ١١٠٣ تاريخ ١٩٦٥/٣/٤ — فيه ما نصه :

« وكانت زينب بنت جحش رضى الله عنها هى أجودهن — يعنى أزواج النبى — وأبرهن باليتامى والمساكين ... حتى كانت تعرف بأم المساكين » .

والذى فى مصادرنا للسيرة وطبقات الصحابة وكتب التاريخ الإسلامى ، والأنساب ، تجمع على أن لقب أم المساكين إنما كان للسيدة « زينب بنت خزيمة » .

فلعل الوهم جاء من قول ابن الأثير فى ترجمتها بأسد الغابة : ذكر ابن منده فى ترجمتها حديث « أولكن لحوقا بى أطولكن يداً » وقد تقدم فى ترجمة زينب بنت جحش . وهو بها أليق لأن المراد بلحوقهن موتهن بعده ، ﷺ ، وهذه ، أى زينب بنت خزيمة ماتت فى حياته » .

نقله الحافظ ابن حجر فى الإصابة ، وقال : وهو تعقب قوى .

ويأتى حديث « أطولُكُنَّ يدًا » فى ترجمة أم المؤمنين زينب بنت جحش ، رضى الله عنها .

* * *

والراجح أنها ماتت فى الثلاثين من عمرها كما ذكر « الواقدى » ونقله « ابن حجر » فى الإصابة . ولم أقف على خبر عنها فى حياتها الزوجية القصيرة ، فحسبنا أن نتمثلها هناك قريرة العين بما نالت من شرف الزواج بالنبى ﷺ وأمومة المؤمنين ، منصرفة عن شواغل الحريم ، بما كان يشغلها من أمر المساكين ، قانعة بحظها من تقدير النبى ﷺ ، والمؤمنين ، لا يرهقها طمع ولا تنهكها غيرة ...

ورقدت فى سلام ، كما عاشت فى سلام . وصلى عليها النبى عليه الصلاة والسلام ، ودفنها بالبقيع فكانت أول من دفن فيه من أمهات المؤمنين رضى الله عنهن .

ولم يمت منهن فى حياته ﷺ ، غير السيدة خديجة أم المؤمنين الأولى — ومدفنها بالحجون فى مكة — والسيدة زينب بنت خزيمة الهلالية ، أم المؤمنين وأم المساكين .

* * *

(٦)

أُمُّ سَــــلَمَة

بنتُ زادِ الرَّكْبِ

« قالت أم سلمة : عجبا لك يا ابنَ الخطاب ، قد دخلت فى كل شىء حتى تبتغى أن تدخل بين رسول الله وأزواجه !

قال عمر : فأخذتنى أخذًا كسرتنى به عما كنت أجد »

(متفق عليه)

من حديث ابن عباس عن عمر

رضى الله عنهم

العِـزّة والجمَال

خلا بيت « أم المساكين » فى دور النبى ﷺ ، وقتا غير قصير ، ثم جاءت « أم سلمة » فشغلته .

اسمها : هند بنت أبى أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم : القرشية المخزومية[1] .

قالت ، فيما روى ابن سعد فى (طبقاته) من طريق الواقدى بسنده إليها :

« ... فتزوجنى رسول الله ﷺ فنقلنى فأدخلنى بيت زينب بنت خزيمة ، أم المساكين » .

إنها ضرة جديدة عزيزة ، عريقة المنبت ، ذات جمال وإباء وفطنة ، تزفها إلى بيت النبى ﷺ أمجاد طوال عراض :

أبوها : أحد وجوه قريش المعدودين ، وأجوادهم المشهورين ، وقد ذهب على الدهر بلقب « زاد الركب » أن كان إذا سافر لا يترك أحدا يرافقه ومعه زاد ، بل يكفى رفقته من الزاد .

وأمها : عاتكة بنت عامر بن ربيعة بن مالك بن جذيمة بن علقمة الكنانية ، من بنى فراس الأمجاد . وكان جدها علقمة ، يلقب بجذل الطعان .

وزوجها الذى مات عنها : عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، الصحابى ذو الهجرتين ، ابن عمة المصطفى « برة بنت عبد المطلب بن هاشم » وأخوه ، ﷺ ، من الرضاعة ، أرضعتهما ثويبة ،

---

(١) السيرة ٣٤٥/١ ، ٢٩٤/٤ ، طبقات ابن سعد ٩٢/٨ ، تاريخ الطبرى ١٧٧/٣ ، ونسب قريش ٢١٦ ، المحبر ٨٣ ، الاستيعاب ١٩٣٩/٤ ، السمط الثمين (٨٦) ، الإصابة ٢٤٠/٨ ، عيون الأثر (٨٦/٢) .

مولاة أبى لهب ، كما فى الحديث المتفق عليه عن أم حبيبة رضى الله عنها ، أنها عرضت أختها على رسول الله ﷺ ، لما بلغها أنه خطب بنت أم سلمة فقال : « لو لم تكن ربيبتى ما حلّت لى ، أرضعتنى وأباها ثويبة »[1] .

وكان لأبى سلمة ، ولزوجه هند ، إلى جانب النسب العريق ، ماض مجيد فى الإسلام ، فقد كانا من بين السابقين الأولين ، وهاجرا مع العشرة الأولين إلى الحبشة ، حيث ولدت هند هناك ابنهما « سلمة »[2] .

ثم قدما مكة ، بعد تمزيق صحيفة المقاطعة ، وقد ضرى اضطهاد قريش للمسلمين . فلما أذِنَ النبى ﷺ لأصحابه فى الهجرة إلى يثرب بعد بيعة العقبة الكبرى ، أجمع « أبو سلمة » أمره على الهجرة بأهله ، فكانت قصة خروجهما مأساة ما تزال — على بعد العهد بها وتطاول الآماد — مثيرة أليمة الوقع .

حدثت « أم سلمة » رضى الله عنها ، قالت :[3]

« ... لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة ، رحل بعيرا له وحملنى وحمل معى ابنى سلمة ، ثم خرج يقود بعيره ، فلما رآه رجال بنى المغيرة قاموا إليه فقالوا : هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتنا هذه ، علام نتركك تسير بها فى البلاد ؟

ونزعوا خطام البعير من يده وأخذونى ، فغضب عند ذلك بنو عبد الأسد ، وأهووا إلى ولدنا سلمة وقالوا لرهط زوجى :

— والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا .

---

(١) السيرة : ١٠٢/٣ والاستيعاب (٦٣٩ ، ١٦٨٢) وانظر معهما : جمهرة أنساب العرب (١٣٤) ونسب قريش (٣٣٧) . مع حديث أم حبيبة رضى الله عنها ، فى ك الرضاعة باب تحريم الربيبة وأخت المرأة (اللؤلؤ ح ٩٢٠) .

(٢) السيرة ٣٤٥/١ .

(٣) ابن إسحاق : السيرة ١١٢/٢ والنقل منها ، والسمط الثمين ٨٧ ، مع ترجمتها فى الاستيعاب والإصابة من طريق ابن إسحاق .

فتجاذبوا ابنى سلمة حتى خلعوا يده ، وانطلق به رهط أبيه ، وحبسنى بنو المغيرة عندهم .

ومضى زوجى أبو سلمة حتى لحق بالمدينة . وفُرِّق بينى وبين زوجى وابنى ، فكنت أخرج كل غداة وأجلس بالأبطح ، فما أزال أبكى حتى أمسى ، سنةً أو قريبا منها .

حتى مر بى رجل من بنى عمى ، أحد بنى المغيرة ، فرأى ما بى ، فرحمنى فقال لبنى المغيرة : ألا تخرجون هذه المسكينة ؟ فرقتم بينها وبين زوجها وبين ابنها .

وما زال بهم حتى قالوا :

ــ الحقى بزوجك إن شئت .

وردَّ علىَّ بنو عبد الأسد عند ذلك ابنى ، فرحلت بعيرى ووضعت ابنى فى حجرى ثم خرجت أريد زوجى بالمدينة ، وما معى أحد من خلق الله ...

حتى إذا كنت بالتنعيم ــ على فرسخين من مكة ــ لقيت عثمان بن طلحة[1] فقال : أين يا بنت أبى أمية ؟

قلت : أريد زوجى بالمدينة .

فقال : هل معك أحد ؟

فقلت : لا والله ، إلا الله وابنى هذا .

فقال : والله ما لك من مَتْرَك .

وأخذ بخطام البعير فانطلق معى يقودنى ، فو الله ما صحبت رجلا من العرب أراه كان أكرم منه . إذا نزل المنزل أناخ بى ثم تنحى إلى شجرة

(١) كان عثمان يومئذ على كفره ، وإنما أسلم فى هدنة الحديبية ، وهاجر قبل الفتح مع خالد بن الوليد . فلما فتحت مكة ، دفع النبى ﷺ مفاتيح الكعبة إلى عثمان بن طلحة وإلى ابن عمه شيبة بن عثمان بن أبى طلحة ، وقتل عثمان شهيدا بأجنادين فى خلافة عمر رضى الله عنهما ، وانظر ترجمته فى

فاضطجع تحتها ، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيرى فقدمه ورحله ، ثم استأخر عنى وقال : اركبى . فإذا ركبت واستويت على بعيرى ، أتى فأخذ بخطامه فقاد حتى ينزل بى . فلم يزل يصنع ذلك حتى قدم بى المدينة ، فلما نظر إلى قرية بنى عمر بن عوف بقباء — وكان بها منزل أبى سلمة فى مهاجره — قال :

إن زوجك فى هذه القرية ، فادخليها على بركة الله .

ثم انصرف راجعا إلى مكة .

فكانت أم سلمة أول ظعينة دخلت المدينة ، كما كانت من المهاجرين الأولين إلى الحبشة . وكذلك كان زوجها أبو سلمة ، عبد الله بن عبد الأسد المخزومى ، أول من هاجر إلى يثرب من أصحاب رسول الله ﷺ[1] .

* * *

وفى المدينة ، عكفت على تربية صغارها ، وتفرغ زوجها للجهاد .

ولما خرج ﷺ فى غزوة ذى العشيرة — فى جمادى الأولى من السنة الثانية للهجرة ، وهى الغزوة التى وادع فيها بنى مدلج وحلفاءهم بنى ضمرة — اختار من بين أصحابه أبا سلمة ، فاستعمله على المدينة[2] .

وشهد غزوة « بدر » الكبرى ، فكان أحد ثلاثمائة وأربعة عشر رجلا ، تمَّ بهم النصر على ثلاثة أضعافهم من المشركين ، فى أولى المعارك الحاسمة بين الوثنية والتوحيد ... ثم شهد يوم أحد ، وأبلى فيه بلاء مشهودا . ورُمىَ بسهم فى عضده مكث يداويه حتى ظن أنه التأم .

فلما أرجف المرجفون بالإسلام بعد « أحد » وبلغ النبى ﷺ بعد شهرين اثنين من المعركة ، أن بنى أسد يدعون إلى مهاجمته فى دار هجرته ، دعا إليه

(١) السيرة ٣٤٤/٢ وطبقات ابن سعد ٨٧/٨ ، والاستيعاب والإصابة ، وعيون الأثر ١١٥/١ . مع (فتح البارى ١٧٦/٧)

(٢) طبقات ابن سعد ٤/٢ ط ليدن والسيرة ٢٤٨/٢ ، وعيون الأثر ٢٢٦/١ .

« أبا سلمة » فعقد له لواء سرية إلى قطن ، وهو جبل بناحية فيد ــ ماء لبنى أسد بن خزيمة ــ ومعه مائة وخمسون رجلا ، منهم أبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبى وقاص ...

ونفذ « أبو سلمة » ما أمر به النبى ﷺ من أخذ العدو على غرة ، فأحاط بهم فى عماية الصبح على غير أهبة منهم للقتال ، وقاد معركة ظافرة ، ثم رجع وصحبه إلى المدينة سالمين غانمين ، قد أعادوا بعض ما ضيعت « أحد » من هيبة المسلمين[1] .

فى هذه السرية ، انتكأ الجرح الذى أصاب أبا سلمة يوم أحد ، فظل به حتى مات منه لثمانٍ خلون من جمادى الآخرة سنة أربع .

وحضره النبى ﷺ وهو على فراش موته ، وبقى إلى جانبه يدعو له بخير حتى مات ، فأسبل بيده الكريمة عينيه ، وكبر عليه تسع تكبيرات .

قيل له : يا رسول الله ، أسهوت أم نسيت ؟ فقال :

« لم أسه ولم أنس ، ولو كبَّرتُ على أبى سلمة ألفا ، كان أهلا لذاك »[2] .

فى صحيح الحديث عن أم سلمة أن أبا سلمة ، رضى الله عنهما ، حدثها أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « ما من عبد يصاب بمصيبة فيفزع إلى ما أمره الله به من قول : (إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم آجِرْنى فى مصيبتى وعوضنى خيرا منها) إلا آجره الله فى مصيبته وكان قمينا أن يعوضه خيرا منها » فلما هلك أبو سلمة ذكرتُ الذى حدثنى به عن رسول الله ﷺ فكنت أقول : (إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم آجرنى فى مصيبتى وعوضنى خيرا منها)

---

(١) طبقات ابن سعد : ٣٥/٢ ، عيون الأثر ٣٨/٢ .
(٢) تاريخ الطبرى : ١٧٧/٢ ، الإصابة : ٢٤٠/٨ .

ثم قلت : أنّى أُعاض خيرا من أبى سلمة ؟ وأنا أرجو أن يكون الله قد آجرنى فى مصيبتى »[1]

وأسند ابن سعد عنها أن أبا سلمة دعا لها قبل موته : « اللهم ارزق أم سلمة بعدى رجلا خيرا منى ، لا يحزنها ولا يؤذيها . فلما مات أبو سلمة قلت : من هذا الذى هو خير من أبى سلمة ؟ » وذكر الخطبة[2] .

قال ابن عبد البر ، إن أبا سلمة ، قال عند وفاته : « اللهم اخلفنى فى أهلى بخير » فأخلفه رسولَ الله ﷺ على زوجته أم سلمة فصارت أمًّا للمؤمنين ، وعلى بنيه : سلمة وعمر وزينب » ودرّة[3] .

* * *

تلبث كبار الصحابة حتى انتهت عدة « أم سلمة » فتقدم إليها منهم « أبو بكر الصديق » خاطبا ، فرفضت فى رفق .

وتلاه « عمر بن الخطاب » فلم يكن حظه منها غير حظ صاحبه .

ومن بعدهما ، بعث إليها النبى ﷺ يخطبها ، فتمنت لو يتاح لها ذاك الشرف العظيم ، لكنها أشفقت — وقد جاوزت سن الشباب ، ومعها عيال لها صغار — ألا تملأ مكانها فى بيت النبى ، إلى جانب عائشة وحفصة .

وأرسلت إلى النبى ﷺ تعتذر ، وتقول : إنها غيرى ، مُسِنَّة ... ذات عيال

فقال عليه الصلاة والسلام :

« أما أنك مسنة ، فأنا أكبر منك ، وأما الغيرة فيذهبها الله عنك ، وأما العيال فإلى الله ورسوله »[4] .

* * *

---

(1) صحيح مسلم ، ك الجنائز . وابن سعد بسنده إليها فى (الطبقات ٨٨/٨) .

(2) الطبقات الكبرى : ٨٨/٨ .

(3) الاستيعاب : ترجمة أبى سلمة : عبد الله بن عبد الأسد المخزومى رضى الله عنه .

(4) السمط الثمين : ٨٩ ، والمحبر ٨٥ ، والاستيعاب والإصابة ، وعيون الأثر ٣٠٤/٢ .

وتم الزواج فى شهره المبارك « شوال من السنة الرابعة على الصحيح »[1] .

تقول أم سلمة ، وذكرتْ إدخالها بيتَ زينب بنت خزيمة بعد وفاتها : « ... فإذا جَرَّة هناك ، فاطَّلعتُ فإذا فيها شىء من شعير ، وإذا رَحى وبرمة وقِدْرٌ نظرت فإذا فيها كعب من إهالة — شحم — فأخذت ذلك الشعير فطحنتُه ثم عصدته فى البرمة ، وأخذت الكعب من الإهالة فأدمته به ، فكان ذلك طعام رسول الله ﷺ وطعام أهله ليلة عرسه »[2] .

وتكلفت « عائشة وحفصة » ما أطاقتا من شجاعة ، لتستقبلا الزوجة الجديدة بشىء من المجاملة ، لكن « عائشة » لم تطق صبرا على هذا التكلف ، فكشفت لحفصة عما تطوى من ألم وغيرة . فى (طبقات ابن سعد) عن الواقدى ، حديث عائشة رضى الله عنها : « لما تزوج رسول الله ﷺ أم سلمة ، حزنت حزناً شديداً لما ذكر من جمالها . فتلطفت حتى رأيتها فرأيت والله أضعاف ما وُصِفَتْ به ، فذكرتُ ذلك لحفصة — وكانتا يدًا واحدة — فقالت : « لا والله ، إن هى إلا الغيرة ، ما هى كما يقولون » ... وذكرتْ كبرَ سنها ...

« فرأيتُها بعد ذلك فكانت لعمرى كما قالت حفصة ، ولكنى كنت غيرَى »[3] .

وما من شك فى أن « أم سلمة » قد سرها أن تلمح تأثير دخولها على عائشة ومن معها ، أسند الواقدى من حديث الزهرى عن هند بنت الحارث الفراسية قالت : قال رسول الله ﷺ : « إن لعائشة منى شعبة ما نزلها منى أحد » فلما تزوج أم سلمة سئل : يا رسول الله ، ما فعلت الشعبة ؟ فسكتَ : فعُرِف أن أم سلمة نزلت عنده[4] .

---

(١) الإصابة وعيون الأثر ، خلافا لما ذكره ابن عبد البر فى الاستيعاب « سنة اثنتين » ولا يصح .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٩٢/٨ .

(٣—٤) طبقات ابن سعد : ٩٤/٨ ، والإصابة من طريقه .

ولعلها ــ لذلك ــ قد رضيت أن تبعث بطفلتها الصغيرة إلى حاضنة ، كى تفرغ لواجباتها الزوجية[1] .

وفى الصحيحين حديث أم سلمة رضى الله عنها ، قالت :[2]

قلت : يا رسول الله ، هل لى من أجر فى بنى أبى سلمة أن أنفق عليهم ؟ ولست بتاركتهم هكذا وهكذا ، إنما هم بنىَّ . قال : « نعم ، لكِ أجرُ ما أنفقتِ عليهم » .

وعن عائشة رضى الله عنها ، قالت : دخل علىَّ يوما رسول الله ﷺ فقلت : أين كنت منذ اليوم ؟ قال : « يا حميراء ، كنت عند أم سلمة » فقلت : أما تشبع من أم سلمة ؟ فتبسم[3] .

* * *

وبدا واضحا أن « أم سلمة » تعرف لنفسها قدرها ، وتأبى على « عائشة » أو سواها التعرض لها بما يخدش كرامتها ، وقد أعزها مجد عتيق موروث وآخر حديث مكتسب .

وكذلك أبت على « عمر » رضى الله عنه أن يتكلم فى مراجعة أمهات المؤمنين لزوجهن المصطفى ﷺ .

فى (الصحيحين) من حديث عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، عن عمر رضى الله عنه ، قال : « والله إنْ كنا فى الجاهلية ما نعد للنساء أمرًا حتى أنزل الله فيهن ما أنزل وقسَم لهن ما قسم . فبينما أنا فى أمرٍ أتأمره إذ قالت امرأتى : لو صنعتَ كذا وكذا ؟ فقلت لها : ما لَكِ ولما هٰهنا ، فيم تكلفك فى أمرٍ أريده ؟ فقالت لى : عجبا لك يا ابن الخطاب ، ما تريد أن تُراجَع وإن ابنتك لتُراجع رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان ؟ » .

---

(١) السيرة ١٧١/٢ ، والسمط ٩٠ ، والإصابة .

(٢) متفق عليه ، اللؤلؤ والمرجان : ٢٣٤/١ ح (٥٨٥) .

(٣) الطبقات الكبرى : ٨٠/٨ .

فقام عمر فأخذ رداءه مكانه حتى دخل على حفصة فقال لها : « يا بنية ، إنك لَتُراجعين رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان ؟ فقالت حفصة : والله إنا لنراجعه . فقلتُ : تعلمين أنى أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله ﷺ . يا بنية ، لا يغرَّنْكِ هذه التى أعجبها حسنُها حبُّ رسول الله ﷺ إياها ـــ يريد عائشة : قال : ثم خرجتُ حتى دخلت على أم سلمة ، لقرابتى منها ، فكلمتها ، فقالت أم سلمة :

« عجبا لك يا ابن الخطاب ! قد دخلت فى كل شىء حتى تبتغى أن تدخل بين رسول الله وأزواجه ؟ »

قال عمر : « فأخذتنى ، والله ، أخذًا كسرتْنى به عن بعض ما كنت أجِدُ ، فخرجت من عندها » الحديث ، بطوله[1] .

وما قالت كلمتها هذه إلا وهى مدلة بمكانها عند النبى ﷺ وفى بيته ، فقد كان ﷺ يعدها من أهله : حدثوا أنه كان يوما عندها وابنتها زينب هناك فجاءته الزهراء مع ولديها الحسن والحسين رضى الله عنهم ، فضمهما إليه ، ثم تَلَا : ﴿ **رحمةُ اللهِ وبَرَكاتُهُ عليكُم أهلَ البيتِ إنهُ حميدٌ مجيد** ﴾ فبكت « أم سلمة » فنظر إليها رسول الله ﷺ وسألها فى حنو : ما يبكيك ؟ ... قالت : يا رسول الله خصصتهم ، وتركتنى وابنتى . قال : إنك وابنتك من أهل البيت[2] .

وقد شبت زينب فى رعاية النبى ﷺ ، « فكانت من أفقه نساء أهل زمانها ، ويروى أنها « دخلت على النبى ﷺ وهو يغتسل فنضح فى وجهها ، فلم يزل ماء الشباب فى وجهها حتى كبرت وعجزت[3] .

---

(١) من حديث عمر رضى الله عنه ، فى الإيلاء ومن تظاهرُنا على النبى ﷺ : متفق عليه (اللؤلؤ : ١٢٩/٢ ح ٩٤٤) .

(٢) السمط الثمين : ٢٠ .

(٣) أخرجه ابن عبد البر وابن حجر فى ترجمة « زينب » رضى الله عنها ، بالاستيعاب والإصابة .

وبلغ من إعزازه ﷺ ربيبه « سلمة » أنْ زوّجه « أُمامةَ بنت حمزة بن عبد المطلب » عمه الشهيد رضى الله عنه .

« ويقول أهل العلم بالنسب ، إن سلمة هو الذى عقد للنبى ﷺ ، على أُمِّه أم سلمة . فلما زوجه أمامة بنت حمزة بن عبد المطلب ، أقبل ﷺ على أصحابه فقال : ترون كافأته ؟[1] .

وكذلك شب أخوه عمر وأخته دُرَّة ، فى كفالة النبى ﷺ ورعايته ، فكانا مع سلمة وزينب ، من ربائبه وأهل بيته رضوان الله عليهم .

....

(١) أخرجه ابن عبد البر فى ترجمة « سلمة » بالاستيعاب . وانظر فى طبقات الصحابة : عمر بن أبى سلمة ، ودرة بنت أبى سلمة ، ربيبى النبى ﷺ .

وحىٌ ... ومشـــورَة

وكان الوحى ينزل على رسول الله ﷺ فى بيت « عائشة » فتباهى بذلك ضرائرها ، حتى جاءت « أم سلمة بنت زاد الركب » فكان مما أوحى إليه وهو عندها قوله تعالى ، فى سورة التوبة :

﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾

وفى سبب نزول الآية يروون أن النبى ﷺ ، لما غزا بنى قريظة فى السنة الخامسة للهجرة ، وحاصرهم حتى جهدهم الحصار ، قذف الله فى قلوبهم الرعب فبعثوا إلى رسول الله أن يرسل إليهم صاحبه « أبا لبابة بن عبد المنذر الأنصارى » ليستشيروه فى أمرهم . فأرسله إليهم ، فلمّا رأوه قام إليه الرجال ، وجهش إليه النساء والصبيان يبكون فى وجهه ، فرقّ لهم .

وسألوه : يا أبا لبابة ، أترى أن ننزل على حكم محمد ؟

فأجاب : « نعم ، إنه الذبح » . وأشار بيده إلى حلقه .

فما زالت قدماه من مكانهما حتى عرف أنه خان الله ورسوله .

وانطلق على وجهه ، فربط نفسه إلى عمود من عمد المسجد ، وقال : لا أبرح مكانى هذا حتى يتوب الله علىَّ مما صنعت . وعاهد الله : أن لا أطأ بنى قريظة أبدا ، ولا آوى فى بلدٍ خُنتُ الله ورسوله فيه أبداً » .

قال ابن هشام :

« ... أقام أبو لبابة مرتبطا بالجذع ست ليال ، تأتيه امرأته فى كل وقتِ صلاةٍ فتحله للصلاة ، ثم يعود فيرتبط بالجذع ... »

قال ابن إسحاق : فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره ، وكان قد استبطأه ،

قال : « أما أنه لو جاءنى لاستغفرت له . فأما إذ فعل ما فعل فما أنا بالذى أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه » ثم روى ابن إسحاق بسنده ، أن توبة أبى لبابة نزلت على رسول الله ﷺ من السحَر وهو فى بيت أم سلمة ، فقالت ، وقد سمعْته يضحك ، قلتُ :

مم تضحك يا رسول الله أضحك الله سنك ؟

قال : « تيبَ على أبى لبابة » .

قلت : أفلا أبشره يا رسول الله ؟

فقال : « بلى ، إن شئتِ » .

فقامت على باب حجرتها ، وذلك قبل أن يضرب الحجاب على أمهات المؤمنين ، فقالت : يا أبا لبابة ، أبشر فقد تاب الله عليك .

فثار الناس ليطلقوه ، فأبى وقال : لا والله حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذى يطلقنى بيده .

فلما مر رسول الله ﷺ خارجا إلى صلاة الصبح أطلقه[1] .

* * *

وفى تفسير البخارى لسورة التوبة من حديث كعب بن مالك الأنصارى ـــ أحد الثلاثة الذين خُلِّفوا وتيب عليهم ، رضى الله عنهم ـــ قال : فأنزل الله من توبتنا على نبيه ﷺ حين بقى الثلث الأخير من الليل ، ورسول الله ﷺ عند أم سلمة ، وكانت أم سلمة محسنة فى شأنى معنية فى أمرى ، فقال رسول الله ﷺ : « يا أم سلمة ، تِيب على كعب » قالت : أفلا أرسل إليه فأبشره ؟ الحديث بطوله[2] .

---

(١) السيرة ٣٤٦/٣ ـــ والنقل منها ـــ وتاريخ الطبرى ، السنة الخامسة من الهجرة ٥٤/٣ ، وعيون الأثر ٢ / ٧٠ من طريق ابن إسحاق . مع ترجمة أبى لبابة بن عبد المنذر فى الكُنى من الاستيعاب . ومن الإصابة .

(٢) صحيح البخارى : ك التفسير ، سورة التوبة . مع (فتح البارى ٢٣٨/٨) .

فى (الصحيحين) من فضائلها رضى الله عنها ، حديث أسامة بن زيد ، رضى الله عنهما ، أن جبريل عليه السلام أتى النبى ﷺ وعنده أم سلمة ، فجعل يحدث ثم قام ... » الحديث ، بطوله[1] .

* * *

فى العام السادس للهجرة ، صحبت « أم سلمة » النبى ﷺ فى رحلته إلى « مكة » معتمرا ، وهى الرحلة التى صدت فيها قريش « محمدا » وأتباعه عن دخول البلد الحرام ، وتم عهد الحديبية .

وكان « لأم سلمة » رضى الله عنها يومئذ دور جليل مذكور فى تاريخ الإسلام .

ذلك أن الصحابة دخل عليهم أمر عظيم حين بلغهم نص العهد ، ظنا منهم أنه بخس المسلمين حقهم وهم المنتصرون الغالبون . ويكفى أن نذكر من ذلك أنه لما التأم الأمر بالاتفاق على شروط الصلح ، ولم يبق إلا كتابته والإشهاد عليه ، جاء عمر بن الخطاب فقال : يا رسول الله ، ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ فقال : « بلى » فقال : أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار ؟ قال : « بلى » قال : فعَلامَ نُعطِى الدنِيَّةَ فى ديننا ؟ أنرجع ولَمَّا يحكم الله بيننا وبينهم ؟ فقال : « ابنَ الخطاب ، إنى رسول الله ولن يضيعنى الله أبدا » فانطلق عمر إلى أبى بكر فقال له مثل ما قال للنبى ﷺ ، فقال : إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبدا . فنزلت سورة الفتح فقرأها رسول الله ﷺ ، على عمر إلى آخرها ، فقال عمر : يا رسول الله ، أوَ فتح هو ؟ قال : « نعم »[2] .

---

(١) متفق عليه من حديث أسامة رضى الله عنه (اللؤلؤ والمرجان ، من فضائل أم سلمة رضى الله عنها : ح ١٥٩٤) .

(٢) متفق عليه من حديث أبى وائل شقيق بن سلمة ، عن سهل بن حنيف رضى الله عنه . والنقل من (اللؤلؤ والمرجان ، باب صلح الحديبية (ح : ١١٦٨) .

ورواه ابن إسحاق من حديث الزهرى ، بإسناده ، فى السيرة (٣٣١/٣) بتقديم وتأخير . واليعمرى فى عيون الأثر (١١٩/٢) من طريق ابن إسحاق .

فى رواية معمر عن الزهرى عن عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم ، رضى الله عنهما ، فى قضية الحديبية : أنه : (لما فرغ رسول الله ﷺ من قضيته ، قال لأصحابه : « قوموا فانحروا ثم احلقوا » فما قام منهم رجل ، حتى قال ذلك ثلاث مرات . فلما لم يقم منهم أحد قام فدخل على زوجه « أم سلمة » فذكر لها ما لقى من الناس فقالت : يا نبى الله ، أتحب ذلك ؟ اخرج ثم لا تكلم أحدا منهم كلمة حتى تنحر بَدنتك وتدعو حالقك فيحلقك . فقام فخرج فلم يكلم أحدا منهم كلمة حتى فعل ذلك : نحرَ بَدنته ودعا حالقه فحلقه . فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غماً)[1] .

قال الحافظ ابن حجر فى ترجمتها بالإصابة : « وكانت أم سلمة موصوفة بالجمال البارع والعقل البالغ والرأى الصائب . وإشارتها على النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، يوم الحديبية ، تدل على وفور عقلها وصواب رأيها » .

وثاب المسلمون إلى عقولهم بعد أن غلبتهم عليها عواطفهم ، فأدركوا أى صلح خطير عقد النبى عليه الصلاة والسلام ، وأنه ما فتح فى الإسلام فتح قبله كان أعظم منه ، فلقد دخل فى دين الله بعد الحديبية ، مثل من كان قبل ذلك وأكثر .

فكان عمر رضى الله عنه يقول : ما زلتُ أتصدق وأصوم وأصلى وأعتق ، مخافة كلامى الذى تكلمت به ، حتى رجوت أن يكون خيرا »[2] .

* * *

وكذلك صحبت « أم سلمة » النبى ﷺ فى غزوة خيبر ، وفى فتح مكة ،

---

(١) صحيح البخارى (ك الشروط ، باب الشروط فى الجهاد) وهى رواية عبد الرزاق عن معمر ، فى (المصنف ، ك المغازى ، باب الحديبية) .

(٢) ابن إسحاق عن الزهرى ، فى أمر الهدنة بالسيرة (٣٣١/٣) . مع صحيح البخارى : ك الشروط .

وفى غزو هوازن وثقيف ، وحصار الطائف ، ثم فى حجة الوداع ، سنة عشر من الهجرة .

ولا أعلم أنها ظاهرت السيدة عائشة على نساء النبى ﷺ ، إلا ما كان من غيرتها من « مارية القبطية » حين حملت من سيد البشر ، ولم تحمل منه أم سلمة وهى التى ولدت لابن عمته البنين والبنات .

فلما لطف الله بها ، وبسائر أمهات المؤمنين بعد محنة اعتزال النبى ﷺ إياهن ، ساد الهدوء الجو العام للبيت المحمدى . إلى أن مرض عليه الصلاة والسلام ، واستبطأ يوم عائشة ، فسمحت أم سلمة وسائر أمهات المؤمنين ، عن طيب خاطر ، بأن يُمرض حيث أحبَّ ، فى بيت عائشة .

* * *

اللهَ مِن وَرَاءِ هَذِهِ الأُمَّة

ثم حاولتْ من بعده ، ﷺ ، أن تتجنب الخوض فى الحياة العامة ، إلى أن كانت الفتنة الكبرى فآزرت أمير المؤمنين الإمام عليًّا ، ابن عم النبى صلى الله عليه وعلى آله ، وزوج ابنته الزهراء ، وأبا الحسن والحسين . رضى الله عنهم .

وودت لو تخرج فتنصره ، لكنها كرهت أن تبتلى وهى أم المؤمنين بمثل ذاك الخروج ، فجاءت « عليا » كرم الله وجهه وقدمت إليه ابنها عمر قائلة :

« يا أمير المؤمنين ، لولا أن أعصى الله عز وجل ، وأنك لا تقبله منى ، لخرجتُ معك . وهذا ابنى عمر ، والله لهو أعز على من نفسى ، يخرج معك فيشهد مشاهدك »[1] .

ثم مضت إلى « عائشة » فقالت لها فى إنكار :

« أى خروج هذا الذى تخرجين ؟ ... الله من وراء هذه الأمة ! .. لو سرتُ مسيرك هذا ثم قيل لى : ادخلى الفردوس ، لاستحييت أن ألقى محمدًا هاتكة حجابا قد ضربه علىَّ » .

* * *

وتقدم العمر بأم سلمة حتى امتُحنت ، كما امتحن الإسلام وأمته ، بمذبحة « كربلاء » ومصارع الإمام الحسين وآل البيت ، على الساحة المشئومة .

---

(١) شهد عمر بن أبى سلمة رضى الله عنهما يوم الجمل مع الإمام على ، كرم الله وجهه واستعمله على فارس والبحرين (الاستيعاب والإصابة) .

« توفيت رضى الله عنها بعدما جاءها نعى الحسين بن على رضى الله عنهما » على ما صح عند الحافظ ابن حجر ، وحكاه فى ترجمتها بالإصابة وتهذيب التهذيب عن أبى بكر بن أبى خيثمة وابن حبان . وحكاه القاضى عياض عن ابن أبى خيثمة وابن عبد البر . وهو أيضاً ما أثبته ابن حبيب . خلافا لقول الواقدى بوفاتها سنة تسع وخمسين[1] وردّه الحافظ ابن حجر ، فى الإصابة .

وصلى عليها « أبو هريرة » رضى الله عنه وشيع المسلمون إلى البقيع ، أم سلمة بنت زاد الركب ، آخر من مات من أمهات المؤمنين رضى الله عنهن .

* * *

حديثها عن النبى ﷺ فى الكتب الستة . وفيها كذلك ما روى ابنها سلمة وبنتها زينب ، ربيبا النبى ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم[2] .

كما روى عنها مكاتبُها نبهان ، وأخوها عامر بن أبى أمية المخزومى ، وابنُ أخيها مصعب بن عبد الله بن أبى أمية ... وخيْرة أم الحسن البصرى ، وسليمان ابن يسار ، وأسامة بن زيد ، وهند بنت الحارث الفراسية ، وصفية بنت شيبة ، وأبو عثمان النهدى وحميد الطويل وعروة بن الزبير ، وكريب مولى عبد الله ابن عباس ، فى كثرة من حُفَّاظ التابعين . . .

* * *

(1) طبقات ابن سعد : ٩٦/٨ ومعه الإصابة ، وتهذيب التهذيب (٤٥٦/١٢ : هند بنت أبى أمية المخزومية) وصحيح مسلم ، هامش (٢٢٠٨/٤) مقابلا على الاستيعاب ١٩٢٨/٤ .

(2) تراجم : هند بنت أبى أمية ، وعمر بن أبى سلمة ، وزينب بنت أبى سلمة ، رضى الله عنهم فى الإصابة وتهذيب التهذيب . وطبقات ابن سعد .

(٧)

زينب بنت جَحْش

أكرمُهنّ وليًّا وسفِيراً

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ صدق الله العظيم

سورة الأحزاب : ٣٧

« ولم أرَ امرأةً قط خيرًا فى الدينِ من زينبَ وأتقى لله وأصدق حديثا وأوصل للرحم وأعظم صدقة وأشد ابتذالا لنفسها فى العمل الذى يُتصدق به ويُتقرب به إلى الله عز وجلّ »

السيدة عائشة ، أم المؤمنين

(صحيح مسلم : ك الفضائل)

شــــريفة ومَولىٰ

حين دخلت « أم سلمة » بيت النبى ﷺ وتحدثت « عائشة » إلى « حفصة » عما تجد من لواذع الغيرة لما سمعت من جمال العروس ، لفتتها « حفصة » إلى أنها على جمالها كبيرة السن ، ثم أوصتها أن تستبقى غيرتها لمن هى أولى .

وكأنما كانت « حفصة » تنطق بظهر الغيب ، فما مضى على زواج النبى ﷺ من « أم سلمة » غير عام أو بعض عام ، حتى دخلت بيته ﷺ من هى أولى بغيرة عائشة :

« زينب بنت جحش بن رئاب بن يعمر الأسدية » الشابة الشريفة الحسناء ، من بنى أسد بن خزيمة المضرى ، وحفيدة عبد المطلب بن هاشم ، أمها « أميمة بنت عبد المطلب » عمة النبى ﷺ .

* * *

ولو كانت « زينب » قد جاءت معتزة بجمالها وشبابها وقرابتها للنبى ﷺ فحسب ، لكانت بهذا كله كفيلة بأن تثير غيرة من فى بيته من أزواج ، فكيف وقد كان زواجها بأمر الله تعالى ، فى القرآن الكريم ؟

ولا نعرف من بين أمهات المؤمنين من شغل زواجها المجتمع المدنى مثل « زينب بنت جحش » ، ذلك لما سبق هذا الزواج ، وأحاط به ، من ظروف خاصة ، وما أثاره من شبهة حسمها الوحى .

---

(١) ترجمتها فى : طبقات ابن سعد والاستيعاب والإصابة وتهذيب التهذيب . والمحبر لابن حبيب : ٨٥ ، والسيرة الهشامية ٣٩٨/٤ ، والسمط : ١٠٧ ، وعيون الأثر ٣٠٤/٢ مع : نسب قريش ١٩ ، وجمهرة الأنساب ١٨٠ .

ولبيان هذا لا بد من استطراد يسير ، نرجع به إلى ما قبل المبعث ، حين رجع « حكيم بن حزام بن خويلد الأسدى » من تجارة له ، ومعه رقيق ، فيهم غلام فى الثامنة يدعى زيدا .

وما كان « زيد » عبدا ، بل هو « زيد بن حارثة بن شراحيل بن كعب الكلبى » من كلب بن وبرة القضاعى القحطانى ، من بنى زيد اللات ، خرجت به أمه « سعدى بنت ثعلبة » لتزيره أهلها بنى معن بن طيىء ، فأصابته خيل من بنى القين بن جسر ، فباعوه بسوق من أسواق العرب ، وكان حكيم ابن حزام بن خويلد الأسدى ، هو الذى اشتراه .

وجاءت « خديجة » — وهى يومئذ زوج سيدنا محمد بن عبد الله — تزور ابن أخيها ، فعزم عليها أن تختار من شاءت من الغلمان ، فأخذت « زيداً » ورآه سيدنا « محمد » فاستوهبه منها فوهبته له راضية[1] .

وكان أبوه « حارثة بن شُراحيل » قد جزع عليه أشد الجزع ، وخرج يلتمسه حتى سمع بمكانه فى مكة ، فانطلق مع أخيه « كعب » حتى وقفا على محمد بن عبد الله ، حيث وجداه فى البيت العتيق ، فقالا له :

« يا ابن عبد المطلب ، يا ابن سيد قومه ، أنتم جيران الله ، تفكون العانى وتطعمون الجائع ، وقد جئتك فى ابننا ، فتحسن إلينا فى فدائه ؟ »

قال : « أو غير ذلك ؟ »

قالا : « ما هو ؟ » .

أجاب : « أدعوه وأُخَيِّره ، فإن اختاركما فذاك ، وإن اختارنى فو الله ما أنا بالذى أختار على من اختارنى أحداً » .

قالا : « قد زدتَ على النصفة » .

---

(١) هذه رواية السيرة : ٢٦٤/١ وتاريخ الطبرى ٢١٥/٢ وترجمة زيد فى الاستيعاب (٥٤٤/٢) وطبقات ابن سعد (٤٠/٣) ومعها رواية أخرى أن حكيم بن حزام اشتراه لعمته من سوق عكاظ بأربعمائة درهم ، فلما تزوجها سيدنا محمد وهبته له فأعتقه وتبناه قبل المبعث . وقريب منه ، ما فى السمط الثمين (١٨٠) .

ودُعىَ زيد ، فعرف أباه وعمه ، وخَيَّره سيدنا محمد : إن شاء ذهب معهما ، وإذا أحب أقام معه .

فاختار سيده !

وتوسل إليه أبوه :

« يا زيد ، أتختار العبودية على أبيك وأمك ، وبلدك ، وقومك ؟ »

فتماسك « زيد » ليجيب :

« إنى قد رأيت من هذا الرجل شيئا ، وما أنا بالذى أفارقه أبدا » .

فعند ذلك أخذ محمد بيده ، وقام به إلى الملأ من قريش فأشهدهم أنّ زيدا ابنه وارثا وموروثا .

ودعى الغلام « زيد بن محمد » .

وغداة ليلة القدر ، كان زيد فى الأربعة الأولين السابقين إلى الإسلام .

وعندما آخى النبى ﷺ بين أصحابه المهاجرين ، كان زيد وحمزة بن عبد المطلب الهاشمى ، أخوين .

فلما بلغ « زيد » سن الزواج ، اختار له النبى عليه الصلاة والسلام بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب : « زينب بنت جحش » .

وكرهت زينب ، وكره أخوها « عبد الله بن جحش » أنّ تزف الشريفة المضرية إلى مولى ، رغم أصله العربى الصريح أبًا وأمًّا . حتى نزل فيهما قوله تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ لِمؤمنٍ ولَا مؤمنةٍ إذا قضَى اللَّهُ ورسولُه أمرًا أن يكونَ لهمُ الخِيَرةُ مِن أمرِهم ، ومَن يعصِ اللَّهَ ورسولَهُ فقد ضَلَّ ضلالًا مبينًا** ﴾[1] .

وتزوجت « زينب » زيدا ... طاعةً لأمر الله ورسوله ، وإلزاما بالمبدأ الإسلامى : لا يتفاضل فيه الناس إلا بالتقوى .

(١) سورة الأحزاب : آية ٣٦ .

زواجٌ بأمرِ الوَحْى

لكن حياة الزوجين لم تصفُ لهما ، فما نسيت « زينب » قط أنها الشريفة لم يجر عليها رق ، ولا أساغت أن تكون تحت مولى كهذا ، دخل بيت آلها رقيقا !

وقاسى « زيد » من صدها وترفعها ما جعله يشتكى إلى النبى ﷺ غير مرة ، ما يجد من سوء معاملة زينب ، فكان يوصيه بمزيد من الصبر والاحتمال ، حتى أذن الله تعالى ففارقها زيد ، وتزوجها ابن خالها ، صلى الله عليه وسلم ، بأمر الوحى .

وفى طلاقها ثم زواجها ، مرويات شتى ما كنت لأتشاغل بها ، لولا أنها عُزِيت بأخَرَة إلى من خاضوا فيها من أعداء الإسلام ، من المبشرين والمستشرقين . وصُرفتْ عن الرواية الإسلامية ، وكأن فيها ما يريب !

فى رواية لابن سعد والطبرى من طريق الواقدى ، أن النبى صلى الله عليه وسلم جاء بيت زيد يطلبه فلم يجده ، وقامت إليه زينب فُضُلا فأعرض صلى الله عليه وسلم عنها ، فقالت : ليس هو ها هنا يا رسول الله فادخل بأبى أنت وأمى . وأبَى رسول الله أن يدخل . وإنما عجِلتْ إليه زينب لما قيل لها : رسول الله صلى الله عليه وسلم على الباب ، فولّى وهو يهمهم بشىء لا يكاد يُفهَم منه ، إلاّ أنه ربما أعلن : « سبحان الله العظيم ، سبحان مصرف القلوب » وجاء زيد إلى منزله فأخبرته امرأته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى منزله . فقال زيد : ألا قلتِ له أن يدخل ؟ قالت : قد عرضتُ عليه فأبى .. فخرج زيد حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول

الله ، بلغنى أنك جئت منزلى ، فهلاً دخلت بأبى أنت وأمى .. ؟ ثم سأله ، كما كان يسأله من قبل : فأفارقها ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « أمسِكْ عليكَ زوجَك » فما استطاع زيد مع زينب صبرا ، فكان يأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيخبره ، فيقول له : « أمسك عليك زوجك » ..[1]

وفى رواية أخرى للطبرى ، من طريق يونس بن عبد الأعلى ، الصدفى المصرى ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « خرج يوما يريد زيدًا ، وعلى الباب سِتْر من شعر ، فرفعت الريح الستر وزينب فى حجرتها ، وانصرف صلى الله عليه وسلم ، لم يدخل . فجاءه زيد فقال : يا رسول الله ، أريد أن أفارق صاحبتى . فقال : « ما لَكَ ؟ أرابَكَ منها شىء ؟ فقال : لا والله يا رسول الله ، ما رابنى منها شىء ولا رأيتُ إلا خيرا . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمسكْ عليك زوجك واتّقِ الله » فذلك قول الله عز وجل : **﴿ وإذ تقولُ لِلَّذِى أنْعَمَ اللهُ عليهِ وأنعمْتَ عليهِ أمْسِكْ عليكَ زوجَكَ واتَّقِ اللهَ ، وتُخفِي فى نفسِكَ ما الله مُبْدِيه ﴾**[2] ..

وتأول « الزمخشرى » الآية ، من سورة الأحزاب فنحا بها منحًى صريح الاعتزال ، على ما يأتى فى موضعه من هذا العرض ..

هل يجدى أن نقذف بهذه المرويات جملة ونرمى بها المستشرقين والمبشرين ، ونحملها على زور مفترياتهم ، مع وجودها مدونة فى كتب إسلامية مبكرة ، كطبقات ابن سعد ، ومحبر ابن حبيب ، وتاريخ الطبرى ومعجم الطبرانى وكشاف الزمخشرى ؟!

أغلب الظن أن « الدكتور محمد حسين هيكل » لم يقف على هذه المرويات ، فذهب إلى أنها ــ يقينا ــ من مفتريات المستشرقين والمبشرين :

---

(١) طبقات ابن سعد (١٠١/٨) والنقل منه ، وتاريخ الطبرى ، السنة السادسة (٤٢/٣ ط أولى ، حسينية) من طريق الواقدى ، ونحوه فى المحبر (٨٥) والسمط ١٠٨ .

(٢) تاريخ الطبرى ٤٣/٣ . والنقل منه ، والطبرانى فى زوائده بمجمع نور الدين الهيثمى .

« الذين أضفوا عليها من أستار الخيال حتى جعلوها قصة غرام ووله ، وأنه يكفى لهدم كل القصة من أساسها أن تعلم أن زينب بنت جحش هذه ، هى ابنة عمة رسول الله عليه الصلاة والسلام .. و .. وأنه كان يعرفها ويعرف أهى ذات مفاتن أم لا ، قبل أن تتزوج زيدا .. وأنه الذى خطبها على زيد مولاه . إذا عرفت ذلك تداعت أمام نظرك كل تلك الخيالات والأقاصيص : من أنه مرَّ ببيت زيد ولم يكن فيه فرأى زينب فبهره حسنها وقال : سبحان الله مقلب القلوب . أو أنه لما فتح باب زيد عبث الهواء بالستار على غرفة زينب فألفاها فى قميصها وكأنها مدام ريكاميه . فانقلب فجأة ونسى سودة وعائشة وحفصة وزينب بنت مخزوم وأم سلمة » .[1]

وكان يكفى الدكتور هيكل القول بأن هذا الزواج لم يدفع إليه ميل ولا عاطفة ، وإنما أراد أن يأتمر بكم الله فيما أبطل من الحقوق المقررة للتبنى والادعاء ، ثم أشفق مما يمكن أن يقول الناس فى خرقه لعادة لهم قديمة متأصلة ، فلم يرضَ له الله أن يخفى فى نفسه ما الله مبديه ، ويخشى الناس والله أحق أن يخشاه . .[2]

لكنه أضاف :

« أفيبقى بعد ذلك أثر لهذه الأقاصيص التى يكررها المستشرقون والمبشرون .

« ولكنها شهوة التبشير المكشوف تارة ، والتبشير باسم العلم أخرى ، والخصومة القديمة للإسلام تأصلت فى النفوس منذ الحروب الصليبية ، هى التى تملى على هؤلاء جميعا ما يكتبون »[3]

ولا حيلة لنا فى عزو هذه المرويات إلى المبشرين ، مع وجودها فى كتب لقدامى المؤرخين والمصنفين والمفسرين المسلمين ، مطبوعة متداولة بين

---

(١) حياة محمد : ٢٩١ : وقوله « زينب بنت مخزوم » فيه وهم ، فهى بنت خزيمة الهلالية ولم تدرك زواج زينب بنت جحش ، بل توفيت قبله بزمن .

(٢ - ٣) حياة محمد ، صلى الله عليه وسلم : ٢٩٢-٢٩٤ .

الدارسين والقراء . لهذا قدَّرتُ أن فحص هذه المرويات ونقدها ، إسنادًا ومتنًا ، أَوْلى من إنكارها وحملها على شهوة التبشير ومفتريات الاستشراق .

رواية الواقدى ، فى طبقات ابن سعد ، عن الستر الذى حركته الريح ، قال فيها الحافظ ابن حجر : « وسنده ضعيف »[1]

وهى عند الطبرى من طريق الواقدى ، ومعها الرواية الأخرى من طريق ابن عبد الأعلى الصدفى ، وكلتاهما من مراسيل التابعين . وقد اقتصر الطبرى على ذكرهما فى (تاريخه) ولم يشر إليهما فى (تفسيره) لسورة الأحزاب .

وما رواه الطبرانى ، خرجه نور الدين الهيثمى من زوائده قال : « بسند مرسل ، وفى بعض رجاله ضعف »[2]

وتأوُّل الزمخشرى مشوب بمنحى المعتزلة ، قال : « فإن قلت : ما الذى أخفى فى نفسه ؟ قلتُ : تعلق قلبه بها . وقيل : مودة مفارقة زيد إياها . فإن قلت : كيف عاتبه الله فى ستر ما استهجن التصريح به ؟ .. قلتُ : كم من شيء يحتفظ منه الإنسان ويستحى من اطلاع الناس عليه وهو فى نفسه مباح متسع وحلال مطلق ، لا مقال فيه ولا عيب عند الله ... لأن طموح قلب الإنسان إلى بعض مشتهياته غير موصوف بالقبح فى العقل ولا فى الشرع ، لأنه ليس بفعل الانسان ، ولا وجوده باختيار »[3] .

وذلك ، منه ، صريح اعتزال .

قال القاضى عياض :

« ... فإن قلتَ : فما معنى قوله تعالى فى قصة زيد : ﴿ **وإذ تقولُ لِلّذى أنعم اللهُ عليه وأنعمتَ عليه أمسِكْ عليكَ زوجَك** ﴾ .. الآية ، فاعلم أكرمَكَ الله ، ولا تسترب فى تنزيه النبى ﷺ من هذا الظاهر ، وأن يأمر زيدًا

---

(١) فتح البارى : ٣٢١/١٣ ط أولى .
(٢) مجمع الزوائد : ٢٤٧/٩ ط بيروت .
(٣) تفسير الكشاف : سورة الاحزاب جـ ٢٣٧/٣ ط التجارية .

بإمساكها وهو يحب تطليقه إياها كما ذكر عن جماعة من المفسرين . وأصحُّ ما فى هذا ما حكاه أهل التفسير عن على بن حسين ، أن الله تعالى كان أعلَمَ نَبِيَّه أن زينب ستكون من أزواجه ، فلما شكاها إليه زيد قال له : « أمسك عليك زوجك واتق الله » ، وأخفى منه فى نفسه ما أعلمه الله به من أنه سيتزوجها ، مما اللهُ مُبديه ومُظهره بتمام التزويج وطلاق زيد لها . وروى نحوَه عمرو بن فائد ـــ الأسوارى ـــ عن الزهرى .. ويوضح هذا أن الله لم يُبدِ من أمره معها غير زواجه لها ، فدلَّ أنه الذى أخفاه ﷺ .. ولو كان على ما رُوِى فى حديث قتادة من وقوعها فى قلب النبى ﷺ عندما أعجبته ، ومحبته طلاق زيد لها ، لكان فيه أعظم الحرج وما لا يليق به من مدّ عينيه لما نُهِىَ عنه من زهرة الحياة الدنيا . ولكان هذا نفس الحسد المذموم الذى لا يرضاه ولا يتسم به الأتقياء فكيف سيد الأنبياء ؟ قال القشيرى : وهذا إقدام عظيم من قائله وقلة معرفة بحق النبى ﷺ وفضله . وكيف يقال : رآها فأعجبته ، وهى بنت عمته ولم يزل يراها منذ ولدت ولا كان النساء يحتجبن منه ﷺ ، وهو زوَّجها لزيد ؟ وإنما جعل الله طلاق زيدٍ لها وتزويج النبى ﷺ إياها ، لإزالة حرمة التبنى وإبطال سنته ، كما قال عز وجل : **﴿ ما كان محمدٌ أبَا أحدٍ من رجالِكم ﴾** . وقال : **﴿ لكيلا يكونَ على المؤمنين حَرَجٌ فى أزواجِ أدعيائهم ﴾** وقد قيل : كان أمره لزيد بإمساكها قمعاً للشهوة وردًّا للنفس عن هواها . وهذا إذا جوَّزنا عليه أنه رآها فجأة واستحسنها . ومثلُ هذا لا نُكرةَ فيه ، لما طُبِعَ عليه ابنُ آدم من استحسانه الحسنَ ، ونظرةُ الفُجْاءة معفو عنها ، ثم قمع نفسَه عنها وأمر زيدا بإمساكها . وإنما تُنكَر تلك الزيادات التى فى القصة ، والأَوْلى ما ذكرناه عن على بن حسين . وحكاه السمرقندى ، وهو قول عطاء ، واستحسنه القاضى القشيرى ، وعليه عوَّل أبو بكر بن فورَك وقال إنه معنى ذلك عند المحققين من أهل التفسير ، قال : والنبى ﷺ منزه عن النفاق وإظهار خلاف ما فى نفسه ، وقد نزهه الله عن ذلك بقوله : **﴿ ما كان على النبىّ من حَرَجٍ فيما فَرض اللهُ له ﴾** .. قال : وليس معنى

الخشية هنا الخوف ، وإنما معناه الاستحياء ، أى يستحيى منهم أن يقولوا : تزوج زوجة ابنه ، وأن خشيته ﷺ من الناس ، كانت من إرجاف المنافقين واليهود وتشغيبهم على المسلمين بقولهم : تزوج زوجة ابنه بعد نهْيِه عن نكاح حلائل الأبناء كما كان ، فعتبه الله على هذا ، ونزهه عن الالتفات إليهم فيما أحلهّ اللهُ له ، كما عتبه على مراعاة رضى أزواجه فى (سورة التحريم) بقوله : ﴿ **لِمَ تحرم ما أحَلَّ الله لك** ﴾ الآية . كذلك قوله له هٰهنا : ﴿ **وتخشَى الناسَ واللهُ أحقُّ أن تخشاه** ﴾ .»[1] .

* * *

بعد فحص النظار لما مَّر من مرويات ، ونقد القاضى عياض ــ عالم المغرب المتوفى بمراكش سنة ٥٤٤ هـ ــ أضيفُ من مصادرنا الموثقة ، مما صح عند حفاظنا الأئمة فى هذه القضية :

أخرج الإمام البخارى فى كتاب التوحيد من (صحيحه) حديث أنس ابن مالك رضى الله عنه ، قال : « جاء زيد بن حارثة يشكو فجعل النبى ﷺ يقول : « اتّقِ الله وأمسِكْ عليك زوجك » قال أنس : لو كان رسول الله ﷺ كاتما شيئا لكتم هذا الحديث .

وفى تفسير آية الأحزاب : « ... وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه » أسند البخارى عن أنس ، رضى الله عنه : أنها نزلت فى شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة » رضى الله عنهما .

وقد استوفى الحافظ ابن حجر فى هذا الموضع من كتاب التفسير بصحيح البخارى ، تخريج حديث أنس من مختلف طرقه ومختلف رواياته ، ثم قال : « ووردت آثار أخرى أخرجها ابن أبى حاتم والطبرى ، ونقلها كثير من المفسرين لا ينبغى التشاغل بها . والذى أوردته عنها هو المعتمد . والحاصل

---

(١) القاضى عياض : الشفا (٢/١٦٦ ــ ١٦٨) ط الحلبى ١٣٦٩ هـ ــ ١٩٥٠ م .

أن الذى كان يخفيه النبى ﷺ ، هو إخبار الله إياه أنها ستصير زوجته . والذى كان يحمله على إخفاء ذلك ، خشيةُ قولِ الناس : تزوج امرأة ابنه . وأراد الله إبطال ما كان أهل الجاهلية عليه من أحكام التبنى ، بأمرٍ لا أبْلَغَ فى الإبطال منه ، وهو تزوج امرأةِ الذى يُدعَى ابنًا ، ووقوعُ ذلك من إمام المسلمين ليكون أدعى لقبولهم ، وإنما وقع الخبطُ فى تأويل متعلق الخشية ، والله أعلم »[1]

* * *

لم يبق مجالٌ لقول ، مع قوله عز وجل فى آية الأحزاب فى تمام سياقها :

﴿ وإذْ تقولُ لِلَّذِى أنعمَ اللهُ عَليهِ وأنعمتَ عليهِ أمسِكْ عَلَيْكَ زوجَكَ واتّقِ اللهَ ، وتُخفِى فى نفسِكَ مَا الله مُبْديهِ وتَخْشَى الناسَ واللهُ أحَقُّ أن تخشاهُ ، فلما قَضَى زيدٌ منها وَطَراً زوَّجناكَها لِكَىْ لا يكونَ علَى المؤمِنينَ حَرَجٌ فى أزواجِ أدْعِيائِهم إذَا قضَوا منهنَّ وطَرًا ، وكانَ أمرُ اللهِ مفعولًا ﴾ — ٣٧ .

صدق الله العظيم

(١) فتح البارى ٣٧١/٨ ، وقابل على : الاستيعاب ١٨٤٩/٤ ، وتفسير الطبرى ٧٥/٢١ ، والإصابة ٩٢/٨ ، وعيون الأثر ٣٠٤/٢ .

وَلِيمَةٌ .. وحِجَاب

فى صحيح الحديث عن ثابت البُنانى عن أنس رضى الله عنه ، قال : لما انقضت عِدَّةُ زينب قال رسول الله ﷺ لزيد : « فاذْكُرْها علىَّ » فانطلق زيد حتى أتاها وهى تُخَمِّر عَجِينَها ، قال : فلما رأيتُها عظُمتْ فى صدرى حتى ما أستطيع أن أنظر إليها ، أنَّ رسول الله ﷺ ذكرها . فوليتُها ظهرى ونكصتُ على عَقِبى فقلت : يا زينب ، أرسل رسول الله ﷺ يذكرك . قالت : ما أنا بصانعة شيئا حتى أوامِرَ ربى . فقامت إلى مسجدها ، ونزل القرآن . وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن » . قال أنس : ولقد رأيتُنا أنِ رسول الله ﷺ أطعمنا الخبز واللحم حين امتد النهار ، فخرج الناس وبقى رجال يتحدثون فى البيت بعد الطعام . فخرج رسول الله ﷺ واتبعتهُ فجعل يتتبع حُجَر نسائه يسلم عليهن ، ويقُلْن : كيف وجدت أهلك ؟ فما أدرى ، أنا أخبرته أن القوم خرجوا ، أو أخبرنى ؟ فانطلق حتى دخل البيت فذهبتُ أدخل معه فألقى الستر بينى وبينه ، ونزل الحجاب » .

وفى رواية لمسلم ، نزلت آية الحجاب : ﴿ **لا تدخُلوا بيوتَ النبِّى إلا أن يُؤذَنَ لكم إلَى طعامٍ غيرَ ناظرين إناهُ** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **واللهُ لا يَسْتحِيى منَ الحقِّ** ﴾[1]

(١) صحيح مسلم : ك النكاح ، باب زواج زينب : ح ٨٩/١٤٢٨) مع حديث أنس فى المتفق عليه ، فى (اللؤلؤ ك النكاح ، ح ٩٣) وابن سعد فى ترجمتها بالطبقات من عدة طرق ، والاستيعاب والإصابة .

وعن ثابت عن أنس رضى الله عنه ، قال : ما رأيتُ رسول الله ﷺ أوْلَم على امرأة من نسائه ما أوْلم على زينب ، فإنه ذبح شاة »[1] .

وفى (الصحيحين) عن أنس رضى الله عنه ، أن أُمَّه « أم سليم الأنصارية » عمدت إلى تمر وسمن وأَقِط فاتخذت طعاما فى بُرْمة ، فأرسلت بها معه إلى النبى ﷺ ، هديةً له يوم عرسه بزينب . فانطلق بها أنس فأمره ﷺ أن يضعها ، وأن يدعو رجالا سماهم ، قال : « وادعُ لى من لقيت » . قال أنس : ففعلت الذى أمرنى ، فرجعت فإذا البيت غاصٌّ بأهله ، فرأيت النبى ﷺ وضع يديه على تلك الحَيْسَة — الطعام — وتكلم بها ما شاء الله ، ثم جعل يدعو عشرة عشرة يأكلون منه ويقول لهم : « اذكروا اسم الله وليأكُلْ كل رجل مما يليه » حتى تصدعوا جميعا فخرج منهم من خرج وبقى نفر يتحدثون » .. الحديث بطوله ، وفيه أنه ﷺ لما رجع وأرخى الستر سمعه أنس يتلو :

﴿ يٰأيها الذينَ آمنوا لاَ تدخُلوا بيوتَ النبِّى إلا أن يُؤذَنَ لكم إلى طعامٍ غيرَ ناظِرِينَ إناهُ ، ولٰكن إذا دُعِيتُمْ فادخُلوا ، فإذا طَعِمتُم فَانْتِشروا ، ولاَ مُستأنِسينَ لحديثٍ ، إنَّ ذٰلكم كانَ يؤذِى النبَّى فيستَحيِى منكم ، واللّهُ لا يستحيِى منَ الحقِّ ﴾[2] الآية .

ومن يومئذ ، فُرض الحجاب على نساء النبى ، وعلى المؤمنات جميعا ، آية تصوُّنٍ وعزةٍ ، وسمةَ كرامةٍ وترفُّعٍ عن الابتذال ...

* * *

كانت العروس يوم تزوجها النبى ﷺ فى السنة الخامسة على أرجح

---

(١) مسلم ، ك النكاح (ح ٩٠) .

(٢) الحديث متفق عليه من حديث أنس رضى الله عنه . واللفظ من (اللؤلؤ والمرجان : ك النكاح ، باب زواج زينب بنت جحش ونزول الحجاب وإثبات وليمة العرس) والآية من سورة الأحزاب : ٥٣ .

الأقوال ، بنت خمس وثلاثين سنة .[1]

وكان اسمها « بَرَّة » فسماها ﷺ زينب ، وفى (الصحيحين) حديث زينب بنت أبى سلمة ، ربيبة النبى ﷺ ، قالت رضى الله عنها :

« كان اسمى برَّة ، فسمانى رسول الله ﷺ زينب . ودخلتْ عليه زينب بنت جحش واسمُها بَرَّة ، فسماها زينب »[2] .

* * *

(١) الإصابة ، عن الواقدى : ٩٣/٨ ، وعيون الأثر ٣٠٤/٢ .

(٢) متفق عليه واللفظ من صحيح مسلم ١٦٨٧/٣ : ح (٢١٤٢) مع (اللؤلؤ والمرجان ٤٧/٣) .

أكرمُهنَّ وَليًّا وسَفِيرًا

ودخل محمد ﷺ ببنت عمته ، التى زوجه إياها الله تعالى .

وباتت « عائشة » ليلتها فريسة الغيرة ، قد أخذها ـــ فيما قالت ـــ « ما قُرب وما بعُد ، لما تعرف من جمال زينب ، ولما هى حَرِيَّة أن تفخر به من صنع الله لها » .

وكذلك غارت نساء النبى رضى الله عنهن ، وضقن بهذه العروس الجديدة : تعتز بجمال وشرف وقربى من رسول الله ﷺ ، وبأن الله هو الذى زوجها .

وفى حديث أنس ، رضى الله عنه ، بكتاب التوحيد من صحيح البخارى ، قال : « ... فكانت زينب تفخر على أزواج النبى ﷺ ، تقول : زوجكن أهاليكن ، وزوجنى الله تعالى من فوق سبع سموات »[1]

وفى رواية ، قالت : « أنا أكرمُكن وليا ، وأكرمكن سفيرا : زوجكن أهلكن ، وزوجنى الله من فوق سبع سماوات ! »[2]

وعدّ ابن حبيب زواجها ، فى مناقب قومها بنى أسد[3] .

وإذا كانت « أم سلمة » قد سرها أن ترى أثر دخولها على عائشة ، الزوج المفضلة ، فلا ريب أن زينب قد أرضاها أن تجىء فتتقدم « أمَّ سلمة » ، غريمة لعائشة !

---

(١) معه (فتح البارى : ٣٢/١٣) .
(٢) طبقات ابن سعد : ٧٣/٨ ، المحبر ٨٦ ، الاستيعاب ، الإصابة ، عيون الأثر .
(٣) المحبر : ٨٦ .

ولم تكتم عائشة غيرتها من زينب ، كما لم تكتمها من أم سلمة ، بل اعترفت بأنهما : « كانتا أحب نسائه إليه — فيما أحسب — بعدى » .

ثم تؤثر زينب وحدها بمنافستها فى الحظوة فتقول : « لم تكن واحدة من نساء النبى تناصينى غير زينب »[1] .

أى تنازعنى وتبارينى ، من قولك : ناصيت فلانا اذا أخذت بناصيته ونازعته .

وقد مر بنا ما كان من ضيق « عائشة » بميله ﷺ إلى زينب « وإطالته المكث لديها » ثم تآمرها مع حفصة وسودة ، أيتهن دخل عليها ﷺ إثر انصرافه من عند زينب ، فلتقل له : « إنى أجد ريح مغافير »[2] .

وكان يحدث أحيانا أن تحتدم بينهما المنافسة فى حضرته ﷺ ، فيدعهما وشأنهما لعل فى هذا راحة لهما وتنفيسا عن مشاعرهما . وقد استطاعت « عائشة » مرة أن تغلب « زينب » فما زاد ﷺ على أن تبسم وقال :

« إنها ابنة أبى بكر »[3] .

....

وحدث مرة أخرى ، أن أفلت لسان « عائشة » بكلمة غضب لها المصطفى ، فقد تلقى هدية وهو فى بيتها ، فأرسل إلى كل زوجة نصيبا منها . لكن زينب ردَّت ما جاءها ، فلم تملك عائشة أن قالت كلمة جارحة ، فقام عنها ، ﷺ ، مغضبا .[4]

* * *

(١) السيرة ٣١١/٣ ، الاستيعاب ، الإصابة .

(٢) حديث العسل والمغافير متفق عليه (اللؤلؤ ١٢٧/٢) وقد مرَّ ، مع : السيدة عائشة ، والسيدة حفصة رضى الله عنهما .

(٣) أخرجه البخارى فى المناقب ، ومسلم فى باب فضائل السيدة عائشة رضى الله عنها (ح : ٤٤٢)

(٤) طبقات ابن سعد : ١٨٨/٨ ، والسمط الثمين : ٤٠ ، وانظر فيه (فتح البارى ٢٣٢/٩) .

وأطولُهنَّ يـدًا

على أن هذه الخصومة المحتدمة بين الزوجتين الأوليين ، لم تمنع « زينب » من الدفاع عن « عائشة » فى محنة الإفك ، وقد ذكرت لها عائشة هذا الموقف النبيل فقالت فى رواية ابن إسحاق من طريق الزهرى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها :

« وكان كِبر ذلك ــ الإفك ــ عند عبد الله بن أُبَىّ ابن سلول فى رجال من الخزرج ، مع الذى قال مسطح وحمنة بنت جحش . وذلك أن أختها زينب كانت عند رسول الله ﷺ ، ولم تكن امرأة من نسائه تناصينى فى المنزلة عنده غيرها ... فأما زينب فعصمها الله تعالى بدينها فلم تقل إلا خيرا ، وأما حمنة بنت جحش فأشاعت من ذلك ما أشاعت تضارنى لأختها ، فشقيتْ بذلك »[1] .

وفى رواية عن عائشة رضى الله عنها ، قالت : وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش عن أمرى ، فقال لزينب : « ماذا علمتِ أو رأيت ؟ » قالت : يارسول الله ، أحمى سمعى وبصرى ، والله ما علمت إلا خيراً . قالت عائشة : وهى التى كانت تساميني من أزواج النبى ﷺ فعصمها الله بالورع وطفقت أختها حمنة تحارب لها فهلكتْ فيمن هلك . »[2]

أجل عصمها الله تعالى بدينها ، وقد كانت « زينب » رضى الله عنها صالحة تقية ، ورعة . .

---

(١) السيرة ٣ / ٣١٢ ، مع حديث الإفك ، رواية الزهرى ، فى الصحيحين .

(٢) متفق عليه ، والنقل من اللؤلؤ ، ك التوبة : ح ١٧٦٣ .

شهدت لها بذلك غريمتها السيدة عائشة فقالت :

« و لم أر امرأة قط خيرا فى الدين من زينب ، وأتقى لله ، وأصدق حديثا ، وأوصل للرحم ، وأعظم صدقة ، وأشد ابتذالا لنفسها فى العمل الذى يتصدق به ويتقرب به الى الله عز وجل »[1] .

وأسند أبو عمر فى الاستيعاب عن عبد الله بن شداد الليثى أن رسول الله ﷺ قال لعمر بن الخطاب : « إن زينب بنت جحش أواهة » فقال رجل : يا رسول الله : ما الأواه ؟ ...

قال : الخاشع المتضرع . ثم تلا عليه الصلاة والسلام : ﴿ **إنَّ ابراهيمَ لَحليمٌ أوَّاهٌ منِيبٌ** ﴾[2] .

وكانت كذلك كريمة خيرة ، تصنع بيديها ما تحسن صنعه ثم تتصدق به على المساكين ، عيال الله الذى أكرمها وأعزها ، وآثرها بما لم يؤثر به زوجة سواها .

* * *

وألغى موت محمد ﷺ ، ما بين « زينب » وبين ضرائرها من التنافس فى زوجهن الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام ، فلم يعدن يذكرن إلا أنها كانت له ﷺ زوجا حبيبة ، وللمؤمنين أما رحيمة ، ولربها عابدة قانتة .

ذكرتْها « أم سلمة » فترحمت عليها وذكرت ما كان يكون بينها وبين « عائشة » ثم قالت :

« كانت زينب لرسول الله ﷺ معجبة ، وكان يستكثر منها ، وكانت صالحة قوامة صوامة ، صناعا وتتصدق بذلك كله على المساكين » .

وسُمعت « عائشة » تقول حين بلغها نعى « زينب » :

---

(١) صحيح مسلم ، ح : (٢٤٥٢) ، والاستيعاب ، والمسمط ١١٠ ، والإصابة .

(٢) الاستيعاب ، والآية من سورة هود : ٧٥ .

« لقد ذهبت حميدة متعبدة ، مفزع اليتامى والأرامل » .

فى (الصحيحين) من حديث عائشة رضى الله عنها ، أن بعض أزواج النبى ﷺ قلن للنبى ﷺ : أينا أسرع بك لحوقا ؟ قال : « أطولكن يدا » فأخذوا قصبة يذرعونها ، فكانت سودة أطولهن يدا . فعلمنا بعدُ أنما كانت ــ زينب ــ طول يدها الصدقة وكانت أسرعنا لحوقا به وكانت تحب الصدقة » .

وفى رواية عن السيدة عائشة ، قالت :

« قال رسول الله ﷺ : أسرعكن لحاقا بى أطولكن يدا ...

« فكنا إذا اجتمعنا فى بيت إحدانا بعد وفاة رسول الله ﷺ ، نمد أيدينا فى الجدار نتطاول ، فلم نزل نفعل ذلك حتى توفيت زينب بنت جحش ، ولم تكن بأطولنا ، فعرفنا حينئذ أن النبى ﷺ إنما أراد طوال اليد بالصدقة ، وكانت زينب امرأة صناع اليدين تدبغ وتخرز ، وتتصدق فى سبيل الله »[1] .

وفى الصحيح أن « عمر بن الخطاب : أمير المؤمنين » أرسل إليها عطاءها اثنى عشر ألفاً ، فجعلت تقول : « اللهم لا يدركنى هذا المال قى قابل ، فإنه فتنة »[2] .

ثم قسمته فى أهل رحمها وفى أهل الحاجة ، فبلغ « عمرَ » ذلك ، فوقف ببابها وأرسل إليها بالسلام وقال :

« بلغنى ما فرقتِ ، فأرسل ألف درهم تستبقينها » .

وأرسل الألف ، فتصدقت بها جميعا ، لم تبق منها درهما .

وحين حضرتها الوفاة ــ سنة عشرين ــ [3] قالت :

---

(١) طبقات ابن مسعد : ٨ / ١٠٨ السمط الثمين : ص ١١٠ . والاستيعاب : ٤ / ١٨٥١ والإصابة ٨ / ٩٣ عن الواقدى .

(٢) فى ترجمتها : الاستيعاب والإصابة . وأخرجه مسلم بلفظ مقارب ، فى كتاب فضائل الصحابة : ح (٢٤٥٢) ومعه طبقات ابن سعد : ٨ / ١١٠ .

(٣) الإصابة عن الواقدى ، والسمط الثمين ١١١ ، مع طبقات ابن سعد : ٨ / ١٠٩ .

« إنى قد أعددت كفنى ، وان عمر أمير المؤمنين ، سيبعث إلىَّ بكفن ، فتصدقوا بأحدهما . وإن استطعتم أن تتصدقوا بحقوى — إزارى — فافعلوا »[1]

* * *

وصلى عليها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . وشيع أهل المدينة إلى البقيع ، أم المؤمنين زينب بنت جحش ، أول من مات من نساء النبى ﷺ بعده ، وأسرعهن لحاقا به . وازدحموا على نعشها : روى ابن سعد من طريق الواقدى بسنده عن عبد الله بن أبى سليط الحجازى التابعى ، قال : رأيت أبا أحمد بن جحش يحمل سرير زينب بنت جحش — أخته — وهو مكفوف وهو يبكى . فأسمعُ عمرَ يقول : يا أبا أحمد . تنحَّ عن السرير ، لا يُعَنِّكَ الناسُ . وازدحموا على سريرها — فقال أبو أحمد : يا عمر ، هذه التى نِلْنَا بها كل خير ، وإن هذا يبرد حَرَّ ما أجد . فقال عمر : الزمْ ، الزمْ . »[2]

وعن عبد الله بن عامر بن ربيعة ، قال : رأيت عمر بن الخطاب سنة عشرين فى يوم صائف ، ورأيت ثوبا مُدَّ على قبرها ، وعمر جالس على شفير القبر ، معه أبو أحمد ذاهب البصر . وعمر بن الخطاب قائم على رجليه ، والأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ ، قيام على أرجلهم . »[3]

« وعن الشعبى أنه صلَّى مع عمر على زينب ، وكانت أول نساء النبى ﷺ موتا — بعده ، وكان عمر يعجبه أن يدخلها فى قبرها ، فأرسل إلى أزواج النبى ﷺ : من يدخلها فى قبرها ؟ فقلن : من كان يراها فى حياتها فليدخلها فى قبرها »[4]

* * *

---

(١) فى رواية انها توفيت سنة احدى وعشرين ، عام فتح العرب للاسكندرية (الاستيعاب ٤ / ١٨٥٢) والإصابة ٨ / ٩٤ ، وعيون الأثر ٢ / ٣٠٥ .

(٢ — ٣) طبقات ابن سعد : ٨ / ١١٣ .

(٤) « ورواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح » : مجمع الزوائد للنور الهيثمى : ٩ / ٢٤٨ .

حديثها عن النبى صلى الله عليه وسلم ، مخرج فى الكتب الستة . روى عنها ابن أخيها محمد بن عبد الله بن جحش ومولاها مدكور وأم المؤمنين أم حبيبة . والربيبة زينب بنت أبى سلمة ... وعدد من كبار التابعين والتابعيات[1]

* * *

(١) تهذيب التهذيب : النساء ١٢ / ٤٢٠ (٢٨٠١) .

(٨)

جُوَيْرِيَةُ بنتُ الحارث الخزاعية

سَيّدَة بنى المُصطَلَق(*)

« وما من امرأة أعظم على قومها بركةً
منها : أُعْتِقَ بزواجها من رسول الله ﷺ
أهلُ مائةِ بيت من بنى المصطلق . »

(السيرة ، والاستيعاب والإصابة)

(*) من كتّاب السيرة من يقدمون فى ترتيب أمهات المؤمنين ، « أم حبيبة بنت أبى سفيان » على جويرية ، باعتبار خطبة الأولى وهى فى الحبشة . كما فى السيرة الهشامية والمحبر .

ومنهم ، كالحافظ ابن سيد الناس فى عيون الأثر ، من قدم جويرية على أم حبيبة ، باعتبار بناء الرسول عليه الصلاة والسلام بها . حين عادت من الحبشة بعد خيبر .

الأسيرة الحسناء

شُغِلَ المصطفى عليه الصلاة السلام ، بعد زواجه بزينب بنت جحش ، بأحداث هامة كبار ، ملأت النصف الثانى للعام الخامس الهجرى ، ففى شهر شوال وأوائل القعدة[1] كانت وقعة « الخندق » التى لقى فيها ﷺ والمسلمون جموعَ الأحزاب من المشركين الذين عبأهم اليهود لحرب الإسلام فى دار هجرته . لقيهم النبى ﷺ فى ثلاثة آلاف من المسلمين وراء الخندق الذى حفره حول المدينة ، وقد أقبلت قريش فى عشرة آلاف من أحابيشهم ، ومن تبعهم من بنى كنانة وأهل تهامة ، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد .

ونقض اليهود عهد الموادعة ، وجهروا بالخيانة والغدر . وعظم البلاء بالمسلمين واشتد الخوف ، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم ، وزلزلوا زلزالا شديدا حتى ظن المؤمنون كل ظن ، ونجم النفاق وقال قائلون : « كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط » .

وتخاذل المنافقون الذين خرجوا للقتال طمعا فى الغنيمة ، فلما ظنوا أنه مهزوم ، كروا راجعين إلى ديارهم .

وكان حصار مرهق استغرق سبعة وعشرين يوما ، ثم دارت الدائرة على المشركين ، وتم النصر لرسول الله ﷺ ، والذين معه[2] .

* * *

(١) فى السيرة (٣ / ٢٤) ان غزوة الخندق كانت فى شوال سنة خمس ، ومثله فى تاريخ الطبرى (٣/ ٤٣) قابل على طبقات ابن سعد (٢ / ٤٧) وعيون الأثر ٢ / ٦٨ .

(٢) السيرة ٣ / ٢٣٠ ــ وطبقات ابن سعد : ٢ / ٤٧ وتاريخ الطبرى : ٣ / ٤٦ .

ووضع المسلمون السلاح وقد أجهدتهم المعركة ، وأووا إلى بيوتهم فى الصبح يلتمسون راحة ، فما انتصف النهار حتى تناهى إلى أسماعهم صوت مؤذن النبى ﷺ يؤذن فى الناس :

« من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة » .

واستأنفوا القتال ، وحاصروا يهود بنى قريظة خمسا وعشرين ليلة قبل أن يتم التسليم فى شهر ذى القعدة وصدر ذى الحجة[1] .

بعدها كانت غزوة بنى لحيان ، وغزوة ذى قرد . وعاد ﷺ إلى المدينة فما كاد يقيم بها شهراً وبعض شهر ، حتى بلغه أن بنى المصطلق ــ وهم حى من خزاعة ــ يجمعون الجموع لقتاله ، بقيادة زعيمهم « الحارث بن أبى ضرار بن حبيب المصطلقى الخزاعى »[2] .

وخرج إليهم ﷺ ومعه من نسائه « عائشة بنت أبى بكر » حتى لقيهم على ماء لهم يقال له المريسيع ، فكان قتال انتهى بهزيمة بنى المصطلق .

وسيقت نساؤهم سبايا ، وفيهن « بَرَّة بنت الحارث بن أبى ضرار بن حبيب » سيد القوم وقائدهم ، أو « جويرية » كما سماها ﷺ .

وقفل راجعا إلى المدينة .

فبينا هو جالس يوما فى حجرة عائشة ، سُمعت امرأة تستأذن فى لقائه ﷺ .

وقامت « عائشة » إلى الباب لترى مَن تلك ، فإذا شابة حلوة ، مفرطة الملاحة ، « لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه[3] » فى نحو العشرين من عمرها ، ترتجف قلقا وذعرا ، وقد زادها انفعالها حيوية وجمالا .

---

(١) والسيرة ٣ / ٣٠١ تاريخ الطبرى : ٣ / ٥٣ .

(٢) تاريخ الطبرى ، حوادث السنة السادسة للهجرة . وانظر جمهرة أنساب العرب : ٢٢٨ .

(٣) ابن اسحاق فى السيرة : ٣ / ٣٠٧ ، وتاريخ الطبرى : ٣ / ٦٦ والاستيعاب ٤ / ١٨٠٤ والسمط الثمين : ١١٧ .

فى رواية عن السيدة عائشة أم المؤمنين ، وذكرت الأسيرة الحسناء ، قالت :

« ..فوقعتْ فى سهم ثابت بن قيس بن شماس الأنصارى ، فكاتبها على نفسها ...وكانت امرأة حلوة لا يكاد يراها أحد إلا أخذت بنفسه ، فبينا النبى ﷺ عندى إذ دخلت عليه جويرية تسأله فى كتابتها ، فوالله ما هو إلا أن رأيتها فكرهتُ دخولها على النبى ﷺ ، وعرفت أنه سيرى منها الذى رأيت . »[1] .

ودخلت الشابة المليحة فقالت فى ضراعة تمازجها عزة :

« يا رسول الله ، أنا بنت الحارث بن أبى ضرار سيد قومه ، وقد أصابنى من البلاء ما لم يخفَ عليك ، فوقعتُ فى السهم لثابت بن قيس ... فكاتبتُه على نفسى ، فجئتك أستعينك على أمرى » .

ورق قلبه الكريم للعربية الخزاعية ، بنت سيد بنى المصطلق ، فى موقفها ببابه ضارعة إليه ، ولا مَن تلوذ به فى محنتها سواه .

* * *

وتكلم ﷺ فقال : « فهل لك فى خير من ذلك ؟ »

سألت فى لهفة وحيرة : « وما هو يا رسول الله ؟ »

قال : « أقضى عنك كتابتك ، وأتزوجك »

فتألق وجهها الجميل بفرحة الغبطة ، وقالت وهى لا تكاد تصدق أنها قد نجت من الضياع والهوان : « نعم يا رسول الله ! » .

قال عليه الصلاة والسلام : « قد فعلت ! »[2] .

وفى رواية بالاستيعاب والإصابة ، « أن النبى ﷺ سَبَى جويرية — وينوى أن يتزوجها — فجاءه أبوها فقال : يا محمد ، أصبتم ابنتى وهذا فداؤها ، فإن

---

(١) طبقات ابن سعد (٨ / ١١٦) والسيرة ، والاستيعاب والإصابة من طريق الواقدى .

(٢) السيرة ٣/٣٠٧ — والنقل منها — وطبقات ابن سعد ٨/١١٨ — والمحبر ٢٨٩ وتاريخ الطبرى ٣/٦٦ وترجمة جويرية فى الاستيعاب ٤/١٨٠٤ ، والإصابة ٨/٤٣ ، وعيون الأثر ٢/٣٠٥ .

ابنتى لا يُسَبى مثلُها ، فخلِّ سبيلها . قال عليه الصلاة والسلام : « أرأيتَ إن خيَّرتُها ، أليس قد أحسنتُ ؟ » قال : بلى . فأتاها أبوها فذكر لها ذلك فقالت : اخترت الله ورسوله .

وقيل إن أباها كان قد أخفى بأحد شعاب مكة بكرين مما جاء به فى فداء ابنته ، فلما سأله رسول الله ﷺ عنهما ، قال : « أشهد أنك رسول الله حقا »[1] فخطب إليه ابنته ، فزوجه إياها ، وكان صداقها أربعمائة درهم[1] .

* * *

(١) السيرة : ٣ /٣٠٨ ، والسمط ١١٧ ، وعيون الأثر ٢ / ٣٠٥ .

بَرَكة العَرُوس

وما أسرع ما خرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوج بنت الحارث بن أبى ضرار ، فتداعوا لتكريم السيدة التى أعزها نبيهم بالزواج .

وأقبلوا على من بأيديهم من أسرى قومها ، فأرسلوهم أحرارا وهم يقولون : « أصهار رسول الله » .

ودخلت العروس بيت النبى ، وما من امرأة أعظم على قومها بركة منها : أُعتِق بزواجها من رسول الله ﷺ ، أهلُ مائةِ بيتٍ من بيوت بنى المصطلق[1] .

« وسماها ﷺ جويرية ، كراهة أن يقال : خرج من عند برة»[2] .

وظلت « جويرية » ما عاشت ، تبارك تلك اللحظة السعيدة التى لقيته فيها ، فنجت من العار ، وأعتقت قومها من الأسر ، وكرمت بالزواج من سيد البشر .

وكذلك ظلت « عائشة » تذكر تلك اللحظة ، لكن فى مرارة وألم ، فتقول فى صراحة مؤثرة :

« ... وكانت امرأة حلوة ملاحة ، لا يراها أحد الا أخذت بنفسه ، فأتت رسول الله ﷺ تستعينه فى كتابتها ، فو الله ما هو إلا أن رأيتها على باب

---

(١) السيرة ٣ / ٣٠٧ ، وتاريخ الطبرى ٣ / ٦٦ ــ والاستيعاب ، والإصابة والسمط الثمين ١١٦ . ومناقبها ، رضى الله عنها . فى (مجمع الزوائد ٩ / ٢٥٠) .

(٢) أخرجه مسلم من حديث ابن عباس : ٣ / ١٦٧٨ ح (٢١٤٠) وابن عبد البر فى ترجمتها بالاستيعاب من عدة طرق ، وابن حجر فى الإصابة ، من طريق مسلم .

حجرتى فكرهتها وعرفت أن سيرى منها ﷺ ما رأيت ... »[1] .

وهل من حرج على الرسول ﷺ فى أن ينظر لجويرية ؟

قال « السهيلى » فى شرحه للسيرة الهشامية : « وأما نظره عليه السلام لجويرية . . . فإنما كان ذلك لأنها امرأة مملوكة . وجائز أن يكون نظر إليها لأنه أراد نكاحها . وقال للمغيرة ، بن شعبة ، حين شاوره فى نكاح امرأة :

« لو نظرتَ إليها ، فإن ذلك أحرى أن يؤدم بينكما . وقال مثل ذلك لمحمد ابن مسلمة الأنصارى الخزرجى حين أراد نكاح بثينة بنت الضحاك»[2] .

وقد كان ما توقعت « عائشة » وخافت :

نظر ﷺ الى الأسيرة الحسناء ، وأصبحت « جويرية بنت الحارث » شريكة لعائشة فى بيت النبى ﷺ .

كما أصبحت ، وقد أسلمت وحسن إسلامها ، أما للمؤمنين .

على أن « عائشة » ما لبثت أن شغلت عن « جويرية » وغير جويرية ، بما أعقب تخلفها عن الركب العائد من غزاة بنى المصطلق ، من قيلٍ وقال .

حتى إذا انجلت محنة الإفك ، وعادت رضى الله عنها إلى بيت النبى معتزة بما أنزل الله فى براءتها من آيات ، واجهتها « جويرية » بملاحتها الأخاذة ، فما كان من عائشة إلا أن قالت فى زهو وهى تنقل بصرها بين جويرية ، وزينب بنت جحش ، وأم سلمة ، وحفصة ، وطيف ماثل من خديجة :

« لم يتزوج ، ﷺ ، بكرا سواى » .

ذلك أن « جويرية » كانت قبل أن تسبى زوجة لمسافع بن صفوان

---

(١) أسنده ابن إسحاق فى السيرة ، وابن عبد البر فى الاستيعاب ، وابن حجر فى الإصابة ، من طريق ابن إسحاق .

(٢) الروض الأنف ٣ / ١٩

(نساء النبى — ١٢) .

المصطلقى ابن عمٍّ لها ، قتل يوم المُرَيْسِيع .[1]

وقد عاشت إلى أن استقر الأمر لمعاوية ، وتوفيت بالمدينةبعد منتصف القرن الأول الهجرى ، سنة ست وخمسين على الأرجح . وصلى عليها « مروان بن الحكم » أمير المدينة وقد بلغت سبعين سنة . وقيل : توفيت سنة خمسين ، وهى بنت خمس وستين سنة » .

رضى الله عن جويرية ، أم المؤمنين التى « لم تكن امرأة أعظم على قومها بركةً منها » .

* * *

وقد روت عن النبى ﷺ أحاديث مخرجة فى الكتب الستة ، ومن الرواة عنها عبد الله بن عباس ، رضى الله عنهما .

(١) فى المحبر ٨٩ ، وطبقات ابن سعد ٨ / ١١٦ ، والاستيعاب : ٤ / ١٨٠٤ والاصابة ٨ / ٤٣ والسمط الثمين ص ١١٦ ، وتاريخ الطبرى (٣ / ١٧٧) .

(٢) الاستيعاب ، والإصابة ، وعيون الأثر ٢ / ٣٠٥ وتهذيب التهذيب ١٢ / ٤٠٧ ، والسمط ١١٨ .

(٩)

صَفِيّة بنتُ حُيَيّ

عَقيلة بنى النضير

« وأمر ﷺ بصفية فحِيزتْ خلفه وألقى عليها رداءه ، فعرف الناس أنه اصطفاها لنفسه » .

(صحيح مسلم ، والسيرة النبوية)

خَرِبتْ خيْــبَر

انتهت السنة السادسة للهجرة ، بعد أن أحدثت فى بيت النبى ضجة ما مثلها ضجة : تزوج فيها ﷺ جُويرية بنت الحارث ، وابتلى بمحنة الإفك فى أعز أزواجه عليه ﷺ وأحبهن إلى قلبه بعد خديجة . وفيها أيضا ، تم صلح الحديبية .

وبزغ هلال المحرم من سنة سبع ، وهو يتهيأ لمعركة حاسمة فى جبهة اليهود الذين كشفت وقعة الخندق عما ينطوون عليه من حقد مرير ، وما يبيتون للإسلام من شر وغدر .

وخرج عليه الصلاة والسلام فى النصف الثانى من المحرم[1] إلى « خيبر » معقل العدو ، فما أشرف عليها حتى قال :

«الله أكبر ، خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذَرين » .

وخربت خيبر : فُتِحَتْ حصونها حصنا حصنا ، وقُتِلَ رجالها ، وسُبِىَ نساؤها ، وفيهن عقيلة بنى النضير « صفية بنت حُيى بن أخطب » التى ينتهى نسبها إلى هرون أخى موسى عليهما السلام ، وأمها برة بنت شموال — أو : سموأل — القرظية .

ولم تكن قد جاوزت السابعة عشرة من عمرها .

لكنها ، على صغر السن ، تزوجت مرتين :

تزوجت أولا من فارس قومها وشاعرهم : « سَلاَّم بن مِشْكَم القرظى .

---

(١) فى السيرة ٣ / ٣٤٢ ، وتاريخ الطبرى ، وعيون الأثر ٢ / ١٣٠ . وفى طبقات ابن سعد أن غزوة خيبر كانت فى جمادى الأولى .

ثم خلف عليها « كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق النضرى » صاحب حصن « القموص » أعز حصن فى خيبر[1] .

وقد اقتحم المسلمون الحصن بعد نضال عسير ، وجىء بكنانة حيا ، وكان عنده كنز بنى النضير ، فسأله ﷺ عنه ، فجحد أن يكون يعرف مكانه ، فقال النبى عليه الصلاة والسلام :

« أرأيتَ إن وجدناه عندك ، أأقتلك ؟ » .

قال : نعم...

فلما اكتُشف مخبأ الكنز عنده ، دفعه ﷺ إلى « محمد بن مَسْلَمة الأنصارى البدرى » فضرب عنقه بأخيه « محمود بن مسلمة » الذى قتله اليهود فى أول المعركة عند حصار حصن ناعم ، ألقوا عليه رَحًى فقتلته [2]

وسيقت نساء القموص سبايا ، وفى مقدمتهن « صفية » امرأة كنانة ، وابنة عم لها ، يقودهما « بلال » مؤذن الرسول عليه الصلاة والسلام .

ومر بهما « بلال » على ساحة امتلأت بالقتلى من يهود ، فهمَّت « صفية » أن تصيح ، لكن الصيحة احتبست فى حلقها لا تنطلق .

وأما ابنة عمها فأعولت صارخة ، وصكت وجهها ، وحثت التراب على رأسها ... وجىء بهما إلى رسول الله ﷺ :

« صفية » فى حزنها الصامت وجزعها المكبوت ، تحاول أن تتماسك فى ترفع وكبرياء ، وما من أحد يعرف فيم كانت تفكر ، وإن بدا أنها تلوذ أمام القائد المنتصر بآخر ما كان لها من عزة فى قومها .

---

(١) كذا فى السيرة ٣ / ٣٥١ وتاريخ الطبرى ٣ / ٩٥ ، ١٧٨ ؛ والمحبر ٩٠ ، وعيون الأثر ٢ / ٣٠٧ . وفى طبقات ابن سعد ٢ / ٧٧ ، والاستيعاب ٤ / ١٨٧١ ، والإصابة ٨ / ١٢٦ : « كنانة ابن أبى الحقيق » ولعله من رفع النسب إلى جَدِّه .

(٢) تاريخ الطبرى : ٣ /٩٥ والسيرة : ٣ /٣٥١ ــ وانظر طبقات ابن سعد ٢ /٨١ . وترجمة محمود بن مسلمة الأنصارى وأخيه محمد بن مسلمة رضى الله عنهما فى القسم الأول من حرف الميم فى الإصابة .

والأخرى ، شعثاء الشعر معفرة بالتراب ، ممزقة الثياب ، لا تكف عن عويل ونواح .

قال ﷺ وهو يشيح بوجهه عنها :

« اغربوا عنى هذه الشيطانة »[1] .

ثم دنا من صفية ، وقد بدا عليها أنها راغبة فى أكثر من حماية النبى الفارس ، فألقى عليها نظرة رحيمة وهو يقول لبلال :

« أنُزعت يا بلال منك الرحمةُ حين تمر بامرأتين على قتلى رجالهما ؟ »[2] .

ثم أمر بصفية فحيزت خلفه ، وألقى عليه رداءه ، فكان ذلك إعلاماً بأنه ﷺ قد اصطفاها لنفسه .

وفى حديث عن « أنس رضى الله عنه » أن رسول الله ﷺ لما أخذ صفية بنت حيى ، قال لها : « هل لك فىَّ ؟ قالت : يا رسول الله ... قد كنت أتمنى ذلك فى الشرك ، فكيف إذا أمكننى الله منه فى الإسلام ؟ » فأعتقها عليه الصلاة والسلام وتزوجها وكان عتقها صداقها[3] .

« ودفعها ﷺ إلى أم سليم تهيئها ، وتعتد عندها »[4] .

---

(١) تاريخ الطبرى : ٣ / ٩٤ والسيرة ٣ / ٣٥٠ ، والإصابة ٨ / ١٢٦ .

(٢) تاريخ الطبرى : ٣ / ٩٤ — والسيرة : ٣ /٣٥١ ،٤ / ٢٥٦ والإصابة ٨ / ١٢٦ وانظر طبقات ابن سعد : ٢ / ٨١ .

(٣) طبقات ابن سعد : ٢ / ٨٤ ، والاستيعاب ٤ / ١٨٧٢ ، والإصابة ٨ / ١٢٦ والسمط الثمين : ١٢٠ ، وعيون الأثر ٢ /٣٠٧ مع (الصحيحين . كتاب النكاح باب فضيلة إعتاقه أمَه ثم يتزوجها / اللؤلؤ والمرجان ، ح ٩٠٠) .

(٤) صحيح مسلم ، ك النكاح : ح (٨٦/ ١٣٦٥) .

رُؤيا العَروس وذكرَياتها

وانتظر ﷺ بخيبر حتى هدأت المناحة ، وظن أن الروع قد ذهب عن « صفية » أوكاد ، فحملها وراءه وانطلق بها إلى المنزل فى أطراف خيبر — على بعد ستةِ أميال منها — فمال يريد أن يعرس بها ، لكنها تمنعت وأبت عليه أن يفعل[1] .

فوجدها — ﷺ — فى نفسه ، وشق عليه تمنعُها . . . ثم استأنف مسيره راجعا بعسكره إلى المدينة ، فلما كان بالصهباء — بعيدا عن خيبر — نزل هناك يستريح ، فبدا له أن « صفية » متهيئة للعرس « جهَّزتها له أم سُليم ، فأهدتْها له من الليل . »[2]

وظهرت « صفية » عروسا مجلوة ، تأخذ العين بسحرها حتى لتقول أم سنان الأسلمية ، إنها لم تر بين النساء أضوأ منها[3] .

ووراء جلوة الفرح المرتقب ، غابت آثار الحزن والألم ، وكأن العروس نسيت المذبحة المروعة التى ألقت بأهلها صرعى مجندلين ، وأخرجتها من حصن « القموص » ذليلة أسيرة ، تساق بين السبايا !

وتمت أقيمت وليمة العرس : « أصبح النبى ﷺ فقال : '' من كان عنده شيء فليجيء به '' وبسط نِطْعاً ، فجعل الرجل يجيء بالتمر ، وجعل الرجل يجيء بالسمن .... فكانت وليمة رسول الله ﷺ[4] .

---

(١) السمط الثمين ١٢٠ ، والإصابة ٨ / ١٢٦ .

(٢) من حديث أنس رضى الله عنه ، المتفق عليه (اللؤلؤ والمرجان ، ك النكاح : ح ٩٠٠) .

(٣) الإصابة : ٨ / ١٢٦ مع طبقات ابن سعد (٨ / ١٢١) .

(٤) متفق عليه من حديث أنس رضى الله عنه (اللؤلؤ ، ك النكاح : ح ٩٠٠) .

دخل ﷺ ، على صفية ، وفى نفسه شىء من موقفها الأول . وأقبلت عليه فقالت : إنها فى ليلة عرسها بكنانة بن الربيع ، رأت فى المنام أن قمرا وقع فى حجرها ، فلما صحت من نومها عرضت رؤياها على كنانة ، فقال غاضبًا :

« ما هذا إلا أنك تُمنين ملكَ الحجاز محمدا ! »[1] .

ولطم وجهها لطمة ما يزال أثر منها فيه .

ونظر ﷺ إلى أثر اخضرار فى عينها ، وقد سره ما سمع من حديثها ، وهمَّ بأن يقبل عليها ، لكنه أمسك وسأل :

« ما حملك على الامتناع أولا ؟ » أو قال : ما حملك على إبائك فى المنزل الأول ؟

وأجابت العروس من فورها :

« خشيتُ عليك قربَ اليهود »[2] .

فزال ما كان يجد فى نفسه من جفوة .

وتسترجع صفية ذكريات لها عن إرهاص أهلها اليهود بنبىٍّ منتظر يعرفونه من أسفارهم ، ثم حقدهم وغيظهم يوم استقبلت يثرب النبى المهاجر ، الذى طالما بشرت يهود بقرب مبعثه ، تستغل البشرى لحماية ثروتها بيثرب من غازٍ وطامع ، أو تتفاخر بها على العرب الأميين ، فيما تتفاخر من علمها بالكتاب .

تقول صفية بنت حيى بن أخطب :

« كنتُ أَحَبَّ ولدِ أبى إليه وإلى عمى أبى ياسر ، لم ألقهما قط مع ولدهما إلا أخذانى دونه . فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ونزل قُباءَ ، غدا عليه أبى وعمى مغَلِّسين ، فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس ، فأتيا كالَّيْنِ ساقطين يمشيان الهوينا . فهششت إليهما كما كنت أصنع ، فوالله ما التفت إلَّى واحد منهما مع ما بهما من الغم . وسمعت عمى أبا ياسر وهو يقول لأبى : أهو هو ؟

---

(١) السيرة ٣ / ٣٥٠ — وتاريخ الطبرى : ٣ / ٩٤ — وبلفظ : « ملك يثرب » فى حديث ابن عمر ، رضى الله عنهما ، رواه الطبرانى ، ورجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد : ٩ / ٢٥١) والسمط الثمين ١٢٠ وفى رواية بالإصابة — عن ابن إسحاق فى رواية يونس بن بكير أنها قصت رؤياها على أمها — وفى عيون الأثر ، أنها قصتها على أبيها .

(٢) الإصابة ١ / ١٢٦ .

« قال : نعم والله . قال عمى : أتعرفه وتثبته ؟. قال : نعم . قال فما فى نفسك منه ؟ أجاب : عداوته والله ما بقيت »[1]

* * *

وهناك خارج القبة التى دخل فيها ﷺ على صفية ، بات رجل من الأنصار ، هو « أبو أيوب خالد بن زيد » يقظان ساهرا ، متوشحا سيفه ، يطيف بالقبة على غير علم من المصطفى ، فلما أصبح ﷺ سمع حركته ورأى مكانه فسأله :

« مالك يا أبا أيوب ؟ »

أجاب رضى الله عنه :

« يا رسول الله ، خفت عليك من هذه المرأة ، قد قتلت أباها وزوجها وقومها ، وكانت حديثة عهد بكفرٍ ، فخِفْتُها عليك »

فيروى أن رسول الله دعا له قائلا :

« اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظنى »

أو قال : « رحمك الله يا أبا أيوب » مرتين[2] .

ولم يكن المسلمون قد نسوا بعد ، الفعلة الشنعاء لامرأة أخرى من يهود خيبر ، هى « زينب بنت الحارث » امرأة سَلاَم بن مِشكم ، أحد زعمائهم القواد .

دخلت « زينب » عليه ، ﷺ وهو مطمئن بعد أن استسلم اليهود لمصيرهم ووقعوا الصلح مع القائد المنتصر ، فأهدت إليه شاة مسمومة ، وكانت قد سألت بعض أصحابه : أى عضو من الشاة أحب إلى رسول الله ؟ قيل لها : الذراع . فأكثرت السم فى الذراع حتى سرى منها إلى سائر الشاة .

---

(١) السيرة ٢ / ١٦٥ ووفاء الوفا ١ / ٢٧٠ .

(٢) السيرة ٣ / ٢٥٤ ــ وطبقات ابن سعد : ٢ / ٨٤ .

ووضعتها بين يديه ﷺ ومعه صاحبه « بشر بن البراء » ، فتناول ﷺ الذراع ، وأعطى ابن البراء قطعة أخرى أكلها غير مستريب .

لكن النبى ﷺ لم يسغ الذراع ، بل لفظها وهو يقول : « ان هذا العظم ليخبرنى أنه مسموم » .

ودعا بامرأة سلام ، فاعترفت بأنها سمت الشاة عامدة . ولما سألها ﷺ عما حملها على ذلك ، ردّت :

« بلغتَ من قومى ما لا يخفى عليك ، فقلتُ : إن كان نبيا فسيُخبَر ، وإن كان ملكا استرحت منه » .

فتجاوز عنها ﷺ ، ومات « بشر بن البراء » رضى الله عنه من أكلته التى أكل . . .[1]

فلعل « أبا أيوب الأنصارى » ذكر هذه الفعلة اليهودية ، حين بات ساهرا حول القبة التى دخل فيها ﷺ على « صفية » عقيلة بنى النضير .

* * *

وبلغ الركب المدينة . وفى حديث أنس رضى الله عنه قال : « فعثرت الناقة الضباء ، وندرت صفية فقام ﷺ فسترها ، وقد أشرفت النساء فقلن : أبعد الله اليهودية »[2] .

وآثر ﷺ ألا يدخل بالعروس على نسائه ، « وقد خرجت جواريهن يتراءينها ويشمتن بصرعتها »[3] ، فأنزلها فى بيت لصاحبه « حارثة بن النعمان الأنصارى » .

وتسامعت نساء الأنصار بها ، فجئن ينظرن إلى جمالها ، ولمح ﷺ زوجته

---

(١) السيرة ٣ / ٣٥٢ ، وتاريخ الطبرى ٣ / ٩٥ .
وأخرجه مسلم ، بلفظ مقارب ، من حديث أنس رضى الله عنه (باب السم ح ٢١٩٠) ٤ / ١٧٢١ وروى ابن سعد حديث الشاة المسمومة التى أهديت إلى الرسول ﷺ يوم فتح خيبر ، عن أبى هريرة ... وفيه ان الذين سموها وأهدوها ، جماعة من اليهود (٢ / ٨٤) .
(٢ ـــ ٣) صحيح مسلم ٢ / ١٠٤٨ : ح (١٣٦٥) .

« عائشة » تخرج متنقبة على حذر ، فتتبع خطواتها من بعيد ، فرآها تدخل بيت حارثة بن النعمان .

وانتظر حتى خرجت ، فأدركها وقال :

« كيف رأيت يا شقيراء ؟ »

فأجفلت عائشة ، وقد هاجت غيرتها ، ثم هزت كتفها وهى تقول :

« رأيت يهودية ! » زادت فى رواية : « بين يهوديات »

ورد عليها النبى صلى الله عليه وسلم :

« لا تقولى ذلك ، فإنها أسلمت وحسن إسلامها »[1] .

ولم تعلق « عائشة » بكلمة ، بل سارت إلى البيت حيث كانت حفصة فى انتظارها ، مشوقة إلى أن تسمع رأيها فى العروس .

ولم تنكر « عائشة » أنها جميلة حقا ، ولعلها زادت فحدثت « حفصة » عما كان من تتبّع الرسول لها وحواره معها . وأسند الواقدى عن أم سنان الأسلمية ، قالت : لما نزلنا المدينة ـــ بعد خيبر ـــ لم ندخل منازلنا حتى دخلنا على صفية منزلها . وسمع بها نساء المهاجرين والأنصار فدخلن عليها متنكرات ، فرأيت أربعا من أزواج النبى ﷺ منقبات : زينب بنت جحش وحفصة وعائشة وجويرية ، فأسمع زينب تقول لجويرية : ما أرى هذه الجارية إلا ستغلبنا على عهد رسول الله ﷺ . فقالت جويرية : كلا ، إنها من نساء قلما يحظين عند الأزواج .»[2]

....

(١) ابن سعد فى طبقاته ، وابن حجر ـــ من طريقه ـــ فى الإصابة ، والسمط ٨٠ .

(٢) طبقات ابن سعد : ٨ / ٩٥ .

زوجي محمّد ، وأبي هَارُونُ ، وعمّي موسَى

ثم انتقلت « صفية » إلى دور النبى ، فواجهتها هناك مشكلة محيرة : كانت
ائشة ومعها حفصة وسودة فى جانب ، والزوجات الأخريات فى جانب تقف
ه السيدة فاطمة الزهراء ، رضى الله عنهن .

وكان على « صفية » أن تختار ، وإنه لموقف دقيق صعب ، فما كانت فى
كائها بالتى تناصب « الزوجة الأثيرة » أو « الابنة الغالية » عداء أو شبه
داء !

ثم أسعفتها لباقة طبعها وواتاها حذرها الموروث ، فقررت أن تتقرب من
ائشة وحفصة والزهراء جميعا !

وكان مظهر تقربها إلى ابنتى أبى بكر وعمر ، إظهاراستعدادها للانضمام
هما ... وأما « الزهراء » فأهدتها « صفية بنت حيى » حلية لها من ذهب ،
زا لمودتها وإعلانا لمسالمتها ![1]

ولعل « صفية » أرادت أن تحتمى بهذا الموقف اللبق ، مما كانت تخاف من
يض بأصلها اليهودى ، وتذكير بما بين قومها والإسلام من عداء مستحكم
ر .

وما كان لها ، فى الحق ، أن تخشى أذى من « الزهراء » فإنها — رضى
عنها — كانت أحرص الناس على سلام ، وأبر بأبيها من أن تشارك فى
الضجيج النسوى ، اللهم إلا أن تدفع إلى شيء من ذلك دفعا ، كالذى
نا إليه من سفارتها لأزواج النبى عند أبيها ﷺ فى أمر السيدة عائشة .
ولعل صفية كانت فى مأمن كذلك ، من جهة أم سلمة رضى الله عنها .

---

١) الإصابة جـ ٨ / ١٢٧ .

أسند الواقدى عن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومى ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض أسفاره ومعه فى ذلك السفر صفية بنت حيى وأم سلمة ، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هودج صفية وهو يظن أنه هودج أم سلمة — وكان ذلك اليوم يومها — فجعل يتحدث مع صفية فغارت أم سلمة ، وعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدُ أنها صفية ، فجاء إلى أم سلمة فقالت : تتحدث مع ابنة اليهودى فى يومى ؟ قالت : ثم ندمتُ على تلك المقالة » فكانت تستغفر منها ، قالت : يا رسول الله ، استغفر لى فإنما حملنى على ذلك الغيرة »[1] .

وإنما الخوف كل الخوف من « عائشة » فى غيرتها الجامحة ، وضيقها بكل ضرة حسناء تدخل بيت المصطفى وتشاركها فيه !

ولم يعصم « صفية » مما كانت تخاف ، تقربها من عائشة وحفصة ، فما أكثر ما سمعت التعريض جهرا وتلميحا بالدم اليهودى الذى يجرى فى عروقها ؟ ! وما أكثر ما صكت أذنيها سهام جارحة ، تأبى عليها أن تسكن وتطمئن ، فى ظلّ أكرم زوج ! والذى آلم « صفية » أن عائشة وحفصة — اللتين انضمت إليهما — كانتا تشاركان الأخريات فى النيل منها ، ومفاخرتها بأنهن قرشيات أو عربيات ، وهى الأجنبية الدخيلة .

* * *

وبلغ « صفيةَ » كلام عن حفصة وعائشة ، فلما حدثت به النبى صلى الله عليه وسلم وهى تبكى ، قال ﷺ :

« ألا قلت : وكيف تكونان خيرا منى ، وزوجى محمد ، وأبى هرون ، وعمى موسى ؟ »[2]

ونزل كلام المصطفى على « صفية » بردا وسلاما ، وكان لها منه حمى وملاذ .

---

(١) طبقات ابن سعد : ٨ / ٩٥ .

(٢) الإصابة ٨ / ١٢٧ — والنقل منها — والاستعاب ٤ / ١٨٧٢ ، والسمط ١٢١ .

كان النبى ﷺ ، يحسُّ غربة « صفية » فى دوره بين نسائه ، فيدافع عنها كلما أتيحت له فرصة .

حدثوا أنه كان فى سفر ومعه « صفية » و« زينب بنت جحش » فاعتل بعير « صفية » وفى إبل زينب فضل ، فقال لها :

« إن بعير صفية اعتل ، فلو أعطيتها بعيرا ؟ »

أجابت فى ترفع وازدراء :

« أنا أعطى تلك اليهودية ؟ » .

فولى ﷺ عنها مغضبا ، وتركها شهرين أو ثلاثة لا يقربها ، أو قيل « فهجرها لذلك ، ذا الحجة ، والمحرم ، وبعض صفر ، ثم أتاها بعد ، وعاد إلى ما كان عليه معها »[1] .

ولم تحرم « صفية » هذه الحماية حتى آخر أيامه عليه الصلاة والسلام . رُوىَ أن أمهات المؤمنين اجتمعن حول فراش الرسول ﷺ فى مرضه الأخير ، فقالت صفية : إنى والله يانبى الله ، لوددت أن الذى بك بى . فما كان من أزواجه إلاَّ أن غمزن ببصرهن . فما راعهن إلا أن قال عليه الصلاة والسلام : « مَضْمِضْنَ » !

تساءلن فى دهشة : من أى شىء ؟

قال : « من تغامزكن بها ، والله إنها لصادقة »[2]

* * *

ولحق المصطفى بربه الكريم ، وافتقدت « صفية » تلك الحماية الطيبة ، فما نسى ناسٌ لها أنها منحدرة من سلالة يهود ، وما أنفوا من نَبْزِها بذلك اللقب ، على الرغم من حسن إسلام صفية ، وزواجها من النبى عليه الصلاة والسلام .

---

(١) أخرجه ابن سعد فى الطبقات من حديث السيدة عائشة ، بسنده إليها . وابن حجر فى ترجمة صفية بالإصابة ، من طريق ابن سعد .

(٢) ابن سعد فى الطبقات ، بسند عن زيد بن أسلم . وابن حجر فى الإصابة ، من طريقه .

حدثوا أن جارية لها أتت « أمير المؤمنين عمر بن الخطاب » فقالت :
« يا أمير المؤمنين ، إن صفية تحب السبت وتصل اليهود »

فبعث « عمر » إلى صفية يسألها عن ذلك فأجابت :

«أما السبت فإنى لم أحبه منذ أبدلنى الله به الجمعة ، وأما اليهود فإن لى فيهم رحما فأنا أصِلُها . »

ثم انثنت الى جاريتها فسألتها عمَّا حملها على مثل ذلك الافتراء ، فأجابت الجارية : « الشيطان ! »

وردت « صفية » :
« اذهبى فأنت حرة »[1]

* * *

واندفعت « صفية » راضية أو كارهة ، تشارك فى المعركة السياسية التى بدأت فى عهد « عثمان » وكان موقفها إذ ذاك شبيها بموقفها بين عائشة والزهراء ، فبالرغم من حرصها على مودة عائشةالتى كانت حينذاك ذات نفوذ سياسى قوى ، ومكانة فى الدولة الإسلامية رفيعة ، لم تأل « صفية » جهدا فى الولاء لأمير المؤمنين « عثمان » رضوان الله عليه ...

حدث مولى لصفية يدعى كنانة — وقيل هو ابن أخيها — قال :
« قدمت صفية ، فى حجابها ، على بغلة لتردَّ عن عثمان ، فلقينا الأشتر — هو النخعى — فضرب وجه البغلة ، وهو لا يعرف راكبتها ، فقالت لى صفية : رُدَّنى لا تفضحنى !

ثم وضعت معبرا بين منزلها ومنزل عثمان ، فكانت تنقل إليه الطعام والماء ، وهو رضى الله عنه ، فى محنة الحصار[2] .

* * *

(١) رواه ابن عبد البر فى ترجمتها بالاستيعاب ٤ / ١٨٧٢ ، وابن حجر فى الإصابة ٨ / ١٢٧ من طريقه والسمط ١١٢ .

(٢) ابن سعد فى الطبقات . حكاه ابن حجر فى آخر ترجمتها بالإصابة .

وماتت « صفية » حوالى سنة خمسين ، والأمر مستقر لمعاوية ...

ودفنت بالبقيع ، مع أمهات المؤمنين . رضى الله عنهن .

حديثها عن رسول الله ﷺ مخرج فى الكتب الستة ، ومن الذين رووا عنها : ابن أخيها ومولاها كنانة ، ومولاها الآخر يزيد بن متعب ، والإمام زين العابدين على بن الحسين ، ومسلم بن صفوان ، فى عدد من حفاظ التابعين رضى الله عنها وعنهم .

* * *

(١٠)

أمّ حَبيبَة

رَملة بنت أبى سُفيان

« ثم خرج أبو سفيان حتى قدم المدينة فدخل على ابنته « أم حبيبة » ... فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه . فقال : يا بنية ، ما أدرى أرغبت بى عن هذا الفراش أم رغبت به عنى ؟ قالت : بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك ، فلم أحب أن تجلس عليه »

ابن إسحاق : السيرة النبوية

عودة المهَاجرة

رجع النبى ﷺ إلى مدينته ، وقد تمَّ له النصر فى « خيبر » ، وتزوج عقيلة بنى النضير ، وسيقت بين يديه غنائم اليهود .

وتأهبت « المدينة » للقائه ، وقد أعدت له أسعد مفاجأة ترضيه !

فهناك فى « المدينة » ، وهو ﷺ غائب فى خيبر ، كان مهاجرة الحبشة قد جاءوا فى صحبة « عمرو بن أمية الضمرى » الذى بعثه النبى عليه الصلاة والسلام إلى « النجاشى » ليعود بمن بقى فى بلاده من المهاجرين الأولين[1] .

وحملهم « عمرو » فى سفينتين ، فبلغ بهم « المدينة » حيث الأهل والأنصار ، ومعركة « خيبر » إذ ذاك فى ذروة احتدامها .

وأعقب وصولَهم إعلانُ فتح « خيبر » والنصر المبين على يهودها ، وخرج أهل « المدينة » لاستقبال العسكر المنتصر ، فضاقت بهم أرجاء الوادى ، وقد بُحَّت أصواتهم من هتاف ودعاء .

وأهلَّ عليهم ﷺ ، فلمح من بينهم أصحابه الذين هاجروا من « مكة » أيام الاضطهاد والعذاب ، أولئك الذين كان آخر عهده — ﷺ — بهم ، يوم تسللوا من « مكة » أيام المحنة ، خارجين من ديارهم وأموالهم فى سبيل الله ، وأقصى ما يتمناه أحدهم أن يموت على الإسلام غريبا مهاجرا فتكون له الجنة .

وكانوا رضى الله عنهم قد تواعدوا على اللقاء فى الدار الآخرة . . . . وها هم أولاء يلتقون فى المدينة المنورة ، يوم الاحتفال بفتح خيبر ، وقد صارت للإسلام الكلمة العليا فى جزيرة العرب !

(١) سيرة ابن هشام : ٤ / ٣ ، تاريخ الطبرى : ٣ / ٨٩ .

ووثب رسول الله ﷺ من فوق راحلته ، فالتزم ابن عمه « جعفر بن أبى طالب » معانقا ، وقبل عينيه وهو يقول غبطة :

« ما أدرى بأيهما أنا أسر : بفتح خيبر ، أم بقدوم جعفر ؟ »[1] .

والتفت ﷺ بعد ذلك يلتمس بقية صحبه المهاجرين ، وقد كانوا فيما أحصى « ابن اسحق » ستة عشر رجلا[2] .

بين المهاجرات العائدات ، كانت « أم حبيبة ، بنت أبى سفيان بن حرب » تنتظر النبى ﷺ ، ليحملها إلى بيته !

وقد مضى على زواجه بها بضع سنين ، مذ كانت فى مهاجرها بالحبشة . فلنمض مع الأحداث ، راجعين بها إلى بدايتها هنالك ...

....

(١ ، ٢) السيرة :٤ / ٣ ، ٥ وتاريخ الطبرى : ٣ /٩٠ .

محنة فى الغربة

كانت « رملة بنت أبى سفيان صخر بن حرب بن أمية » ، زعيم مكة وقائد المشركين ، زوجة لابن عمّة المصطفى ، « عبيد الله بن جحش الأسدى » أخى السيدة زينب أم المؤمنين . وقد أسلم عبيد الله فأسلمت معه « رملة » ، وأبوها « أبو سفيان » على الكفر . وكذلك أمها : صفية بنت أبى العاص الاموية .

وخشيت أذى أبيها ، فهاجرت بدينها مع زوجها ، فى الهجرة الثانية إلى الحبشة ، وهى مثقلة بحملها ، وتركت أباها « بمكة » وقد جن غيظه وقهره ، أنْ أسلمت ابنته وليس له إليها سبيل . وهناك فى الحبشة ، وضعت « رملة » بنتها « حبيبة بنت عبيد الله » التى كنيت بها أمُّها « أم حبيبة » .

وإذ هى فى غربتها تكتم حنينها إلى الوطن ، وتحاول أن تجد فى زوجها عوضا عمن فارقت من أهل وعشيرة ، قامت ذات ليلة من نومها مذعورة ، فقد روعت فى الحلم برؤية « عبيد الله » بأسوأ صورة ، وأصبحت فإذا هو قد ارتد عن دينه الذى من أجله هاجر إلى الحبشة ، ودخل « النصرانية » دين الأحباش ...

وحاول أن يردها عن دين الإسلام فصبرت على دينها[1] .

وكادت « بنت أبى سفيان » تهلك غما وأسى وحسرة :

فيم كانت هجرة عبيد الله إذن ، وفيم كان عذاب الاضطهاد ومحنة التشرد وأشجان الاغتراب ، ومرارة التنكر للآباء والأجداد ، وهذا هو يصبأ عن

---

(١) ابن سعد فى الطبقات ، ٨ / ٩٦ والمحبر : ٨٨، والاستيعاب ١٨٤٤ ، وابن حجر فى ترجمتها بالإصابة ٨ /٨٤ ، عنه . والسمط ٩٦ .

الإسلام الذى من أجله احتملت « رملة » كل ذلك ، ورضيت أن تذيق أباها عذاب القهر والغم ؟

لقد كان أكرم لعبيد الله ، أن يبقى على دين آبائه وأن يقاتل عنه مع قومه وعشيرته دفاعا عن ديانة وجدوا آباءهم عليها مِن قديم الحقب .

أما أن يكفر بهذا كله ، ويرضى بالإسلام دينا ليجىء إلى الحبشة فيكفر بالدين القيِّم ، ويستبدل به دينا غريبا لقوم غرباء ، فى يُسْر ودون تحرج ، كما يبدل ثوبا بثوب ، فأية مهانة وأى عار !

وهذه الابنة الحبيبة ، ما ذنبها لكى تولد لمثل هذا الأب الصابئ المرتد ؟ وما جريرتها لتخرج إلى الحياة فى أرض غريبة ، وقد انبتَّ ما بين أبويها وتمزق شمل أسرتها وتوزعت أهلَها ديانات شتى : فأبوها نصرانى ، وأمها مسلمة ، وجدها مشرك عدو الإسلام !

واعتزلت « رملة » الناس شاعرة بالخزى لفعلة الرجل الذى كان لها زوجا ، ولطفلتها والدا ...

وأغلقت الباب عليها وعلى وليدتها « حبيبة » مضاعفة الغربة ، لا تريد أن تلقى الناس فى دار هجرتها ، ولا سبيل لها إلى أرض الوطن ، وهناك أبوها يعلن حربا شرسة على النبى الذى صدقته وآمنت به ...

وأين تراها تقيم فى « مكة » لو عادت ؟

أفى بيت أبويها وقد حيل بينها وبينه منذ أسلمت ؟

أم فى دار « آل جحش » رهط زوجها ، وقد أقفرت بهجرة أهلها وصارت منهم خلاء ؟

لقد بلغها من أنباء مكة أن « عتبة بن أبى ربيعة ، والعباس بن عبد المطلب ، وأبا جهل بن هشام بن المغيرة » مروا بدار بنى جحش وهم مصعدون إلى أعلى مكة ، فنظر إليها عتبة تخفق أبوابها يبابا ليس فيها ساكن ، ثم تنفس الصعداء وقال :

وكل دار وإن طالت سلامتها يومًا ستدركها النوباء والحوب !

أصبحت دار بنى جحش خلاء من أهلها » .

فقال أبو جهل : « وما تبكى عليه ؟ » ... ثم قال :

« هذا عمل ابن أخى ، فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وقطع بيننا »[1] .

كلا ، لا سبيل لرملة إلى « مكة » والمعركة محتدمة بين أبيها والنبى ﷺ ، ودار بنى جحش تخفق أبوابها يبابا !

(١) السيرة : ٢ / ١١٥ .

خِطبة من الحجَاز

ومرت فترة من الزمن وهى فى عزلتها الحزينة ، فما شعرت ذات يوم إلا وطرقات تلح على بابها الموصد ، مستأذنة لجارية من جوارى النجاشى ...

وفتحت « أم حبيبة » الباب ، فدخلت الجارية وأدت إليها رسالة النجاشى :

« إن الملك يقول لك : وكِّلى مَن يزوجك من نبى العرب ، فقد أرسل إليه ليخطبك له ! » .

واستعادت « رملة » حديث الجارية مرتين وثلاثا ، حتى إذا استيقنت من البشرى نزعت سوارَين لها من فضة فقدمتهما إليها حلاوة البشرى ، ثم أرسلت إلى « خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس » ـــ كبير المهاجرين من قومها بنى أمية ـــ فوكلته فى زواجها[1] .

وفى المساء ، دعا النجاشى إليه مَن بالحبشة من المسلمين ، فجاءوا يتقدمهم جعفر بن أبى طالب ، ابن عمِ النبى ﷺ ، وخالد بن سعيد ، وكيل رملة ..

وتكلم النجاشى وترجم المترجم :

«إن محمد بن عبد الله كتب لى أن أزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان ، فمن أولاكم بها ؟ »

أجاب القوم : « خالد بن سعيد ، قد وكَّلتْه »

فاتجه إليه النجاشى قائلا :

(١) أخرجه ابن سعد من حديث أم حبيبة رضى الله عنها . وحكاه ابن حجر فى ترجمة « رملة » بالإصابة ٨ /٨٤ . والسمط الثمين ٦٧ . وفى رواية للزبير بن بكار : زوجها إياه عثمان بن عفان . وهى رواية مرجوحة (الاستيعاب) .

« فزوّجْها من نبيكم ، وقد أصدقتُها عنه أربعمائة دينار » — وقيل : أربعة آلاف — فقام خالد وقال :

« قد أجبت إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ ، وزوجته أم حبيبة » ... وقبض الصداق .

وأَوْلَم لهم النجاشي وليمة الزواج قائلا « اجلسوا ، فإن سنة الأنبياء إذا تزوجوا أن يؤكل طعام على التزوج »[1] .

ثم أتوا باب « أم حبيبة » مهنئين مباركين . « وأولم عليها عثمان بن عفان لحما وثريداً »

وباتت بنت أبى سفيان ، وهى « أم المؤمنين » !

وأصبحت فجاءتها « جارية النجاشى » تحمل إليها هدايا نساء الملك من عودٍ وعنبر وطيب ، فقدمت إليها « أم المؤمنين » خمسين دينارا من صداقها قائلة :

« كنت أعطيتك السوارين بالأمس وليس بيدى شىء من المال ، وقد جاءنى الله عز وجل بهذا » .

فأبت أن تمّس الدنانير ، وردَّت السوارين وهى تقول : ان الملك أجزل لها العطاء ، وأمرها ألا تأخذ من أم المؤمنين شيئا ، كما أمر نساءه أن يبعثن إليها مما عندهن من طيب .

وتقبلت « أم حبيبة » الهدية شاكرة ، فاحتفظت بها حتى حملتها معها إلى بيت النبى ، فكان ﷺ يرى عندها طيب الحبشة وعودها فلا ينكره .

(١) الاستيعاب لابن عبد البر : ٤ /١٩٣٠ والمحبر ٨٨ ، والإصابة ٨ / ٨٤ . وفى رواية بهما ، أن الذى زوَّجها : عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية . وهو ابن أخى أمها « صفية بنت أبى العاص بن أمية » ولعله الذى زفها إلى النبى ﷺ ، بعد هجرتها من الحبشة إلى المدينة . والله أعلم .

بين الأب والزوج

احتفلت « المدينة » بدخول بنت أبى سفيان بيت النبى ﷺ .

وأولم خالُها « عثمان بن عفان » وليمة حافلة ، نحر فيها الذبائح وأطعم الناس اللحم . وباتت « مكة » ساهدة مؤرقة ، تردد قول زعيمها أبى سفيان والد أم حبيبة ، حين بلغه نبأ زواجها :

« هذا الفحل لا يُجدع أنفه ! »[1]

ولم يكن قد مضى على زواجه ، ﷺ ، من عقيلة بنى النضير ، غير أيام معدودات . . .

واستقبلت نساء النبى زميلتهن « أم حبيبة » بشىء من المجاملة ، ولم ترَ « عائشة » فيها أول الأمر ما يشعل غيرتها ، إذ كانت «رملة » تدنو من عامها الأربعين ، وليس لها سحر صفية ، ولا ملاحة جويرية ، ولا حسن أم سلمة ، ولا جمال زينب ...

وأبدت « عائشة » استعدادها لقبول الزوجة الجديدة فى صفِّها ، لكن « بنت أبى سفيان » أنفت أن تكون تابعة لأخرى ...

وبقدر ما أنكرت « عائشة » ألا تسارع « رملة » إلى كسب رضاها كما فعلت « حفصة بنت عمر » ، أنكرتْ « بنت أبى سفيان » على « عائشة » الزهو الطامح إلى الاستئثار بالنفوذ فى بيت النبى ...

---

(١) طبقات ابن سعد ٨ / ٩٩ : تاريخ الطبرى : ٣ /٩٠ : والسمط الثمين : ٩٩ ــ والاستيعاب ٤ / ١٨٤٥ ونسب قريش ١٢٢ ، والإصابة ٨ /٨٥ .

لكن الجفوة بينهما لم تشتد إلى درجة الخصومة السافرة المعلنة ، وإن بقيت « عائشة » تهاب « رملة » وتخشى وقوفها فى سبيل ما تشتهى من تفرد بالكلمة العليا بين ضرائرها !

وكانت « رملة » بحيث تفعل ما تخشاه « عائشة » لولا أن ظلت تحس فى أعماقها حزنا قاسيا ، لأن أباها لا يزال على الوثنية الضالّة .

وآلمها أن تظل الحرب بين زوجها وأبيها قائمة ، تأكل من رجال أعزة عليها ، فما من قتيل إلا وهو من شيعة أبيها ، وما من شهيد إلا وهو من صحابة زوجها ، أبنائها المؤمنين !

* * *

وبلغها يومًا أن قريشًا نقضت عهد « الحديبية » وأدركت بفطنتها وبما تعرف من خلق زوجها ﷺ وسيرته ، أنه لن يسكت على ضيم ولن يرضى أن يُغدر به أو ينقض له عهد ، فهل تراه يغزو « مكة » ليهدم الأصنام على رؤوس المشركين وفيهم أبوها ، وإخوتها ، وأكثر أهلها وعشيرتها ؟ كذلك لاحت نذر الخطر فى « مكة » فاجتمع قادتها يتشاورون فى أمر « محمد » الذى يوشك أن ينقض عليهم ولا قبل لهم به . لقد كانوا من قبل يستهينون به وبمن اتبعه ، فهل تراهم يستهينون به اليوم وقد بلغ من القوة والمنعة ما بلغ ، وصار له السلطان الأكبر فى بلاد العرب ؟

واستقر رأيهم على أن يوفدوا رسولا منهم إلى المدينة يفاوض محمدا ـــ ﷺ ـــ فى تجديد الهدنة ومد أجلها عشر سنين ، ولكن من يكون رسولهم ؟

أبو سفيان بن حرب ، ولا أحد سواه !

على هذا أجمعوا أمرهم ، ولم يستطع « أبو سفيان » إلا أن يذعن . وأنّى له أن يعتذر وهو الذى أشعل النار وسهر عليها يمدها بالوقود من فلذات أكباد مكة ... فلْيصْلَ اليوم حرَّها ، ولْيمضِ إلى « محمد » خصمه الألد ، يسأله الموادعة والمسالمة !

وخرج « أبو سفيان » من مكة مكرها يريد المدينة . فلما بلغها أشفق من لقاء « محمد » وذكر أن له ابنة هناك فى بيت خصمه ، فتسلل إليها يستعين بها على ما جاء من أجله .

وفوجئت به « أم المؤمنين » يدخل بيتها ، ولم تكن قد رأته منذ هاجرت الى الحبشة ، فوقفت تجاهه بادية الحيرة ، لا تدرى ماذا تفعل أو ماذا تقول ... وأدرك « أبو سفيان » ما تعانيه ابنته ، فأعفاها من أن تأذن له بالجلوس ، وتقدم من تلقاء نفسه ليجلس على الفراش ، فما راعه إلا أن وثبت « رملة » فاختطفت الفراش وطوته فى إعزاز ، ثم وقفت تلهث .

سألها وهو يلوذ بالصبر :

« أطويته يا بنية رغبة بى عن الفراش ، أم رغبة بالفراش عنى ؟ » .

وجاءه ردُّها :

« هو فراش رسول الله ﷺ ، وأنت رجل مشرك ، فلم أحب أن تجلس عليه ! » .

قال والألم يفرى كبده : « لقد أصابك يابنية بعدى شر »[1]

وانصرف مقهورا ...

واستندت هى على جدار بيتها ، عصية الدمع ، معطلة الحواس .

حتى جاء رسول الله أخيرا فعرفتْ ما كان من أمر « أبى سفيان » :

ذهب إلى النبى ﷺ فكلمه فى العهد فلم يجبه بشىء ..[2] .

فتوسل بأبى بكر إلى الرسول لكن أبا بكر رفض ...

فكلم « عمر بن الخطاب » فرد عليه فى غلظة وجفاء : أنا أشفع لكم إلى رسول الله ؟ فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به » .

وانطلق أبو سفيان إلى بيت « على بن أبى طالب » وعنده فاطمة بنت رسول

---

(١) السيرة : ٤ / ٣٨ ، وابن سعد فى الطبقات :٨ / ١٠٠ والاصابة ، عنه .

(٢) السيرة : ٤ / ٣٨ وتاريخ الطبرى : ٣ / ١١٢ والسمط الثمين : ص ١٠٠ .

الله ، وولدها الحسن يدب بين يديها ، فقال : « يا على ، إنك أَمَسُّ القومِ بى رَحِماً ، وإنى قد جئت فى حاجة .. فاشفع لى إلى محمد » .

قال « على » :

« ويحك يا أبا سفيان ، والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه » .

فالتفت أبو سفيان إلى السيدة فاطمة وسألها متوسلا :

« يا ابنة محمد ، هل لك أن تأمرى بُنَيَّكِ هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخرِ الدهر ؟ » .

ردَّت رضى الله عنها :

« والله ما بلغ بُنَىَّ ذاك أن يجير بين الناس ، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ » .

وإذ سدت السبل فى وجهه ، التمس نصيحة ابن عم النبى ، علىّ بن أبى طالب ، فقال كرم الله وجهه :

« والله ما أعلم شيئا يغنى عنك شيئا ، لكنك سيد بنى كنانة . فقم فأَجِرْ بين الناس ثم الحق بأرضك . وما أظن ذلك مغنيا ، ولكنى لا أجد لك غيره »[٢] .

فذهب « أبو سفيان » إلى المسجد ، وهناك أعلن أنه أجار بين الناس ، ثم أسرع إلى راحلته وانطلق بها يعدو فى طريق مكة ، كأنه يفر من مطارد ...

* * *

سمعت « أم المؤمنين » ما جرى لأبيها ، فما زادت على أن دعت لزوجها ﷺ بالنصر ، وقد رأته يتخذ أهبته للمعركة الفاصلة فى البلد الحرام .

---

(١) تاريخ الطبرى : ٣ / ١١٢ .

(٢) السيرة : ٤ / ٣٨ — وتاريخ الطبرى : ٣ / ١١٢ .

ولعل نساء النبى راقبنها وهى فى موقفها ذاك الدقيق الحرج ، ترى جيش المدينة يتأهب لأخذ قومها على غرة ، ومكة لا تزال فى حيرة من الأمر ، تستمع لما كان من أمر أبى سفيان الذى رجع من وفادته خائبا على غير قرار ، يقول :

« جئت محمدا فوالله مارد علىَّ شيئا ، ثم جئت ابن أبى قحافة فلم أجد فيه خيرا ، ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أدنى العدو »[1] .

كان الموقف صعبا بالغ الصعوبة ، دقيقا أشد الدقة ، فانتصار محمد ـ ﷺ ـ يعنى القضاء على أبيها وعشيرتها ، وإن « أم المؤمنين » لتناصب قومها العداء ، وتبرأ منهم إلى الله ورسوله ، ولكن هل يبرأ دمها من دماء لهم سيطت به ؟ ... وهل يبرأ قلبها من الحزن للمصير الفاجع الذى ينتظرهم ؟ ! كلا ، بل إن عنَتَهم عزيز عليها ، مثلما هو عزيز على رسول الله ﷺ .

وإذ هى فى حيرتها المضنية لاح لها شعاع من الأمل :

ألا يمكن أن يسلم أبو سفيان كما أسلم عمر بن الخطاب وأخوها معاوية ، وخالد بن الوليد ، وأبو العاص بن الربيع ، زوج السيدة زينب كبرى بنات النبى ﷺ ؟ ..

إنه لأمل واهٍ ، أقرب إلى أن يكون سرابا ، ولكنها تشبثت به ليعصمها من الحيرة والجزع ،فتوجهت إلى السماء ، تدعو الله أن يهدى أبا سفيان إلى الإسلام !

وأحست حينذاك طمأنينة وسلاما ، فتلت ما نزل من آى الكتاب الكريم حين تزوجها محمد رسول الله :

﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ، وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[2] .

---

(١) السيرة : ٤ / ٣٩ وتاريخ الطبرى : ٣ / ١١٣ .

(٢) السمط الثمين : ١١٠ ـ والآية من سورة الممتحنة « ٧ » .

وكان هذا أقصى ما تملك « أم المؤمنين ، بنت أبى سفيان » لأبيها وأهلها ..

على حين بلغ الجزع برجل من البدريين رضى الله عنهم ، أن بعث كتابا مع امرأة من « مكة » تدعى « سارة » ووعدها مكافأة سخية إذا هى أبلغت كتابه قريشا ، ليعلموا الخطر الذى يوشك أن يدهمهم[1] .

وعلم النبى ﷺ بكتاب صاحبه « حاطب بن أبى بلتعة » فبعث على بن أبى طالب والزبير بن العوام ، فأدركا « سارة » ومازالا بها حتى أخرجت الكتاب من ذوائب شعرها .

ودعا النبى إليه صاحبه ، فسأله عما حمله على ذلك . قال حاطب :

« يا رسول الله ، أما والله إنى لمؤمن بالله وبرسوله ، ما غيرتُ ولا بدلت ، ولكنى كنت امرأ ليس له فى القوم من أهل ولا عشيرة ، وكان لى بين أظهرهم ولد وأهل ، فصانعتهم عليهم » .

فوثب به « عمر بن الخطاب » واستأذن النبىَّ ﷺ ، فى أن يضرب عنقه ، لكنه ﷺ حال دونه ، إذ كان من أصحاب « بدر »[2] .

وإنما جئت بحديث « حاطب » هنا ، لنقدر صعوبة الموقف على « أم المؤمنين بنت أبى سفيان » حين رأت زوجها ﷺ وهو خارج فى عشرة آلاف مقاتل يريد « مكة »

* * *

وتم الفتح ...

وطارت البشرى إلى « المدينة » بما أفاء الله على رسوله من نصر ...

وتسامعت « دار الهجرة » بما كان من لقاء النبى ﷺ ، بأبى سفيان ، الذى أرسلته مكة حين رأت نيران العسكر الغازى تتوهج قريبا منها ، ليستطلع أمر هذه الجيوش الزاحفة نحو البلد الحرام .

---

(١) سيرة ابن هشام : ٤ / ٤٠ — والإصابة : حاطب بن أبى بلتعة .

(٢) ابن إسحاق فى السيرة : ١٠/٤ وابن سيد الناس فى (عيون الأثر ١٦٧/٢) من طريقه .

وعرف « العباسُ بن عبد المطلب » أبا سفيان فقال ينبئه بالخبر :

« ويحك يا أبا حنظلة ، هذا رسول الله فى الناس ، واصباحَ قريشٍ إذا دخل مكة عنوة ! فأسلم ثكلتك أمك وعشيرتك »[1]

قال أبو سفيان :

« فما الحيلة فداك أبى وأمى ؟ » .

فأردفه « العباس » وراءه ، وسار به خلال المعسكر ، مارا بعشرة آلاف أوقدوا نيرانهم لتلقى الرعب فى قلوب المشركين .

فلما مرا بنار « عمر بن الخطاب » عرف أبا سفيان فأسرع إلى خيمة النبى ﷺ ، مستأذنا فى أن يضرب عنقه ...

وجاء العباس ، على أثره فقال : « إنى يا رسول الله قد أجرته » .

وأمسك القوم أنفاسهم حتى سمعوا كلمة الرسول عليه الصلاة والسلام :

« اذهب به يا عباس إلى رحلك ، فإذا أصبحتَ فائتنى به » .

وقضى « أبو سفيان » ليلته مؤرقًا يترقب حكم « محمد بن عبد الله » فى كبير قريش .

فلما كان الصبح جىء بأبى سفيان إلى حضرة النبى ﷺ ، وفى مجلسه كبار المهاجرين والأنصار[2]

وتكلم النبى ﷺ :

« ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأنِ لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟ »

قال : « بأبى أنت وأمى ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! والله لقد ظننت أنْ لو كان مع الله إله غيره ، لقد أغنى شيئا بعد ! »

---

(١) ابن اسحاق ، السيرة : ٤ / ٤٥ ــ والنقل منها ، مقابلا على صحيح البخارى ، ك المغازى ، مع (فتح البارى ٨ / ٤) وتاريخ الطبرى : ٣ / ٤٠ وطبقات ابن سعد : ٢ / ٩٨ .

(٢) السيرة : ٤ / ٤٥ ــ وتاريخ الطبرى : ٣ / ٤٠ .

قال النبى ﷺ :

« ويحك يا أبا سفيان : ألم يأنِ لك أن تعلم أنى رسول الله ؟ »

قال « أبو رملة » :

« بأبى أنت وأمى ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! أما هذه ، فوالله إن فى النفس منها حتى الآن شيئاً ! »

ولكن « أبا سفيان » ما لبث أن أعلن اسلامه ..

فالتمس « العباس » من النبى ﷺ أن يكرم الرجل بشىء يُزَكّيه لدى قومه ، فأجاب النبى الكريم :

« نعم ... من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن »[1]

وبعث أبو سفيان من نادى فى مكة :

« من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ... »

فما زالت أصداء الهتاف تُرجِّع فى الأفق حتى بلغت سمع « أم حبيبة » فهتفت وقد هزها الفرح :

« من دخل دار أبى فهو آمن ! »

ألا ما أكرم زوجها ﷺ ، وما أحلمه ، وما أنبله ، وما أوصله !

وسجدت لله شاكرة ...

وقامت لترى وقع النبأ الجليل على عائشة ، وحفصة ، وكل نساء النبى ﷺ ..

* * *

وأحست أن قد أزيح عن كاهلها عبء باهظ ، ومن تلك اللحظة لم تقبل قط أن تتحداها « عائشة » ، أو تمارس معها ما اعتادت أن تمارسه من تحكم وزهو ومباهاة .

(١) السيرة : ٤٦/٤ ــ وتاريخ الطبرى : ١١٧/٣ وطبقات ابن سعد : ٩٨/٢ والعيون : ١٧٠/٢ .

وظلت ما عاشت ، تقف لعائشة بالمرصاد ، وتتصدى لها كلما أسرفت فى غلوائها ، أو اشتطت فى اعتدادها بمكانتها .

حتى إذا حان الرحيل ، دعت إليها « عائشة بنت أبى بكر » فقالت لها وهى تحتضر :

« قد كاد أن يكون بيننا ما يكون بين الضرائر ، فتحللينني من ذلك ؟ »

أو قالت : « قد يكون بيننا ما يكون بين الضرئر ، فغفر الله لى ولك ما كان من ذلك » .

فحللتها عائشة واستغفرت لها ، واذ ذاك أضاء وجهها الشّاحب بنور الرضى وهمست :

« سررتنى سرَّكِ الله » .

وفعلت مثل ذلك مع « أم سلمة بنت زاد الركب »[1]

ثم رقدت بسلام ، وأودع جسدها ثرى البقيع الطيب ، فى المدينة المنورة فى سنة أربع وأربعين على الأرجح .

لها فى الكتب الستة خمسة وستون حديثا ، روت عنها بنتها حبيبة ربيبة المصطفى ﷺ ، وابن أخيها عبد الله بن عتبة بن أبى سفيان ، وابن أختها أبو سفيان بن سعيد بن المغيرة ، وعروة بن هشام بن المغيرة ، وأبو صالح السمّان ، وزينب بنت أبى سلمة ، ربيبة النبى ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم[2]

* * *

(١) أخرجه ابن سعد ، من حديث عائشة رضى الله عنها (٨ / ١٠٠) وابن حجر فى ترجمتها بالإصابة ، من طريق ابن سعد ، والسمط ١٠١ .

(٢) الإصابة ٨ / ٨٥ ، وتهذيب التهذيب ١٢ / ٤١٩ .

(١١)

ميمونة بنت الحارث الهلالية

آخِرُ أمهات المؤمنين

« ذهبت والله ميمونة ... أما إنها والله
كانت من أتقانا وأوصلنا للرحم »
عائشة بنت أبى بكر
الإصابة

« الأخوات مؤمنات »

لم يكن هنالك ما يشغل المسلمين بعد فتح « خيبر » وعودة بقية المهاجرين من الحبشة ، مثل التفكير فيما نص عليه « عهد الحديبية » فى ذى القعدة سنة ست ، من أن « يعود محمد وأصحابه إلى مكة فى العام الذى يليه ، فيدخلوها ويقيموا بها ثلاثة أيام ومعهم من السلاح السيوف فى قربها ، ولا شىء غيرها »[1] .

وبات المهاجرون يحلمون بالعودة إلى « أم القرى » ويتمثلون أنفسهم وقد آبوا إلى أرض الوطن ، فطافوا بالبيت العتيق ثم ملأوا أعينهم من مراتع الصبا ومثوى الأجداد .

لقد مضت أعوام ذات عدد منذ أخرجوا من ديارهم وحيل بينهم وبين البيت الذى جُعل مثابة للناس وأمنا ، يأتون إليه من كل فج عميق .

فلما سعوا إليه فى العام السادس للهجرة معتمرين مسالمين وصاروا على مرحلة من « مكة » ، قام لهم المشركون فصدوهم عن المسجد الحرام ، وإن قبلوا أخيرًا أن يتركوا المسلمين يعودون إليه فى قابل ...

ومرت الأيام بطيئة والليالى طويلات ، حتى استدار العام ونادى النبى ﷺ فى الناس كى يتجهزوا للخروج إلى مكة .

* * *

وركب ناقته « القصواء » وتبعه ألفا راكب من المهاجرين والأنصار

---

(١) انظر نص العهد فى المتفق عليه من حديث البراء بن عازب رضى الله عنه فى (اللؤلؤ والمرجان ك الجهاد ، الحديبية) .

يتلهفون شوقا إلى أقدم بيت عُبِد الله فيه ، وحرصا على السعى إلى مثابة حجهم ومهوى أفئدتهم .

وتراءت لهم على البعد رؤى حافلة مثيرة ، للقرية المباركة : مهد النبى الهاشمى ومنزل الوحى .

وارتفعت أصوات الحداة تبشرهم بالوعد الصادق ، وأمامهم « عبد الله بن رواحةالأنصارى » رضى الله عنه ، آخذا بخطام « القصواء » ينشد حاديا :[1]

خَلُّوا بنى الكفارِ عن سبيله
خلُّوا ، فكلُّ الخير فى رسوله

....

يـا ربِّ إنى مؤمـن بقيلـه
أعرف حقَّ الله فى قبولِـه

حتى دخلوا مكة ، آمنين محلقين رءوسهم ومقصِّرين لا يخافون ، وقد جلا عنها الكفار المشركون فما فيها منهم يومئذ أحد .

وصدق الوعد الحق :

﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ، فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾[2] . .

وهتفوا فى صوت واحد ملبين :

« لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك » .

فتجاوبت أرجاء « مكة » بدعاء المؤمنين ، ومادت الأرض تحت أقدام

---

(١) ابن اسحاق فى السيرة : ٤ / ١٣ ، وابن سعد فى الطبقات (٢ / ٨٨) وتخريجه فى (فتح البارى : ٧ / ٣٥١) .

(٢) آية ٢٧ سورة الفتح .

المشركين الذين ضربوا خيامهم خارج البلد الحرام ، وأحسوا كأن الجبال الشم الصلاب تكاد تتصدع من رهبة وجلال ...

وتتابع الدعاء من ساحة الحرم :

« لا إله الا الله وحده ، صدق وعده ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده » .

فما بقى مكى إلا وقد أيقن يومئذ أن يوم النصر الاكبر للمؤمنين جد قريب ...

وفعل المشهد المهيب أثره فى مكة وأهلها

فإذا سيدة من أكرم سيدات مكة ترنو إلى الركب النبوى وغاية أمانيها أن تغدو أما للمؤمنين .

تلك كانت « برة بنت الحارث بن حزن بن بجير العامرية الهلالية » إحدى الأخوات التى قال فيهن رسول الله ﷺ : « الأخوات مؤمنات »[1] .

شقيقتها « أم الفضل » لبابة الكبرى بنت الحارث » زوج العباس بن عبد المطلب وأم بنيه ، وأول امرأة آمنت بعد خديجة عليها السلام .

وأخوات برة لأمها :

« زينب بنت خزيمة الهلالية العامرية » أم المؤمنين وأم المساكين . و « أسماء بنت عميس الخثعمية » زوج جعفر بن أبى طالب ذى الجناحين ، وأم ابنه عبد الله ، وقد تزوجت من بعده أبا بكر الصديق فولدت له محمدا ، ثم خلف عليها الإمام على بن أبى طالب فولدت له يحيى ، رضى الله عنهم » .

و « سلمى بنت عميس » زوج حمزة بن أبى طالب ، أسد الله وشهيد أحد وأم بنته « أمامة » التى زوجها المصطفى عليه الصلاة والسلام ربيبَه سلَمة . أمُّهن جميعا ، هند بنت عوف بن زهير بن الحارث ، التى كان يقال فيها :

(١) انظرهن فى الطبقات الكبرى ٨ / ٢٤٩ ومجمع الزوائد : ك المناقب ٩ / ٢٤٩ .

« أكرم عجوز فى الأرض أصهارا هند بنت عوف : أصهارها ، رسول الله ﷺ ، وأبو بكر الصديق رضى الله عنه ، وحمزة والعباس ابنا عبد المطلب رضى الله عنهما ، وجعفر وعلى ابنا أبى طالب رضى الله عنهما » .

وكان لهند غير هؤلاء ، أصهار آخرون من ذوى المكانة : الوليد بن المغيرة المخزومى ، زوج لبابة الصغرى بنت الحارث ، أم خالد ، وأبىّ بن خلف الجمحى ، زوج ابنتها عصماء بنت الحارث ، وزياد بن عبد الله بن مالك الهلالى ، زوج عزة بنت الحارث .

ولبابة ، وعصماء ، وعزة ، بنات الحارث ، شقيقات لبرة ..[1]

كانت « برة » إذ ذاك أرملة فى السادسة والعشرين من عمرها ، قد مات عنها زوجها أبو رهم بن عبد العزى العامرى[2]

وكانت قد جعلت أمرها إلى شقيقتها « أم الفضل » فتحدثت به الأخت إلى زوجها العباس ، وجعلت له أمرها فأنكحها النبى ﷺ وليا عنها وأصدقها عنه أربعمائة درهم . وسماها ﷺ « ميمونة » وفى رواية عن الزهرى أنها التى وهبت نفسها للنبى ﷺ فأنزل الله تبارك وتعالى فيها : ﴿ **وامرأةً مؤمنةً إنْ وَهَبَتْ نفسَها لِلنبىِّ إنْ أراد النبىُّ أن يستنكحَها خالصةً لكَ من دونِ المؤمنين** ﴾[3] .

قال السهيلى : « لما جاءها الخاطب بالبشرى وكانت على بعير ، رمت بنفسها من على البعير وقالت : البعير وما عليه لرسول الله ﷺ » .

ولم يرد اسم « ميمونة » رضى الله عنها فى تفسير البخارى لآية الأحزاب

---

(١) انظر مع طبقات ابن سعد والاستيعاب والإصابة (ميمونة بنت الحارث) : السيرة ٤ / ١٩٦ ، والمحبر ١٠٧ ، وجمهرة الأنساب لابن حزم ٢٦٢ وعيون الأثر ٢ / ٣٠٨ والسمط الثمين ١١٣ .

(٢) هذه رواية ابن اسحاق فى السيرة ٤ / ١٩٦ ـــ والاستيعاب . قابل على تاريخ الطبرى : ٣ / ١٧٨ ـــ والاستيعاب والإصابة والسمط الثمين ١١٥ .

(٣) سيرة ابن هشام : ٢٩٦/٤ والاستيعاب ١٩١٦/٤ . والإصابة ١٩٢/٨ ، وعيون الأثر ٣٠٩/٢ . كلهم عن الزهرى . والآية من سورة الأحزاب (رقم ٢٠) .

(١١٥) وأسند فيها عن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت : كنت أغار على اللاتى وهبن أنفسهن لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأقول : أتهب المرأة نفسها ؟ فلما أنزل الله تعالى : ﴿ **تُرجِى إليك من تشاء منهنَّ وتؤوِى إليك من تشاءُ** . ﴾ ــ الآية ٥١ ــ قلتُ : « ما أرى ربَّكَ إلا يسارع فى هواك » خرجه الحافظ ابن حجر من مختلف طرقه وبمختلف رواياته وأسماء الواهبات ثم قال : " والمراد أنه صلى الله عليه وسلم ، لم يدخل بواحدة ممن وهبت نفسها له وإن كان مباحاً له لأنه راجع إلى إرادته لقوله تعالى ﴿ **ترجى إليك من تشاء منهن** ﴾ . . والمحفوظ أنه صلى الله عليه وسلم لم يدخل بأحد من الواهبات كما تقدم (فتح البارى ٨ / ٣٧٢)

* * *

كانت الأيام الثلاثة التى نص عليها عهد الحديبية[٢] ، قد قاربت نهايتها ، فود المصطفى لو يمهله المكيون ريثما يتم الزواج ، فيكسب بهذا الإمهال مزيدا من الوقت ، ليمكن للإسلام من هؤلاء الذين لا يزالوا يكفرون بألسنتهم عنادا وحسدا ...

فلما جاءه رسولا قريش يطلبان إليه أن يخرج ، إذ انقضى الأجل المنصوص عليه فى العهد ، قال مسالما :

« ما عليكم لو تركتمونى فأعرست بين أظهركم ، وصنعنا لكم طعاما فحضرتموه ؟ »

(١) نص العهد على أن يرجع ﷺ وأصحابه فلا يدخلوا مكة عامئذ ، السنة السادسة هـ ، ثم يدخلها بأصحابه فى عام قابل ، فيقيموا بها ثلاثة أيام ــ راجع نص العهد فى تاريخ الطبرى ٣ / ٧٩ وطبقات ابن سعد : ٢ / ٧٠ . مع (اللؤلؤ والمرجان ، ك الجهاد ، باب الحديبية) .

لكن رسولى قريش ، أدركا أن مكة لن تلبث أن تفتح أبوابها لمحمد طائعة ، إذا امتد مقامه بها أياما أخريات .

رَدًّا فى جفاء : « لا حاجة لنا فى طعامك فاخرج عنا »[1]

فنزل على كلمتهما وفاءً بعهده ، وأذَّن فى المسلمين بالرحيل مخلفا مولاه « أبا رافع » بمكة ، ليلحق به فى صحبة « ميمونة » .

....

(1) السيرة : ٤ / ١٤ وطبقات ابن سعد ٢ / ٨٨ وتاريخ الطبرى : ٣ / ١٠٠ ، والاستيعاب والإصابة ، وعيون الأثر ٢ / ١٤٨ .

البقعة المباركة

وفى « سرف » قرب التنعيم ، على بريدٍ من مكة ، جاءت « ميمونة » يصحبها مولى النبى عليه الصلاة والسلام . . .

فبنى بها ﷺ فى ذى القعدة من سنة سبع ، ثم انصرف بها راجعا إلى « المدينة » .

وسماها « ميمونة » أن كان زواجه بها فى المناسبة الميمونة الغراء ، التى دخل فيها أم القرى ، لأول مرة من سبع سنين ، ومعه صحابته آمنين لا يخافون ...

ودخلت « ميمونة »بيت النبى مسالمة ، قد اكتفت من دنياها بما منَّ الله عليها به من نعمة الإسلام ،وشرف الزواج بالنبى الكريم عليه الصلاة والسلام .

وما من ريب فى أن الغيرة أخذتها من « عائشة » ثم من « مارية » : أن استأثرت الأولى بأوفى حظ من حب النبى عليه الصلاة والسلام ، وكان للثانية شرف أمومتها لابراهيم .

وما من ريب كذلك فى أنها لم تقاوم عاطفة الجماعة ، حين تجمح الغيرة بنساء النبى ، وهى منهن .

لكن مؤرخى الإسلام وكتاب السيرة ، لا يذكرون لها ، فيما عدا ذلك ، حادثة مخاصمة انفردت بها فى البيت المحمدى .

وفى الصحيحين ، أنه ﷺ كان فى بيتها حين اشتد به الوجع فى مرض الموت ، فرضيت أن ينتقل ليُمرضَ حيث أحب ، فى بيت عائشة .

* * *

---

(١) السيرة : ٤ / ١٤ ــ وتاريخ الطبرى : ٣ / ١٠١ ــ والاستيعاب : ٤ / ١٩١٨ ووفاء الوفا للسمهودى : ١ / ٣١٦ .

فلما انتقل عليه الصلاة والسلام إلى جوار ربه الأعلى ، عاشت « ميمونة » تذكر اليوم الميمون الذى جمعها بخير البشر ، وتحن إلى البقعة المباركة فى « سرف » حيث بنى بها ...

وقد أوصت أن تدفن فى موضع قبتها هناك ، فلما ماتت سنة إحدى وخمسين ، على الأرجح ، صلى عليها ابنُ أختها عبد الله بن عباس ، وأوصى الذين يحملونها بالترفق بها . حتى أرقدوها حيث أحبت ...[1]

وتركت من ورائها ذكرى عاطرة ...

حدث ابنُ أختها « يزيد بن الأصم العامرى » قال :

« تلقيت عائشة من مكة ، أنا وابنٌ لطلحة من أختها ، وقد كنا وقفنا على حائط من حيطان المدينة فأصبنا منه ... فأقبلت عائشة على ابن أختها تلومه ، ثم أقبلت علىَّ فوعظتنى موعظة بليغة ثم قالت : أما علمت أن الله ساقك حتى جعلك فى بيت من بيوت نبيه ؟ ... ذهبتْ والله ميمونة ، ورُمِى بحبلِك على غاربك . أما أنها كانت والله من أتقانا لله ، وأوصلنا للرحم »[2] .

سلام على ميمونة ...

وسلام على نساء النبى ﷺ ، أمهات المؤمنين رضى الله عنهن .

* * *

(١) لاخلاف فى مدفنها فى موضع قبتها بسرف ، لكنهم اختلفوا فى تاريخ وفاتها . نقل ابن سعد عن الواقدى أنها ماتت سنة إحدى وستين . وقال ابن عبد البر : سنة إحدى وخمسين ، وقال ابن حجر : هو الأثبت . وتعقب قول الواقدى فوهمه فيه مستدلا بحديث عائشة بعد وفاة ميمونة رضى الله عنهما . ولم يذكر ابن سيد الناس فى وفاتها غير سنة إحدى وخمسين ، وقد بلغت ثمانين سنة (عيون الأثر ٢ / ٣٠٩) .

(٢) رواه ابن سعد فى الطبقات بسنده إلى يزيد ، وابن حجر فى ترجمتها بالإصابة ، من طريق ابن سعد .

مـارية القبطيّة

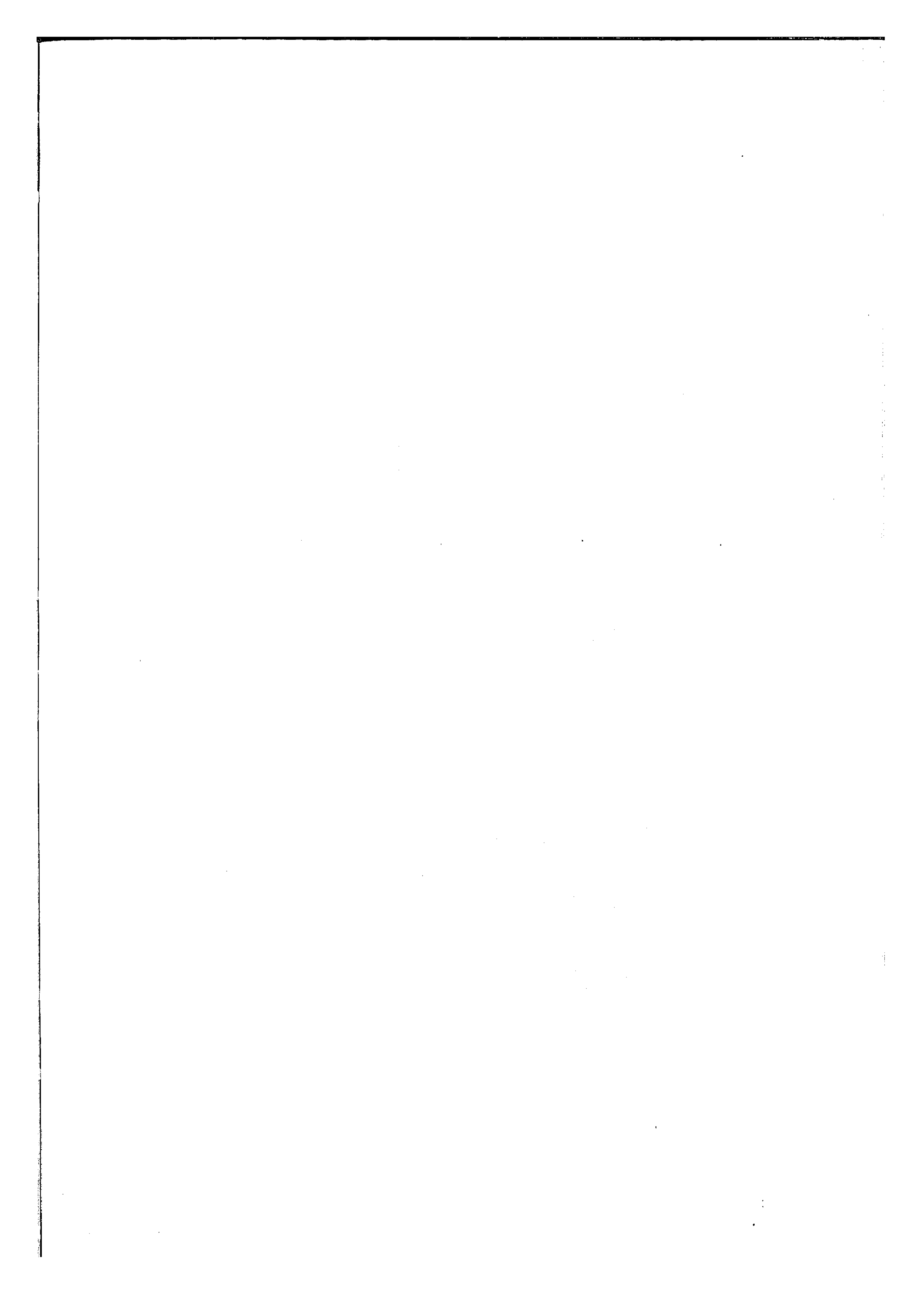
أمّ إبراهـيم

« إنكم ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط ،
فاستوصوا بأهلها خيرا ، فإن لهم ذمة ورحما »

رسول الله ﷺ

(صحيح مسلم)

باب وصية النبى ﷺ بأهل مصر



هدية مِن مِصر

غير بعيد من بيت النبى ، فى منزل خاص بعوالى المدينة ، كانت تقيم سَرِية للنبى ﷺ لم تحظ بلقب أم المؤمنين ، ولكنها حظيت دونهن جميعا بنعمة أمومتها لابنه ابراهيم عليه السلام إلى جانب حظوتها ، مثلهن ، بشرف الصحبة .

ولم تكن تقيم فى حجرات النبى بالمسجد ، إلا أن أثرها فى هذه الحجرات وساكناتها كان جد بعيد .

فمن تكون هذه السرية ؟ وكيف دخلت حياته ﷺ ؟ وأى موضع كان لها فى هذه الحياة ؟

فى قرية عتيقة من صعيد مصر ، تدعى « حَفْن » من كورة « أُنْصِناَ »[1] الواقعة على الضفة الشرقية للنيل تجاه الأشمونين ، ولدت « مارية بنت شمعون » لأب قبطى ، وأم مسيحية رومية .

وأمضت بها حداثتها الأولى قبل أن تنتقل فى مطلع شبابها الباكر مع أختها « سيرين » إلى قصر « المقوقس عظيم القبط ملك الإسكندرية » .

وقد سمعت هنالك بما كان ظهور نبى فى جزيرة العرب يدعو الى دين سماوى جديد ، وكانت فى القصر حين وفد « حاطب بن أبى بلتعة » رضى الله

---

(١) الضبط عن أبى عبيد البكرى فى معجم ما استعجم ، وفيه : ويقال إن سحرة فرعون كانوا منها ، وأنه جلبهم منها يوم الموعد . وهى واقعة فى شرق النيل وكانت حسنة البساتين والمتنزهات كثيرة الثمار والفواكه » نقله التقى المقريزى . وقال أبو حنيفة الدينورى : ولا ينبت البِنج إلا بأنصنا وهو عُودٌ ينشر منه ألواح السفن . (خطط المقريزى ١ / ٢٠٤) .

وللأستاذ حفنى ناصف بحث فى (موطن مارية القبطية من الديار المصرية) قدمه إلى مؤتمر المستشرقين فى أثينا سنة ١٩١٥ . وانظر القاموس الجغرافى للبلاد المصرية لمحمد رمزى ، القسم الأول : البلاد لبلاد المندرسة (أنصنا : ص ١٣٢) ط دار الكتب المصرية .

عنه[١] ، موفدا من هذا النبى العربى يحمل رسالة إلى المقوقس .

وأذن له فى الدخول ، فأدى الرسالة ، كتاب النبى ﷺ :

« بسم الله الرحمن الرحيم .

« من محمد بن عبد الله إلى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلِمْ تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم القبط . يا أهلَ الكتابِ تعالَوا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينَكم إلَّا الله ولا نشركَ به شيئًا ، ولا يتخذَ بعضُنا بعضًا أربابا من دونِ اللَّهِ ، فإنْ تَوَلَّوا فقولوا اشهدوا بأنَّا مسلمون »[٢] .

وقرأ المقوقس الكتاب ثم طواه فى عناية وتوقير ، ووضعه فى حُقٍّ من عاج دفعه إلى واحدة من جواريه .

والتفت بعد ذلك إلى « حاطب » يسأله أن يحدثه عن النبى — ﷺ — ويصفه له ، فلما فعل ، فكر المقوقس مليا ثم قال لحاطب :

« قد كنت أعلم أن نبيا قد بقى ، وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وهناك كان مخرج الأنبياء ، فأراه قد خرج من أرض العرب ... ولكن القبط لا تطاوعنى » وضنَّ بملكه أن يفارقه . ثم دعا بكاتبة فأملى عليه رده :

« ... أما بعد ، فقد قرأت كتابك وفهمت من ذكرت فيه وما تدعو إليه ، وقد علمت أن نبيا قد بقى ، وكنت أظن أنه يخرج بالشام ...

« وقد أكرمت رسولك ، وبعثت لك بجاريتين لهما مكان من القبط عظيم وكسوة ، ومطية لتركبها ، والسلام عليك »[٣] .

---

(١) من البدريين . وكان أحد الستة الذين بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتبه إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام فى محرم سنة سبع بعد فتح خيبر (السيرة ٤ / ٢٥٤ ، طبقات ابن سعد ١ / ٢٥٨ ، تاريخ الطبرى ٤ / ٨٤) مع ترجمة حاطب رضى الله عنه ، فى (الاستيعاب : رقم ٤٥٧) ومارية ، رضى الله عنها فى نساء الاستيعاب ٤٠٩١ ، ونساء الاصابة ٩٧٩ .

(٢ — ٣) تاريخ الطبرى ٣ / ٨٥ والمحبر ٩٨ ، وعيون الأثر٢ / ٢٦٦ والنقل منه ، وفى الهدية ، عند ابن سعد (١ / ٢٦٠) الحمار عفير ، أو يعفور . حكاه ابن حجر فى ترجمة مارية بالإصابة .

— مع الآية ٦٤ من سورة آل عمران .

ودفع « المقوقس » كتابه إلى « حاطب » معتذرا بما يعلم من تمسك القبط بدينهم ، وموصيا إياه بأن يكتم مادار بينهما ، فلا يسمع القبط منه حرفًا واحدا .

وانطلق « حاطب » عائدا إلى النبى ﷺ ، ومعه « مارية » وأختها « سيرين » وعبد خصى ، وألف مثقال ذهبا ، وعشرون ثوبا لينا من نسج مصر ، وبغلة شهباء « دلدل » وجانب من عسل « بنها » وبعض العود والند والمسك .

وشعرت الأختان بوحشة لفراق الوطن ، فسارتا تملآن أعينهما من الوادى الحبيب ، حتى إذا غابت عنهما آخر معالمه ، ألقتا نظرة وداع ، على الأرض التى حُلَّت فيها تمائمهما ، ودرج عليها صباهما .

وأحس « حاطب » بما تجد الأختان الشابتان من شجن الفراق ، فأقبل عليهما يحدثهما عن تاريخ لبلاده عريق ، ويروى لهما ما وعى من قصص وأساطير نسجها الزمان حول مكة والحجاز طوال قرونٍ لا عداد لها ، ثم انثنى يتحدث عن النبى ﷺ ، حديث مؤمن وامق وتابع صاحب ، فأخذت الشابتان بما سمعتا وانشرح قلباهما للإسلام ونبيه الكريم .

واستغرقهما التفكير فى الحياة الجديدة التى توشك أن تستقبلهما ، وفى السيد النبى الذى ينتظر فى « المدينة » رجوع صاحبه « حاطب » بجواب المقوقس . وفى الإصابة من طريق ابن سعد ، أن حاطبا عرض الإسلام على مارية ورغبها فيه ، فأسلمت هى وأختها .

* * *

حتى بلغ الركب المدينة سنة سبع من الهجرة ، وقد عاد النبى ﷺ من « الحديبية » بعد أن عقد الهدنة مع قريش .

وتلقى ﷺ كتاب المقوقس ، وهدية مصر ...

وأعجبته « مارية » فاكتفى بها ، ووهب أختها « سيرين » شاعره « حسان بن ثابت » فهى أم ولده عبد الرحمن .

وطار النبأ إلى دور النبى ، أن شابة مصرية حلوة ، جعدة الشعر ، جذابة الملامح قد جاءت من أرض النيل هدية للنبى ﷺ فأنزلها بمنزل لحارثة بن النعمان الأنصارى ، قرب المسجد .

وتكلفت « عائشة » ما استطاعت من جهد ، لكى تعلل نفسها بألا خطر عليها من هذه الشابة الجديدة ، فما كانت سوى جارية قبطية غريبة ، أهداها سيد إلى سيد .

لكنها راحت ترقب فى كثير من القلق ، مظاهر اهتمامه ﷺ بتلك المصرية الطارئة ، وقد أثار جزعها أن تراه ﷺ يكثر من التردد عليها ، ويمكث لديهَّا طويلا « فكان عامة الليل والنهار عندها » فى ساعات فراغه[1] .

وفى رواية للواقدى بسنده عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى صعصعة ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجب بمارية القبطية ، وكانت بيضاء جعدة جميلة ، فأنزلها وأختهاعلى أم سُلَيم بنت ملحان ، فدخل عليهما فعرض عليهما الإسلام فأسلمتا . وحولها إلى مالٍ له بالعالية ، ووهب أختها سيرين ، حسانَ بن ثابت[2] .

---

(١) أسنده ابن سعد فى الطبقات من حديث السيدة عائشة ، وذكره ابن حجر فى الإصابة من طريق ابن سعد .

(٢) طبقات ابن سعد : ١ / ١٣٤ .

طيفٌ وأمَل

مضى عام أو نحو من عام و« مارية » سعيدة بحظوتها لدى السيد الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، قد اطمأن بها المقام فى كنفه ، وأرضاها أن يضرب عليها الحجاب شأن أمهات المؤمنين .

وانحصرت أمانيها وخواطرها ، بل انحصر وجودها كله فى شخص ذلك السيد العظيم الذى ربطها القدر به على غير ميعاد ، فكان لها السيد والصاحب والأهل والوطن ، وصار همها أن تظل أبدا موضع حظوته ورضاه .

وكانت تحمل فى كيانها سحر مصر ، وفى أعطافها أريج الوادى العطر ، كما كانت تحف بها رؤى مثيرة وأطياف ساحرة ، لإيزيس فى حبها العبقرى ، ونفرتيتى فى جمالها الباهر ، وحتشبسوت فى ملكها العتيد ، وكيلوباتره فى جاذبيتها الآسرة ..

ولم يَغِض ذلك النبع الدافق الذى كان يمدها فى كل آن بعذب الحديث وشهى السمر ، على أنها كانت مشوقة أبدا لأن تستعيد قصة « هاجر » الفتاة المصرية التى جاءت من أرض النيل ، وحملت من سيدها « ابراهيم » فأثارت غيرة امرأته السيدة « سارة » فما زالت بزوجها حتى مضى بتلك المصرية وابنها إلى البيت العتيق ، حيث تركهما هنالك : وحيدين بوادٍ غير ذى زرع عند أطلال البيت المحرم العتيق .

وطالما شاق « مارية » أن تسمع الحديث عن نجدة السماء التى هدت « هاجر » إلى نبع زمزم ، وكيف بدأت الجزيرة العربية بانبثاق ذاك النبع المبارك حياة جديدة ، وكيف عاشت « هاجر » ملء التاريخ ، وصار مسعاها مهرولةً

بين الصفا والمروة ، شعيرة مقدسة من شعائر حج العرب فى الجاهلية والإسلام .

وألِفت « مارية » حين كانت تخلو بنفسها ، أن تفكر فى « هاجر » ومصريتها وأمومتها لاسماعيل وللعرب ، فلم تخطئ فيها ملامح شبه بها : فكلتاهما جارية مصرية ، وكانت « هاجر » هبة من سارة للنبى ابراهيم عليه السلام ، كما أن « مارية » هبة من المقوقس للنبى محمد ﷺ وقد أثارت كلتاهما غيرة الزوجات الشرعيات فى بيت السيد النبى ابراهيم ، و محمد ، صلوات الله عليهما .

ولكن « هاجر » كانت أما لولد ابراهيم ، فهل تغدو « مارية » أما لولد محمد ؟ ! ..

ما أبعد الأمنية ، بل ما أدناها من المستحيل ! ...

لقد تزوج المصطفى ﷺ منذ ماتت السيدة خديجة ، عشر زوجات ، منهن الشابة الفتية ، والمرأة الناضجة ، ومنهن من كانت ذات ولد . ولكن أرحامهن جميعا أمسكت فما تجود بولد واحد للنبى الذى تخطف الموت أبناءه من خديجة ، فلم يدع له سوى ابنة واحدة ، هى السيدة « فاطمة الزهراء » .

وقد شارف الستين من عمره ، وبدا كأنه كف عن تمنى الولد ، بعد سنين مجدبة ، مع زوجات ذوات عدد .

فأنّى لمارية أن يكون لها مثل ما كان لهاجر من أمومتها لإسماعيل ؟

يا لها من أمنية أبعد من الوهم ، ويا له من أمل أوهى من السراب !

....

بُشْـــرَى

استقبلت « مارية » عامها الثانى فى حياة النبى ﷺ ، وما تكفّ عن ذكر هاجر ، واسماعيل ، وابراهيم .

وفجأة أحست بوادر حمل مستكن ، فكذبت إحساسها واتهمت يقظتها ، وخيل إليها أن المسألة لا تعدو أن تكون وهما جسمه شوقها الملح إلى الأمومة ، وتفكيرها الدائم فى هاجر واسماعيل .

وكتمت ما بها شهرا وشهرين وهى فى ريب من الأمر ، لا تدرى أحق هو أم ذاك حلم يقظة ورؤيا منام .. حتى تجسمت البوادر الأولى وصارت أوضح من أن تتهم .

هنالك أفضت به إلى أختها « سيرين » فأكدت لها أن ليس فى الأمر وهم ولاشبه وهم ، وإنما هو جنين حى .

وأخذ « مارية » من الانفعال والفرح ما قرب وما بعُد ، فما حسبت أن السماء سوف تستجيب لدعائها هكذا ، وتحقق أملها الذى بدا عقيما واهيا كالسراب .

واستغرقتها نشوة حالمة ، حتى جاء السيد الرسول ، فأفضت إليه ﷺ بالسر الخطير الذى تجنه أحشاؤها .

وتذكر ما كان يلحظه من توعكها وقلقها وزهدها فى الطعام ، وهى أعراض عرفها من قبل فى « خديجة » فى مستهل كل حمل ، لكنه حسبها فى « مارية » وعكة طارئة لا تلبثُ أن تزول .

ورفع إلى السماء وجها مشرق الأسارير يشكر لخالقه ذاك العزاء الجميل

الذى منَّ به على عبده الرسول ، إثر فقد ابنته الغالية « زينب » بعد أن ماتت قبلها رقية ، وأم كلثوم ، ومات عبد الله ، والقاسم ...

سبحانه ، جلَّتْ قدرته وعظمت آياته ، ووسعتْ رحمتهُ عبده المصطفى ، كما وسعتْ من قبله ، عبديه ابراهيم وزكريا عليهما السلام قال تعالى :

﴿ **هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ، قَالُواْ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ * فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ * قَالُواْ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ ، إِنَّهُ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ** ﴾[١] .

ومن آياته تعالى فى زكريا والبشرى : ﴿ **قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِى غُلَامٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا * قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا** ﴾[٢] .

لكن « مارية » لم تكن عجوزا ، كما لم يكن ﷺ عقيما قد بلغ من الكِبَر عِتِيًّا ! وفاض عالمهما المشترك بالهناءة والغبطة .

* * *

سرعان ما سرت البشرى فى انحاء المدينة أن المصطفى ﷺ ينتظر مولودا له من « مارية المصرية » ، وما بقارىء حاجة إلى أن نصور له وقعها الأليم على نساء النبى ﷺ .

أتحمل هذه الغريبة الطارئة ، ولما يمض عليها فى المدينة سوى عام واحد ، وإن منهن من أمضت معه ﷺ عدة أعوام بلا حمل ؟ ...

أيؤثرها الله بهذه النعمة الكبرى ، وأمهات المؤمنين ــ وفيهن بنتا أبى بكر

---

(١) سورة الذاريات : الآيات : ٢٤ – ٣٠ .
(٢) سورة مريم : الآيتان ٨ , ٩ .

وعمر ، وبنت زاد الركب ، وحفيدة أبى طالب ، وبنت أبى سفيان — محرومات لا يلدن ؟

روى ابن سعد من طريق الواقدى ، أن رسول الله ﷺ « حجب مارية وكانت قد ثقلت على نسائه ، وغِرْنَ عليها ، ولا مثل عائشة »[1] .

ونقلها ﷺ إلى « العالية » بضواحى المدينة ، توفيرا لراحتها وسلامتها ، وعناية بصحة جنينها .

وسهر عليها يرعاها ، وكذلك فعلت أختها « سيرين » حتى بلغ الجنين أجله وحانت ساعة الوضع ذات ليلة من شهر ذى الحجة سنة ثمان من الهجرة ودعا ﷺ قابلتها « سلمى : زوج أبى رافع » ثم انتحى ناحية من الدار ، يصلى ويدعو ...

فلما جاءته أم رافع بالبشرى[2] أكرمها كل الإكرام ، وخف إلى مارية فهنأها بولدها الذى أعتقها من الرق ثم حمل وليده بين يديه فى غبطة وسماه « ابراهيم » تيمنا باسم جد الأنبياء[3] .

وتصدق ﷺ على مساكن المدينة بوزن شعر الوليد ورقا ، وتنافست نساء الأنصار أيتهن ترضعه ، وأحبوا أن يفرّغوا مارية للنبى ﷺ لما يعلمون من هواه فيها ، فاختار مرضع ولده ، وجعل فى حيازتها قطعة من الماعز كى ترضعه بلبنها إذا شح ثدياها[4] .

---

(١) الطبقات الكبرى ، ترجمة ابراهيم عليه السلام (١ / ١٣٥) .

(٢) وفى رواية ان الذى حمل البشرى الى النبى ﷺ ، مولاه أبو رافع زوج سلمى : (ابن سعد ١ / ١٣٦ السمط : ١٤٠) وانظر الاستيعاب : ١ / ٥٤ .

(٣) السمط الثمين : ١٤٢ — وانظر الاستيعاب : ٤ / ١٩١٣ .

(٤) فى (صحيح مسلم ، ك الفضائل : ح ٢٣١٥) أنها « أم سيف » ، امرأة أبى سيف قين بالمدينة . وفى رواية للواقدى أنها أم بردة بنت المنذر الأنصارية (١ / ١٣٦) وانظر ترجمته عليه السلام فى الإصابة والاستيعاب : ١ / ٥٥ وفى رواية أنه ﷺ ، حلق رأس ولده يوم سابعه ، وتصدق بزنة شعره فضة ، وذبح كبشين « وفاء الوفاء : ١ / ٣١٦ » .

وراح يرقب نموه يوما بعد يوم ، ويجد فيه أنسه ومسرته ، ويود لو شاركته دنياه كلها فى هذا الأنس . .

حمله يوما بين ذراعيه إلى « عائشة » فبلغ من شدة قهرها أن كادت تبكى مما تجد ، لكنها أمسكت عبرتها مغيظة . . .

وأدرك ﷺ على الفور مدى ما تكابد ، فانصرف بولده وهو يرثى لعائشة ...

وظلت النار ترعى تحت رماد من التجمل والتكلف والمدارة ، حتى كان اليوم الذى اجتمع فيه ﷺ بمارية فى بيت « حفصة » فاندلع الضرام من تحت الرماد متوهجا ، وكان ما كان من قصة التحريم .

....

وخُيل لمارية أنها بلغت مناها ، فهذه هى تلد للنبى ﷺ ولداً كما ولدت « هاجر » لإبراهيم ابنه اسماعيل عليهما السلام .

وهذه هى محنة الغيرة تنتهى على خير لها .

ولم يسعد « مارية » شىء قدر ما أسعدها أن تهب السيد المصطفى عليه الصلاة والسلام على اليأس غلاما تقر به عينه ، ويتعزى به عمن فقد من أبناء السيدة خديجة أم المؤمنين الأولى رضى الله عنها .

* * *

لكنها لم تنج من غيرة نساء النبى ﷺ :

فى (الإصابة) من طريق عَمرة ، بنت عبد الرحمن ، عن عائشة رضى الله عنها ، قالت : « ما غِرتُ على امرأة إلا دون ما غِرْتُ على مارية ، وذلك أنها كانت جميلة جعدة فأعجب بها رسول الله ﷺ ، وكان أنزلها أولَ ما قدم بها فى بيت لحارثة بن النعمان ، الأنصارى ، فكانت جارتنا ، فكان عامة الليل

والنهار عندها .. فجزعتُ فحولها إلى العالية ، وكان يختلف إليها هناك ، فكان ذلك أشد علينا » زادت فى رواية : « ثم رزقها الله الولدَ وحُرِمناه منه » .

على أن غيرة أمهات المؤمنين ، رضى الله عنهن ، لم تنلْ من » مارية » ما نالته شائعة سوء أرجف بها مرجفون من أهل المدينة .

ولم يتخل الله تعالى عنها فى محنتها ، بل أتاح لها دليلا قاطعا على براءتها من الريبة ، فى حديث صحيح عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، أخرجه مسلم فى (صحيحه : كتاب التوبة ، باب براءة حرم النبى ﷺ ـــ أم ولده ابراهيم ـــ من الريبة) وأخرجه الحافظ أبو عمر ابن عبد البر فى ترجمتها ، رضى الله عنها ، بالاستيعاب[١] .

* * *

(١) وانظر مناقب ابراهيم عليه السلام فى (مجمع الزوائد : ٩ / ١٦١ ـــ ١٦٢) .

الهـلالُ الغـارب

لكن سعادتها لم تطل سوى عام وبعض عام ، ثم كانت المحنة الفادحة والثكل المر ..

مرض « ابراهيم » ولما يبلغ عامين من عمره ، فجزعت أمه ودعت إليها أختها ، وقامتا ساهرتين حول فراشه تمرضانه ونفساهما تذوبان عليه من لهفة وقلق ، لكن الحياة أخذت تنطفيء فيه رويدا روّيدا ... فجاء أبوه معتمدا على يد « عبد الرحمن بن عوف » لشدة ألمه ، فحمل صغيره من حجر أمه وهو يجود بنفسه ، ووضعه فى حجره محزون القلب ضائع الحيلة ، لا يملك إلا أن يقول فى أسى وتسليم :

« إنا يا إبراهيم لا نغنى عنك من الله شيئا » ثم ذرفت عيناه وهو يرى ولده الوحيد يعالج سكرات الموت ، ويسمع حشرجة احتضاره ، مختلطة بعويل الأم الثكلى والخالة المفجوعة ..

عن « أنس بن مالك » رضى الله عنه قال : دخلنا مع رسول الله ﷺ على « أبى سيف ، القيْن » وكان ظئرا لابراهيم عليه السلام ، فأخذ رسول الله ﷺ ابراهيم فقبّله وشمّه . ثم دخلنا عليه بعد ذلك وابراهيمُ يجود بنفسه . فجعلت عينا رسول الله ﷺ تدمعان فقال له عبد الرحمن بن عوف ، رضى الله عنه : وأنت يا رسول الله ؟ فقال ﷺ : « يا ابن عوف ، إنها رحمة . ثم أتبعها أخرى فقال ﷺ : إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون[1] » .

---

(١) متفق عليه من حديث أنس رضى الله عنه والنقل من (اللؤلؤ ، ك الفضائل ح ١٤٩٥) .

توفى عليه السلام لعشر خلون من شهر ربيع الأول سنة عشر من الهجرة على الأرجح[1] .

وانحنى الأب الثاكل على جثمان فقيده فقبله والدمع يفيض من عينيه ثم تمالك نفسه وقال : « يا إبراهيم ، لولا أنه أمرٌ حق ووعد صدق ، وأن آخرنا سيلحق بأوّلنا ، لحزنّا عليك حزنا هو أشد من هذا . وإنا بك يا ابراهيم لمحزونون . تبكى العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب »[2] .

ثم نظر إلى مارية فى عطف ورثاء ، وقال يواسيها : « إن ابراهيم ابنى ، وإنه مات فى الثدى ، وإن له لظئرين تكملان رضاعه فى الجنة »[3] .

وأقبل ابن عمه ﷺ « الفضل بن عباس » فغسَّل الصغير الميت ، وأبوه ﷺ جالس يرنو اليه فى حزن .

وحُمل من بيت ظئره على سرير صغير وصلّى عليه أبوه ، عليه الصلاة السلام وكبَّر أربعاً . ثم سار وراءه إلى البقيع ، وأضجعه بيده فى قبره ، ثم سوى عليه التراب ونداه بالماء[4] .

وآب المشيعون واجمين ، وقد غام الأفق وانكسفت الشمس ، فقال قائلون : « أنها انكسفت لموت إبراهيم » .

وبلغت الكلمة مسمع النبى ﷺ ، فصلَّى بالناس صلاة الكسوف وخطبهم ، قال : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتم ذلك فادعوا الله وكبروا وصلوا وتصدقوا »[5] .

---

(١) طبقات ابن سعد . ولا خلاف فى أنه عليه السلام ولد سنة ثمان (فتح البارى : ٣ / ١١٣) .

(٢) الاستيعاب : ١ / ٥٦ ــ والنقل منه ــ والإصابة : ابراهيم بن محمد عليه السلام . والسمط الثمين ١٤٣ .

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب الفضائل : ٤ /١٨٠٨ (ح ٢٣١٦) وانظر (فتح البارى ١١٣/٣) .

(٤) طبقات ابن سعد : ١ / ١٤١ ، عيون الأثر ٢ / ٢٩١ ــ والنقل منها ــ والاستيعاب من طريق الواقدى ١ / ٥٦ .

(٥) متفق عليه من عدة طرق بألفاظ متقاربة (اللؤلؤ والمرجان : ك الكسوف) .

وطوى جرحه فى قلبه الكبير صابرا مستسلما لقضاء الله فيه ، واعتكفت « مارية » فى بيتها تحاول ان تتجمل بالصبر حتى لاتنكأ الجرح فى قلب السيد الرسول ، فإذا عز الصبر خرجت إلى البقيع فاستروحت لقرب فقيدها ، والتمست راحة فى البكاء .

* * *

ولكن أيامه ﷺ لم تطل بعد موت « ابراهيم » فى السنة العاشرة للهجرة ، فما أهل ربيع الأول من السنة التالية حتى شكا ﷺ ، ثم لحق بربه الأعلى ، وترك « مارية » من بعده تعيش خمس سنوات فى عزلة عن الناس ، لا تكاد تلقى غير أختها سيرين ، ولا تكاد تخرج إلا لكى تزور قبر الحبيب بالمسجد ، أو قبر ولدها بالبقيع .

فلما ماتت سنة عشر من الهجرة « أخذ أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه يحشد الناس لجنازتها ، ثم صلى عليها ودفنها بالبقيع[1] .

* * *

(١) ترجمتها رضى الله عنها فى الطبقات والاستيعاب والإصابة .

وصية النبى ﷺ بأهل مصر

﴿ كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت ﴾ فحسبُ « مارية » أنها دخلت فى حياة النبى ﷺ ، وأنْ آثرها الله تعالى بأمومتها لإبراهيم عليه السلام .

وارتبطت ذكراها بذكرى هاجر فى وعى التاريخ وضمير الأمة ، ورجَّعت الأجيال ما بينهما من صلة حميمة ، منذ جاءتا الحجاز ، فتاتين من مصر ، هديتين من ملكها : هاجر أم ولد ابراهيم عليه السلام ، ومارية أم ولد محمد عليه السلام . ولعل أول من ربط بين مارية وهاجر ، سيدنا محمد ﷺ ، فى وصيته بأهل مصر . محفوظة موثقة ، مدونة فى صحاح الحديث فى (باب وصية النبى ﷺ بأهل مصر) .

بعنوان هذا الباب ، أخرج مسلم فى (صحيحه) من طريقين حديث أبى ذر الغفارى ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إنكم ستفتحون مصر ، وهى أرض يسمى فيها القيراط ، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذمة ورحما ـــ أو قال : ذمة وصهرا . »

وفى رواية : « استوصوا بأهل مصر خيرا فإن لهم نسبا وصهرا . »

النسب من جهة هاجر أم « اسماعيل عليه السلام ، جدِّ العرب العدنانية . والصهر من جهة مارية القبطية أم ابراهيم بن محمد » عليه السلام . ففى أهل مصر ، خئولة ولد ابراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام .

وتداول الحفاظ حديث الوصية النبوية بأهل مصر ، فرواها « أبو يعلى

---

(١) صحيح مسلم ، ك الفضائل ، باب (وصية النبى ﷺ بأهل مصر) .

الموصلى » فى مسنده ، و « أبو القاسم الطبرانى » فى معجمه الكبير و « نور الدين الهيثمى » فى مجمع الزوائد .

وقد فتحت مصر سنة عشرين بعد تسع سنين من وفاة المصطفى ﷺ ، فكانت الوصية من وثائق الفتح : ذكرها « عمرو بن العاص ، رضى الله عنه » فى مفاوضات الصلح بينه وبين مندوبى المقوقس ، قال لهما فيما قال : « وقد أعلمنا ، نبينا ﷺ ، أنا مفتتحوكم وأوصانا بكم ، حفظاً لِرَحمنا فيكم ، وان لكم ، إن أجبتمونا ذمة إلى ذمة ، ومما عهد إلينا أمير المؤمنين : استوصوا بالقبطيين خيرا فإن رسول الله ﷺ أوصانا بالقبطيين خيرا لأن لهم رحما وصهرا .. »[1] .

وأخرج مؤرخو مصر الإسلامية ، حديث الوضية فى كتب فتوح مصر وفضائلها ، فأخرجها من عدة طرق « ابن عبد الحكم أبو القاسم عبد الرحمن » فى مستهل كتابه (فتوح مصر) والربيع الجيزى فى (من دخل مصر من الصحابة ، رضى الله عنهم) .

ومَن بعدهما من المؤرخين الحفاظ من : أبى جعفر الطحاوى ، وابن يونس الصدفى فى تاريخيهما الكبيرين ، إلى التقى المقريزى ، وابن تغرى بردى فى (النجوم الزاهرة) والجلال السيوطى فى (حسن المحاضرة) .

ودخل حديث الوصية فى كتب الدلائل ، أذكر منها (دلائل النبوة لأبى بكر البيهقى ، ولأبى نعيم الأصبهانى) .

وكذلك أخذت بلدة (حَفْن ، من كورة أنصنا) الأثرية القديمة من صعيد مصر موضعها من كتب المؤرخين والجغرافيين والبلدانيين فى (النجوم الزاهرة : ١ / ٢٩) عن ابن كثير :

« وقد وضع عنهم ـــ أهل حَفْن من كورة أُنْصِنا ـــ معاويةُ بن أبى سفيان

---

(١) تاريخ الطبرى : ٤ / ٢٢٧ ـــ ٢٢٨ (سنة عشرين) .

الجزية إكراما لابراهيم بن رسول الله ﷺ » من مارية القبطية . قال ياقوت فى (حفن) من معجم البلدان : « وكلّم الحسن بن على رضى الله عنهما معاوية لأهل حفن فوضع عنهم معاوية خراج الأرض » .

ويقال إن « عبادة بن الصامت الأنصارى » رضى الله عنه ، وكان ممن شهد فتح مصر ، بحث عن تلك البلدة وسأل عن موضع بيت مارية بها ، فبنى به مسجدا .

﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾

صدق الله العظيم

* * *

الكتابُ الثالث

بناتُ النَّـــبيِّ

(صلى الله عليه وعلى آله وسلم)

تقـديم :

تمضى القرون والأدهار ، وشخصية « محمد ﷺ » موضع اهتمام الكتاب والدارسين على اختلاف نحلهم وشتى مذاهبهم ، يجدون فيها المادة الخصبة للدراسة الجديدة أبدا ، ويلتمسون لديها ما يجلو أسرار العظمة الإنسانية كما تمثلت فى بشر رسول ، بهر الدنيا وصنع التاريخ ، وإنه ليأكل الطعام ويمشى فى الاسواق ..

ذلك لأن الانسانية ــ على كثرة من عرفت فى تاريخها الطويل من رسل وأنبياء ، وقادة وأبطال ــ ستظل أبد الدهر ترنو إلى هذا النبى العربى الذى اصطفاه الله تعالى بشرا رسولا ، فكانت هذه البشرية آية عظمته ، بقدر ما هى تكريم للبشرية .

وحين تختلف بالناس الأديان ، وتفرقهم المذاهب والملل والأهواء أحزابا وشيعا ، تظل البشرية ما بقيت ، تعتز بأن يكون منها نبى ، حمل إلى الدنيا رسالة التوحيد التى رفعت عنها وصمة الوثنية ولعنة الشرك ، وتلاقى الناس من آيات الله تعالى فى ختام رسالاته :

﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾

وهذا الإيمان العميق بعظمة البشر الرسول ، هو الذى وجَّه دراساتى للجوانب التى اخترتها من شخصيته الفذة : فكان كتابى عن « أم النبى » محاولة لفهم جانب البنوة فى الوليد اليتيم الذى وضعته امرأة من قريش تأكل القديد ، كما تضع كل أنثى من البشر ، ليكون بعد أن يبلغ أشده ، المصطفى المبعوث بآخر رسالات الدين .

وكان كتابى عن « نساء النبى » ﷺ محاولة لدرس شخصية الزوج الرسول ، إذ يمارس حياته الزوجية فى بيته بفطرةٍ سوية ، لم تجردها النبوة من العواطف والرغبات ، ولم تنكر على نسائه ــ أمهات المؤمنين ــ نوازع الفطرة وميراث حواء . .

وهذا كتابى عن « بنات النبى » ﷺ أحاول فيه أن أقدم شخصية الأب الرسول ، وأن أجتلى عاطفة الأبوة ، ممثلة فى شخص نبى إنسان ، اصطفاه الله رسولًا ، وأراد له أن يكون والدا لبنات أربع ، فى بيئةٍ وأدت البنات وفُتنت بالبنين ...

* * *

وبعد ، فأحسب أن قارئى يقدر أن لموضوع هذا الكتاب من الجلال والمهابة والحرمة عند مثلى ، ما يحميه من شطط القلم وجموح الخيال ، ومن ثم لا أرانى فى حاجة إلى أن أؤكد أن مادة الكتاب تاريخية أصيلة ، قد أخذت من مصادرها الأصول ، وأن ليس لى من عمل فيه سوى جهد البحث وأمانة النقل وأسلوب التناول والأداء . والله مع مَن بَرَّ واتَّقى ، له الحمد والمنة وبه المستعان .

المبحث الأول

الأبوّة فى المجتمَع العَربىّ

ـــ الأبوَّة فى الجاهليَّة

ـــ الأبوَّة العَربيَّة فى الرسَالة المحَمَّديّة

وَفى شَخْصِ رَسُولِ ٱللهِ عَلَيْهِ الصَّلاَة والسّلام



الأبوّة فى الجاهليّة

حين تهيأت للكتابة عن بنات النبى ﷺ ، بدأت أقرأ فى كتب السيرة والحديث والتاريخ ، لأستخلص منها ما يتصل بهؤلاء الكريمات اللواتى شرُفن بأجَلِّ أبوة عرفتها البشرية منذ كانت . غير أنى ما كدت أمضى فى القراءة ، حتى وجدت أنى لن أستطيع الوفاء بحق الموضوع ، إذا لم أبدأ قبل كل شىء بدراسةٍ لأبوة محمد ﷺ ، وهى دراسة شاقة ، تحتاج دون ريب إلى دراية عامة بالمجتمع العربى ومعرفة مكان الأبوة فيه ، ليكون لنا من هذا ما يجلو صورة الأب الرسول ، ويزيدنا إدراكا لنواحى السمو والجلال فيها .

والحديث عن الأبوة فى المجتمع العربى ، حديث يطول ، وأخشى إذا أنا أرسلت قلمى يكتب فيه ملء عنانه ، أن يستغرق أكثر القدر المفروض لهذا الكتاب أو يجور على الموضوع الأصيل الذى يحدده عنوانه ، ومن ثم رأيت ضبطا للتناول ، أن أنسقه فى مباحث ثلاثة : ألم فى أولها بالأبوة العربية كما تصورها الحياةُ الجاهلية ، وأنتقل منها إلى هذه الأبوة فى الرسالة المحمدية ، ومن ثم فى شخص الأب الرسول عليه الصلاة والسلام .

* * *

أما الأبوة العربية كما تصورها الحياة الجاهلية ، فربما بدا لأول وهلة ، أنها غير ذات اتصال قريب بموضوعنا ، لكنا إذا ذكرنا أن محمدا ﷺ تزوج قبل أن يبعث بخمسة عشر عاما ، وأن بناته الأربع جميعا قد ولدن فى الجاهلية ، وأدركن المبعث وثلاث منهن متزوجات ، إذا ذكرنا هذا ثم أضفنا إليه ما نعرف من احتكام الوراثة وأثر البيئة ، بدت لنا صلة « الأبوة العربية فى الجاهلية »

بموضوعنا ، قوية وثيقة إلى حد لا يسمح لنا بتجاهلها أو التغاضى عنها ، حين نحاول أن نتحدث عن « محمد » ﷺ فى أبوته ...

ذلك لأنه إذا كان المنهج العلمى ، يأبى أن نبتر شخصا من بيئته التى صنعته ، أو أن نفصل بينه وبين آبائه وأجداده الذين تنقل فى أصلابهم جيلا بعد جيل ، فنحن أولى بأن نذكر هذا ، فى الحديث عن بشر رسول ، طالما اعترف بفعل الوراثة فى مثل قوله ﷺ : « **تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس** » أو قوله « **لم يزل الله ينقلنى من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفى مهذبا ، لا تتشعب شعبتان إلا كنت فى خيرهما** » وقال عليه الصلاة والسلام : « **إن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل ، واصطفى قريشا من كنانة ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم** »[1] كما اعتز بأمهاته « العواتك من سُليم » ، وابن امرأةٍ من قريش تأكل القديد . . .

وهذه الفطرة البشرية السوية فيه ، تعدها الإنسانية — كما قلت غير مرة — على اختلاف الأديان والأجناس ، وعلى مر الحِقَب والدهور ، من آيات عظمته وملامح شخصيته ، وهى التى تجعلنا نرجع بالحديث عن أبوته ﷺ ، إلى ماضٍ قريب وبعيد ، ملتمسين من صميم البيئة العربية فى جاهليتها ، الأصول الأولى للأبوة التى تجلت لنا فى « محمد بن عبد الله » قبل مبعثه ، ثم بعد أن اصطفاه الله نبيا رسولا ...

والملحظ الأول الذى نسجله هنا ، هو أن المجتمع العربى فى الجاهلية قد كان يخضع لنظام القبيلة ، وللأبوة فى هذا النظام مقام جليل وشأن ذو خطر ، ذلك لأن القبيلة فى أصلها لا تعدو أن تكون فروعا تكاثرت من جذر واحد هو الأب الذى تنتمى إليه . ثم ، بمضى الزمن تنمو الفروع فيغدو كل منها قبيلة مستقلة ، على نحو ما نرى فى انفصال الخلايا الحيوية أو الاجتماعية عن

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه من حديث واثلة بن الأسقع رضى الله عنه . وانظر (عيون الأثر ١ / ٢٣) .

أصلها الأول ، عندما تتهيأ لها مقومات الحياة مستغنية عن ذلك الأصل ...

ويحدث أحيانا ، أن تنتمى القبيلة إلى الأم ، وهو طور عرفته العربية فى جاهليتها القديمة ، وبقيت منه آثار فى أنساب العرب المسلمين ...

وطبيعة هذا النظام ، تجعل شيخ القبيلة ــ الذى هو فى الواقع أبوها الكبير ــ ملكا غير متوج ، وحاكما لا يُعصى له أمر ، فمن حدثته نفسه بالخروج على سلطانه ، كان هذا السلوك خروجا على أعراف القبيلة ، جزاؤه الخلع والطرد من مجتمع القوم ...

وما بنا حاجة إلى التماس الشواهد على ما كان للأب من مكانة فى الجاهلية العربية ، فما ذاك بالأمر الذى يخفى ، ولنا أن نقول بعد هذا إن لقريش على وجه الخصوص ، أن تدَّعى فضلَ تمثيلها لأعزِّ ما عرف المجتمع العربى من تكريم للأبوة ، إذ كانت هى القبيلة التى مَثَّلتْ أكثر ما للعرب فى الجاهلية من أمجاد ، واجتمع لها من العزة والمنعة والجاه والشرف ، ما لم يجتمع مثله لقبيلة أخرى . . . فلا عجب أن اعتزَّت بالأصول والآباء ، وحرصت على نقاء النسب وتخير الأرحام ، وآية ذلك ما نرى من تسجيلها لنسب بطونها وأفخاذها ، ماضية به إلى قرون وأجيال ، لم يفتها منه أم ولا أب ، على ما نعرف من صعوبة ذلك والأمية فيهم فاشية ، والعهد بهم جد قديم . ولايشغلنا اتهام بعض المُحْدَثِين والمفتونين ، بأنها أنساب اختُرِعَتْ بأَخَرة . فقد صح منها على ضوابط المنهج النقلى ما يصل إلى عدنان وقحطان[1] ثم إن هذا الاتهام على وهنه ، أبلغ فى الدلالة على ما للأبوة من خطر فى تقدير القوم ، وإلا لما عناهم قط أن يجهدوا أنفسهم باختراع سلاسل من الأنساب يسدون بها الثغرات التى تركتها أنامل الزمن فى تاريخ العرب الطويل .

والحق أن الاعتزاز بالأبوة كان من أظهر ما يميز المجتمع العربى ، وأن تكريم

---

(١)راجع فيه : مقدمة ابن عبد البر لكتابه (القصد والأمَم فى أنساب العرب والعجم ، ومقدمة ابن حزم لكتابه (جمهرة أنساب العرب) .

الآباء قد كان تقليدا متبعا ، فمن ارتاب فى هذا فليذكر أن العرب يبدأون تاريخهم الدينى بقصة جدهم « اسماعيل » الذبيح الذى جاد بالحياة طاعة لأبيه ، وتجنيبا له من ذنب عصيان الخالق(١) ، ثم يختمون تاريخهم الدينى فى الجاهلية ، بقصة بنى عبد المطلب الذين ما ترددوا فى طاعته يوم أخبرهم بنذره لَيذبحنَّ أحدهم لله عند الكعبة لو بلغوا عشرة بل لبوا طائعين ومضوا يحملون قداحهم إلى الكعبة ، حيث وقفوا هنالك بجانب أبيهم الشيخ ، ينتظرون أيهم يكون الذبيح(٢) .

ولنذكر كذلك أن العرب لم يجدوا ما يبررون به عبادتهم للأوثان بعد أن دعاهم محمد ـــ ﷺ ـــ إلى التوحيد ، إلا أنهم وجدوا آباءهم لها عابدين :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنْزَلَ ٱللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آباءَنَا ، أَوَ لَوْ كَانَ آبَآؤُهُم لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ ؟(٣)

﴿ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَآءَ ، مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَآؤُهُمْ مِّن قَبْلُ ﴾(٤) .

وما نقموا على « محمد ، ﷺ » شيئا مثلما نقموا عليه أن غضَّ من آبائهم وسفه أحلامهم وعاب آلهتهم ، بل إن « أبا طالب » نفسه ـــ عم النبى ﷺ وكافله ـــ ودَّ لو يتبع ابنَ أخيه ، لولا أن وجد غضاضة فى مفارقة دين آبائه ، فقال معتذرا : « أى ابن أخى ، إنى لا أستطيع أن أفارق دين آبائى وما كانوا عليه ، ولكن والله لا يخلصُ إليك شىء تكرهه ما بقيت » (٥).

وكذلك فعلت العرب البائدة فى سالف الحقب وغابر الدهور : ردوا

---

(١) تاريخ الطبرى ١٩١/٢ ط الحسينية .
وانظر الآية ١٠٢ من سورة الصافات وأقوال المفسرين فيها .

(٢) السيرة ١٦٠/١ ـــ ١٦٤ ط الحلبى ، وتاريخ الطبرى : ١٧٤/٢ .

(٣) البقرة ١٧٠ وانظر معها آيات : لقمان ٢١ ، والمائدة ١٠٤ ، والأعراف ٣٨ .

(٤) سورة هود : ١٠٩ .

(٥) السيرة (٢٦٤/١) وتاريخ الطبرى ٢١٤/٢ .

رسلهم بمثل ما ردت به قريش رسولها ، فقوم عاد قالوا لنبيهم هود ﴿ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ أَبَآؤُنَا ﴾[1] .

وثمود : ﴿ قَالُواْ يَـٰصَـٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـٰذَا أَتَنْهَـٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ أَبَآؤُنَا وإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾[2] .

هم الآباء دائما : سنّتهم عبادة ، ودينُهم ميراث ، واتّباعهم فرض محتوم .

ونظام القبيلة ، الذى جعل للأبوة مثل تلك المكانة فى المجتمع العربى القديم ، هو نفسه الذى جعل العرب يتعلقون بالبنين ويحرصون على الإنجاب ويعتزون بكثرة الولد ، إذ كانت القوة والكثرة ، هما مناط العزة والمنعة ، وقوام الحياة فى مجتمع كهذا يقوم على التنافس بين القبائل والتزاحم على موارد العيش . فلا عجب أن صارت كثرة الولد نعمة ما بعدها نعمة ، كما صار تعدد الزوجات ظاهرة طبيعية لا غرابة فيها ولا شذوذ ..

ونذكر هنا ـــ خبر « عبد المطلب » ـــ جد المصطفى عليه الصلاة والسلام ـــ وقد انتهت إليه سقاية الحجيج وراثة عن جده « قصىّ » فكان يلقى فى سبيل ذلك كل المشقة والعناء . واذ يطيل التفكير فيما تناقله الرواة عن بئر زمزم المباركة التى طُمِرت تحت رمال الزمن ، تلح عليه الرؤى فى أن يمضى للتنقيب عن البئر المباركة التى بثت الحياة فى الوادى الأجرد ، منذ فجرها الله للجد الأعلى اسماعيل . فيمضى « عبد المطلب » ومعه ابنه الحارث ، وليس له يومئذ ولد غيره ، فما كاد يجىء بالمعول ويبدأ فى الحفر حتى قامت اليه قريش ، تقسم ألا تتركه يحفر فى ذلك المكان الذى شاءت الأقدار أن يقع بين الوثنين الكبيرين : « أساف ونائلة » . وأدرك عبد المطلب أن قريشا إنما استضعفته لقلة ولده ، فنذر لئن وُلِدَ له عشرة أبناء ثم بلغوا معه بحيث يمنعونه لينحرن أحدهم لله عند الكعبة . ثم تلا ذلك ما هو ذائع مشهور من انطلاقه

---

(١) سورة الأعراف : الآية ٧٠ .

(٢) سورة هود : ٦٢ ، وانظر معها آيات : الزخرف ٢٣ ، لقمان ٢١ ، ابراهيم : ٤٠ .

ببنيه العشرة إلى الكعبة وخروج السهم على عبد الله — أصغر بنيه — فهمَّ بذبحه لولا أن كان الفداء ![1]

وللقصة دلالتها الصادقة على الاعتزاز بكثرة الولد فى مجتمع القبائل ، حيث لا أمل لإحداها فى البقاء ، إذا لم يكن لها من أبنائها من يمنعونها ويحمون حماها ...

ولا أريد أن أدع الحديث عن الأبوة والبنوة عند العرب الماضين ، دون أن أعرض هنا مشهدا إنسانيا مؤثرا ، من القرآن الكريم ، لعاطفة الأبوة وما لها من سلطان قاهر لا قبل لبشر بمقاومته — حين يدعو الواجب — ولو كان من الأنبياء المصطفين . ذلك هو مشهد « نوح » عليه السلام ، حين ركب ومن اتبعوه فى الفُلْكِ :

﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ، وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ * وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ * قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[2] .

فما أرحم الأبوة تأبى أن تلعن الولد الكافر أو تبرأ منه أو تدعو عليه . وهذه

---

(١) ابن هشام : السيرة ١/٢٦٤ — تاريخ الطبرى ٢/١٧٤ . والخبر بتفصيل فى كتابى (أم النبى عليه الصلاة والسلام) .

(٢) سورة هود ، الآيات ٤٢ — ٤٨ .

الآيات البينات لا تجحد بشرية الأنبياء ولا تبرئهم من نوازع غريزة لولاها لما قامت حياة ..

والله تعالى لم يلعن الأب بدعائه للابن الضال ، ولم يطرد به عبدَه نوحا من رحمته ، ويحرمه شرف مكانه رسولا يدعو إلى الحق ، بل وعظه ، جل جلاله ، ثم أمره أن يهبط بسلام من الله وبركات عليه وعلى أمم ممن معه !

وسلام على إبراهيم إذ يدعو ربه :

﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1]

* * *

هل لنا أن نقول بعد هذا ، إن علاقة الآباء بالأبناء فى المجتمع العربى بلغت من القوة مبلغا لا يعرفه مجتمعنا العصرى الحديث ، الذى يميل بالتدريج نحو الانفصام ، ويتخلى شيئا فشيئا عن تقاليده الموروثة فى الأبوة والبنوة ، فيعترف للآباء بحقهم فى تحديد النسل ، وللأبناء بشخصية كاملة الحرية والاستقلال ، بل ربما اعترف لهم أحيانا بأنهم أحق بالحياة بما أنهم أصحاب الغد . وعلى الآباء أن يخلوا لهم الطريق ! !

وقلما يفتش مجتمعنا العصرى عن آباء الرجل وأجداده ، على حين كان المجتمع العربى القديم يعتز بكرم الأبوة وعراقة الأصل وشرف المنبت .

....

(١) سورة ابراهيم . الآيتان ٣٥ ، ٣٦ .

الأبوّة العَربيَّة

فى الرسالة المحمدية ، وفى شخص الرسول عليه الصلاة والسلام

من فجر المبعث ، عرفت قريش أن رسالة التوحيد تدعو إلى نبذ دين الآباء وتمحق الأصنام والأوثان التى ظلوا لها عاكفين ...

وما كانت قريش لتأبى أن تصغى إلى الأمين الذى ما عهدت عليه كذبا قط ، لولا أن جوهر رسالته يقوم على التوحيد ، ولا يرضى بما دون القضاء على الآلهة الموروثة عن الآباء :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ ٱللهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ ؟[1]

على أن القرآن الكريم فى محقه لوثنية الأسلاف ، أبقى للأبوة حرمتها فجعل برَّ الوالدين تاليا للتوحيد : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِٱلْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ، وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾[2]

ولم يأذن الإسلام للابن بعقوق الأبوين حتى مع الشرك ، بل نهاه الله تعالى عن طاعتهما فى ذلك ، دون أن يهدر حقهما عليه فى أن يصاحبهما فى الدنيا معروفا قال تبارك وتعالى :

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِى عَامَيْنِ

---

(١) آية ١٧٠ سورة البقرة .

(٢) الإسراء : آيتا ٢٣ . ٢٤ وانظر معهما آيتى : ٣٦ النساء . ١٥١ الانعام .

أنِ آشكُرْ لِى وَلِوَالِدَيْكَ إلَىَّ الْمَصِيرُ * وَإنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أنْ تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا ، وَصَاحِبْهُمَا فِى الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ، وَآتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أنَابَ إلَىَّ ، ثُمَّ إلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[1] .

وعرض القرآن كذلك للبنوة ، فصرح فى آيات محكمات بأن البنين زينة الحياة الدنيا ، وعدَّهم من النعم الكبرى التى منَّ الله بها على عباده :

﴿ يُرسلِ السماءَ عليكُم مِدْرَارًا * ويُمْدِدْكُم بأموالٍ وبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لكُم أنْهَارًا ﴾ .

﴿ المالُ والبنونَ زِينةُ الحياةِ الدنيا ﴾[2]

ويقال هنا إن القرآن الكريم حذرنا من الفتنة بالأبناء ، لما يعلم من إسرافنا فى حبهم والشغف بهم ، فطرة الله التى فطر الناس عليها :

﴿ وَآعْلَمُوا أنَّمَا أمْوَالُكُمْ وَأوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأنَّ آللَّهَ عِنْدَهُ أجْرٌ عَظِيمٌ ﴾[4]

لكن فى هذا التحذير تنبيها على ما للبنين علينا من سلطان يشق علينا أن نقاومه ، وما لهم فى قلوبنا من حب قد يعمى ويصم ...

* * *

والعلاقة بين الأبناء والآباء تأخذ فى الرسالة المحمدية وضعا ساميا ، بحيث لا يهدرها اختلافُ الدين ولا يفصمها تباين العقيدة . وبلغ من تقدير القرآن الكريم لقوة هذه العلاقة أن نتلو هذه الآيات فى هول اليوم الآخر :

﴿ يَـٰأيُّهَا آلنَّاسُ آتَّقُواْ رَبَّكُمْ إنَّ زَلْزَلَةَ آلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى آلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ آللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ الحج ١ ـــ ٢

---

(١) سورة لقمان : ١٤ . ١٥ .

(٢) معها آيات المدثر ١١ ـــ ١٦ . النحل : ٧٢ المؤمنون ٥٥ . الشعراء ١٣٣ .

(٣) آل عمران ١٤ ، ومعها آيات : الحديد ٢٠ سبأ ، المنافقون ٩ ، التغابن ١٥ .

(٤) الأنفال : ٢٨ ، معها : التغابن ١٥ ، آل عمران ١٠ ، المنافقون ٩ ، سبأ ٣٧ .

وقد كان النبى ﷺ القدوة الصالحة للمؤمنين والمثل الأعلى فيهم ، فرأى المسلمون من أفعاله ﷺ ، وسمعوا من أحاديثه ، ما لمس أعمق مشاعر الأبوة فيهم ، واستثار أنبل ما فى نفوسهم التى جُبِلت على توقير الآباء ورعاية الأبناء ...

قال ﷺ : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وشهادة الزور »[1]

وقدَّم بر الوالدين على الجهاد فى سبيل الله : أقبل رجل على النبى ﷺ فقال : جئت أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغى الأجر من الله . قال : « فهل من والديك أحد حى ؟ » قال : نعم . قال : « فتبتغى الأجر من الله ؟ » قال : نعم . قال : « فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما »[2]

وحدَّث الصحابى « معاوية بن جاهمة السلمى » رضى الله عنه قال : « أتيت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ، إنى كنت أردت الجهاد معك أبتغى وجه الله والدار الآخرة . قال : ويحك ، أحيَّة أمُّك ؟ .. قلت : نعم ... قال : « ارجع فَبِرَّها » ثم أتيته من الجانب الآخر فقلت : يا رسول الله انى كنت أردت الجهاد معك أبتغى وجه الله والدار الآخرة ، قال : ويحك ، أحية أمك ؟ قلت : نعم يا رسول الله قال : فارجع إليها فبرها » . . .

ثم أتيته من أمامه ، فأعدت ما قلت ، فقال : « ويحك ! . . الزم رِجْلَها ، فثمَّ الجنة ! »[3] .

وفى (كتاب الإيمان من الصحيحين) حديث عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما : قال رسول الله ﷺ : « من الكبائر شتم الرجل والديه » قالوا :

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه ، فى كتاب الإيمان ، من عدة طرق .

(٢) صحيح مسلم كتاب البر والصلة .

(٣) فى رواية ابن عبد البر بالاستيعاب (٣ / ١٤١٣) أنه ﷺ قال لمعاوية : « فالزمْها ، فإن الجنة تحت قدميها » .

يا رسول الله ، وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال : « نعم ، يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه » .

وعن أبى أمامة رضى الله عنه ، أن رجلا قال : يا رسول الله ، ما حق الوالدين على ولدهما ؟ ... قال : « هما جنتك ونارك » .

وإنه لحق لا يهدره الشرك : قالت أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما : قدمت علىَّ أمى وهى مشركة ، فى عهد رسول الله ﷺ ، فاستفتيتُه قائلة : إن أمى قدمت وهى راغبة ، أفأصِلُ أمى ؟ .. قال : « نعم ... صِلِى أمَّك »

وأخرج « مسلم » فى كتاب فضائل الصحابة ، حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : كنت أدعو أمى إلى الإسلام وهى مشركة ، فدعوتها يوما فأسمعتنى فى رسول الله ﷺ ما أكره ، فأتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكى ، قلت : يا رسول الله ، إنى كنت أدعو أمى إلى الإسلام فتأبى علىِّ فدعوتها اليوم فأسمعتنى فيك ما أكره ، فادعُ اللَّهَ أن يهدى أمَّ أبى هريرة . فقال ﷺ « اللهم اهدِ أمَّ أبى هريرة » فخرجت مستبشرا بدعوة نبى الله ﷺ . فلما جئت فصرت إلى الباب فإذا هو مجاف ، فسمعتْ أمى خَشْفَ قَدمىَّ فقالت : مكانَك . وسمعتُ خضخضة الماء . قال : فاغتسلتْ ولبستْ دِرعَها وعجلتْ عن خمارها . ففتحتْ الباب ثم قالت : يا أبا هريرة ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله . فرجعتُ إلى رسول الله ﷺ وأنا أبكى من الفرح ، قلت : يا رسول الله ، أبشر ، قد استجاب الله دعوتك وهدَى أمَّ أبى هريرة . فحمد الله وأثنى عليه وقال خيرا » . . .

* * *

وكذلك لا ينقطع هذا البر بالموت : عن مالك بن ربيعة الساعدى رضى الله عنه ، قال : بينا نحن عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من بنى سلمة فقال : يا رسول الله ، هل بقى من بر أبوى شىء أبرهما من بعد موتهما ؟ ..

قال : نعم ... الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التى لا تُوصَل إلا بهما ، وإكرام صديقهما » .

وإنما استحقت الأبوة هذه المنزلة السامية ، لما تبذل وتحتمل فى سبيل الأبناء ، ولما تمنح من حب صادق وحنان خالص ، ولأنها فى جوهرها بذل وتضحية وإيثار . ورسول الله ﷺ فى إنسانيته الرفيعة أكرم من يقدر هذا . فى صحيح الحديث أن سبيا قدم على النبى ﷺ بالمدينة « فإذا امرأة منهم قد تحلب ثديها ، إذا وجدت صبيا فى السبى أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته ، فقال النبى ﷺ لأصحابه : أترون هذه طارحة ولدها فى النار ؟ قالوا : لا ، وهى تقدر ألا تطرحه . فقال : الله أرحم بعباده من هذه بولدها »[1] .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : « كنا مع رسول الله ﷺ فى بعض غزواته ، فمر بقوم ، وامرأة فيهم تحصب تنورها ومعها ابن لها ، فإذا ارتفع وهج التنور تنحت به ، فأتت النبى ﷺ فقالت : أنت رسول الله ؟ .. قال : نعم ... قالت : بأبى أنت وأمى ، أليس الله بأرحم الراحمين ؟ .. قال : بلى ... قالت : أليس الله أرحم بعباده من الأم بولدها ؟ .. قال : بلى .. قالت : فإن الأم لا تلقى ولدها فى النار .

فأكب رسول الله ﷺ يبكى ثم رفع رأسه لها وقال : « إن الله لا يعذب من عباده إلا المارد المتمرد الذى يتمرد على الله ويأبى أن يقول لا إله الا الله » .

وفى صحيح الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : أتت امرأة النبى ﷺ بصبى لها فقالت : ادع الله له فلقد دفنتُ ثلاثة ... قال : « دفنتِ ثلاثة ؟ ... لقد احتظرت بحظار شديد من النار » .

وأخرج مسلم فى صحيحه حديث عائشة رضى الله عنها ، قالت : قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا : أتُقَبِّلُون صبيانكم ؟ فقالوا :

---

(١) صحيح البخارى : ك ٧٨ باب ١٨ وسنن ابن ماجه : ك ٣٧ باب ٣٥ .

نعم . قالوا : لكنا والله ما نفعل . فقال رسول الله ﷺ : « وما أملِكُ ، إن كان الله نزع منكم الرحمة ؟ »

وأخرج معه حديث أبى هريرة ، قال : إن الأقرع بن حابس التميمى أبصر رسول الله ﷺ يقبل الحسن . فقال : إن لى عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم . فقال رسول الله ﷺ : « إن من لا يَرحم ، لا يُرحم »

وليس عجبا من دين الفطرة ، ألا يوصِّى الوالدين بولدهما كما وصَّى الإنسان بوالديه . ذلك لأن الفطرة السوية تعرف عقوق الأبناء ، فأما عقوق الآباء فلا تعرفه أبدا . وعلى هذا المبدأ ، تقرر فى الشرع أن « لا يُقادَ والد بولده » فالأصل فى الأب أن يفتدى ولده بالمهجة و الروح ، ومحال أن يؤذيه إلا تحت وطأة ظروف صعبة تعطل إرادته وتخرجه عن أبوته وتفقده وعيه ورشده .

* * *

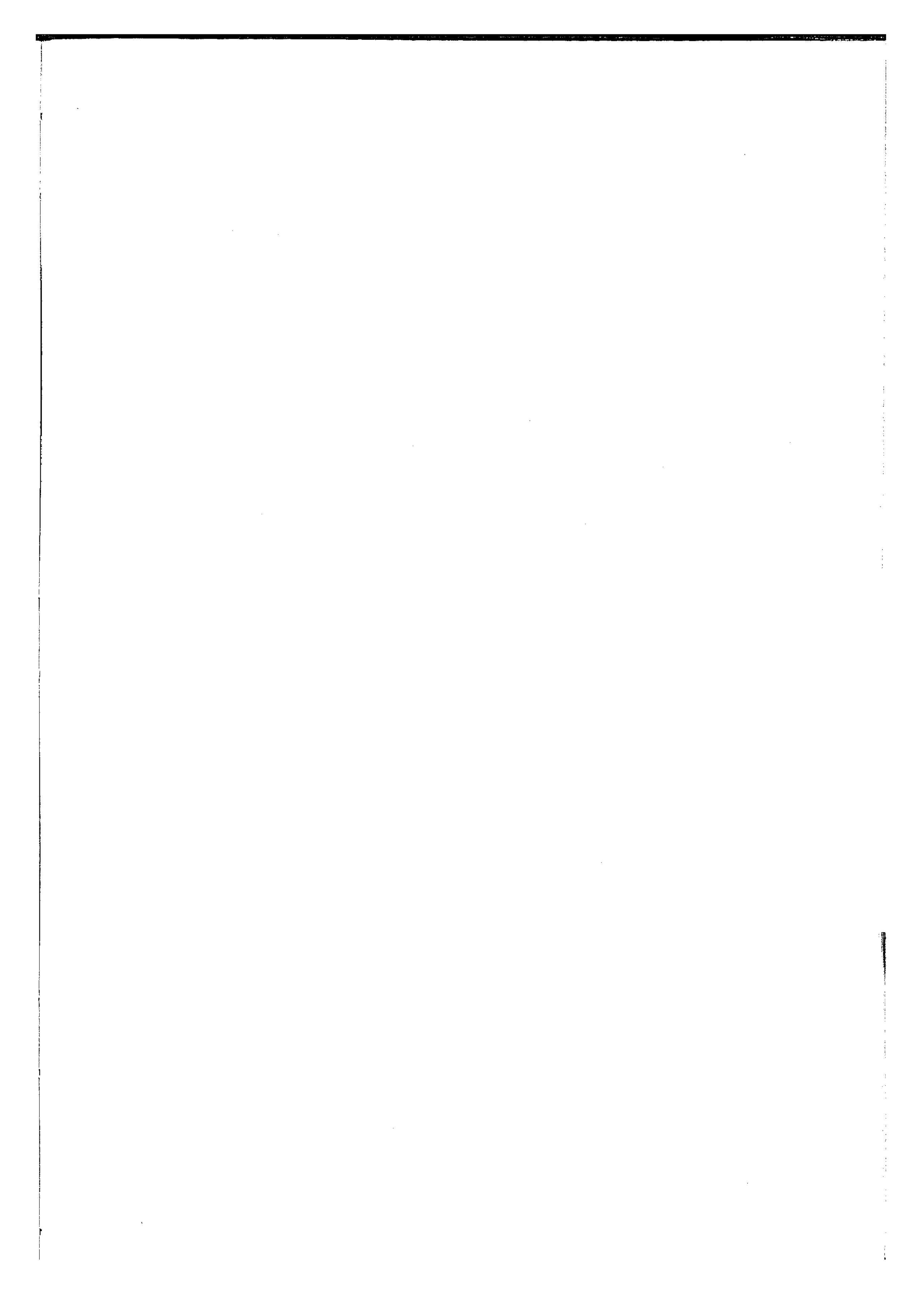
المبحث الثانى

الأنثى فى المجْتمَع العربىّ

— « وليس الذَكَر كالأنْثى »

— « وإذا المَوءودَةُ سُئِلَتْ »

— المثَل والقُدوَة



﴿ وليس الذَكَرُ كالأنثىٰ ﴾

فى التناسل بقاء النوع . وكل كائن حى مدفوع إليه بأقوى غرائزه . وينفرد الإنسان بأنه الذى يعى سنة الفطرة ويدرك حكمة التناسل ، ويتعلق طموحه بأن يكون ولده امتدادا لحياته على وجه أصلح ، ومطمح آماله الكبار .

لكن الذى يبدو شذوذا فى منطق الفطرة ، هو كراهة الآباء مولد الإناث ، وهن حاملات أجنة البشرية والمرجوات للإنجاب الذى نعرف ولعهم به وحرصهم عليه .

والإنجاب فى عُرف الأسلاف ، لا يكون إلا بالأولاد الذكور ، وإذا قالوا : منجبات العرب ، فإنما يعنون بالمنجبة منهن « مَن ولدت ثلاثة بنين فأكثر ، شرفوا فى قومهم »[1] ففيم كرهوا مولد الأنثى ، ولاسبيل إلى إنجابٍ دون أمهات ؟

نميل إلى القول بأن ظروف الحياة فى الأزمنة القديمة أغرتهم بالحرص على كثرة الولد ، والزهد فى الإناث . فما هن بحيث يمنعن الحمى ويحمين الذمار ، ولا فيهن غنية حين يُهدَّد وجودُ القبيلة . وهن بعدُ هدف العدو إذا أغار ، يقصدهن بالسبى الذى يورث القبيلة ذل العُمر وعار الأبد .

وغنى عن البيان أن ذلك قديم فى البشرية ، وليس قصرا على العرب وحدهم ، وفى القرآن الكريم من سورة آل عمران :

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّى ، إِنَّكَ أَنْتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ ،

(١) المحبر لابن حبيب : ٤٥٥ .

وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ، وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ، وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّى أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَانِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ ٣٥ ــ ٣٦ .

وفى حديثنا عن المجتمع العربى بخاصة ، نذكر الشائع المعروف من زهدهم فى البنات وما حملوا من همهن ، قال شاعرهم :

إنى وإنْ سِيقَ إلىَّ المهــرُ
ألفٌ ، وعبدان ، وذُودٌ عشر
أَحَبُّ أصهارى إلىَّ القبر

وكانوا فى خطبة المرأة بالجاهلية ، إن كان الخاطبُ من العشيرة قال أبوها أو أخوها إذا حملها إليه : « أيسرتِ وأذكرتِ ولا آنثتِ ، جعل الله منكِ عدداً وعزا وجلدا ... »

وإذا زُوِّجَتْ فى غربةٍ ، قال لها : « لا أيسرتِ ولا أذكرتِ ، فإنك تُدنِين البعداءَ وتَلِدينَ الغرباء ... »[1]

وغريب فى المنطق ، أن يكون هذا موقفهم من الإناث ، مع المأثور من تقديسهم للأمومة ، والمحفوظِ من غزلياتهم السائرة فى النساء ، واعتزازهم بالانتماء إلى المنجبات . ولا يُعرف قط أنهم وصفوا الآباء بالمنجبين ، أو مدحوا سيدا بأنه ابنُ منجب !

وأعجب منه فى شذوذ المنطق ، أنهم كانوا يسمون الملائكة تسمية الأنثى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَآئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ * وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ، إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ، وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْئًا ﴾
النجم ٢٧ ــ ٢٨

ويقولون إنها بناتُ الله (النحل ٥٧ ، والإسراء ٤٠ ، والطور ٣٩)

وكذلك سموا أصنامَهم تسميةَ الأنثى ، وأشركوها بالله تعالى فى عبادتهم :

---

(١) المحبر : ٣١٠ .

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ ٱللَّاتَ وَٱلْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰ * أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾ . النجم ١٩ ــ ٢٢

وكانت لهم طقوسٌ عجيبةٌ فى القرابينِ من الأنعام التى جعلوها لآلهتهم : منافعُها وألبانُ الإناث منها للرجالِ دون الإناث ، إلا أن تموت البهيمة التى جعلوها للآلهة ، فعندئذ يشترك فى أكلها الرجال والنساء[1] ، قال تعالى :

﴿ وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَـٰذِهِ ٱلْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ﴾ . الأنعام ١٣٩

....

(١) بتفصيل فى كتاب المحبر : ٣٣٠ ــ ٣٣١ .

﴿ وإذا المَـوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴾

ثم إن هؤلاءِ الذين جعلوا لله البنات وسموا الملائكة والأصنام المعبودة تسمية الأنثى ، هم الذين وأدوا البنات ، على ما فى الوأد من وحشية ضارية تنفى الوائد عن الآدمية .

ولقد قيل فى تعليل ذلك الوأد أسباب كثيرة : منها أنهم كانوا يئدون الزرقاء والبرشاء والكسحاء تشاؤما منها ، ويأسا من تزويجها وفيها عاهة .

وآخرون ، وأدوا بناتهم خوفاً من الفضيحة والعار ...

ويقال إن أول من فعل ذلك « لقمان بن عاد » من العرب البائدة ، وذلك أنه رُوع بخيانة نسائه فراح يقتلهن انتقاما واشتفاء ، ولما انحدر إلى الطريق على اثر المذبحة ، لقى ابنته فوثب عليها وقتلها متأثرا بما جرب على النساء من خيانة وسوء ...

ومنه الوأد اتقاء لعار السبى أو الزواج من غير كفء ، كالذى حكاه بعض المفسرين ، من أن « النعمان بن المنذر » أغار على تميم حين منعته الإتاوة ، فحاربهم وسبى نساءهم . ولما ذهب « قيس بن عاصم » ، سيد تميم ، ليسترد سباياه ، تخلفت بنتٌ له مؤثرة أن تبقى مع النعمان ، فعاد « قيس » وقد جُنَّ غضبه فوأد كل بناته . ثم مضى على ذلك ، لا تولَد له بنت إلا وأدها ، واقتدى به رجال من تميم وغيرهم .

وأخرج الحافظ ابن حجر فى ترجمة « قيس بن عاصم » رضى الله عنه ، من طريق الزبير بن بكار فى الموفقيات : « قال أبو بكر لقيس بن عاصم : ما حملك على أن وأدتَ ــ وكان أول من وأد ــ فقال : خِشيت أن يخلف عليهن غير كفء » .

وأخرج كذلك من طريق الحافظ « ابن منده » بسنده إلى النعمان بن بشير الأنصارى ، قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول — وسئل عن الآية : * **وإذا الموءودة** * — فقال : جاء قيس بن عاصم إلى رسول الله ﷺ فقال : إنى وأدت ثمانى بنات لى فى الجاهلية . فقال : ﴿ **أعتِقْ عن كل واحدة منهن رقبة** ﴾ الحديث[1] .

* * *

ووأدُوا كذلك رفقا بالبنات ورحمة بهن ، لما عرفوا من عجز الأنثى وقسوة الحياة عليها ، فآثروا لهن الموت على التعرض لعوادى الزمن وأفاعيل الدنيا . واختاروا مرارة الثكل وفجيعة الحزن ، على احتمال همِّ الأنثى ومعاناة الكرب الذى قال فيه الشاعر :

وزادنى رغبةً فى العيشِ معرفتى ذلَّ اليتيمةِ يجفوها ذوو الرحِمِ
أخشى فظاظةَ عمٍّ أو جفاءَ أخ وكنتُ أبكى عليها من أذَى الكَلِمِ
تهوى حياتى وأهوَى موتَها شفَقا والموتُ أكرم نزَّالٍ على الحُرُمِ
إذا تذكرتُ بِنتى حينَ تندُبنى فاضتْ لعبرةِ بِنتى عَبرتى بِدَمِ

كما وصف ما ظفر به بعد موتها من راحة البال فقال :

فالآن نمتُ ، فلا همٌّ يؤرقُنى بعد الهدوء ولا وجدٌ ولا حلمُ

وقيل كان الوأد بقية متخلفة من عبادة قديمة ، قُدمت فيها الإناث قرابينَ إلى الآلهة ، على نحو ما عُرِف عن مصر قبل الإسلام من تقديم عروسٍ للنيل ضحية وقربانا . ولعل لهذا صلة بما أشرنا إليه آنفا ، من تسميتهم الملائكة والأصنام تسمية الأنثى ، على ما فى هذا من شذوذ المنطق .

ولو كان الأمر فى مثل هذا يخضع للعقل والمنطق ، لأبوا أن يتعبدوا لأصنام تحمل أسماءَ إناث ، لكنه التقليد الموروث والعادة المتبعة لا تدع لصاحبها عقلا . وما دام الناس من ذكر وأنثى ، فليتقاسموهما : لهم البنون ولله الإناث : قال

---

(١) الإصابة : ٢ / ٢٥٨ رقم (٧١٨٨) ونحوه فى تفسير الطبرى لآية الموءودة من سورة التكوير .

تعالى فى سورة الصافات ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ * أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ * أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ . ﴾
١٤٩ ـــ ١٥٤

* * *

ووأدوا خشية فقر وإملاق ، والرواة يذكرون فى ذلك عددا ممن استنقذهن « صعصعة بن ناجية المجاشعى » من الوأد لهذا السبب وحده ، وأخريات فداهن « زيد بن عمرو بن نفيل القرشى العدوى » أبو الصحابى سعيد ، أحد العشرة رضى الله عنهم . فأما صعصعة فيقال إن أول ما كان من نهوضه بتلك المكرمة ، أنه مر برجل من تميم يحفر حفرة ، وغير بعيد منه امرأة تبكى متشبثة بوليدة لها . فلما سألها صعصعة عما بها ، أشارت إلى الرجل وقالت : هذا زوجى يريد أن يئد ابنتى . وانثنى صعصعة إلى الرجل يسأله : ما حملك على هذا ؟ قال : الفقر . فافتداها منه بناقتين يتبعهما أولادهما ، وعاش السيد الكريم لا يسمع بموءودة عن فقر إلا سعى فى فدائها ، فلما مات ترك لبنيه مجدا خالدا ، باهى به حفيده « الفرزدق » قائلا :

وجَدِّى الذى منع الوائداتِ وأحيا الوئيدَ فلم يوأدِ[1]

وقال :

أجار بنات الوائدين ومن يُجِرْ على الفقر يعلم أنه غير مخفر

وأما « زيد بن عمرو بن نفيل القرشى العدوى » فكان إذا سمع بفقير يهم بوأد ابنته ، مضى إليه فقال : « لاتقتلها ، أنا أكفيك مئونتها » فإذا كبرت عاد بها إلى أبيها فراجعه فى أمرها ، وخيَّره بين استردادها أو بقائها حيث هى ، فى كنف الذى استحياها ..

---

(١) المحبر : ١٤١ ، وفى رواية : « ومنا الذى منع الوائدات » انظر هامش ص ٢٤٠ من السيرة ج ١ .

قال « ابن إسحق » فى السيرة :

« حُدِّثتُ أن سعيد بن زيد بن عمرو ، وعمر بن الخطاب ـــ وهو ابن عمه وصهره ـــ قالا لرسول الله ﷺ : أنستغفر لزيد ؟ .. قال : نعم ، يُبعث أمةً وحده » ...[1]

* * *

والراجح أن الوأد عن إملاق ، كان الغالب فيهم . إذ خصَّه القرآن بالذكر فى آيتين :

الأنعام : ﴿ **وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وإيَّاهُمْ** ﴾ ١٥١

والإسراء : ﴿ **وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا** ﴾ ٣١ .

ولم يرد لفظ « إملاق » فى غير هذين الموضعين . ومعناه الفقر بنفاد المال لا يبقى منه شىء . ومن استعماله فى العربية : مَلَق الثوب غسله ، والولدُ أمَّه رضعها . فذكر الإملاق فى الآيتين ـــ دون الفقر وهو من معجم ألفاظ القرآن ـــ شاهد على أن الرجل منهم لم يكن يقتل ولده إلا وهو معدم لم يبق له من المال شىء .

ويصف لنا « الزمخشرى » كيف كان يتم الوأد : « يخرج الرجل وليدته وقد حفر لها بئرا فى الصحراء ، فيدسها هناك ويهيل عليها التراب حتى تستوى البئر . وقيل كانت الحامل إذا أوشكت على الوضع حُفرت حفرة ونقلت قريبا منها عندما يجيئها المخاض ، فإذا ولدت بنتا رموا بها فى الحفرة ، وإن ولدت ذكرا أمسكوا وعادوا به »[2] .

---

(١) السيرة ١ / ٢٤٠ ومعها الاستيعاب : وترجمة سعيد بن زيد رضى الله عنه ٢ / ٨١٧ . وانظر نسب عمر بن الخطاب بن نفيل ، وزيد بن عمرو بن نفيل ، فى ولد عدى بن كعب بكتاب (نسب قريش : ٣٤٧) .

(٢) الكشاف : ٤ / ١٨٨ آية الموءودة من سورة التكوير .

تلك صورة بشعة ومتناقضة لوضع الأنثى فى الجاهلية ، وليس بالغريب أن توارى بشاعتها أوضاعا أخرى كريمة لبنات العرب ، كن فيها موضع الإعزاز والحنان ، ولا من الغريب أن تطغى تلك الأخبار السود ، على أخبار أخرى مشرقة ، تحدث عما كان من إيثار بعض العرب لبناتهم بالحب ، وافتدائهن بالمهج والأرواح ، وأن يحجب الصدى الحزين الذى يُرجِّع صراخ الموءودات ونواح أمهاتهن الثكالى ، أصداء أخرى ، تتناهى إلينا من قديم العرب البائدة ، حيث تروى الأساطير مثل قصة فتاة جديس — وقد نقلها المسعودى فى مروج الذهب — التى حررت قومها من جبروت ملك طسم وإذلاله ، حين ثارت على الشرط المشئوم الذى كان يقضى بألا تُزف عروس من جديس إلى زوجها ، إلا بعد أن تقضى ليلة فى فراش الطاغية . وخرجت الثائرة ، من مخدعه فانطلقت فى الحى بثياب عرسها الممزقة ، الملوثة بدماء العار ، وهى تصرخ :

لا أحدَ أذلُّ من جديسِ
أهكذا يُفْعَلُ بالعروس !

ثم أبت أن تمضى إلى زوجها ، وقادت معركة باسلة انتهت بنصر جديس ومقتل الطاغية ...

وكذلك تاه فى غمار مأساة الوأد ، مثلُ حديث « بهيسة بنت أوس بن حارثة بن لأم الطائى » : خطبها « الحارث بن عوف » سيد بنى عبس ، فلما أراد الدخول بها كرهت أن يمسها ، واستنكرت أن يخلو للنساء ورَحَى الحرب تطحن الحيين من عبس وذبيان ، فلم يجد وسيلة الى إرضائها ، إلا أن يخرج فيحتمل — هو وهرم بن سنان — ديات القتلى من الفريقين ...

بل كدنا ننسى — فى غمرة الأسى لمأساة الوأد — أن من الآباء من كُنوا بأسماء بناتهم ، كأبى أمامة النابغة الذبيانى ، وأبى الخنساء قيس بن مسعود الشيبانى ، وأبى سلمى ربيعة بن رباح — والد زهير — وأبى عفراء حنظلة

الطائى ، وأبى سَفَّانَةَ حاتم طيِّء . وقد بقى منه فى الإسلام كثير ، حيث نجد فى باب الكُنى من طبقات الصحابة رضى الله عنهم ، عشرات منهم كُنوا ببناتهم ، وآخرين نسبوا إلى أمهاتهم .

وغاب عنا كذلك — أو كاد — أن من سادة العرب من كُرموا بمدح بناتهم ، وأن من هؤلاء البنات من استُجير بها فأجارت .[1] .

ويزيد فى قسوة المأساة وسوء أثرها وعنف صداها ، أن قيل إن الوأد كان عاما فى القبائل كلها ، على ما نقل « الميدانى »[2] و « النويرى »[3] وإن أكد رواة آخرون ، ان الوأد لم يكن فى غير تميم وقيس وأسد وهذيل وبكر بن وائل ، وأنها جميعا تخلصت منه قبل الإسلام ، إلا ما كان من تميم . فقد جاء الإسلام وفيها الوأد .

* * *

ومهما يكن فإننا إذ استطعنا أن نجزم بأن الوأد لم يكن شائعا ولا واسع النطاق — وهذا لا يُهَوِّن من بشاعته — فلسنا بحيث نملك أن ننفيه عن الأسلاف العرب ، ولا نحن بقادرين على الارتياب فى أمره وقد تواترت به الأنباء ، ونَعَاه عليهم القرآن الكريم .

الذى نملكه هو أن ننفى عموم الوأد ، ونستبعد القول بأنه كان على نطاق واسع ، وإلا كان ضربا من الانتحار الجماعى ، والاستسلام المخبول للفناء والانقراض .

على أننا لا نكتفى بهذا فى نفى عموم الوأد ، بل نضيف إليه أن هناك عوامل طبيعية واقتصادية كانت تعطل عملية الوأد على نطاق واسع : كان هناك الميراث القديم من عهد « الأمومة » فى انتماء القبائل والأفراد إلى أمهاتهم ، وفى تسمية

---

(١) انظرهن فى مطلب الوافيات لأزواجهن ، من (المحبر لابن حبيب : ٤٣٣ — ٤٣٥) .
(٢) مجمع الامثال : ١ / ٣٨٩ .
(٣) نهاية الارب : ٣ / ٤٢ ط دار الكتب بالقاهرة .

العشيرة باسم « البطن » وفى تسمية الأصنام والملائكة والآلهة بأسماء إناث ، وهذه البقايا الموروثة كانت تضفى على الأنثى لونا من القداسة ، وتعصمها من الإبادة ، وان ظهرت أحيانا بمظهر مناقض هو وأد الفتاه تأثرا — فى رأى بعض علماء الاجتماع — بالطقوس الدينية القديمة ، على نحو ما كان يحدث لعروس النيل ...

وكانت هناك غريزة حفظ النوع وما يتصل بها من حرص على البقاء ، تحمى بقوتها التى لا تدانيها قوةً غريزةٌ أخرى ، بنات العرب من الوأد قدر المستطاع .

وكانت هناك الأنثى فى حياة كل رجل : أُمًّا ، أو زوجة ، أو حبيبة أو أختا ، تلطف من النظرة البغيضة إلى البنت ، وتفسح أمامها مجال الحياة .

ثم كان هناك إلى جانب هذا كله ، بل قبل هذا كله ، العاملُ الاجتماعى والاقتصادى ، المحكوم بسنة الفطرة وقانون الطبيعة : البنت حين تكبر ، وعاء للولد وصانعة للبنين ، ولئن كان العرب فى نظرتهم الجانبية إلى البنت اعتبروها كَلاًّ عليهم وعالة ، لقد بقى هناك الجانب الآخر ، وهو أنه لا سبيل إلى ولد لا تحمله أنثى جنينا وتغذوه رضيعًا وتحضنه صبيا وتربيه غلاما وترعاه رجلا ، والحياة تتابع مسيرتها بمقتضى السنن الثابتة ، مقدرة ضرورةَ وجود البنات لبقاء البشرية وعمران الكون ، لا تبالى ما إذا كان القوم منتبهين إلى هذا أو غير منتبهين .

ومن هنا رجحنا فى اطمئنان ، أن الوأد لم يكن عاما ولا واسع النطاق ، وقدرنا الجانب الآخر من حياة الأنثى فى المجتمع العربى بالجاهلية ، حيث عاشت الناجيات من الوأد ، ملء عيون القوم وقلوبهم . وسبق فى الفصل الذى قدمتُه عن « الأنوثة والأمومة » فى كتابى « أم النبى » ﷺ بعضُ ما نقلت من أخبار تكريم الإناث وتقديرهن وإعزازهن والاعتراف بمآثرهن .

ولا غرابة فى أن تجمع البيئة الواحدة فى الزمن الواحد بين النقيضين ، فتزهد

فى ولادة البنت وقد تئدها كراهة لها أو لفرط حبها إياها وخوفها عليها ، فى الوقت الذى تفتدى فيه نساء القبيلة بالدماء ! وتضيق ببنت تولد ، مع أنها ترفعها إلى مقام الملائكة وتسمو بها « أما » إلى حيث لا مزيد من التكريم والإكبار . لا غرابة فى هذا ، فالحياة ما تزال تجمع بين المتناقضات دون أن يختل نظام الكون أو يضطرب مَسَار الفلك . والأمر فى وأد الأنثى أو إعزازها ، مردُّه إلى العادة والعرف ، وإلى التقليد الاجتماعى الذى لا يعتمد على شىء من التفكير ، وإنما يتم بتوجيه الرأى الجماعى دون أن يكون للفرد الموقف المنفرد ، كالذى شهدنا فى البيئة العربية القديمة من تسمية الأصنام بأسماء إناث ، وهذا مظهر تقديس وتكريم ، ومن وأد البنات زهداً فيهن وضيقًا بهن .

وكالذى نشهده اليوم فى مجتمعات رجعية : تعلم الفتاة وتأذن لها فى الخروج والاحتراف وقد تأبى فى الوقت نفسه على خاطبها أن يراها . وشبيه به ما نشهده فى المجتمع الشرقى : ترقى المرأة فيه إلى منصب الأستاذية بالجامعة وينكر عليها عضوية المجامع الإسلامية والعربية مع الترحيب بها (سكرتيرة) وموظفة إدارية ! ويضيق أشد الضيق بظهورها فى المؤتمرات الإسلامية ، ولا يحرك ساكنا لسهرها فى الملاهى الليلية أو ظهورها عارية فى المصايف ! !

وإنما يحدث هذا التناقض ومثله ، لأنها كما ذكرتُ مسائل عرفية وليست منطقية ، ينفعل الفرد فيها بشعور الجماعة ، ويتأثر بعقلية القطيع فيسيغ ما لعل عقله يأباه ، ويتحمس لتأييد ما كان جديرا بمعارضته لو نجا من احتكام العادة وسلطان العرف واستهواء الرأى العام .

* * *

ونعود إلى ما كنا فيه من حديث عن مركز الأنثى فى المجتمع العربى ، فلا نملك بعد طوال البحث والتنقيب عن الأخبار المروية فى إعزاز الأنثى وتكريمها ، والتماس الأدلة والشواهد المؤكدة بأن مأساة الوأد لم تكن عملية

إبادة بالجملة ، أقول : لا نملك بعد هذا كله الا أن نعترف بأن منزلة البنات كانت بلا ريب ، دون منزلة البنين ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ . . .

وكذلك غَبَرَ العربُ زماناً ومنهم من يَدسُّ وليدتَه فى التراب ، ومنهم من يُمسكها على مضضٍ وهون ، ومن ثم يبيت ساهرا عليها مهموما بها ، حتى يدفعها إلى زوج كفء ، أو يسلمها إلى القبر خير الأصهار ....

* * *

وجاء الاسلام فوضع حدا للمأساة البشرية الفاجعة التى جاوزت فى بشاعتها أقسى المدى ، وأول ما نزل من آياته تعالى فى الوأد ، قوله عز وجل منذراً بيوم الحساب :

﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾[1] .

ثم نزل من بعد ذلك قوله تعالى فى سورة الإسراء وهى مكية :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ، إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾ ٣١ .

ثم قوله تعالى فى سورة الأنعام المكية :

﴿ قُلْ تَعَالَوا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ، أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا ، وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا ، وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ، نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَلَا تَقْتُلُوا ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ١٥١ .

ويرى المفسرون ، أن قتل الأ ولاد فى الآيتين ، يعنى وأد البنات ...[2]

وحكم بالخسران والضلال على السفهاء والمفترين الذين قتلوا أولادهم :

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَاءً عَلَى ٱللَّهِ ، قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ الأنعام ١٤٠ .

---

(١) سورة التكوير : الآيتان ٨ — ٩ .

(٢) الكشاف : ٢ / ٣٥٩ .

وفى (الصحيحين) من عدة طرق ، حديث « عبد الله بن مسعود » رضى الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ : أى ذنب أعظم ؟ قال : « أن تجعل لله نِدًّا وهو خالقك » قلت : إن ذلك لعظيم ، ثم أى ؟ قال : « ثم أن تقتل ولدَك مخافة أن يطعم معك » قلت : ثم أى ؟ قال : « أن تزانى حليلة جارك »[1] .

* * *

على أن تحريم الوأد لم يمنع من الضيق بالبنات والزهد فيهن . بقية فينا من رواسب الماضى الطويل تأصلت على مر الزمن حتى صارت شبه طبيعية فينا يعز التخلص منها بعد زوال الأسباب التى قضت بها أول الأمر . فخروج المرأة الجديدة إلى ميادين العمل وقدرتها على الكسب المادى ووصولها إلى مناصب علمية وإدارية قيادية ، لم يضع المولودة الأنثى كالذكر بمنزلة سواء ، ولا حماها ساعة ميلادها من الاستقبال الكريه القبيح الذى تسجله أغانينا الشعبية ، ويحفظه ديوان الشعر العربى الإسلامى ، فى مثل ما رواه « الجاحظ » من أبيات حزينة لأمٍّ هجرها زوجها حين ولدت له أنثى ، وأقام عند جارتها ، ضرة لها ، قالت والدة الإناث :

ما لأبى حمزةَ لا يأتينا
يظل فى البيت الذى يلينا
غضبانَ أن لا نلد البنينا
تالله ما ذلك فى أيدينا
وإنما نأخذ ما أُعطينا[2]

(١) متفق عليه ، واللفظ لمسلم فى كتاب الإيمان من صحيحه .

(٢) هو أبو حمزة الضبى . انظر قصة هجره زوجته والشعر الذى قالته ، فى كتاب (البيان والتبيين) ١ / ١٦٣ ط التجارية ١٩٣٢ م .

ونحن نتلو آيات الله البينات المحكمات :

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾

النحل ٥٧ ـــ ٥٩ .

قد يقال هنا إن تغير الوضع الاقتصادى لا يمنع كراهة الأنثى خوف عارٍ قد يلحق بأهلها من سلوكها ، أو خشية تفتت مالِ الأسرة عن طريق الميراث ، فنرد على هذا بأن البنات مكروهات حتى فى البيئات المتحللة التى لا تكترث بالسلوك ، وفى الأسر الفقيرة التى لا جاه لها ولا مال ، وفى المجتمعات الاشتراكية التى تحد من الملكية ، وتحدد الدخل ، ولا تعترف بجاه موروث . ذلك لأن كراهتهن ميراث قد انحدر إلينا من قديم الحقب ، وعادة نشأت فى الأصل بحكم البيئة وأثر العوامل القاهرة ، ثم أخذت مجراها فى عواطفنا على طول الزمن ، فلم يعد من السهل التخلص منها ، حتى مع تغيير البيئة وزوال العوامل المادية .

والقرآن الكريم فى خبرته الفذة بطبيعة البشر ، وتقديره الحكيم لما تخضع له من شتى المؤثرات ، أدرك ما يشق على القوم من قهر الوراثة العاطفية وسلطان الطباع التى صنعتها البيئة وحفرت مجراها فى نفوسهم على تتابع العصور وتعاقب الأجيال . لكنه كذلك ، فى تساميه بالإنسانية ، لم ييأس من رياضة المسلمين على الرضى بالبنات وحمايتهن من أثر الظلم والكراهية ، فتتابعت آياته الكريمة والأحاديث النبوية ، حاثَّةً على اتقاء الله فيهن ، حاضَّةً على إنصافهن ومساواتهن بالبنين قدر ما تحتمل الطبائع والأوضاع .

المثَــلُ والقُــدْوَة

وما أحسبنى فى حاجة هنا إلى ذكر الحقوق الإنسانية والشرعية والمدنية التى كفَلها الإسلام للمرأة ، أو بيان المنزلة الكريمة التى وضعها فيها : فقد كثر القول فى هذا منذ ظهرت الدعوة الى تحرير المرأة[1] ، وكانت الشريعة الإسلامية الغراء هى النبع الأول الذى استمد منه دعاة التحرير أدلتهم وأسانيدهم لدفع ما حاق بالمرأة الشرقية فى العصور المتأخرة من ظلم ، وفكّ الأغلال التى كبَّلتها بآسمِ الدين ، والدين منها براء ...

لكنْ يطيب لى مع ما أعرف ويعرف القراء من هذا كله ، أن أروى بعض ما قرأت من وصايا النبى ﷺ بالإناث ، وأعرض هنا من حديثه معهن ، ما أراه تمهيدا طبيعياً للحديث عن أبوته لبنات أربع :

فى الصحيحين ــ والنقل من البخارى ــ أن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت : جاءتنى امرأة معها ابنتان تسألنى ، فلم تجد عندى غير تمرة واحدة ، أخذتْها فقسمتها بين ابنتيها ثم قامت فخرجت : فدخل النبى ﷺ فحدثته بأمرها فقال : « من يُلِىَ من هذه البنات بشىء فأحسن إليهن ، كنَّ له سترا من النار » .

---

(١) للاستاذ سعيد الافغانى : الأستاذ بجامعة دمشق ، كتاب عن (الإسلام والمرأة) عرض فيه هذا الجانب عرضا وافيا .

وانظر كذلك الفصل الذى كتبته عن « المرأة المسلمة » فى كتاب (الاسلام : أمس واليوم وغدا) ط الحلبى بالقاهرة ، والبحث الذى قدمته فى (شخصية المرأة فى القرآن الكريم) إلى مؤتمر الإسلام والأسرة بجامعة الازهر : ديسمبر ١٩٧٥ ، وبحث (المفهوم الإسلامى لتحرير المرأة) نشرته جامعة أم درمان الإسلامية .

وفى صحيح « مسلم » عن أنس بن مالك أنه قال : قال رسول الله ﷺ : من عال جاريتين حتى تبلغا ، جاء يوم القيامة أنا وهو — وضم أصابعه » .

وفى سنن « أبى داود » عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من كانت له أنثى فلم يئدها ولم يُهِنها ولم يؤثر ولده عليها — يعنى الذكور — أدخله الله الجنة » .

وروى البخارى كذلك حديث الصحابى الذى جاء يستأذن النبى عليه الصلاة والسلام فى أن يوصى بماله للمسلمين ، إذ لم يرزق بولد ذكر ، ولم تكن أحكام المواريث قد نزل بها القرآن بعد ، فسأله ﷺ : هل لك بنات ؟ فلما قال : نعم ، أبى عليه ﷺ أن يوصى بماله ، وله بنات .

كذلك فعل لامرأة صاحبِه « سعد بن الربيع الأنصارى » رضى الله عنه ، جاءته بابنتين لها فقالت : يا رسول الله ، هاتان ابنتا سعد بن الربيع ، قُتِلَ معك يوم أحد ، وقد استفاد عمهما مالهما وميراثهما كله فلم يدع لهما مالاً إلا أخذه ، فما ترى يا رسول الله ، لا تنكحان أبدا إلا ولهما مال ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « يقضى الله فى أمرك » وأمهلها الى الغداة ، فنزلت آية المواريث ، فقال ﷺ : « ادعوا لى المرأة وصاحبها » . فلما جاءا ، قال لعَمِّ البنتين : أعطهما الثلثين ، وأعطِ أُمَّهُما الثمن ، وما بقى فهو لك »[1]

وما رُئِىَ أكرم منه قط فى معاملة الإناث والترفق بهن والانتصاف لهن . عن عائشة رضى الله عنها أن فتاة دخلت عليها فقالت وهى بادية الانفعال والغضب : إن أبى زوجنى ابن أخيه ليرفع به خسيسته وأنا كارهة . فدَعتْها السيدة الكريمة لتجلس . حتى جاء النبى ﷺ ، وسمع شكوى الفتاة ، فأرسل إلى أبيها ثم جعل أمرها إليها . فقالت وقد زال عنها ما كانت تشعر به من غضاضة :

---

(١) أخرجه مسلم فى ميراث الكلالة (ح : ١٦١٦ ، ١٦١٧ وقابل على سنن ابن ماجه : ٤٨ / ١٨ .

« قد أجزتُ ما صنع أبى ، ولكن أردت أن أعلمُ : أللنساء من الأمر شىء ؟ »

ولقد أجارت زينب بنت النبى ﷺ ، أبا العاص بن الربيع عندما أسر بالمدينة قبل أن يسلم[1] ويأتى حديثها فى المبحث الخاص بها . واستأمنت « أم حكيم بنت الحارث بن هشام » — عام الفتح — لعكرمة بن أبى جهل ، فأمنه ﷺ مع أنه كان قد ذكر اسمه بين الذين أمر بقتلهم ولو وجدوا تحت أستار الكعبة . وفى يوم الفتح ، لاذ رجلان من بنى مخزوم ببيت أم هانىء بنت أبى طالب ، فدخل أخوها « على » يريد قتلهما ، وأجارتهما فقال عليه الصلاة والسلام :

« قد أجرنا من أجرت يا أم هانىء ، وأمّنّا من أمنت ، فلا يقتلهما »[2] .

ثم كانت معاملة النبى ﷺ للإناث ، على قرب العهد بالجاهلية ، فوق الذى طمعن فيه أو طمحن إليه من عزة وكرامة ومروءة . . .

وما من ريب فى أن البيئة كانت محتاجة الى هذا المثل الصالح والقدوة الطيبة فى شخص النبى الكريم لتقاوم ما ألفته فى معاملة الإناث . ويكفى لنقدر تلك الحاجة ، أن نتدبر ما فى (الصحيحين) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

« والله إن كنا فى الجاهلية ما نعد للنساء أمرا حتى أنزل الله تعالى فيهن ما أنزل ، وقسم لهن ما قسم ، فبينا أنا فى أمر أتأمَّره إذ قالت لى امرأتى : لو صنعت كذا وكذا ؟ .. فقلت لها : ومالك أنت ولما ها هنا ؟ ... وما تكلفك فى أمر أريده ؟ .. فقالت لى : عجبا يا ابن الخطاب ، ما تريد أن تراجَع أنت ، وان ابنتك لتراجع رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان ؟ يقول عمر : فأخذت ردائى ثم انطلقت حتى دخلت على حفصه فقلت لها :

يا بنية ، إنك لتراجعين رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان ؟ قالت : إنا والله لنراجعه ! ثم خرجتُ حتى دخلت على « أم سلمة » لقرابتى منها ،

---

(١) السيرة ٤ / ٥٢ . وأخرجه الحاكم أبو أحمد بسند صحيح عن الشعبى (الإصابة ، ترجمة أبى العاص ٧ / ١١٨) .

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى ٢ / ١٠٤ ط بريل — ابن إسحاق : السيرة ٤/ ٦٠ وأخرجه مسلم فى صحيحه . ك صلاة المسافرين .

فكلمتها ، فقالت لى : « عجبا لك يا ابن الخطاب ! .. قد دخلتَ فى كل شىء حتى تبتغى أن تدخل بين رسول الله ﷺ وأزواجه ..» قال عمر : فأخذتْنى أخذاً كسرتْنى به عن بعض ما كنتُ أجِدُ »[1] .

وهذا الحديث ، قد يغنى عن مزيد بيانٍ لمدى حاجة المجتمع الإسلامى ، إلى مثلٍ أعلى يروضه على غير موقفه من الإناث ، فهذا عمر ، صهر النبى ﷺ وصاحبه الذى أعز الله به الإسلام ، قد وعى ما نزل من آيات الله فى النساء ، وكان من أفقه المسلمين بالدين القيم ، ومع ذلك كره أن تشترك معه زوجته فى أمر له ، وأنكر منها أن تشير عليه برأى ، فلما تمثلتْ بابنته حفصة استفظع واستنكر ، وانطلق إليها مغضبا يسألها فيما سمع ، وإنه ليطمع فى أن تردَّ بالنفى ، لكنها أكدت له أنها ، ونساء النبى ، يراجعنه ﷺ حتى يظل يومَه غضبان ، فانصرف عمر عنها مغضبا لا يكاد يصدق أذنيه ، إلى أن ردته « أم سلمة » بكلمتها الصادعة :

« عجبا لك يا ابن الخطاب ، قد دخلتَ فى كل شىء حتى تبتغى أن تدخل بين رسول الله ﷺ وأزواجه » ؟[2]

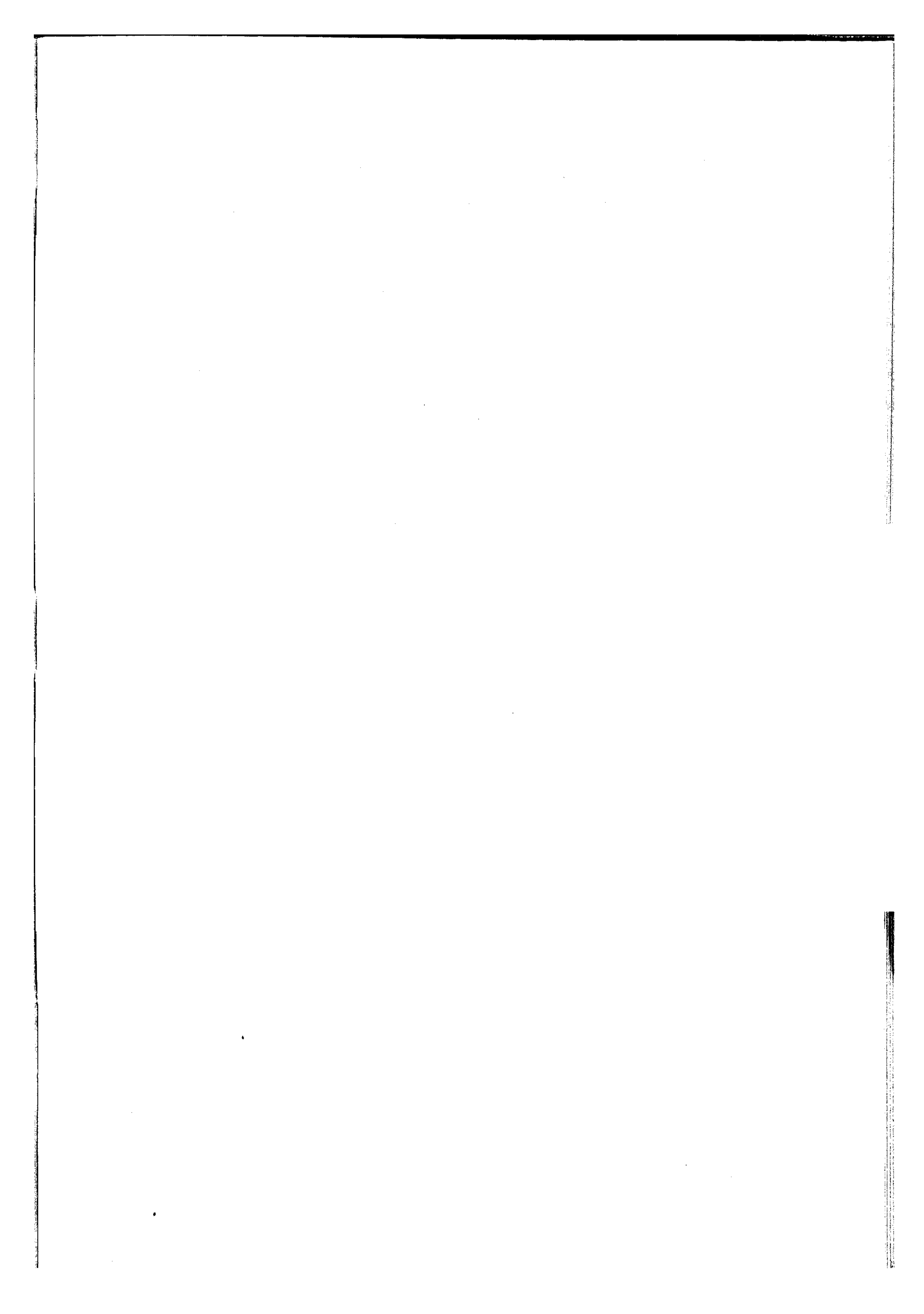
وتلقى « عمر » الدرس البليغ من بيت النبى ﷺ ، وكذلك تلقاه الصحابة والمسلمون ، فلا عجب أن رأينا « أبا دُجانة » الفارس[3] يأخذ سيف النبى ﷺ يومَ أُحُد ، وينطلق به مختالا وقد عصب رأسه بعصابة له كانت تسمى عصابة الموت ، فما يلقى أحدا من المشركين إلا صرعه ، حتى يبلغ « هند بنت عتبة » تزأر فى قومها محرضة على الفتك بالمسلمين ، فيضع الصحابى الفارس السيف على مفرقها لكنه لا يلبث أن ينأى به عنها وهو يقول : « أكرمتُ سيف رسول الله أن أضرب به امرأة . »

(١) متفق عليه : اللؤلؤ والمرجان : ٢/١٢٩ (ح ٩٤٤) .

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ٢ / ١٢٩ (ح ٩٤٤) .

(٣) هو الصحابى الفارس ، سماك بن خرشة الأنصارى . انظر ترجمته رضى الله عنه فى الطبقات الكبرى والاستيعاب والإصابة . وقصته مع هند بنت عتبة فى (السيرة) : ٣ / ٧٣ .

هذا هو « محمد بن عبد الله » فى إنسانيته الرفيعة وبشريته المثالية ، وأبوته الرحيمة التى تفيض بأرق العواطف وأنبلها ، وأحسب أن قد آن الأوان لنتحدث عنه ﷺ أبا لبناتٍ أربع ، وُلِدْنَ له جميعا قبل أن يُبْعَثَ رسولا ، وعِشْنَ معه العهدَ المكىَّ كله ، ثم صحبنه رضى الله عنهن ، فى دار الهجرة . . .



المبحث الثالث

الأخواتُ الأرْبَع

— البَيْت وَالأبَوانِ

— أبو البَنـات

— الشـقيقان

— الشـقيقاتُ الأرْبَع

— فى بَيتهنَّ الأوَّل

البَيتُ والأبوانِ

فى جوار الحرم المكى ، حيث دور قريش حافَّة بالبيت العتيق مستأثرة دون سائر القبائل بذلك الشرف العريق ، قامت الدار التاريخية التى كُتِب لها أن تشهد عرس محمد بن عبد الله الهاشمى ، وأن تستقبله بعد خمسة عشر عاما من العرس ، عائدا من غار حراء ليلة القدر ، مبعوثا بختام رسالات الدين .

وهذه الدار قد ارتفع عنها الطريق ، فيُنزل اليها بعدد من الدرجات ، توصِل إلى ممر قامت على يساره شبه مصطبة مرتفعة عن الأرض بنحو قَدم ، وطولها عشرة أمتار ، وأما عرضها فأربعة ...

وعلى اليمين باب صغير ، يُصعد اليه بدرجتين ، يؤدى إلى طرقة ضيقة عرضها نحو من مترين ، وفيها ثلاثة أبواب : يفتح أولها ، من الجانب الأيسر ، على غرفة صغيرة مساحتها نحو ستة أمتار ، كانت للنبى المختار محرابا ومعبداً ، ويؤدى الباب الأمامى إلى بهو متسع طوله ستة أمتار وعرضه أربعة ، وقد جعل مخدعا للزوجين ، وأما الباب الثالث فعلى يمين الداخل ، وهو يفتح فى غرفة مستطيلة ، طولها سبعة أمتار وعرضها أربعة ، وقد جعلت لبنات محمد ﷺ ، وعلى طول هذا المسكن من ناحية الشمال فضاء واسع ، مساحته ستة عشر مترا فى سبعة أمتار ، ويرتفع عن الأرض بنحو متر ، وفيه كانت السيدة « خديجة » تخزن تجارتها قبل الزواج ، فلما تزوجت واعتزلت التجارة ، استعملت هذه المساحة لاستقبال الضيوف[1] .

---

(١) نقلنا هذا الوصف ملخصا من « الرحلة الحجازية » ــ وفى تاريخ الطبرى « ٢ / ١٩٧ » تحديد لمنزل خديجة الذى تزوجت فيه ، رضى الله عنها ، من سيد البشر .

هذه هى الدار التى استقبلت محمدا ـــ أول ما استقبلته ـــ يوم اختارته السيدة خديجة ليخرج فى مالها إلى الشام متاجرا ، ثم استقبلته عائدا من رحلته ، حيث خفق له قلب سيدة نساء قريش وأخذها منه تفردُ سماته وجلال شخصيته ، حتى إذا كانت السنة الخامسة والعشرون من عام الفيل ـــ السنة الخامسة عشرة قبل المبعث ـــ دقت الطبول فى الدار ، احتفالا بزواج زين شباب قريش شرفا وأمانة وخلقا ، بالسيدة خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى ، سيدة نساء قريش وأعظمهن شرفا وأكثرهن مالا[1] .

وقضت مكة أياما وليالى ، ولا حديث لها الا عن ذاك الزواج المشهود . ولم تكن بهجة الحفل وحدها هى التى استأثرت بحديث القوم ، وانما كانت المفاجأة غير المنتظرة ، فما دار بخلد أحدهم أن ترغب « السيدة خديجة » فى الزواج من جديد بعد الذى عُرف من زهدها فى الرجال وانصرافها عنهم وردِّها سادة قريش واحدا بعد الآخر ، ولا خطر ببالهم أن يكون « محمد » ابن الخامسة والعشرين ، هو الزوج المختار للأرملة الثرية ، ذات الأعوام الأربعين .

وإذا كان رجال من قريش قد نقموا يومئذ على العقيلة الغنية ، أن تؤثر عليهم شابا غير ذى مال ، فلعل بنات هاشم قد تحدثن طويلا عن شبابه الغض ، تستأثر به سيدة تزوجت من قبل مرتين ، وتصرفه عن العذارى الهاشميات ، ذوات الصبا الندىِّ ...

على أن أحدا من هؤلاء أو أولئك لم يزعم ـــ صادقا ـــ أن خديجة فى عزتها وشرفها وثرائها ، غير كفء لمحمد ، أو أن محمدا فى عراقة نسبه وطيب عنصره وجلال شخصيته ، غير كفء لخديجة ، وإنما أقصى ما قيل عنهما ، إنها كهلة ثرية فى الأربعين ، وانه شاب فقير فى الخامسة والعشرين[2] .

---

(١) السيرة ١ / ٢٠١ وانظر (جمهرة أنساب العرب) ص ١١١ ط الذخائر .

(٢) لم نطل الحديث هنا عن الزوجين ، وإنما اقتصرنا على القدر الذى نحتاج اليه فى الحديث عن الابوين . ولمن شاء أن يرجع إلى الفصل الخاص بالسيدة خديجة رضى الله عنها فى كتابى « نساء النبى » ﷺ .

وحين ذهب أثر المفاجأة ولم يعد يجدى حديث عن فارق السن والثروة بينهما ، كفَّت أندية قريش ومسامر مكة عن ذلك الكلام العقيم ، وبدأت تستعيد ذكريات بعيدة أثارتها المناسبة ، وتنفض عنها غبار السنين . .

وربما كان أول ما تذاكره القوم يومئذ ، قصة ابنة عمٍّ لخديجة ، ثرية ناضجة ، اختارت هى الأخرى شابا هاشميا فقيرا وعرضت عليه نفسها منذ ستة وعشرين عاما ، وإن كان لم يستجب لها . .

تلك هى « رقية بنت نوفل » الأسدية ، أخت ورقة : رأت عبد الله بن عبد المطلب إثر انصرافه من الكعبة بعد أن افتُدِى من الذبح وفاء لنذر أبيه ، فلمحت عليه مخايل مجد مرجو وآنستْ منه نوراً ذكرها بما كانت تسمع من بُشريات عن نبى منتظر . فعرضت عليه نفسها ، وله مثلُ الإبل المئة التى نحرت عنه ، فاعتذر فى تلطف ومضى فتزوج آمنة بنت وهب ، زَهرة بنى زُهْرة[1] ...

وهذه هى خديجة بنت عم رقية ، تتقدم بكل جاهها وثرائها وعزتها ، إلى محمد بن عبد الله ، تعرض عليه أن يتزوجها . .

وعاش « ورقة بن نوفل » ليسمع استجابة محمد لخديجة بنت عمه ، ويشهد حفل عرسها ، بعد أن شهد بالأمس البعيد انصراف عبد الله أبى محمد ، عن أخته بنت نوفل . .

وحين كانت مسامر مكة فى شغل بالحديث عن الزوجين السعيدين ، كان « ورقة » يسترجع ما ذكرته له « خديجة » من وصف غلامها ميسرة لرحلته مع محمد فى مالها إلى الشام ، ويربطه بما سمع منذ ستة وعشرين عاما ، من كلام أخته عن النور الذى رأته فى وجه عبد الله ، فيكاد « ورقة » يلمح فى

---

(١) السيرة الهشامية ١ / ١٦٤ — تاريخ الطبرى ٢ / ١٧٤ وطبقات ابن سعد (١ / ٥٨ أول) ولا أعلم خلافا فى أن التى عرضت نفسها على عبد الله ، هى بنت نوفل ، أخت ورقة ، لكن الخلاف على اسمها وقد سبق عرضه مفصلا فى كتابى (أم النبى) عليه الصلاة والسلام .

صهره الشاب ، ملامح النبى المنتظر الذى شاع أن زمانه قد أظل ، ثم يصحو الشيخ من تأملاته فيقول :

لجِجتُ وكنتُ فى الذكرى لَجوجاً لِهمٍّ طالما بعثَ النشيجا
ووصفٍ من « خديجةَ » بعد وصفٍ فقد طال انتظارِى يا خديجا[1]

وبدأت حياة زوجية هانئة يظللها الحب المتبادل والتقدير المشترك والمودة الخالصة ، ونهل الزوجان من نبع السعادة صافيا لم تشبه شائبة من كدر ، ثم لم يكد يمضى على زواجهما عامان أو ثلاثة ، حتى بدت بوادر الثمر المبارك للزوجية السعيدة ، فخفق قلب « محمد » فرحا وغبطة ، إذ يوشك للمرة الأولى أن يغدو أبا . وأثارت الأبوة المرتقبة أعمق عواطفه ، وأرق انفعالاته ، وهو مقبل على التجربة العظمى التى لا يكمل وجودُ الرجل بغيرها ، فعما قريب يشهد فلذة منه تخرج إلى النور وتستقبل الحياة ، لتكون امتدادًا لحياته ، وعما قريب يرى صورته ممثلة فى كيان صغير لطيف ، تتم به هذه السعادة التى عرفها منذ عرف « خديجة » .

وذكر أمه التى رحلت عن الدنيا وهو صبى فى السادسة ، وذكر أباه الذى ثوى فى « يثرب » وخلَّفه جنينا فى رحم أمه « آمنة بنت وهب » فتمنى لو أنهما عاشا ليفرحا بوحيدهما ويملآ أعينهما من مولوده المنتظر . .

ولم ينس جدَّه الشيخ « عبد المطلب » الذى كان له من بعد أبيه أبا ، فرق قلبه وهو يستعيد ذكراه ، وتندت عيناه شجوا ورحمة ، ثم آب من تأملاته وراح يراقب زوجه الحبيبة وهى تروح وتغدو فى الدار بخطوات أثقلها الحمل الغالى ، ووجهها المشرق يتألق بالسعادة والحنان . .

لم تكن هذه تجربتها الأولى فى الأمومة ، فقد ولدت البنين والبنات من

---

(١) السيرة ١ / ٢٠٢ ، عن ابن إسحاق ، فى ثلاثة عشر بيتا .

زوجيها السابقين : عتيق بن عائذ المخزومى ، وأبى هالة التميمى[1] . فهل تراها كفت عن التشوق للأبناء ووجدت فيمن ولدت ما يرضى أمومتها ويغريها بالقناعة والاكتفاء ؟ . .

معاذ الحب أن تقنع أمومة خديجة بأبنائها الأولين ، فلا يشوقها أن يكون لها ولد من زوجها الحبيب « محمد بن عبد الله الهاشمى . »

ومعاذ الفطرة السوية للأنوثة الناضجة المجربة ، أن تزهد خديجة فى الأبناء ، فلا تتلهف على ولد يؤكد حيويتها ، ويثبت أنها ما تزال فتية منجبة !....

وكيف يُظن بها الزهد فى الولد ، وهى ترى زوجها العزيز فى عز فتوته ونضرة شبابه ، وقد بدأت هى العقد الخامس من عمرها ، فى بيئة تتزوج بناتها دون العاشرة ، وتكتهل نساؤها دون الأربعين ؟ . .

ما أظن أن امرأة فى قريش كانت أشدَّ لهفة على الحمل ، من هذه السيدة التى جربت الأمومة من قبل وكان لها بنون وبنات . بل لعلها ما كانت هى نفسها ، فى زواجها الأول أو الثانى ، بأشوق منها إلى الولد فى زواجها هذا الثالث والأخير ، إذ كانت فى المرتين الأوليين ، أبعد من أن تُتهم بالجفاف أو يُظن بها اليأس ، وأما فى هذه المرة فالأمل فى الإنجاب أبعد ، والاتهام باليأس قريب . .

ومن سُنة الفطرة ، أن تكون المخاوف ساورتها فى مطلع حياتها الزوجية الجديدة ، وأشفقت من أن تمسك رحمها فلا تجود بولد لهذا الحبيب الذى لم يتزوج سواها من قبل ، ولا عرف مثلها الولد . .

ولم يُرعها أن تتمثل عجائز قريش وهن يتربصن بها الأيام يملأن أشداقهن بالحديث عن كهولتها المجدبة وحيويتها الناضبة ، ولا أهمها أن تتصور سيدات

(١) الاصابة : ٨ / ٦١ — الاستيعاب ٤ / ١٨١٧ وانظر « جمهرة انساب العرب » ١٣٣ ، ١٩٩ ط الذخائر وكذلك (نسب قريش ٢٢ ذخائر ، « تاريخ الطبرى ٣ / ١٧٥ » مع المبحث الخاص بها فى كتابى (نساء النبى) ﷺ .

بنى هاشم وهن يتأسفن على زين شباب الهاشميين فى حرمانه من الذرية ، بقدر ما شغلها وراعها أن تكون هى السبب فى هذا الحرمان ، وربما طاف بها طائف من القلق حين يكون زوجها بعيدا عنها فى بعض شئون العمل أو التجارة ، فيذود النوم عن عينيها ويؤرق لياليها ، ولا تجد ما يسرى عنها الا أن تلوذ بالسماء ضارعة إلى الله أن يتم عليها نعمته ، ويهبها ولدا من زوجها الحبيب . وما تزال كذلك حتى يئوب إليها محمد ، فتشعر بالحيوية تسرى إليها منه ، وتحسّ نفحة عطرة تنسيها هواجسها التى شغلت بالها وترد إليها ثقتها فى نفسها ، واطمئنانها إلى حيويتها المذخورة الخصبة . .

فلما لاحت بوادر الحمل ، هز الفرح أعطافها فأقبلت على زوجها مشوقة تزف إليه البشرى ، ثم بعثت رسلها يذيعون النبأ السعيد فى دور بنى هاشم وينشرونه فى أحياء قريش ، وأغدقت عطاءها على ذوى الحاجة ، كأنما أرادت أن تُشرِك « مكةَ » كلها فى فرحتها فلا يبقى فيها جائع ولا محروم . .

* * *

أبـو البَـنات

واستمرأت متاعب الحمل واستخفت ثقله ، فظلت طوال شهوره التسعة ، تعد دنياها لاستقبال الوليد ، وتختار له المرضع قبل أن يولد[1] .

حتى آن أوان الوضع ، فتجلدتْ للتجربة التى عرفت من قبل شدتها وقسوة آلامها ، على حين وقف الزوج فى محرابه ينتظر اللحظة المرتقبة بلهفة مشوبة بشىء من القلق ، لم يلبث أن تبدد حين انبعثت من مخدع الوالدة ، صيحة رقيقة واهنة ، معلنة عن بشرى المولد .

وتبعتها أصوات ابتهاج عالية ، سرت مع الهواء إلى الحرم ، وبلغت أسماع الحى القرشى ، فعرف القوم أن خديجة بنت خويلد وضعت مولودها الأول ، لمحمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم .

ومضت فترة من الوقت والأب الكريم يرنو إلى مخدع زوجه مستثار الشوق إلى رؤية الفلذة الحية من صلبه ، ثم فتح باب المخدع عن القابلة « سلمى مولاة صفية بنت عبد المطلب »[2] تحمل إلى الأب طفلته الأولى ، فتلقاها بين ذراعيه فرحا ، ودنا بها من الوالدة الراقدة فى فراش الوضع ، مسترخية الأعضاء من فرط الإجهاد ، بادية الغبطة والهناءة مع ذاك . .

وتلاقت أعينهما على وجه الوليدة الحلوة ، وخفق لها قلباهما وهما يريان فيها صورتهما معا .

وسماها أبواها « زينب »[3] .

(١) الإصابة : ٨ / ٦١ .

(٢) ذكر ابن عبد البر فى « الاستيعاب ٤ / ١٨٦٢ » أن سلمى كانت قابلة ابراهيم وبنى فاطمة رضى الله عنهما .

(٣) قال أبو عمر بن عبد البر فى الاستيعاب ٤ / ١٨٥٣ « كانت زينب أكبر بناته ﷺ ، لاخلاف أعلمه فى ذلك إلا ما لا يصح ولا يسلم » وانظر ترجمتها فى طبقات ابن سعد ، والإصابة .

ونحرت الذبائح احتفالا بمولدها . .

ترى هل مر ببالهما فى تلك اللحظة خاطر مشترك ، هو أن الله رزقهما بأنثى ، وليس الذكر كالأنثى ؟ . .

وهل ود كلاهما لو أن الوليدة كانت ولدا ؟ . .

ربما ، فما من شيء كهذا بمستغرب من زوجين مثلهما ، فى فطرتهما السوية ، وتأثرهما الموروث بما جبلت عليه بيئتهما من حب البنين . لكن ذلك الخاطر لم يكن بالذى يعكر عليهما صفو الفرحة بسلامة الوضع ، أو يشوب حرارة ترحيبهما بمولد طفلتهما الأولى بشائبة من فتور . وتشبثت الأم بوليدتها أياما قبل أن تدفع بها إلى المرضع المختارة ، على المألوف من عادة أشراف مكة . .

وشغلا بالحديث عنها طوال فترة رضاعتها ، حتى عادت أشبه بزهرة غضة ناضرة ، أضفت على البيت مزيدا من الإشراق والبهجة . .

ولم يطل بها المقام فى البيت ، حتى استقبل أختها « رقية »[٢] فاتصل بها الأمل فى نماء الأسرة ، واعتدها الأبوان الكريمان بشرى خير وبركة . .

ثم جاءت من بعدها « أم كلثوم » وكان الظن أن يضيق الأبوان بمولد أنثى ثالثة ، فى بيئة مفتونة بالبنين ، ولكنهما أدركا أن الأمر فى هذا لله وحده ، وما كانا ليجحدا نعمته عليهما ، ومن ثم أقبلا على طفلتهما الثالثة ، شاكرين لله ما أعطى ، طامعين مع هذا فى مزيد من كرمه . .

وأقبل العام العاشر من زواج محمد وخديجة ، وهما يستعدان لاستقبال الثمرة الرابعة للزوجية المباركة . . .

---

(١) لم يتفق الأخباريون وكتاب السيرة ، والنسابون ، على ترتيب ولادة أبناء محمد ﷺ وما هنا هو ما اطمأننت إليه بعد مقابلة المرويات فى مختلف المصادر ، وهو ما فى : السيرة ١ / ٢٠٢ قال ابن إسحاق : وهو المشهور . وابن عبد البر فى (الاستيعاب ٤ / ١٨١٨) وحكى فيه الإجماع . وابن حجر فى (الإصابة ٨ / ١٥٧) وقال إنه : الذى يسكن إليه اليقين .

وصادف مولدها ، حادثا جليلا فى تارخي الأب ، وتاريخ مكة والبيت العتيق : فقد حدث وقتئذ أن أجمعت قريش أمرها على أن تعيد بناء الكعبة ، بعد أن طال ترددها فى ذلك ، تهيبا وتحرُّجا . . .

وكانت الكعبة قد أضرت بها شرارة طارت من مجمرة إحدى النسوة ، فأحرقت ستائرها وأوهت بنيانها ، ثم انحدر سيل دافق من الردم الذى بأعلى مكة ، فتصدعت الجدران المتأثرة بفعل الحريق ، ووقفت قريش أمام حرمها الأقدس مكتوفة اليدين ، لا تدرى ماذا تفعل لتحتفظ بالبيت العتيق الذى جعل من « مكة » مثابة حج العرب جميعا ومهوى أفئدتهم ، وأنزل قريشا ، بحكم جوارها للحرم ، منزلة لا تدانيها منزلة قبيلة سواها . . .

وشاع وقتئذ أن البحر رمى بسفينة رومية جنحت إلى جدة ، فسعى إليها رجال من قريش وعادوا بأخشاب السفينة ، وبرجل قبطى مصرى نجار بناء[1] .

وتم الاستعداد لتجديد الكعبة ، وقريش ما تزال تتهيب أن تهدم بناءها الأول ، حتى قام « الوليد بن المغيرة المخزومى » فأخذ المعول وقال : « اللهم لم نزغ ! اللهم إنا لا نريد إلا الخير ! » ثم أهوى بالمعول والقوم ينظرون إليه مرتاعين ، خائفين عليه وعلى أنفسهم جميعا . فلما لم يصبه سوء ، أبوا مع ذلك الا أن يتربصوا ليلتهم تلك ، ليروا ماذا يكون . وأصبح « الوليد » غاديا على عمله لم يمسه شر ، فهدم وهدم الناس معه .

وتنافست القبائل فى جمع الحجارة لبناء الكعبة ، وشارك « محمد » فى ذلك العمل المجيد ، فكان ينقل الحجر مع الناقلين ، حتى إذا تم البناء ، اختصمت قبائل قريش فى الحجر الأسود ، كل قبيلة تريد أن تستأثر بشرف رفعه إلى موضعه . واشتدت الخصومة حتى أنذرت بحرب ، ومكثت قريش على ذلك

---

(١) السيرة ١ / ٢٠٥ وشرحها فى االروض الأنف(١ / ٢٢١ ــ ٢٢٩) وعيون الأثر (١ / ٥٢) .

أربع ليال أو خمسا ونذر الخطر تزداد ، حتى قام فيهم « أبو أمية زاد الركب ابن المغيرة والمخزومى » ــ وهو يومئذ أسنُّ قريش كلها ، وهو والد أم المؤمنين أم سلمة ــ فقال :

« يا معشر قريش ، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه ، أول من يدخل من باب هذا المسجد ، يقضى بينكم فيه » . . .

فقبلوا ، وتعلقت عيونهم جميعا بالباب تترقب الحكم المجهول ، وإنهم لكذلك ، إذ أقبل رجل شاب ، تام الفتوة متزن الخطا من غير تكلف ، رزين من غير فتور ، بهىّ الطلعة مع جد ووقار ، فهتفوا جميعا لما أن رأوه :

« هذا الأمين ، هذا محمد بن عبد الله الهاشمى ، رضينا بحكمه » . . .

وأقبلوا عليه فحدثوه بما اشتجر بينهم من خلاف ، فطلب ثوبا ثم تناول الحجر فوضعه بيده الكريمة فى الثوب وقال :

« لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعا » . . .

ففعلوا ، حتى إذا بلغوا به مكانه ، وضعه محمد بيده ودعم بناءه . . .

وكانت سنه يومئذ ، خمسا وثلاثين سنة ، على ما روى ابن إسحاق[1]

* * *

وآب « الأمين » إلى بيته ، حيث ترك زوجه فى الغداة على وشك الوضع وسعى إلى الكعبة داعيا ، فكان أول ما استقبله عند عودته ، بشرى مولد ابنته الرابعة « فاطمة » .

واقترنت هذه البشرى ، ببشرى نجاة قريش على يد الأمين ، مما كان يتهددها من حرب وفجار .

---

(١) السيرة : ١ / ٢٠٤ ــ ومثله فى تاريخ الطبرى ٣ / ٢٠١ .

ورددت محافل مكة قول الشاعر القرشى :[1]

تشاجرت الأحياء فى فصل خطة جرت بينهم بالنحس من بعد أسعد
تلاقوا بها ، فالبغض بعد مودة وأوقد نارا بينهم شر موقد
فلما رأينا الأمر قد جد جده ولم يبق شيء غير سَلِّ المهند
رضينا وقلنا : العدلُ أولُ طالع يجيء من البطحاء من غير موعد
ففاجأنا هذا الأمين محمد فقلنا : رضينا بالأمين محمد

وأقبل « محمد » على زوجه مهنئا بسلامة الوضع ، ثم تلقى طفلته الرابعة يبارك مولدها فى ذلك اليوم الأغر ، وكأنما رأى فى ذلك الاتفاق ، آية من الله ، تحبب إليه رزقه ، وتصرف سمعه عما كان يقال حينذاك عن أبوته لبنات أربع . . .

وتطلع إلى السماء شاكرا حامدا ، راضيا بما يأتيه من عند الله ، مستثار الرحمة والحنان لتلك المخلوقات اللطيفة البريئة ، يتلقاها القوم كارهين ، وما جاءت إلى الدنيا مختارة ، ولا هى بمسئولة عن تخلف البنين . .

ثم رنا إلى زوجه فى عطف وتأثر ، يريد أن يبث فى نفسها الطمأنينة والرضى بما أعطاهما الله ، وأن يهوِّن عليها أمرا لا يد لها ولا لأحد فيه ، وإنما تلك إرادة الله ، سبحانه ، لا راد لأمره ، ولا معقب على إرادته . . .

لكن « خديجة » لم تكن فى حاجة إلى مواساة ، فإنها ما كادت تملأ عينيها من وليدتها الرابعة ، حتى تفتح لها قلبها ، وقد رأت فيها صورة من أبيها ![2] . .

فأدركت أن الله سبحانه حَبَا هذه الوليدة بعناية منه ، حين برأها على مثال « محمد » العزيز ، فكان شبهها به ، كافيا وحده لأن يحميها من جفوة

---

(١) هو هبيرة بن أبى وهب المخزومى . (السيرة : هامش ١ / ٢٠٩) وأبو وهب : خال عبد الله بن عبد المطلب . وانظر موقفه وخطبته عندما همت قريش ببناء الكعبة ، فى السيرة ١ / ٢٠٩ .

(٢) انظر باب فضائل السيدة فاطمة رضى الله عنها فى صحيح مسلم (ح : ٢٤٥٠ . ومسند الإمام أحمد : ٣ / ١٦٤ ، ١٩٧) .

الاستقبال ، ويفجر لها أسخى ينابيع الحب والإعزاز فى قلب هذه الأم التى اكتفت من دنياها جميعا بأن تكون زوجَ محمد ، وأرضاها كل الرضى ، أن تدخر لها السماء تلك النعمة الكبرى ، بعد أن نفضت يديها من الرجال ، وأوصدت قلبها على يأس . . .

* * *

الشقيقان

وبقى للأبوين ــ كى تتم سعادتها ــ مطلب واحد : أن يهبهما الله مولودا ذكرا ، بعد أن منَّ عليهما بإناث أربع . .

وبدا الأمل بعيدا ، إذ كانت السيدة خديجة قد جاوزت ، بعد مولد فاطمة ، سن الخمسين ، لكنها مع ذاك لم تكن قد بلغت مرحلة اليأس من الولد رغم السن العالية ، ولا أخلفتها عادتها المؤْذنة بصلاحيتها للحمل ، ومن ثم لم يقطع الزوجان الرجاء فى فضل الله . .

ثم استجاب الله لدعائهما فوهبهما غلامهما « القاسم » ثم تلاه « عبد الله » فتضاعفت الفرحة بمولده ، حين ظُن ألا رجاء . . .

لكن الله لم يشأ للوليدين أن يعيشا طويلا ، بل ما لبث أن استرد الوديعتين الغاليتين ، أحدهما بعد الآخر . .

أما متى ولدا ، وكيف وأنى ماتا ، فالمؤرخون وكُتاب السيرة لم يتفقوا على قول واحد فى فى ذلك الأمر مع ما له من أهمية قصوى فى حياة الأسرة المحمدية والتاريخ الإسلامى ، وعلى قرب عهد ابنى محمد ، بمبعث الأب المصطفى ﷺ .

بل إنهم اختلفوا فى عدد الذكور من أبناء محمد وخديجة ، وهل كانا اثنين ، أو كانوا ثلاثة ، أو أربعة ؟

فالذى فى (السيرة)[1] قول ابن اسحاق : « أكبر بنيه : القاسم ، ثم

(١) السيرة الهشامية : ١ / ٢٠٢ ط أولى / الحلبى بالقاهرة .

الطيب ، ثم الطاهر . . فأما القاسم والطيب والطاهر فهلكوا فى الجاهلية ، وأما بناته فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن معه . . »

وفى (تاريخ الطبرى) ما نصه : « فولدت ـــ خديجة ـــ لرسول الله ثمانية : القاسم والطيب والطاهر وعبد الله ، وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة »[1] .

وجاء فى (الاستيعاب) :[2]

« وأجمعوا أنها ولدت له أربع بنات كلهن أدركن الإسلام وهاجرن ، فهن : زينب ، وفاطمة ، ورقية ، وأم كلثوم . .

« وأجمعوا أنها ولدت له ابنا يسمى القاسم ، وبه كان يكنى ﷺ . هذا مما لا خلاف فيه بين أهل العلم . وقال معمر عن ابن شهاب : زعم بعض العلماء أنها ولدت له ولدا يسمى الطاهر . .

وقال بعضهم : ما نعلمها ولدت له إلا القاسم ، وولدت له بناته الأربع . وقال عقيل بن خالد عن ابن شهاب الزهرى :

« ولدت له خديجة : فاطمة ، وزينب ، وأم كلثوم ، ورقيه ، والقاسم ، والطاهر ، وقال قتادة : ولدت له خديجة غلامين وأربع بنات : القاسم وبه كان يكنى . . وعبد الله مات صغيرا » .

وفى « الروض الأنف »[3] رواية عن الزبير بن العوام بن خويلد : « ولدت خديجة له : القاسم وعبد الله ، وهو الطاهر والطيب ، سمى بالطاهر والطيب لأنه ولد بعد النبوة ، واسمه الذى سمى به أولا عبد الله .

« وبلغ القاسم سن المشى غير أن رضاعته لم تكن كملت عندما مات » .

---

(١) تاريخ الطبرى : ٣ / ١٧٥ .

(٢) حـ ٤ ص ١٨١٨ .

(٣) السهيلى : ١ / ١٢٣ .

« وفيه كذلك ، فى الموضع نفسه ، أن خديجة رضى الله عنها : « دخل عليها رسول الله ﷺ ، بعد المبعث ، وهى تبكى فقالت ، يا رسول الله ، درت لبينة القاسم — تصغير لبنة ، تعنى بها بقايا اللبن فى ثديها — فلو كان عاش حتى يستكمل رضاعته ! فقال الأب ﷺ : إن له مرضعا فى الجنة تستكمل رضاعته . قالت : لو أعلم ذلك لهوَّن علىَّ . فقال ﷺ : إن شئت أسمعتكِ صوته فى الجنة . فأجابت : بل أصدق الله ورسوله » . .

وعلى هذه الرواية ، يكون القاسم مات رضيعا فى الإسلام كأخيه عبد الله ، الذى لقب بالطاهر والطيب لمولده فى الإسلام على ما نقل عن « الزبير » ابن أخى السيدة خديجة . .

وفى (الإصابة) فى ترجمة السيدة خديجة أم المؤمنين :[1]

« فولدت له القاسم وعبد الله ، وهو الطيب والطاهر ، سمّى بذلك لأنها ولدته فى الاسلام » . .

وفى (جمهرة أنساب العرب)[2] « وكان لرسول الله ﷺ من الولد سوى ابراهيم : القاسم ، وآخر اختُلِف فى اسمه فقيل : الطاهر ، وقيل الطيب ، وقيل عبد الله . . ماتوا صغارا جدا . وكان له عليه السلام من البنات زينب أكبرهن ، وتاليتها رقية ، وتاليتها فاطمة ، وتاليتها أم كلثوم . أم جميع ولده — حاشا ابراهيم — خديجة أم المؤمنين » . .

وليس التوفيق بين هذه الروايات بمتعذر ، فيما يختص بعدد أبناء محمد صلى الله عليه وسلم ، إذ يقال إن اللقب التبس بالاسم ، وجُعِلَ الطيب والطاهر ولدين مع القاسم فهم ثلاثة ، أو مع القاسم وعبد الله ، وبذلك يكون للنبى ﷺ من السيدة خديجة ولدان اثنان ، وهذا هو المشهور عند جمهور

---

(١) الاصابة : ٨ / ٦١ .

(٢) لابن حزم : ١٤ ط الذخائر الأولى .

السلف ، وهو ما يمكن ترجيحه بعد مقابلة كل تلك المرويات [1] والله أعلم .

وأما فيما يتعلق بوقت ولادتهما ووفاتهما ، فقد ذكر « ابن اسحاق » — دون إسناد — موتهما فى الجاهلية ، على حين روى غيره أن القاسم ولد فى الجاهلية ومات فى الإسلام ، وأما عبد الله فولد ومات فى الإسلام . وقد حكاه السهيلى عن الزبير بن بكار ، ونص روايته :

« الذى قاله الزبير ، وهو أعلم بهذا الشأن ، أنها ولدت له القاسم وعبد الله ، وهو الطاهر والطيب ، سمى بذلك لأنه وُلد بعد النبوة . وبلغ القاسمُ المشى غير أن رضاعته لم تكن كملت » [2] .

* * *

وأيا ما كان الأمر ، فالذى لا ريب فيه أن البيت المحمدى لم تطل فرحته بولديه ، فقد ماتا طفلين أحدهما قبيل المبعث ، والآخر فى مستهله ، ولعله مما يؤنس إلى هذا ، قوله تعالى فى « سورة الكوثر » خطابًا لنبيه الكريم :

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾

وسورة الكوثر ، مكية مبكرة ، والمشهور أنها الخامسة عشرة فى ترتيب النزول ، بين السور المكية وعددها ست وثمانون سورة . وجمهرة المفسرين على أن الكوثر نزلت فى « العاص بن وائل السهمى » أحد أشراف مكة الذين ساروا إلى أبى طالب يسألونه أن يرد ابن أخيه عن الدعوة إلى دينه .

وكان العاص — فيما نقل ابن إسحاق كذلك — « إذا ذُكر محمد ، ﷺ ، قال

---

(١) انظر مع ما نقلنا هنا : المحبر لابن حبيب ٧٩ ، ونسب قريش ، للمصعب الزبيرى : ٢١ أولى ذخائر . وعيون الأثر : ٢ /٢١٦ .

(٢) الروض الأنف ١ / ٢١٤ .

لقومه : دعوه ، فإنما هو رجل أبتر لا عقب له ، لو مات لانقطع ذكْرُهُ واسترحتم من أمره » فأنزل الله فى ذلك سورة الكوثر[1] . .

ويقول « الزمخشرى » فى تفسير آية الكوثر : « إن من أبغضك هو الأبتر لا أنت ، لأن كل من يولد من المؤمنين إلى يوم القيامة فهم أولادك وأعقابك ، وذكرك مرفوع على المنابر ، وعلى لسان كل عالم وذاكر إلى آخر الدهر : يبدأ بذكر الله ويثنى بذكرك ، فمثلك لا يقال له أبتر ، وإنما الأبتر هو شانئك المنسى فى الدنيا والآخرة ، وإن ذُكر ذكر باللعن »[2] . .

ولم يدْر بخلد ذلك الشانئ ، يوم عيَّر محمدا ، أن ذِكْرَ ابنِ عبدِ الله سوف يبقى حيًّا خالدا ما عُبِد الله فى الأرض . . .

لقد كان أقصى ما يتصوره هو والمشركون من قريش ، أن يستأثر حفيد عبد المطلب الهاشمى دونهم بالزعامة فى مكة ، وربما امتد سلطانه إلى القبائل القريبة المجاورة فيبقى له الأمر ما عاش ، ثم ينقطع ذكره بموته ، وأما أن يمتد سلطانه من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب ، ويخلد ذكره على مر العصور والآباد ، فذلك ما لم يكونوا يتصورونه .

....

وما كانت قرشية « محمد » الصميمة الخالصة ، لتهوِّن عليهم انتقال الزعامة إليه ، فإن المنافسة على الشرف بين بيوت قريش كانت على أشدها . .

رووا أن الأخنس بن شريق الثقفى أتى أبا الحكم بن هشام بن المغيرة المخزومى ، فسأله : يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال :

« ماذا سمعت ؟ ! ..تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ــ يعنى الديات ــ وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا

---

(١) السيرة : ٢ / ٣٤ .

(٢) الكشاف : ٤ / ٢٣٧ ، سورة الكوثر .

تخاذينا على الرُّكَبِ وكنا كفرسى رهان قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء ! . . فمتى ندرك مثل هذه ؟ ! . والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه »[1] . .

على أن النزاع بين بنى عبد مناف أنفسهم ربما كان شبيها بهذا أو أشد منه ، فقد كان هنالك البيت العبشمى والبيت الهاشمى ، يتنازعان ما استرده أبواهما « عبد شمس وهاشم : ابنا عبد مناف » من ميراث جدهم « قصى » الذى كان قد أوصى بما بيديه من مناصب الشرف لولده « عبد الدار » كى يلحقه بأخيه « عبد مناف » الذى شرف فى زمان أبيه وذهب كل مذهب ، وقد بُعث محمد ﷺ رسولا ، وفى بنى هاشم بن عبد مناف السقاية والرفادة ، وفى بنى عبد شمس بن عبد مناف اللواء ، ونذكر هنا ما مر بنا من خبر قيام قريش على « عبد المطلب » حين هم بحفر بئر زمزم ، كيلا يستأثر دونهم بهذا الشرف ، فهل تراهم يتركون حفيد عبد المطلب يظهر نبيا ورسولا من السماء ؟ . .

إلى ذلك المدى بلغت المنافسة على الرياسة والشرف بين بيوت قريش ، فلا عجب أن بات القوم يتعللون بانقضاء ذكر محمد بموته ويقول قائلهم مهونا عليهم الأمر :

« دعوه فإنما هو أبتر ! . . »

وأما محمد ﷺ ، فقد كان يؤمن بأن الله بالغ أمره ، وناصر رسوله ، ومخلد دعوته ، دون حاجة إلى ولد من صلب الرسول يرثها وينهض بها من بعده ، فالنبوة اصطفاء لا وراثة ، وهو ﷺ قد بعث خاتما للمرسَلِين ، لا نبى بعده .

ولست بالقائلة مع هذا ، أن محمدا ﷺ تجرد من حب البنين ، فما كانت

(١) السيرة ١ / ٣٣٨ ، رواه ابن إسحاق عن ابن شهاب الزهرى . وأبو الحكم بن هشام المخزومى ، هو الملقب فى الإسلام بأبى جهل .

فطرته السويّة بالتى تجمُّد فيها أسمى المشاعر الإنسانية وتنزع منها غريزة يرتهن بها حفظ النوع وعمران الكون . . .

ولقد فاضت عاطفة أبوته على اثنين كانا له بمثابة الولد : « على بن أبى طالب » وكانت قريش قد أصابتها أزمة شديدة وأبو طالب ذو عيال ، فقال محمد لعمه العباس ، أغنى بنى عبد المطلب :

« إن أخاك أبا طالب كثير العيال ، وقد أصاب الناسَ ما ترى من هذه الأزمة ، فانطلق بنا إليه فلنخفف عنه من عياله : آخذ من بنيه رجلا وتأخذ أنت رجلا ، فنَكلِهما عنه » . .

ووسعَّ محمد لابن عمه « على » مكانا فى بيته ، وفى قلبه ، ثم زوجه ، بعد الهجرة ، من الزهراء ، أصغر بناته وأحبهن إليه . .

و « زيد بن حارثة الكلبى » وكانت أمه سعدى بنت ثعلبة الطائى ، خرجت به صبيا لتزيره أهلها فى طيِّىء ، فأصابته خيل من بنى القين بن جسر فباعوه بسوق حباشة ، واشتراه حكيم بن حزام بن خويلد لعمته السيدة خديجة التى وهبته لزوجها قبل المبعث ، فأعتقه وتبناه ، وأذاع فى الملأ من قريش أنه ابنه وارثا وموروثا ، فصار يدعى زيد بن محمد . حتى جاء أمر الاسلام : « ادعوهم لآبائهم » فدُعى زيدَ بن حارثة ، وظل مع ذلك أثيرًا عند المصطفى مقربا إليه عزيزا عليه . . وكذلك فاضت عاطفة أبوته على ربائبه من نسائه أمهات المؤمنين« هند بن أبى هالة التميمى » ، ربيب رسول الله ﷺ ، أمه خديجة بنت خويلد ـــ وعن « هند » رُويت صفةُ الرسول الكريم ، رواها الحسن بن على بن أبى طالب عن خاله هند بن أبى هالة ربيب النبى ، أخى فاطمة الزهراء[1] ـــ وسلمة بن أبى سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومى ، وإخوته عمر وزينب ودرة : أمهم أم سلمة أم المؤمنين .

(١) الاستيعاب: ٤ / ١٥٤٤ والشفا للقاضى عياض .

وحبيبة بنت عبيد الله بن جحش : أمها أم حبيبة بنت أبى سفيان ، أم المؤمنين .

وقد ظل محمد — ﷺ — حتى أخريات أعوامه يشتاق الولد ويلتمس الوسيلة إليه ، حتى إذا وهبه الله على الكبر غلاما ، امتلأت نفسه الكبيرة غبطة وهناءة وفرحا ، لولا أن الله لم يمهل « ابراهيم » غير ثمانية عشر شهرا ثم قبضه إليه ، فحزن الأب الثاكل لفقده أشد الحزن ولم يكتم ألمه ، ولا ملك دموعه ، وإن ظل على الحزن مستسلما لقضاء الله الذى شاء لحكمة سامية ، ألا يكون لمحمد فى تلك البيئة المفتونة بالبنين ولدٌ ذَكَر ، وإن دان برسالته ملايين البشر فى مشارق الأرض ومغاربها . .

* * *

وعاشت له بناته الأربع إلى ما بعد المبعث والهجرة ، وقضى الله تعالى أن يثكل ثلاثا منهن ولا يبقى له غير الزهراء .

ولا نعلم أحدًا ممن عاصروه وحاربوه نبيًا رسولًا ، جحد حبَّه ﷺ بناته جميعا ، وإنما يستريب الجاهلون والمفتونون فى ذلك الحب ، وبخاصة ما تواترت به الروايات عن حبه صغرى بناته « السيدة فاطمة الزهراء » فيزعم مُحْدثون أنها إضافات متأخرة عن عصر المبعث ، بعد ظهور التشيع .

ولا نتعجل الآن الرد على ذلك الزعم الباطل . حسبنا — مؤقتا — أن نقدر حين نذكر حب محمد بناته الأربع ، أثر السيدات الكريمات اللواتى دخلن حياته قبل أن يغدو أبا : أمه « آمنة بنت وهب » وقد ظل ما عاش يذكرها ويأسى لفقدها ؛ و « حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية » أمه التى أرضعته ؛ و « فاطمة بنت أسد بن هاشم » زوجة عمه أبى طالب التى كانت له من بعد أمه أما ؛ و « خديجة بنت خويلد » زوجه الحبيبة التى أنسته مرارة يتمه وحرمانه ، وملأت دنياه حبا وأنسا وطمأنينة وسلاما . .